المركز القومى للترجمة المشروع القومى للتر القصك الآساسية جمة ترجمة:
ايراهيم محمد ايبراهيم ال

فرسان الهيكل القصةالأساسية

المركز القومى للترجمة إشراف: جابر عصفور - العدد: 1927 - فرسان
الهيكل: القصة الأساسية - ستيفين هوارث - إبراهيم محمد إبرأهيم - الطبعة الأولى
2013 هذه ترجمة كتاب: 111501 لقنائاة55 1116 :الآ 11212 100101115
11128 طامة 110 اعتامعا5 ننز8 تمه ه12 معطامع]5 بز 1985 © أطع 1 ءلزمه0)
10 ععأامع0) أهقوه112110 ,2012 © نمتأداكمة 1 ءتطوتمف 121ه 1161
سنانامتامه0) 116 طاتج امعصيء عصفعية نز لعطوتاطوط ترناه02) عصتطة 1 لانط
لع معدع]1 كاطع 11 [ألكظ حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومى
للترجمة شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: 77564574 فاكس:
99646814 ب062213) 181 رعقناه] 2جعم0 .51 8ز12دطدن اظآ 4 :م7
27354524 :11 جزمء.ممطة2©)[أعمنامةاموعة :أمظ

بطاقم المهسرسم, إعداد الهيئيَ العاميّ لدارالكتب والوثائق القومين إدارة
الشتون الصتيي هوارث؛ ستيفين . فرسان الوك القصة الأساسية تالرقف: سكتقين
شوارك: ترجمة : إبراهيم محمد إبراهيم ط -١ القاهرة : المركز القومى للترجمة, 5.١5
وكاس اسم -١ القصص الإنجليزية. (أ) إبراهيم إيراهيمء محمد (مترجم). (ب) العنوان
رقم الإيداع لأكماا/ ١.١ الترقيم الدولى 131-7 - 216 - 977 - 978 .ل1.5,8.8 طبع
بالهيئة العامة لشتون المطابع الأميرية تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى
تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بهاء والأفكار التى
.تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم: ولا تعير بالضرورة عن رأى المركز

The text on this page is estimated to be only 49.29% accurate

الفصل السابع: قرون حطين, الأراضى المقدسة 110100 الفصل الثامن:
قلب الأسد وبر ةناوع 0 مز موا م ل ا 1 يه 1د الفصل التاسع: مذهب الشيطان اا ا
0000 000ا#0ظ#ظ1ظ21 الفصل العاشر: قلعة الحاج 100000(الفصل الحهادى
عشر: مياه ميتة الو وس ده دم لاو وه ان مو دم و36 الجزءه الرايع: البيكل فى أوريا
ووو وود الفصل الثانى عشر: ضباط الإمدادات لجيش الحروب الصليبية 21011 الجزء
الخامس: مؤامرة واعتقال ".؟١ -/1.أ١ اطاط سياه امح ناه حمق الفصل الثالك عشر:
فيليب الأشقر وك شك وواللا ف و و ا 10 4 الفصل الرابع عشر: احتفال الغدر 00
الجزء السايس: المحاكمات /71.ا - غ6 1أ!أ ...نيت 0 الفصل الخامس عشر: ابتداع
البراءة از ز 00000 القصل السادس عشر: التضحية الجهنمية 8 ش”ش1#ط1 ملحق
الصور الحو اجا سا ا تفي مو ف لواو لل ل و ا ا تبت المراجع تود نيك ونع الف ف فطع
عد انمه و ود ولق ووو لور 1 9ظ16 1]53

١ قلعة مونتفورت: الجليل الأعلى. ؟- وأدى تكوا. - الهيكل فى القدس . --
جبل الهيكل . ه- قلعة الحاجء عئليت. 1- الخندق والأسوار فى قيسارية. /- الأسوار
البحرية فى عكا. 8- الكتدرائية الكبرى فى فيزيلى. 4- فرسان الهيكل عند آلة الحرق.
أسوار إمج - -7 7١- -٠ عملية سجن قرسان الهيكل. ١ قلعة جروس. . قرية كورتواراد
مورت. 4- اليابا كليمينت الخامس. 64- القديس لويسء ملك فرنسا . - قيليب الأشقر.
١١7 - . رأس حجرى محقور لأحد قرسان الهيكل

زخرفة الجماعة. تم اختيار بيجاسوس (الجواد المجنح) شعارا لفرسان
الهيكل. تذهب الرواية إلى أن رككة انشلنا سواه انوالههًا خلى متسل الاتسمنة قتع :هد
الهؤا دفن على بعدء اتطباعا يأن الجواد له جناحان مرفوعان. والآن فإن بيجاسوس
جواد يجناحين 'معلمو جماعة الهيكل في القدس. هيى دى بيان 11-4 روبير دى كرون
(البيرجندى) يناير ١١56 - 1155١ أفار دى بار؛ ١١59 بيرنار دى ترميلى, ١١ اغسطس
١١65 - 1165 أتدرى دى مونيارء ١7 يثاير ١905-1167 بيرتراند دى بلانكفورتء ؟ يناير
1105 - 1959 فيليب دى ميلى من نبلس» ١١395 ودو دى سان-امان» 8 أكتوير
١١١/1 95/ااا أرنود دى توروجء ٠١ سبتمير 1184-114٠ جيرار دى ريدفور: ؛
أكتثوير 1١١484 - 11494 روبير دى سابل 8»؟ أكتوير 1١55 - ١١١91١1

جيلبير ايريل» "١ ديسمير 1١١55 -١.□١١ فيليب دى بليزى: ١؟ فيراير
1١5.95 - ١150 ويئيام دى شارتر: 0" أغسطس 1519-١١١1 بذرو دى مونتاجيو:
84< يناير 1515 - 1١71715 ارمان دى بيراجور» ١؟ أكتوير 17818 - 157١ ريشار
دى بور؛ 9 مايو 45□0١/ره - 1١51409 ويليام دى سوناجء, ١١ فبراير /14□١ -
١70. رينى دى فيشيى: 2٠١ يثاير 1١50-0 -7565ا توماس بيرار. ه” مارس 5ه؟ ١ -
171/9 وليام دى بوجى: ١8 مايو 1/5١ - 1791 تيبالد جودان: ١7 إيريل ١59١ -
17915 جاك دى مولي ١4 مارس 179:7١ - 1894

تصدير لقد مرت نحو سبعمائة سنة منذ أن حل البابا كليمينت الخامس
جمعية فرسان هيكل سليمان. ومنذ ذلك الوقت رويت قصتهم عدة مرات؛ ومن المحتمل أنها سوف تروى مرات أكثرء ذلك لأنها حكاية تضم جميع عناصر التاريخ الرومانسية؛ إذ إنها وقعت فى أماكن غريبة؛ وأزمنة عجيبة» ويها شخصيات تملك أسمى المثل, كما أن بها أعمق أمثلة الفساد. وتتفشى فيها الأسرار. وبنيع الكثير من الغموض الذى يحيط يفرسان الهيكل من نقص المعلومات» ومن الكثير من الكتاب الذين أطلقوا العنان لخيالهم بالتصرف فى الحقائق المعلومة» ويذلك قدموا افتراضا تحت قناع التاريخ. ذلك أن جمعيات النخبة الغامضة السرية - كما كانت فرسان الهيكل - دائما هنا كانت تفتن عقول أولئك الأشخاص الذين لم يكونوا من أمضمافياء شلليه تقول ها سه حوقا كيف من أن يعارقية أهد. وهذا شي طين عند كتابة الروايات, أما فى التاريخ قهو..فى أحسن الفروضء يعد مضيعة للوقت, وقفى أسوأ الفروض يعد شيئًا مضللاً على طول التقخط. ولكن. لأن فرسان الهيكل كانوا ظاهرة تاريخية وليسوا ظاهرة أسطورية؛ فإن معلومات حقيقية تظهر فى دائرة الضوء باستمرار مبددة بعض الألغاز والأشياء غير المؤّكدة: وإن لم تبددها جميعا. ومع البزوغ البطىء للمعلومات من غبار المحفوظات والمكتبات: تصبح دوافع فرسان الهيكل أولئك الرجال الغرباء. الذين كانوا فى وقت من الأوقات فرسانًا ورهبائاء أمورا أكثر قابلية للفهم وتصبح القصة غير عادية أكثر من ذى قبل. لقد مر جيل منذ أن كتب آخر سرد كامل لتاريخ فرسان الهيكل. أما الموجز الذى فرضته على نفسىء فهى أن أقدمء. فى حدود المساحة المتاحة» صورة تتسم بأكبر قدر 11

من الدقة لميلاد وحياة هذه الجماعة غير المسبوقة وموتها المفاجئء إزاء
قرنين من التفيرات فى مجتمع العصور الوسطى. وإذا ما استمر البحث في فرسان
الهيكل, فإن الجيل القادم سوف يجد أن الأشياء التى أعتقد أنها حقيقية مضللة. لذا
فإني أعد هذا الكتاب مرحلة انتقالية وهو يعبر عن حالة ما يعرف عن فرسسان الهيكل
فى الوقت الراهن. ذلك أن تاريخ الجمعية على درجة من التعقيد - وأحيانا من الفموض
حتى أنك لا تكاد تجد مؤرخين يتفقان فى كل نقطة تتعلق بهم. لذا فحين كنت أقوم
بالبحث من أجل كتابة هذا الكتاب شعرت بتعاطف عميق مع توماس فولر. ففى عام
ا7794 نشر كتاب تاريخ الحرب المقدسة؛ وفى مرحلة معينة قال بياس, "يجب أن أقر
بأنه ليس فى مقدورى أن أخلص بأى اتقاق من تضارب الكُتاب". أما أنا فقد خرجت
بأكبر قدر ممكن من الاتفاق من الكتاب والدارسين الآخرين فى هذا المجال؛ وسوف
يظهر مقدار ما أدين لهم به فى ثبت المراجع؛ وعلى أن أقدم الشكر لهم جميعا. كما
يجب أن أعبر عن شكر خاص للآنسة مادلين كينسيلا وهيئة العاملين فى معهد دراسات
العصور الوسطى بجامعة فيليب فى ماريورج, بالمانيا الغربية على مساعدتهم وتعاونهم
فى تأليف هذا الكتاب؛ وأقدم الشكر لأصدقائيء بوب وهانا وأندرى موتز على ترجماتهم
القيمة وكذلك لماريان» زوجتىء على ترجماتها وأيضًا على ما تحلت به من صبر وما
قدمته من حب ومساندة. والآن» كما كتب القديس بيرنارد» من حق قرائى أن يكون
لهم الحكم على ما قدمت بما أنه من المستحيل على أن أنال رضا الجميع. وأتمنى أن
يجده القراء قصة جيدة. تمت روايتها بدقة لأن هذا هو كل ما حاوئت عمله. ستيفين
هوارث 12

رماد إلى رماد باريس ١8 همارس هكذا كانوا يسيرون, 4 + 19"1
ويتحدثون فى كل شىء بجدية لكنهم لم يكونوا يجنون أملا فى أى شىء سوى الله.
الإخوة كان مزاج المدينة متقلبا غير ثابت. وكان الناس يتكهنون بهدوء وحدة فى
الشوارع والنزلء أو في أأمن منازلهم فيما يأتى به الأصيل من أحداث. وكان فى
الإمكان سماع صوت هنا أو هناك يرتفع للثناء على فضائل الملك. والقليلون يجادلون؛
ذلك أن كلمة تقال دون حذر تعد خيانة. كان فيليب شابا وسيما - يقول الناس إنه قى
جمال التمثال ولم يكن فى مقدور أحد أن يسبر كوامن ما يفكر فيه. لقد كان جده
لويس التاسع قديسا وقد علق بعض من الرهبة والتوقير الذين كانا للويس بفيليب؛
ولكن حين كانت الرعية تفكر فى فيليب. كان الخوف يختلط بالرهبة. ذلك أن قبضته
على شعب فرنسا لم تكن نلين» وفى عصر كان الترحال فيه بطيئاء ووسائل الانتقال
ضعيفة, كان رجال شرطته ينبثون فى كل مكان ويتحلون بدرجة عالية من الكفاءة.
فعن طريق عملائه؛ تم اختطاف أحد البابوات, وتم التنديد به فى فرنسا باعتباره
يمارس السحر الأسود. وتم انتخاب بابا أخر كى يحكم ليس فى روما بل فى مدينة
أفينيون. وقبل ما لا يزيد على ثمان 713

قنوات ترقائة الذاكرة ينا ذال حية حاكر اقيض طلى كل ووو ادن فرنمنا
بلقل الملك فى ليلة واحدة. لقد كان فيليب صديقًا بارد المشاعرء وعدوا خبيثا يتسم بالشر حيث لم يكن الشتاء قد ولى» ولم يكن الربيع قد حل, إن حريا سوف يتم حسمها وهى حرب امثدت معاركها عبر سنوات سبع من التعذيب والمحاكمات والمكائد. ولم يكن القبض على اليهود وطردهم سوى تدريب (بروفة) للاستعداد لحركة أكبر. ففى فرنسا فى بداية القرن الرابع عشرء كانت هناك جماعة تضاهى قوتها قوة الملك؛ جنود يسوع المسيح الرفاق الفقراء. فرسان هيكل سليمان. فعلى ما يقرب من مائتى عام كان فرسان الهيكل, بستراتهم البيضاء المربوطة بالأحزمة ويزينها صليب الاستشهاد, يمثثون أسمى مثل المسيحية؛ فكانوا أول جماعة مسيحية. وهى إخوة من الرهبان والفرسان المقاتلين الذين كرسوا حياتهم من أجل المسيح والإيمان بالمبادئ الثلاثة وهى الفقر. والعفة, والطاعة. فيهد أن أسست الجمعية في القدس عام ١١١٨ (أو 11 قالتاريخ الدقيق غير مؤّكد. أقسموا باسم الله أن يدافعوا عن الأراضى المقدسة ويحموا الحجاج فى رحلاتهم الطويلة. وقاتلوا ياسم الرب قى كل جزء من أجزاء المترجم استخدام اصطلاح المبتدعين: حيث إن ما يقول به الهراطقة هو الابتدا ع الذى يقال إنه ضلالة وكل ضسلالة فى النار) فى فرنساء والعرب المسلمون فى جنوب وشرق البحر المتوبسط؛ وفى إسبانيا كانوا يدحرون المغارية بتودة وبعيدون الأراضى الاسم الممسيحية. وكانت منازلهم وقلاعهم من أقوى وأسلم المبانى التى عرفها ذلك الزمان؛ وكانت جيوشهم فى الوحدات الوحيدة المقائلة التى تنعم بالانضباط والتنظيم فى العالم الغربى. وكثيرا ما عمل فرسان الهيكل بوصفهم مبهعوثين يوثق بهم من جانب لويس نفسه؛ فكان أمين خزانة الفرسان هو المتلقى والوصى على العوائد الفرنسية الملكية؛ بل إنه فى إحدى المرات لجا لويس إلى أحد مفابدهم هربا من دهماء متمردة

وقضى ثلاثة أيام فى باريس. غير أن ذاكرة الملك يمكن أن تكون ضعيفة متى شاء. وبعد خمسة عشر شهرا من القبض على اليهودء كان كل قرد من فرسان الهيكل فى فرنسا قد تم القبض عليه. ومرة أخرى فى ليلة واحدة. واتهم فرسان الهيكل؛ أتباع الفروسية المسيحية أقرادًا! وجماعة, بارتكاب جرائم فظيعة؛ فندد فيليب بهم, باعتبارهم مبتدعين وكفارًا وخونة ومرابين ولوطيين» ووثنيين. لقد حدث القبض الجماعى عليهم فى عام 1701: واستمرت المحاكمات لمدة سبع سنوات. وأخيرا بدا أن النهاية قريبة. ذلك أنه قبيل عيد المبلاد لعام ؟١5١, كان البابا كليمينت الخامس قد خول ثلاثة من الكرادلة الفرنسيين بالذهاب إلى باريس نيابة عنه, لقبول الاعترافات الأخيرة لأكبر مسئولى الهيكل. وكان الكرادلة هم أرنواد نوفيلى, الذى كان فى وقت من الأوقات راهبا فى دير سيتو ونيكولا دى فرينفىء وكان سابقا متلقى اعترافات الملك: ويعد أحد مستشاريه؛ وأرتولد دى فارج؛ ابن أخى الملك. إذن فقد كانت محسوبية كليمينت فاضحة. ومع مقدم مارس من عام ١715 كان كل شىء جاهزًا؛ وفى صباح اليوم الثامن عشرء كان النجارون منشغلين بعملهم بجانب نوتر دام. وقى ظل الكتدرائية نفسه كان هناك مكان رهيب مرعب قد بنى من أجل ما سوف يجرى فى الأصيل: هناك مخصة عالية للمقصلة؛ ويجانبها منبر أكثر ارتفاعا؛ وعن كثبء هناك مجموعة من العربات الممتلئة بأعواد الحطبء وأفرع الأشجار. وعند الظهرء كان الصمت يخيم على الجزيرة. وكان مسرح الأحداث خالياء ولكن فى المدينة كان الجو معبأ بالتوجس. ويدا أن الجرائم التى نسبها الملك إلى فرسان الهيكل شىء لا يكاد يصدق. ويعلم الرب أن الملك من القسوة والرغبة فى الانتقام مما يجعله يتوسل بأى وبسيلة كى يصل إلى غاياته؛ ولا يعلم إلا الله ماذا كان داخل عقله من تدابير. ومع ذلك, فقد أطلق عليه وزراؤه اسم المدافع عن العقيدة؛ ذلك أنه عن طريق نفوذه ص انتخاب يابا فرنسى. وأدلى الفرسان باعترافاتهم. كان كل شخص قد سمع من مصدر أو آخرء أما فى هذا المساء. فلفوق يسمعون عن هذا الأمر بأنفسهم؛ زه

من شفتى المعلم جاك دى مولى. ويعد الظهيرة بوقت قصيرء حضر أعضاء
الجمهور على الجسور إلى الجزيرة ينظرون بحذر إلى الحرس المصتفين حول المقصلة.
وجاء المزيد والمزيد إلى أن امتلأت الجزيرة الصغيرة. واضطر الحرس إلى أن يبعدوا
الناس كى » يفسحوا ممرا. وخيم الصمث على الجماهير في هواء قارس البرودة» ثم
حضر الكرادلة الثلاثة فى موكب مهيبء يتبعهم أسقف سانء وعدد من الأساقفة وعدد
من رجال الدين من مراتب أدنى. واتخذوا جميعا مقاعدهم واثقين من السلطة التى
يسبغها عليهم ما يرتدونه من مسوح. وواجه رجال الكنيسة ورجال المديتة بعضهم
بعضاء كانت إحدى الجماعتين تجلس هادئة واثئقة من نفسهاء أما الأخري, فكانت تقف
متعبة تشعر بالبرد ويداخلها الشك وعدم اليقين. ثم سرت رعدة تكاد تكون مسموعة
بين المشاهدين. إذ كان الموكب الثانى يقترب: كان محاطا بحرس من الخلف ومن
الأمام, أما فى منتصف الموكب. فكان هناك أريعة أشخاص ملتحون فى ملابس بالية,
مجرد أجساد هزيلة وضعت فى الأصفاد. هؤلاء هم: هيو دى بيررى. أمين خزانة الهيكل
وزائر دار فرنسا الدينية؛ وجيفرى دى جونفيلء معلم أكيتان؛ وجيفرى دى شارنيء معلم
نورماندى؛ وجاك دى مولىء المعلم الأكبر للهيكل. قبل ذلك بسبع سنوات, ويأوامر من
البابا كان دى مولى قد وصل إلى باريس يصحبه ستون من الفرسان. ولم يكن شخصا
بارزا يمكن التعرف إليه بالنسبة لم رأوه. فجلجلت غمغمة سريعة من الصدمة والتعاطف
بين المتجمعين من أهل باريس وهم يسألون بعضهم بعضا عما إذا كان أولئك هم
الفرسان القدسيون الذين يتذكرونهم. وانطلقت أصوات أولتك الذين هم أكثر صلاية من
غيرهم وصاحوا - خونة» مبتدعون, كفرة - ولكن حتى أولتك قد أسكتهم الصمت
الرهيب الذى خيم على الجماهير التى تشاهد الحدث. وصعد السجناء سلالم المقصلة
ببطء وألم وهم يحملون أصفادهم ووقفوا جنبا إلى جنب. وصعد المنبر واعظ ينطق
باسم الوفد البابوى ويدأ خطبته. وتحدث أولا عن حماس البابا فى الدقاع عن الكنيسة
فى مواجهة التدنيس الذى يمارسه المبتدعون؛ وذكر سامهيه بنزاهة بل وغيرية الملك؛
ثم أخذ يسرد القائمة البائسة من الجريمة والخطيئة. وبينما كانت القائمة البشعة تقرأ.
كان العمال بجانب المقصلة يعدون أربعة خوازيق للحرق ويكدسون 16

الحطب حولها. فإذا! عاد السحناء عن اعترافاتهم: فهم يعرفون ثمن ذلك.
واستمع هيو دى بيرو وجيفرو جونفيل بفتور وهما يشاهدان الركام المتزايد من الحطب. أما دى شارنى, فوقف بثبات تحت نير أغلاله. ومولى فقط هو الذى سدد نظرة ازدراء إلى الكرادلة والمتحدث ياسمهم. وأخيرا بلغ خطاب المتحدث ذروته. وأعلن أن السجناء اعترفوا بأتهم مبيتدعون. إن إنهم دنسوا الصليب المقدس ونكصوا عن يمينهم المقدس؛ وبدلاً من أن يقاتلوا من أجل المسيح: عملوا بكل طريقة خبيثة ماكرة يمكن تخيلها من أجل عدو المسيح. غير أن رحمة البابا كانت عظيمة وإذا ما أكد المخطئون فقط اعترافاتهم؛ فلسوف يتلقاهم أيونا المقدس فى الكنيسة مرة أخرى» وسوف يتعهد خادمه فيليب بأن يبقى الفرسان فى سجن دائم بقية حياتهم على الأرض. وختم الواعظ قولهء. أما بالنسية للمبتدعين المرتدين فلا يوجد سوى عقاب مناسب؛ وأشار إلى الخوازيق الموجودة أسفل. واتجه كل انتباه الناس إلى المقصلة بينما كان السجناء يطلب منهم الاعتراف العلنى. وأكد دى بيرى ودى جينفيل على ذنبهما؛ ولا كانا يتحدثان بصوت خفيض فلم يكد أحد يسمعهما. ثم تقدم جيفرى دى شارنى وجاك دى مولى إلى الإمام نحو مقدمة المقصلة. وتكلم مولى. وقال: "صحيح إنه فى يوم فظيع كهذا وفى لحظات حياتى الأخيرة. أنى سوف أكشف عما فى الأكاذيب من شرء وسوف أنصر الحقيقة:؛ لذا أعلن أمام السماء والأرض وأقسم حتى لو أدى ذلك إلى عارى الأبدى؛ أنى ارتكبت أكبر الجرائم". فاشرأبت الأعناق كي يسمع الناس ما يقول. وحملق الكرادلة بدهشة وقلق؛ إلى بعضهم بعضا - فهذا أكثر من التأكيد البسيط الذى كانوا ينتظرونه.
واستمر مولى في الحديث بقوة وصوت مرتفع: ولكن هذه هى جريمتى: أننى وافقت على الاتهامات التى ألصقت بكل الشر على جماعة يجبرنى الحق اليوم أن أعلن أنها بريئة. ولم أقر بالتصريح الذى طلب عنئ إلا 17

كى أنجو من التعذيب وال معاناة وكى أثير شفقة من جعلونى أعانى. ذلك
أنى أعلم صصنوف العذاب التى كابدها أوائك الذين واتتهم الشجاعة كى يتراجعوا عن
مثل هذه الاعترافات: غير أن المنظر البشع الذى أراه أمامى لا يمكن أن يجعلنى أؤكد
كذبة أولى بكذبة أخرى. لذا ففى هذه الحالة البائسة أتخلى عن الحياة عن ليب خاطر؛
فهى صارت بالقعل كريهة لدى. فما جدوى هذه الأيام المزينة بالنسبة لىء إذا كان
الكذب هو ما جعلنى أفوز يها ".ْ فاندقع زحام التاس تحو المقصلة بصيحة عظيمة؛
وقفز الحراس كى يصدوهم إلى الخلف. وقفز الكرادلة إلى أعلى فى فزع واضطراب
وأمسك مدير السجن ورجاله بالسجناء المحطمين البائسين ودفعوا بهم إلى أسفل
درجات المقصلة كأنهم كوم من الأجساد. وتشكلت جماعة جديدة من السجناء ورجال
الكنيسة داخل دائرة من الحراسء واندقعت من خلال الدهماء التى تزآر وعادوا إلى
الجسر ثم إلى المدينة. وكان رد الملك مباشرا: أعرقوهم. ولم يكن فى سليلة نهد
التسديق غلى حرق اللإتذعين سوى البابا. أما مندوبوه فلم تكن لديهم السلطة. لكن
البابا كان بعيدا في أفينيون. وفى كل الأحوال؛ فإن فيليب لم يكن خادمه - بل إن البابا
هو الذى كان ألعوبة الملك. فاتتمى الكرادلة وهم يشعرون باللهانة. وفى ذلك المساء
نفسه تم جر دى مولى ودى شارنى سرة أخرى إلى نهر السين. وأحاط زحام شديد بكل
خطوة من خطوات الطريق؛ ويدا أن باريس جاءعت عن بكرة أبيها كى تشهد المشهد
الأخير. وعلى جزيرة فى السين بالقرب من نوتر دام» نصبت محرقتان على عجل. وتم
تقييد السجينين بالخوازيق» وهما يصرخان ببراعتهما وبراءة الجماعة بأكملها. ولم يكن
شىء معهم, إذ لم تستقطع توسلات أصدقائهم أو تهديدات رجال الملك زحزحتهما عن
موقفهماء يبل هما الذان طلبا الإسراع بالنهاية. ولكن حتى آخر لحظة:؛ ظل وزراء الملك
يحاولون الحصول على اعتراف: وقبل إيقاد النار فى الخشب, تم تكديس الفحم الحى
حول الرجلين. وأمام الآلاف من المتفرجين تم سلقهما وهما على قيد الحياة - ومع ذلك
ثابرا وهما يهتفان ويصرخان ضد الظلمء ويطنان براعتهما ويلعنان البابا والملك
باعتبارهما أدوات 18

وحين لف الدخان الخائق فيليب. حملق بلا مبالاة فى الجسدين اللذين كانا
يتلويان وأصفى إليهما وهما يصبان كراهيتهما له. ويزاران بمحبة المسيح ومحية
الصدق. وأخذ يتفرجء وهو ثابت لا يتفير كالحجرء حين كان الخشب يشتعل واللهب
يتجمم؛ وبقى إلى أن لم يبق شىء سوى كومين من الفحم المحترق المتزايد مع هبوط
الليل على باريس. عندئذ فقط. غادر المكان؛, عائدا إلى قصره: ريما كى ينام. ووضع
الحراس على الجسر المؤدي إلى الجزيرة. ولكن إذا كان فيليب قد ناىء فإن آخرين
كانوا يقظين. ذلك أنه فى أثناء الليل» انسل بعض الرهبان إلى النهر. وسيحوا حتى
الجزيرة. وهناك تحت جنح الظلام فتشوا فى الرماد والفحم الساخن, وعادوا سباحة
وهم يمسكون فى أفواههم العظام المرة اللاذعة لمعلم نورماندى ومعلم آخر أكبر. 19

الجزء الأول الحرب الصليبية الأولى وميلاد الهيكل 1٠١90-١١١84

فى الأسبوع الأخير من توفمير عام ١٥0٠ بدأ عصر جديد فى أوريا: عصر الحروب الصليبية. فلمدة سبع سنوات منذ انتخاب البابا إيريان الثانى على الكرسى المقدس عام ١84٠ عمل بصبر من أجل إعادة توحيد المسيحية الغريية. ولم يكن الصير وحده هو الأمر الضرورى: بل اللباقة أيضًاء لآن جريجورى السايع - ألمع أسلاف إيربان المباشرين - ادعى مرارا السيادة الزمنية على جميع ملوك المسيحية؛ واعترض الكثيرون منهم على ذلك. كما لم تكن وراثة إيربان أكثر سهولة بوجود منافس - هو جيلبيرت, المعادى للباباء الذى كان يحكم فى روماء حكما غير شرعى منتخبا من جانب أعداء جريجورى الميت. لكن ذفوذ جيلبيرت كان محدودا؛ وتمكن إيربان ببطء عن طريق المثابرة والدبلوماسية والجهد والتنظيم والاستخدام المستمر للحكمة من القوز بالولاء الروحى لجميع مسيحيى الغرب تقريبا. وبعد أن فاز بهذا الولاء كان له أن يستخدهمه. لقد كانت المسيحية الفريية لقرون, منقصلة عن مصدرها أى مدينة القدس المقدسة. ففى عام 54" ميلادية استولى جيش مسلم على المدينة: وظلت منذ ذلك الوقت خاضعة للإسلام. وقوق ذلك لم يكن مسيحيى الشرق الأرثوذكس يتطلعون إلى البابا للزعامة الروحية وإنما إمبواطور بيزنطة فى القسطنطينية؛ بل حتى قبل فتح القدس, كانت طوائف غير أرثوذكسية مختلفة مبتدعة قد نشأت لم تعترف بالبابا أو الإمبراطور. وكان

من أهمها النسطوريون: واليعاقبة والأقباط. والنسطوريون كان مقرهم سورياء ولديهم بعثات تبشيرية امتدت شرقا حتى الهند. والصين وفصلوا طبيعة المسيح الروحية عن الإنسانية؛ أما اليعاقبة والأقباط» فقد أكدوا على طبيعتها الروحية إلى الحد الذى أنكروا معه إنسانيته تقريبا. وقد نشأ كل من اليعاقبة والأقباط عن طائفة مبتدعة. هى التوحيديون التى أسست في القرن الخامس؛ وكان الفرق الرئيسى بين الاثنين هى أن اليعاقبة» مثلهم مثل النسطوريين: مقرهم سورياء أما الأقباط فكان مقرهم مصر. وكان هناك آخرون المانويون والغنوصية:, والأرمن» - فمع مزيج الكنيسة الشرقية. وجماعات المبتدعين والأعداد الغفيرة من اللسلمينء لم يكن هناك أى جزء فى شرق المتوسط يمكن للبابا فيه أن يزعم السلطة لنقسه. ووجد معظم المسيحيين الشرقيين هذا الترتيب ترتيبًا مرضيًا تمامًا. ذلك أن الأرثوذكس كان لهم مدافع من غير رجال الدين متمثل فى الإمبراطور البيزنطي؛ الذى كان يمثل بالنسبة لهم رمز الوحدة المسيحية؛ ويعد سقوط القدس وجدوا هم والمبتدعون مما كان مبعث دهشتهم إلى حد ماء أن الدكام المسلمين الكفار يتصقون بالعدل والتعقل. إذ كانت الضرائب أخف بكثير مما كانت عليه تحت السيطرة المسيحية» وطبقا لشريعة النبى محمد أعطى أفل الكتاب - المسيحيين واليهود - حرية العبادة. ولدة ثلاثة قرون ونصف قرنء على الرغم من نويات من الحرب وأحيانا الاضطهاد المتبادل» وجدت الشهعوب التي تتبع الديانات المختلفة أسلوب حياة محتمل؛ ثم بدأت الإمبراطورية البيزنطية تنمى مع فتح جيوش الأباطرة لتالماتياء وجنوب إيطالياء وسورياء بل ووصلت جنويًا حتى قيسارية. ولم تكن مثل هذه التطورات نتهنى االكثير لمعظم الناس فى أوربا. إذ كانت المواسم هى التى تتحكم فى الحياة, وكانت الحياة بالنسبة لغالبية الناس كفاحًا دائمًا مرير. ذلك أن العبودية كانت ما تزال موجودة فى عام ٠٠٠١ وكان القلاحون. أى الأحرارء حالهم أقضل قليلا من عبيد الأرض؛ وحتي الأغنياءء الذين لم تكن ثروتهم مالا وإنما أشياء عينية تقريبا كانت حياتهم بالنسبة لناء حياة صعبة قاسية خشنة غير 24

تقرة. فكانت المستوطنات صغفيرة تفصلها مساحات شاسعة من الفابات؛
وكان السفر خطرا بالغ البطء شديد الصحوية. فكان الشخص يعيش ويموت فى امقرية
التى ولد فيها. وكانت ثلاث قوى كبرى هى التى نتحكم فى حياته: الحاجة إلى الطعام؛
الذى يقتل فى الفابة, أى يجلب بطريقة غير كفأة وخشنة من التربة؛ وواجبه نهو السيد
المحلى مالك الأرض؛ والحاجة إلى سلامة نفسه. ذلك أن المسيحية بالنسبة الكثيرين
من الناس, قبل الألفية كانت ديانة تتعلق بالذنبء والإله المسيحيى كان إله غاضب
رهيب. وكان هناك أناس أمثال القديس أوغسطين يفهمون جمال محبة المسيح؛ ولكن
في عام ٠٠. كانت غالبية الناس من البسطاء القساة يعتقدون أن المسيح فى لحظة
يمكن أن ينزل وينتقم من هذا العالم الخاطئ. ولكن حين مرت الألفية دون أية كوارث
واضحة» جلب القرن الحادي عشر المزيد من الشعور بالراحة. ففى النصف الأول من
القرن جاء التنظيم الاجتماعى أكثر رسمية وأقل ارتكازا على الجهلء والغريزة والحاجة
المباشرة. ومنذ إنشاء بلدة كلونى عام 4٠6١ ميلادية. حاول الرجال فى الكنائس
والأديرة تحرير أنفسهم من تدخل العلمانيين وعرف المجتمع الإقطاعى فى القرن
الحادى عشر على أقل من ثلاثة نظم أى طبقات اجتماعية متمايزة - الفلاحين والتبلاء
ورجال الدين. ومع مقدم ٠١٠١ تقريبا كان من الممكن إشباع وأحدة من الاحتياجات
الأساسية: ذلك أن كل شخص تقريبًا كان لديه ما يكفى كى يأكل. لكن السلام كان ما
يزال وضعا لا يمكن تخيله. فكلما زاد الطعام زاد الناسء وبينما كان الفلاحون يعملون
ورجال الدين يصلون, كان النبلاء والفريسان يتقاتلون. وبعد دخول الفارس بشكل
رسمى وطقسى إلى طور الرجولة والانتماء إلى طبقة الفرسان كان الواجب الوحيد الذى
يعترف به هو الصراع والقتال. وكان معنى ذلك» نظرياء أن يحمى السكان العزل
ويدافع عنهم في مواجهة أى جيش أجتبى معاد. أها من الناحية العملية فبما أن
الفزوات لم تكن حدثا يوميا يكون معنى ذلك عمليا مقاتلة أى شخص يطاله السيف.
فالفارس لم يكن يتدرب إلا من أجل الحربء وكان فى كل خطوة يتعلم أن كل شىء
دون مستواه. إذ إن السلاح والدرع والجواد وضعته بشكل 25

باد للعيان فوق الناس العاديين. وتدريبه يتطلب متنفسًا. ومع أن الصيد أ
القنص يمكن أن يوفر ظروف المعركة فإنه مجرد محاكاة؛ ومن الضرورى وجود مناوئين
من البشر. وفوق ذلك: فإن نمو توريث الابن الأول أعطى كل جيل من الأجيال
المتعاقبة من نبلاء القرن الحادى عشر عددًا متزايدًا من الأبناء الأصفر سنًاء المعدمين»
وبالتالى المفلسين, الذين لا يملكون سوى حرفة واحدة: الحرب. وفى محاولة الكتيسة
الحفاظ على قدر ولو ضئّيل من النظام؛ أدخلت "سلام الرب" الذى أعطى حصانة من
الهجوم للفلاحين, ورجال الدين, والأماكن المقدسة؛ وى "معاهدة الرب" التى منعت أى
قتال فى أيام العطلات الدينية (يوم الأحد) وفى أثناء الصوم الذى يسبق عيد القيامة.
ولكن, للأسف لم يكن كل شخص مستهدا للقتال حسب جدولء فسقطت نظرية السلام
أمام ممارسة العنف. فوجد الكثير من الناس من جميع الطبقات مهريا من أسلوب الحياة
المقيد بأن يصبحوا حجاجا ويزوروا واحدا أو أكثر من المراكز الخمسة التى توجد يها
أضرحة مسيحية - القديس جيمز فى كومبوستيلاء والقديس ميكل فى مونتى
جارجانو, وروما والقدس, والقسطنطينية. وكانت الرحلة إلى أى من هذه الأماكن
تستقرق أشهراء أما الجولة إلى جميع هذه الأماكن من الممكن أن تستفرق سنوات؛ ولهذا
السبب جزئيا أصبح القيام بحج طويل حكما مقبولا على الأشرار الخارجين على
القانون. إذ لم يكن الخارج على القانون يكفر عن خطيئته فحسب, وإنما أيضا يتخلص
المجتمع الذى حكم عليه منه لمدة طويلة. بل كانت هناك فرصة جيدة بالا يعود مطلقا
على قيد الحياة. وكانت الكنيسة تبارك وتشجع على رحلات الحج سواء منها الطوعية
أى الإجبارية؛ لكن هذه الرحلات كانت أيضا تقوم بمهمة التذكير بمشكلتين غير سارتين.
أولاء كان السبب فى قداسة القسطنطينية هو أن بهذه المدينة» وهى أكبر من أى
عاصمة أوربية عشر مرات, الآثار الرئيسية للمسيح من تاج الأشواك وقطعة قماش يقال
إنها تحمل آثار وجه المسيح. ولا بد أن الكثيرين من البابوات حلموا ياليوم الذى تأتى
فيه هذه الآثار إلى روماء لأن وجودها فى القسطنطينية يؤكد على الخلاف بين
الكنائس الشرقية والكنائس الغربية. وفى منتصف القرن الحادى عشر أصبح الشجار بين
الاثنين أكثر سوء من المعتادء وحرمت كل من روما والقسطنطينية هى الأخرى من
الكتيسة. 26

وكانت المشكلة الثانية توجد خلف القسطنطينية. إذ كان فى وسع الحجاج المسيحيين الذين يصلون إلى القدس زيارة الأضرحة المقدسة, لكن ذلك يتم بعد دفع ضريبة للمسلمين. لقد كان السفر الدولى فى القرن الحادى عشر مسألة سهلة محددة بعقايبس الماضى. وفى عام :١١44 حين انتخب البابا إيريان الثانى كان الإسلام قد حكم القدس لأربعمائة وخمسين سنة. وأولتك المسيحيون الغربيون الذين كان هذا الأمر يهمهم تحملوا ذلك الانفصال لأنهم لم يكن فى إمكانهم فعل الكثير. لكن, هم اقتراب القرن من نهايته؛ بدا أنهم يمكنهم فعل شىء ما؛ واستعد إيريان كى يعلن خطته ولم تكن الفكرة القائلة بأن القدس يجب أن تخص المسيحية دون غيرها فكرة جديدة. ففى عام 1١4 استولى جيش فارسى على المدينة» كي يطردهم الإميراطور البيزنطى هرقل الأول بعد ذلك بخمس عشرة سنة؛ وفى التصف الثانى من ذلك القرن, حاول إمبراطوران آخران, هما نيسفوراس فوكاسء عام 414 وجون تزيمسيس عام 04 تكرار ما أنجزه هرقل. واستخدم كلاهما خطا دقيقًا من الكلام الرنان: إذ قال نيسفوراس: "احذروا يا من تعيشون فى رمال الصحراء! سوف أتحرك ضد مكة وأقود جماعات فائلة من المحاربين كظلام الليل. وسوف استولى على هذه المدينة كي أشيد هناك عرش الرب. ثم سأتجه إلى القدسء؛ وسوف أفتح الشرق والغرب وسوف أشيد فى كل مكان رمز الصليب". ويعد ذلك بعشر سنوات قال جون تزيمسيس: "إن رغبتنا هى تحرير الضريح المقدس من فظاعات المسلمين.' ولكن على الرغم من أن كليهما حققا نجاحا كبيرا - إذ كان نيسفوراس قائدا بارزا - لم يحقق أيهما الهدف النهائى, وظلت القدس فى يد المسلمين. ويعد ذلك يأقل من خمسين سنة فى عام /١١4٠ بدأت المسيحية الفربية استعراض عضلاتها. حين ضم النبلاء والمغامرون الفرنسيون والإسبان قواتهم ضد المسلمين فى إسبانيا. وسرعان ما اكتسب الصراع مكانة الحرب المقدسة, وشعر الجنود بالإغراء فى الاتجاه جنويا أملا فى أراضى جديدة والوعد بصكوك غقران من البابا. واستمرت الحرب فى إسبانيا على مدى القرن الحادى عشر. ومع نهاية القرن لم تكن الجيوش المسيحية أبعد من بلدتى خويسكا ويارياسترى فى أرجون على بعد ما

يقرب من خمسين ميلا من حدود فرنسا الحالية. ولم يكن ذلك مسافة
كبيرة لكنها كانت تكفى كى تجعل المزيد من التقدم يبدى أمرا ممكنًا؛ وتظهر أن
المسلمين يمكن أن يهزموا. ويمجيء عام ٥١٠7 كان البابا جريجورى السابع يحلم
بالسيادة التامة على الشرق والغرب. وداخل عقله نهضت روما جديدة, كى يحكم العالم
من خلال الدين. عندها ستعود القسطنطينية إلى الحظيرة؛ وتصبح القدس مسيحية
مرة أخرى؛ وينحنى كل ملك من ملوك البلاد المسيحية للحبر الأعظم فى روما. غير أن
جريجورى لم يكن دكتاتورا محتملا؛ لم يكن طموحه حكم الجسم السياسى - وكان
دائما يقول هذا عمل الملوك والوزراء. وكان يمتلك اعتقادا لا يتزعزع بأن الأمور
الروحية يجب أن ترشد حياة كل إنسان: وأن وحدة المسيحية يجب أن تكون واقعاء
وليس مجرد مثال. لقد أظهر بهذا نزاهة تامة, نزاهة اعترف بها أعداؤه. ولكن حين
توفى عام ,»186٠ كان له أعداء كثيرون, لأن الحماس الحار والبساطة اللذين كانا
يتحلى بهما جعلا منه سياسيا سيئًا. وربما كان من حسن حظ الكرسى المقدس أن من
خلف جريجورى شخص ضعيف لا لون له. هو فيكتور الثالث. ولم تدم مدة فيكتور أكثر
من عامين - فقد مات فى سبتمبر عام 1١1 - لكنها أتاحت وقتا للكثير من القضب
والحنق اللذين نجما عن اتجافات جريجورى التى لا تلين كى تخبو. ومع ذلك ظل أعداء
جريجورى يؤيدون "البابا' الخاص بهمء وكان على من خلف فيكتور أن يواجه الكثير
من المشاكل. لم ينعقد مجمع خاص في شتاء عام /١٠١»ء ولم ينتخب إيريان الثانى إلا
فى مارس من عام 188٠ فى البداية لم تكن لديه أية فكرة فى أن يحقق حلم
جريجورى؛ إذ كانت الأولوية يجب أن تولى للمسيحية الفربية, التى ما زالت تمزقها
ربود القعل المضطربة على مطالب جريجورى بأآن يخضع الجميع للبابا. وكان إيربان»
مثل كانت طبيعة إيريان تتسم بالتأمل والصبر؛ ولم يكن يسعى إلى تحقيق أهدافه عن
طريق الإجبار الروحى وإنما عن طريق الإقناع. كان طويلا وسيما مهذباء ولطيفاء مع

أنه كان قاسيًا ولا يتزعزع بطريقته الخاصة. وكان يوحى بالاحترام ولا يطلب الإخلاص؛ وهكذاء فحسب الطبيعة البشرية, فاز أخيرا بإخلاص الكثيرين واحترام الجميع. إن تاريخ مولده غير مؤكد لكنه حوالى عام ١٠4 وهو ينحدر من عائلة دى لاجيرى النبيلة فى شاتيون- سير- مارن وتلقى تعليمه فى سان بروئو. ويعد أن وصل إلى منصب مساعد الأسقف فى كاتدرائية ريمز وهى بعد شاب أنضمم إلى الدير فى كلونى. فى ذلك الوقت؛ كان هذا الدير قد أصبح أحد أعظم الأديرة فى الغرب, إذ كان يدعم ويشجع على رحلات الحج إلى جميع الأماكن المقدسة ويعارض أى تدخل من الساطة الزمنية فى الحياأة الدينية. وظل كلا هذين التأثيرين مع إيربان» وكلاهما ظهرا بشكل درامى مثير عام ١٠90 , كان الأول فى مارسء فى بياتشينزا قى شمال إيطاليا. تماما بعد سبع سنوات من انتخابه كان هذا أول مجلس كبير دعا إليه إيريان. وقد شكل هذا التأخير قدرًا من الصعويات التى كان عليه أن يواجهها؛ وكان تصرفه يعبر عن قدر من القوة التى كان يستشعرها لأنه فى ذلك المجلس حرم هو ورجال الدين المجتمعون رسميا البايا المزعوم وأتباعه من الكنيسة. عدا عن المنافسة والاتقسام فى البلدان الممسيحية كان هنرى الرابع فى ألمانيا يتبنى انتخاب جيلبيرت وكان جيلبيرت أكبر أعداء جريجورى؛ ولم يكن لأى أحد من كلونى ليقبل مثل هذا التدخل فترة أطول مما ينبغى. فى أثناء مجلس بياتشينزاء تم وضع الأساس لثانيى إنجمازات إيربان العظيمة - وما كان سيقوم به سيكون له أثر مباشر فى حياة الملايين من البشر لما لا يقل عن مائتى عام. لقد حضر مبعوثون من الشرقء إلى المجلس - ممثلون للإمبراطور البيزنطي إليكسيوس كومنوس. ذلك أن أحد أعمال إيربان الأولى فى منصبه كبابا هى أن يحل الإمبراطور من الحرمان الذى فرضه عليه جريجورى؛ والآن يمكن للبلاد المسيحية جميعا أن تستفيد من العلاقة الناتجة عن ذلكء قبل ذلك بعقد. فى عام ,١١86 29

كان بطيئاء فكانت هناك حاجة إلى مزيد من الدعم إذا كان لجيوش الكنيسة الشرقية أن تنجح. لذا تحدث مبعوثو الإمبراطور بطريقة مؤثرة عن الإخطار والصعويات التى يواجهها المسيحيون فى الشرقء وطلبوا المساعدة من الفرب باسم الوحدة المسيحية. كان إيربان واليكسيوس يزن كل منهما الآخر من حيث البراعة الروحية. وكان كل منهما على وعى بقدرة الآخرء وكل منهما يدرك قيمة التعاون. واستطاع إيربان على وجه الخصوص أن يرى ميزة عملية مباشرة تتحقق من وراء الدعم العسكرى» أى السلام؛ أو درجة من السلام لأوربا. وبدلا من محاولة كبح جماح الفرسان الفربيين الميالين للحرب؛ يمكنه تشجيعهم بنشاط ويتخلص منهم ويدلا من تمزيق الغرب, يمكنهم القتال - فى الشرقء - من أجل الغرب؛ من أجل وحدة المسيحية؛ من أجل خلاص أرواحهم؛ كما توجد قرص الكسب المادى. لقد كانت فكرة ذكية. وبعد مجلس بياتشينزاء فى صيف ,1560٠ كان من المقرر أن يذهب إلى فرنسا؛ وهناك قرر فى مسقط رأسه. أن يوجه دعوته العظيمة إلى المؤمتين. ومن بداية أغسطس حتى نهاية أكتوير» قام بجولة فى جنوب وغرب فرنسا. فانتقل من فالين إلى لى يوى إلى افيتيون وسان جيل, ثم شمالا إلى ليون ويرجاندى. وحين كان فى بوى أعلن أن مجلسا كبيرا آخر سوف ينعقد فى كليرمون فى الجبل الأوسط الكبير ابتداء من منتصف نوفمبر. ومع تقدم الجولة, أخذت شائعات غريبة تسرى - لقد رأى الناس ألوانا متلألئة فى السماء. أعداذا هامّلة من النجوم بل النيازك. وحتى ذلك الوقت,ء لم يكن أحد يعلم ماذا سوف يخرج من المجلس؛ ولكن فى كل أنحاء فرنسا فى ذلك الصيف أخذت حالة الترقب تنمو أكثر فأكثر. وفى الأسبوع الأخير من أكتوير زار إيربان كلونى مرة أخرى كى يرى مرة أخرى رئيس الدير المسن هيوء - لقد كان رئيسا للدير منذ عام 1149 - ولكى يجمع المزيد من المعلومات عن الأراضى المقدسة من حجاج كلونى. ثم, بعد الصلاة عند مقبرة 30

القديس مالوء أقدس رؤساء دير كلونىء ذهب أخيرا إلى كليرمون؛ وفى 16 نوفمبر بدأ المجلس. من المؤكد أن البابا إيربان كان لديه حس مسرحى. فى الأيام التسعة الأولى قش رجال الدين ثلاثمائة قضية مختلفة واتخذوا قرارات رسمية. وتمت تلاوة القسم ا ضد الإتجار فى المناصب الدينية» وزواج رجال الكنيسة:؛ وعدم استحواز غير رجال الكنيسة على المزايا الكنسية. تجددت المهلة التى منحها الرب وامتدت, ووصاوا إلى نقطة كبيرة الأهمية» حين تم حرمان الملك قيليب الأول من الكنيسة يسبب زواجه الذى كان يعد بمثابة الزنا من كونتيسة انجو. لكن إيربان لم يقم بمركته حتى اليوم الأخير يوم الثلاثاء 4؟ نوفمبر. فى ذلك الوقت كانت الجموع فى كليرمون هائلة جدا حتى أنه لم يكن هناك مكان واحد يتسع لهم جميعا. فانتقل المجلس من الكتدرائية إلى كنيسة نوتر دام دى بور فى الطرف الشرقى من المدينة. فى خارج الكنيسة. كانت هناك مساحة كبيرة مفتوحة فتجمع الجمع هناك. وكان بين الجموع راهب يدعى روبير. وبعد ذلك ببضع ستوات» دون ما رأه وسمعه هناك فى ذلك اليوم الخريفى فى كليرمون بتحريض من رئيس الدير الذى يقيم فيه. وكان يكتب من 0 لذا فإن صا قاله عن حديث إيربان لم يكن ربما دقيقا دقة مطلقة, لكنه يتفق اتفاقا كبير؟ مع امروايات الثلاث المعاصرة له فى جميع النقاط الرئيسية. إذ يقول إن البابا حدث الناس: 'بفصاحة مقتعة. ذلك أن إيربان أوضح أنه أم يكن يتحدث فقط إلى المجتمعينء ولم يكن يتحدث فقط إلى فقرنساء بل إلى جميع أمم الغرب المسيحية. وتحدث عما لهم من قداسة خاصة: وعن التهديد الكبير الذى يتمرض له إخوتهم وأخواتهم فى الشرق. وكان وصفه لسلوك العرب المسلمين يقصد من ورائه إثارة اشمئزاز وفضب حتى أكثر الناس تخليا عن المبادى: إنهم يعبثون بمذابحنا ويدنسونها؛ ويختنون المسيحيين ويسكبون دم المختوتين على المذابح أو فى جرن المعمودية. إنهم يأخذون المسيحى ويبقرون معدته. ويربطون أمعاءه فى خازوق؛ ثم يطعنونه برمح ويجعلونه يجرى, إلى أن تخرج أحشاؤه ويسقط على الأرض هيتا. 34

لقد كان هناك المزيد على هذا النحوء وأكد إيربان على أن هذه لم تكن أحداثا منعزلة. ففى كل أنحاء الشرقء من القدس حتى بيزنطة: تقع مثل هذه الأحداث, ولا يبدى أن أحدا يكترث. ووضع أمامه مثال شارلمان: ورجاهم أن يتذكروا فضائل أجدادهم. واقتبس كلمات المسيح: "إن من يتخلى باسمى عن منزله وإخوته وأبيه أى أمه وزوجته أو أبنائه وأرضه. سوف يتلقاها مضاعفة مائة مرة وسوف يحيا حياة أبدية" , وتوسل إلى الناس أن يتناسوا ما بينهم من شجار - فمدينة القدس الملكية المقدسة تستصرخهم طالبة الإنقاذ. وصاح قالا: "خذوا طريقكم إلى الأراضى المقدسة وانتزعوا التايوت المقدس, وانتزعوا الآراضى من هؤلاء القوم البشعين . لم يكد ينتهى حتى صاح الجميع صيحة رجل واحدء "هذه إرادة الرب: هذه إرادة الرب". ويبدو من رواية روبير أن البابا نقسه أخذ مما بالاستجابة من قوة ووحدة. غير أنه كان خطيدا حقيقياء واستخدم الإجابة على الفور. فقال: “كيف لهذا العدد الكبير أن يتحدث كشخص واحدء ما لم تكن الروح القدس حاضرة فى قلويهم' ودعا جميع الراغبين فى أن ياخنوا الصليب ويتقدموا على الفور ويفعلوا ذلك. غير أن عقله النشط أمكنه التنبؤ بوقوع مشكلة في هذا الحماس الشعبى الشديد فعاجل بالقول إن أصحاب الأجساد القوية يمكنهم التطوع. أما كبار السن والضعفاء فعليهم أن يحجموا ولا يجب أن تذهب النساء دون أزواجهن أو إخوتهن؛ وعلى القساوبسة أن يطلبوا الإذن من أساقفتهمء أما غير رجال الدين فيجب أن يطلبوا مباركة القساوسة. وعلى الرغم من هذه القيود فإن رد الفعل على كلماته كان أكبر بكثير مما توقع هو نفسه. فتم إعداد مخزون من صلبان القماش كى تحاك فى ملابس المتطوعين, وقبل الغروب كان المخزون قد استخدم بالكامل. ويدا أن الحديث جاء كالوحي؛ واستعرت كل كلمة منه فى أنحاء فرتسا. وجاء الناس من كل فج عميق كى يقاتلوا. ذلك أن نجاح نداء إيربان يعد مثالا بارزا على قوة اتفاق الأحداث في تاريخ العالم. كل شىء كان مناسيًا: حالة الناس 32

المزاجية. والظروف التى عاشوا فى ظلهاء وكذنك احتياجاتهم ومعتقداتهم.
فلم يكن إيربان إلا العامل المساعد. لقد تغير التاريخ فى مجرى ذاك الأصيل الخريفى البعيد. ومع ذلك؛ فبعد النشوة الأولية. أصبح من الواضح أن هناك حاجة إلى قدر كبير من التنظيم. لقد تقرر أن رحيل الجيش سيكون فى ١١ أغسطس عام ,157٠ بعد الحصاد. ولكن بعد كل هذا الفوران والفليان» كان هناك الكثيرون الذين لا يرغبون قى الانتظار كل هذا الوقت. كان على القفرسان واللوردات الذين أخذوا الصليب أن ينتظرواء إذا كان لهم أن ينظموا شئونهم لكن بالنسبة للفقراء والمعدمين» والجهلة فإن تاريخا يبعد بتسعة أشهر كان بعيدا كالموت - أو أبعدء لأن الموت يمكن أن يأتى فى كل لحظة فى حياتهم غير الآمنة ومع الموت. تضيع إلى الأبد فرصة الحج ومعها فرصة الخلاص. لذا. فحين بدأ رجل يرتدى قبعة الناسك يسافر فى أنحاء أوربا يعظ بالصليب من فوق ظهر حمارء وينادى بالقيام يعمل مباشر وجد آلافا عديدة من الأتباع. وشعر عدد لا حصر له من الفلاحين الأوربيين الذين أنهكهم الكدح عبر الأجيال مع عدم قدرتهم على تغيير حياتهمء إنه إذا كان للحرية والوفرة وجود فى هذه الدنياء فمن المؤكد أن ذلك فى بلاد أخرى - وكان الجميع يعلمون أن القدس توجد فى أراض يتدفق فيها المن والسلوى. وكل ما كان الناس يفتقرون إليه. وجدوه فى شخص بيتر الناسك. لقد كتب أحد أتباعه - أحد القليلين جدا جدا الذين لم يكونوا أميين كتب عن بيتر: ' أن أى شىء قاله أو فعله بدا كأنه يصدر عن نصف إله" ولا غرو فى ذلك؛ قحين يكون هناك وعد بالحرية, والوعد يصدق, فإن من يقدم الوعد دائما ما يجذب نوعًا من أنوا ع العبادة. وبيتر كان راهبا بحق. فهو أيضا كان يركب حمارا؛ كما كان يقعل المسيح مع أن تابعه غير ألامى؛ جيلبير دى نوجانء علق قائلاء بدا إلى حد كبير أشبه بالحمار, وكانت رائحته إلى حد كبير أشد سوءا من رائحة الحمار. وعلى الرغم من هذه الأشياء أو بسببهاء جاء هذا الرجل القبيح كريه الرائمة صاحب الرأية تقريبا كمسيح منتظر لجميع أولئك الذين كانوا يطلبون حياة جديدة. فتبعوه بنفاد صبر يفوق 33

نفاد صبر الأطفال. لا بد أن بيتر كان لديه إيمان عظيم, وإلاء فلا بد أنه كان
بالغ البلاهة. فى إحدى المرات» قبل ذلك بسنوات. حاول الحج إلى القدسء فأساء إليه
الأتراك (يخلط الناس فى ذلك الاق ابلك بقرئين بين كلمة مسلم وتركى حتى فى
المسرح: المترجم) لدرجة جعلته يقفل عائدا قبل الوصول إلى المدينة المقدسة بمسافة
طويلة. فهو قد عرف صعويات الرحلة؛ ريما يكون قد نسى: وريما كان يتصصور أن
خمسة عشر ألفا يمكن أن يسافروا بيسر أكثر من فرد واحد. أيا كانت أسبابه - إن كانت
لديه أية أسباب - ققد جهل حماره يولى وجهه إلى الشرقء وفى نهاية مايى من عام
1١7, حين كان غيره فى الوطن يرحبون بالصيف الجديد, وصلت أولى مجموعات بيثر
عند حدود بيزتطة. فى ذلك الوقت ظهرت حماقة الحملة. فعند المرور من خلال المانياء
كان وعظ بيتر قد جكذب الكثين من الاتباع؛ وبينما تياطة تَقَدْم إلى الأمام جزء من
الدهماء الذين يتبعونه. وحين وصل هؤلاء الزوار الثقلاء غير المتوقعين إلى بيلجراد ولا
لم يجدوا أى طعام متوفرء بدأوا ينهبون الريف. ولم يكن ذلك سوى نذير بما سوف
يأتى؛ لقد كانت هذه المجموعة الأولى صغيرة إلى حد مكن من إرسالها فى صحبة
حراسة إلى القسطنطينية. ولكن من مايى حتى أوائل يونية فبيتر وأتباعه - الذين
أصبحوا الآن عشرين ألفا - تقدموا كالجراد إلى المجر. وفى نهاية يونيه كانوا قد قتلوا
أربعة آلاف مجرياء وكانت بيلجراد (وهى فى ذلك الحين مدينة حدودية مع
الإمبراطورية البيزنطية) قد نهبت واحترقت. وحين توغلوا مسسافة أبعد فى
الإمبراطورية» فى نيك» فى يوغسلافيا الحالية. وقعت معركة شديدة قتل فيها ريع
مجموعة بيتن. ومع ذلك عند الوصول إلى سوريا حيث التقى يهم ممثلون عن
إليكسيوسء قوَيلوا بالترحاب. وسامحهم الثاس على سلوكهم المثير للغضب ؛ وزودوهم
بكل ما يحتاجون إليه؛ ونقلوا فى صحبة مرشدين وحراس بسرعة إلى القسطتطينية.
لقد كانت رأقة الإمبراطور سياسية أكثرز من كونها إنسانية؛ إن إنه عن طزيق فرض
بعض النظام على المجاج الفوضؤيينَ غير المنضبطين. تمكن من حماية أراضنية على
الوجه الأفضل. ونصح بيتز بألا يعبر مُضيق 34

الوردنيل قبل وصول الصليبيين الفعليين؛ لكن أى أمل فى النظام كان قد
تبخر منذ وقت طويل. ذلك أن الفرقة الهائلة كانت أفضل قليلا من جيش من قطاع
الطرق. إذ إن مملوك أولتك المسيحيين كان بشعاء فقد خربوا وأحرقوا قصور المدينة,
وسرقوا الرصاص من أسطح الكنائس وباعوه للاغريق؛ مما أغضب الإمبرأطور فأمرهم
بعبور الدردنيل. كاتب هذا التعليق المختصر كان واحدًا آخر من الحجاج: ربما من أبوليا
فى جتوب إيطاليا. إن اسمه مجهولء غير أنه ترك كتايا صغيرا يسمى أفعال الفرنجة,
واصفا عن تجربة مباشرة عادة أحداث الحرب الصليبية الأولى. وكان جنديا محترفاء
وإن لم يكن مرتزقاء وكان ينظر باحتقار إلى حرب الشعب الصليبية. بعد أن عبروا لم
يكفوا عن أفعالهم الشريرة؛ فحرقوا وخربوا المنازل والكنائس ... ولم يتمكن بيتر
الناسك من التحكم فى هذه الجماعة المختلطة إذ لم يصفوا إليه ولم يطيعوه. ويذلك,
كانت حرب الشعب الصليبية تحرق نفسها. إذّ كان هناك طاقة زائدة عن الحد وتوجيه
أقل من المطلوبء. أمل يفوق الحد ومعرفة أقل مما ينبغى ويعد أن عبر جيش
الفلاحين الدردنيل فقد أى ترابط: قعسكر بعض الأتباع فى مكان يعرف باسم
كيفيتوسء على الساحل الجنوبى لخليج نيكوميديا؛ وأغار آخرون على منطقة نيقيا؛
وقتلوا كل من استطاعوا قتله؛ بما فى ذلك أبتاء البلاد من المسيحيين؛ وذهيت بضعة
آلاف إلى ما وراء نيقياء واستولوا على إحدى القلاع. ولم يدركوا أن إمدادها من المياه
خارج الأسوار؛ وأن الأتراك يحاصرون القلعة. ويعد أسبوعين, هد العطش الفلاحين, مما
جعلهم يقتلون خيولهم وحميرهم ويشريون الدم؛ وأخرون أنزلوا الأحزمة والملايس فى
بالوعة واعتصروا السائل فى أفواههم؛ وآخرون كانوا يمررون الماء ليعضهم بعضا
بالأكف. ويشريون؛ وآخرون يحفرون الأرض اللينة ويرقدون على ظهورهم مكومين
الطين على صدورهم. فى اليوم الثامن لم يعودوا يطيقون؛ فاستسلموا. وارتد بعضهم
وأخذوا عبيدا؛ أما الباقون فقتلوا. ثم نجح الأتراك فى نصب كمين وذبحوا المجموعة
#القرب من نيقياء وأخيرا انقضوا على المعسكر فى كيفيتوس. ونجت قلة من
الأوربيين» حيث أنقذهم أسطول بيزنطي. 35

وجردهم إليكسيوس من السلاح وأعادهم إلى بلادهم. ولا بد أنهم أسعدهم الرحيل. ومع ذلك فصع أن الفلاحين كانوا قسساة. لم يكونوا هم الأسوأ بين معاصريهم؛ وثمة نوع من البراءة فى حماسهم الساذج يثير الشفقة. وحتى مؤلف كتاب الأفعال المجهول الذى عادة ما يحتقرهم علق قائلا: "هؤلاء الرجال كانوا أول من يتحمل الشهادة من أجل اسم سيدنا يسوع'. لكن كان من الواضح أن الإيمان لم يكن وحده كافيا. منذ أول انشقاق فى المانيا حتى الكارثة الأخيرة فى كيفيتوس» لم تستغرق حرب الشعب الصليبية أكثر من ستة أشهر. أما فرسان ولوردات الحرب الصليبية الأولى فقد عملوا بيطءء ويمزيد المثابرة. فمن شواطئ أوريا إلى أسوار القدسء اسصفرقت رحلتهم بالكامل ما يقرب من عامين. ولم يغادروا جميعا معاء ومرة واحدة؛ وإنما على أربعة جيوش كبيرة منفصلة. ذلك أن إيربان» ودون مشورة إليكسيوس أصدر مرسوما بأن يكون موعد اللقاء الأول فى القسطنطينية؛ وحين وصلت أنباء هذا المرسوم وأنباء الاستجابة العظيمة لدعوة البابايء أدرك فجأة أن حركة أكبر يكثير مما رغب وتوقع قد تم إطلاقها. كان هو يرغب فى بضعة آلاف من المرتزقة؛ لكنّ جيوشا أكبر كانت قادمة؛ لا يقودها فرسان بل نبلاء. كلهم فى حاجة إلى الطعام والإقامة, وما إن يصلوا إلى الأراضى المقدسة فلا شك أنهم سوف يتوقعون دعمه. فقرر أنه سوف يقدم هذا الدعم. ولكن بشروط معينة. وحتى ذلك ؛لحين كان يعد لوصول المحاريين الصليبيين. إذ إن بيتر الناسك ومجموعته غير المتجانسة أخذوا إليكسيوس على حين غرة. من حسن الحظ أن المحاربين الصليبيين الفعليين التزموا ببرنامج إيربان بشكل أوثق؛ فلو أنهم جميها وصلوا فى وقت مبكر هكذاء لم تكن حتى القسطنطيئية بقادرة على دعمهم ومساندتهم. كانت أول مجموعة بعد بيتر عيارة عن جيش صغير يقوده هيو لى مين. وجاعوا من فرنسا إلى بارى» فى جنوب إيطاليا وعبر الإدرياتيكى إلى ديراكيوم: - دور

حاليًا فى ألبانيا - ومن هناك عن طريق سالونيك. ولم يمثلوا أية مشكلة بالنسبة لإليكسيوس؛ فها هو الابن الأصفر لتسب عريق وهو قليل الإمكانيات» وكان يبهجه تكريم إمبراطور بيزتنطة. لكن الآخرين لم يكونوا بمثل هذه السهولة؛ ومعهم احتاج إليكسيوس إلى كل ما لديه من قوة حذكة. ذلك أن كل جيش من جيوش الفرنجة الأربعة كان من بين أفراده أشخاص مميزون. فكان الجيش الأول يقوده جودفرى دى بويون, دوق لورين السفلي, وهو على ما يبدو تجسيد للفارس فى العالم المسيحى. كان طويلا قوى البنية, أشقر وملتحيًاء رجلاً تقيًا يكاد يكون زاهدا قليل المطالب وهو دائما يسلك سلوكا رائعا. لقد عزت إليه الحكايات شخصية ومظهر الكمال المسيحى فى العصور الوسطى؛ أما الحقيقة التاريخية فتظهره باعتباره أقل من المثالية إلى حد ما. وكان جودفرى يصحبه أخوه. بولدوين. وحين غادرا أوريا عام ,1931١٠ كان جودقرى يبلغ نحو ست وثلاثين سنة؛ أما بولدوين» فكان أصغر قليلا. ومع أن جودفرى كان طويلا فإن بولدوين كان أطول منه. ولا يشبه أخاه تقريبا فى أى شي.ء. إذ إن بولدوين كان أسود الشعرء حليق اللحية؛ وشاحب الجلد؛ وكان رجلا صلبا قاسيا بارداء ينعم ويستمتع بما في حياة النبلاء من روعة ومع ذلك يمكنه أن يتحمل بسهولة مشقة الحرب. وجاء الجيش الثانى بقيادة بوهيموند: الأمير النورمناندى لتارانتو فى إيطاليا. وكان معه تانكريد ابن أخيه. لقد كانت سلطة النورمنديين قد استتبت فى إيطاليا فى عام 41 ١١؛ وكان بوهيموند وتانكريد يتحليان بروح المقامرة التى تمتع بها أجدادهماء ويطمحان إلى ممالك منقصلة لهما أى على الأقل إمارات أكبر من اترانتى. وقبل الدعوة إلى الحروب الصليبية بما لا يزيد على ثلاث عشرة سنة؛ كان بوهيموند يقاتل اليكسيوس فى اليونان ومقدونياء أما الآن فإن العم وابن الأخ ينطلقان كحلقاء للإمبراطور أملا فى الثراء الدنيوى. أما الجيش الثالث فكان له قائدان, أحدهما روحى والآخر دنيوى. وكان الرجلان ناضجين. يتمتعان باحترام الجميع. وكان القائد الروحى هو إديمار» أسقف لى بوى» 37

وهو يبلغ من العمر نحى خمسين سنة؛ والقائد ألدنوى؛ هو ريموند كونت تولوزء وسان جيل؛ وكان فى حوائى الستين من عمره. وكان إديمار هو مندوب البابا إلى الحروب الصليبية؛ أى ممثل إيربان الرسمى. أما زعامة ريموند فقد اتخذها هو بنفسه دون إذن من أحد: إن إنه كان أول نبيل يأخذ الصليبء تمامًا كما كان إديمار أول المتطوعين فى ذلك الأصيل من توفمبر فى كليرمون. وأخيرا على رأس الجيش الرابع كان روبيرت النورماندى. ابن ويليام الفاتح؛ وروبرت الفلاندرى» وهو حاج محارب بالوراثة وبالطبيعة: ويستيقين من بلواء زوج ابنة الفاتح. ويظل الشخصان اللذان يدعيان رويرت شخصين غامضين: أما شخصية ستيفينء على الرغم من أنه لم يلعب دورا رئيسيا فى المعارك المتآخرة: فيمكن رؤية شخصيته بوضوح. لقد كان رجلا عطوفا محببا؛ وكان شديد الثراء: يمتلك عدة إقطاعيات فى فرنسا؛ وكان يستمتع بالعناية بها. ولم يكن فى الواقع لديه أية رغبة فى أن يشارك فى الحروب الصليبية على الإطلاق؛ غير أن زوجته؛ ابنة الفاتح طلبت منه أن يذهب فلم يرغب فى المجادلة. فذهب. وسافرت الجيوش منفصلة انفصالا ناما. واتخذ جودفرى ويولدوين الطريق البرى خلال المجرء على نهج بيتر الناسك. وتروى الحكايات أن شارلمان استخدم الطريق نقسه. ويعد أن غادروا اللورين فى أغسطس بعد وصول بيتر إلى القسطنطينية ببضع أسابيع, وصلا إلى العاصمة البيزنطية فى "؟ ديسمبر. واتخذ بوهيموند وتانكريد الممر ذاته الذى اتخذه هيو لى مسينء عبر الأدرياتيك من خلال سالونيكا, مغادرين إيطاليا فى أكتوير .147٠ واصلين إلى القسطنطينية فى 4 أيريل. 9١١! وغادر إديمار وريموند فرنسا فى حوالي نفس الوقت. واتجها جنوب شرق إلى ساحل دالمياتا إلى ديراكيوم؛ وبعد ذلك تبعا بوهيمون, ووصلا بعده يوقت قصير فى ؟١ أبريل» وفادر الجيش الرابع مع روبيرت وستيفين فرنساء فى أكتوير عام 2٠197 واتخذوا الطريق الجنوبى عبر إيطاليا بحرا. وكان ستيفن يفكر فى العودة, إلى إقطاعياته الفرنسية وفى حين تقدم بقية الجيشء استراح هو طيلة الشتاء فى إيطاليا. 36

ويبدو أنه حين فكر فى زوجته قرر الاستمرار فى التقدم؛ لكنه تمكن من تأخير الرحيل الفعلى من أوريا قليلا عن طريق الذهاب إلى بريينديزى. وأخيرا غادرا فى أوائل أبريل عام 1910· ووصل إلى القسطنطينية بعد شهر. كشيرا ما يتحدث مدونى الأحداث فى العصور الوسطى عن مئات الآلاف بل الملايين من الجنود عند تحديد حجم الجيوش. لكن أحد أبرز المؤرخين المحدثين, ستيفن رانسيمانء أعطى تقديرات محتملة للأعداد المشاركة فى الحرب الصليبية الأولى, وعلى الرغم من أنها أقل بكثير من الادعاءات المبالغ فيها التى اعتدنا سماعهاء فإنها تظل مع ذلك مبهرة: هناك ما إجماله أربعة آلاف وثلاثمائة فارسء وثلاثون ألفا من المشاةء هذا عدا النساء والطفيليين. قد يكون ذلك جيشا صغيرا بالمقاييس الحديثة, غير أن مجرد القيام بتنظيمه يعد عملا هائلا. وكان شيئًا جيدا بالنسبة لإليكسيوس أن الجيوش المنقصلة وصلت على فترات ذلك أنه جعلها تمر واحدا واحهدا عبر الذرذتيل» وتمكن من جعل الأعداد المقيمة على أراضيه فى حدود يمكن التحكم فيها. غير أن هذه لم تكن مهمة بسيطة: فجودفرء الذى كان يظهر نفسه كمسيحى أقرب إلى الكمال, رات ت الإمبراطور فى أثناء الأسبوع المقدس؛ ويهيموتد كان يتصرف بصلاح واستقامة تثير الشك؛ ورفض ريموند مرارًا أن يقسم يمين الولاء للإمبزاطور؛ وكان الأوربيؤن. بصفة عامة: يشعرؤن بالرهية من المجتمع الراقى الرائع الذى وجدوا أتفسهم فيه فاحسوا بالقلق. فجعلهم شعورهم بالحرج يبدون ينا مما زاد من تعالى البيزنطيين, فجعل ذلك المحاربين الصليبيين يتصرفون علئ نحو أكثر سوءًا. لقد كان قسم الولاء هو الشرظ الذى بموجبه أعطى ليون دعمه فى الأراضى المقدسة. وكان يتوى بواسطته أن يستعيد السيطرة على الأراضى البيزنطية التى خسرها أمام المسلمين؛ وإذا ما شكل ألنيلاء الصليبِيون ممالكهم أى إماراتهم» فسوف يثُحكمون فيه] باعتبارهم أتباعًا للإمبراطور. لقد تسبب الاق قتراح فى بعض الصعوبات, لأنه. مع علم الجميع أن مثل هذا القدبم عرق يبا عديم المعتى من 39

الناحية العملية؛ فهو نظريا يمكن أن يعطى إليكسيوس سلطات لا يستهان بها على اللوردات الفربيين. لقد أقسم معظمهم القسم باعتباره مسالة شكلية؛ ومع ذلك, فإن بوهيموندء بما يتمتع يه من حرص وتملق: حاول استعماله كى يقوى من مكانته فى الحرب الصليبية؛ وشعر ريموند بأن القسم يتعارض مع ولاءاته فى الفربء ولم يقتنع سوى بإعطاء قسم متحفظ؛ وانسل تانكريد من خلال القسطنطينية ليلاء دون أن يقسم الشية معلا وفى الوقت الذى وصل فيه ستيفين دى بلوا؛ كان الجميع قد تحركوا. وأقسم ستيفن اليمين بمجرد وصوله؛ ويهره الاستقبال الذى أعده إليكسيوس. وشجعه يعد المسافة بينه وبين زوجته المسيطرة؛ فكتب لها مقارنا بين إليكسيوس ويين ويليام الفاتح - وكانت المقارنة فى صالح الإمبراطور؛ 'إن أباك. يا حبيبتىء» قام بالكثير من الأعمال العظيمة لكنه لا يكاد يكون شيمًا بالمقارنة بهذا الرجل". وواصل الصليبيون التقدي واكصم الدوم قليل من التاسيل من عيق تبكر المكرّق سافن ذللن مددن نفسة: وفى نفس الوقت مع وصول ستيقن إلى القسطنطينية وصلت القوة الرئيسية إلى أسوار نيقياء وعلى الفور حاصرت البلدة. وحدثت معركة كبرى هزم فيها الأتراك الذين كانوا مقترطى الكقة بعتي ما حشقوء دمن اتسمارات مسهلة فلى حون الشيعن الصليبية - هزيمة ساحقة. وترك مؤلف كتاب الأفعال المجهول» وهى يتحدث عن آلاف المحاربين الصليبيين المجهولينء وصفا جافا لما حققوه من نجاح: وكتب يقول. جاءوا بروح معنوية عالية: منتشين من يقين النصرء محضرين حبالاً يقيدوننا بها ويقودوننا فى خراسان. وتقدموا فرحين وبدءوا يهبطون قليلا من قمة الجبل. غير أن رجالنا قطعوا رءوس كل من جاءاء وألقوا برءوس من ذبحوا فى المدينة يواسطة أحد الرماح» كي يسببوا مزيدا من الرعب فى الحامية التركية.' ومع ذلك» ظل الحصار فترة طويلة؛ إذ دام سبعة أسابيع وثلاثة أيام. فقوفر وقت لسستيفن دى بلوا كى يلحق بالجيوشء إذ وصل فى " يونية؛ وكان وصوله يعنى أن الجيش بأكمله قد أصبح مجتمعا. وابتداء من القسطنطينية: بدأ ستيفن يستمتع بالحرب الصليبية التى فرضت 40

عليه فرضا: وحين استسلمت نيقيا فى ١5 يونية, كان يشعر بما يشعر به
الجميع من حبور. ولو أن الأمور استمرت على هذا المتوال. فمن الممكن أنه سيعود إلى
الوطن بأسرع مما توقع. فكتب لزوجته يقول: "سوف نكون عند القدس فى خلال
خمسة أسابيع؛ ما لم نحتجز عند أنطاكيا". واحتجزوا هناك. بل حتى قبل أن يصلوا إلى
هناك: كان التحرك صعبا. ذلك أن الأتراك الذين أربكهم فقدهم لنيقياء كانوا مع ذلك
يتسمون بالعزم؛ فشنوا معركة ثانية, هذه المرة عند دوريليوم. وكانت صيحات المعركة
التى أطلقوها مثيرة للأعصاب. بدءوا جميعا على الفور يزأرون ويصيحون ويصرخونء
ويقولون بأصوات عالية بلغتهم كلمة شيطانية لم أفهمها" "كان هناك أتراك عديدون
يصيحون ويزأرون كالشياطين . لكن الصليبيين شجعوا أنفسهم بصلاة كانت شهارا
لجميع الدواقع المختلطة التى جاعت بهم إلى هذا المكان البعيد جدا: "اصمدوا جميعا
معاء واثقين فى المسيح وانتصار الصليب المقدس. نرجوك يا ربء أن نفوز اليوم
بالكثير من الفتائم'. وفى النهاية كان النصر فى دوريليوم من نصيب الفرنجة مع الكثير
من الغنائم؛ ولكن قى هذا الوقت تعلموا احترام الكفار الأتراك. فكتب مؤلف كتاب
الأفعال "أن ما مر به الإنسان وتعلمه لا يمكن أن يعبر عما يتمتع به الأتراك من شجاعة
ومهارة وجسارة. ولا يمكن لأحد أن ينكر أنهمء لو صمدوا بالإيمان بالمسيح لم يكن
ليوجد جنود أكثر شجاعة ومهارة. لكن رجالنا دحروهم برحمة الله ". ويعد دوريليوم»
كان لا بد من عبور صحراء الأناضول "هى أرض مهجورة لا ماء فيها ولا سكان, خرجنا
ونجونا بأعجوبة لأننا عانينا معاناة كبيرة من الجوع والعطش, ولم نجد ما نأكله سوى
نباتات تغطيها الأشواك جمعناها وأخذنا نفركها بين أيدينا. وماتت معظم الخيول واضطر
راكبوها للمشىء أو ركوب الثيران؛ وحين ماتت الدواب؛ تم وضع الأثقال وجر العربيات
بواسطة الماعز والكلاب.: ويعد الصحراء كانت هناك بضعة أيام من الراحة؛ ثم جاءت
عقبة جيال تورس. وكانت المحاولة الأخيرة قبل أنطاكياء وإحدى أشق الصعاب. "جبل
لعين: شديد الارتفا ع والانحدار حتى أن أحدا من رجالنا لم يجر أعلى للحاق بالآخرء
على الممر الجبلى. وسقطت الجياد على الجرف» 41

وكان كل منهم يجر الآخر إلى أسفل". بالنسبة للفرسان الذين كانوا يكدون
كى يصددوا الممرات غير الآمنة كان الأمر صعبا بصفة خاصة؛ وحاول الكثيرون بيع
دروعهم الثقيلة» ولما لم يجدوا من يشترىء ألقوا بأسلحتهم بعيدا التخلص منها. ولكن
أخيرا كافحوا لصعود ذلك "الجبل اللعين" ووصلوا إلى سهل أنطاكيا. كان ذلك فى ١
أكتوير عام ٩١١٠/؛ لقد استفرقت الرحلة من القسطنطيتية بواسطة طريق ملتف طوله
كنآ ماثة ميل بسنت أشهز. لقد تم تحمل حرب الشعب الصليبية بإحساس يزيد قليلا
على الإيمان والحماس؛ وعلى الرغم من أن الحرب الصليبية الأولى نظمت بقدر أكبر من
الدقة» وقدر أكبر من الصبر والتبصرء فإنه يبدو من المحتمل جدا أن الصليبيين لو
كانوا قد فهموا بوضوح المهمة التى تحملوا القيام بها ريما كانت الاستجابة تنداء إيربان
أقل بكثير. ذلك أن الأتراك برهنوا! على أنهم محاريون أشد من المتوقع؛ وأصبح لدى
الصليبيين وعى متزايد بما يمكن أن يواجهوا من محن؛ وهى محن كانت نتزايد منذ
نيقيا» حين عبر ستيفن دى بلوا المحب لوطنه عن الأمل فى ألا يحتجزوا فى أنطاكيا.
كان الجميع يسمعون عن أنطاكيا: فهى المكان الذى أقام فيه القديس بطرس وهو
أسقفيته الأولى. وقد جعلها ذلك وحده بالنسبة للصليبيين ملكية مسيحية لا جدال فيها
بحكم الحق. ولكن مع تجمعهم على السهول أمام أسوارها حولت المدينة خيالهم
وجعلته مجرد خيال هزيل قزم. إذ غطت المدينة ثلاثة أميال مربعة؛ وخلف المدينة.
ولكن داخل أسوارهاء ارتقعت منحدرات جبل سيلبيوس» تزينه القلعة وكأنها تاج على
رأسه وهى ترتفع ألف ميل على السهل. وكانت الأسوار “مرتفعة جداء وعريضة بشكل
مذهل" ويها أربعمائة وخمسون برجا. وحين حملق الصليبيون فى الأسوار والأبراج
توقعوا حصارا طويلا. لم تكن جميع الجيوش المسيحية موجودة فى البداية. ذلك أنه
قبل عبور جبال تورس كان كل من بولدوين وتانكريد قد انطلق بقواته جنويا نحو
صقلية حيث حاول كل منهما إقامة ممالك خاصة. ولم ينجح أيهما فى ذلك, واستمر
تانكريد حول ساحل 42

المتوسط: يستهدف أنطاكيا. أما بولدوين فانضم مرة أخرى إلى القوة الرئيسية جنوب سلسلة جبال تورسء ثم بناء على حكايته استمر شرقا إلى أدسا. وهناك نجح بسرعة فى تحقيق الحكم الشخصى الذى سعى إليه. وفى ٠١ مارس .10158 أصبح أمير أدسا؛ وبقى هناك لما يقرب من عامين. لقد غادر أوربا وهو ابن صغفير بلا أمل فى سلطة حقيقية فى الوطن ولكن فى السنة الأولى فى أدسا أصيح أعظم أمراء الفرنجة فى الشرق. فى أثناء ذلك كان حصار أنطاكيا يمر يظروف سيئة. بل إنه لم يكن بالقعل حصارا حقيقياء ذلك لأنه حتى حينه أنضم تانكريد ورجاله مرة أخرى إلى الجيش الرئيسى لم يتمكنوا من الإحاطة بالمدينة» كما كانت أشد وأقوى من أن تأخذ بهجوم مباغت. وتمكن الأتراك من الإبقاء على خطوط إمداد مفتوحة؛ وشنوا هجمات متكررة على القوات المسيحية. غير أن مشاق الطقس والمجاعة كانت أشد من أية هجمات تركية: إن مات سبع الصليبيين خارج أنطاكيا. وامتدت المحنة واستطالت. ويدأ الرجال يفرون من الجيش. وبعد عشرة أسابيع من الحصصمارء وفى أوائل يناير عام .144٠ تلاشى بيتر الناسك إلى أن ألقى رجال تانكريد القبض عليه وأحضروه. لكن أتطاكيا بدت منيهة, ويدا أن الحصار لا نهاية له. وأخيرا فى مارس تمكن الفرنجة من حصار المدينة وذلك عن طريق بناء حصون فى نقاط رئيسية حول الأسوار, وتوزيع قواتهم المتناقصة حولها. ولقترة من الزمن ارتفعت الروح المعنوية بسبب الاعتقاد بأنه من الممكن تجويع أنطاكيا إلى حد الاستسلام؛ ولكن عندئذ بدأت الشائعات التى تقول إن جيشا تركيا ضخما يتجمع فى الشمال. ففر الكثير من الصليبيين فزعا. وكان من بينهم "ذلك الجبان ستيفن دى بلوا كونت شارترء الذى ادعى المرض الشديد". حين أطلق المؤلف المجهول لكتاب أفهال الفرنجة لقب الجبان على ستيفن إنما كان يردد صدى الرأى العام. غير أن جبن ستيقن, إن جاز أن يكون كذلك, كان أمرا مفهوما؛ فهو لم يرغب أبدا فى الانضمام إلى المرب الصليبية أصلاء ولم يكن يتمنى الشهادة. وبدا له البقاء ضمريا من الجنون, 43

والانسحاب من حسن الفطنء وريما يقاتل مرة أخري. ولسوء الحظ بالنسبة
له؛ لم يكد يوجد من يتفق معهه على الأخص زوجته المشاكسة. لذا حين عاد أخيرا! إلى
الوطن, بعد رحلة بطيئة ومخيفة كان العار والغضب يفمرانها حتى أن الرجل التعس
أجبر على الانطلاق مرة أخرى.ححين كان أمام ستيفن بديل القيام بمناوشات مع
العرب المسلمين» أو مواجهة معركة مستمرة مع زوجنه:, اختار ستيقن بديل المناوشة
مع المسلمين. ومما زاد الأمر سوءًاء أنه لى كان قد انتظر نصف يوم أكثر فى أتطاكيا
لكان قد اشترك فى فتحهاء ذللكه أن المدينة كم الاستيبلاء عليها فى صياح اليوم الذي
غادر فيه. ولم يتم الاستيلاء عليها بالقوة أى الحصارء وإنما عن طريق الفدر. أقد عقد
الفرنجة صفقة مع أحد الرجال المسئولين عن الأيراج. كان صانع دروع يدعى فيروزء
وقد رشوه بشثروة كبيرة من المال والأراضى. كان يعمل فى البرج الذى يقف فى
حوض النهرء حيث يتدفق النهر من المدينة إلى الوادى. "أبرم الفرنجة حلفهم مع صانع
الدروع ليلعنه الله: وشقوا طريقهم إلى البوابة المائية". هكذا كتب ابن الأثير, كانت
البوابة مغلقة. وكان بعضنا لا يعرف أين توجدء لأن الظلام كان ما يزال مخيما. ولكن
عن طريق التحسس بأيديناء وتحريك العصى حول المكان, تمكنا من العثور عليها,
واندفع الجميع نحوهاء حتى أننا كسرناها ودخلنا". ويكتب ابن الأثير: "صعدت غصبة
أخرى منهم اليرج بالجيال . أصعد ما يقرب من ستين من رجالنا واحتلوا الأبراج التى
كان فيروز يحرسها ...ثم بدأ عدد مذهل يصعد ثم جروا بسرعة إلى الأبراج الأخرى.
وقتلوا كل من وجدوه على القور. "عند الفجر؛ حين كان أكثر من خمسمائة منهم فى
المدينة» وكان المدافعون قد تحبوا من الحراسة المليلية, أطلقوا البروجيات, ... 44

فى هذه اللحظة ارتفعت صرخات أعداد لا تحصى من البشر. - كل من بالمدينة كانوا يصرخون دفعة واحدة. واستولى الرعب على حاكم المدينة: وفر مذعورا... لو أنه صمد لمدة ساعة لتم سحق الفرنجة. لقد دخلوا المدينة عن طريق البوايات وخربوها وذبحوا كل من وجدوه هناك من المسلمين... كل هذا وقع فى الشالث من يونية. كانت جميع الشوارع على الجانبين تغص بالجثث. حتى أن أحدا لم يطق البقاء هناك بسيب الرائحة الكريهة كما لم يستطع أحد أن سير فى الممرات الضيقة فى المدينة إلا فوق جثث الموتي . لم يكن أحد ليتخيل أنهم سوف يتعطلون كل هذا الوقت: فحصصار المدينة» بذروته الدامية استغرق ثمانية أشهر ويوما. الكتدرائيات؛ وفى المعركة الأخيرة ضد محاولة القوات التركية إتقاذ المدينة كانت الملائكة تساعد المسيحيين. وظهر القديس جورج وآخرون - يرتدون ملابس مثل فرسان الهيكل بعد ذلك ببضع سنوات - ملابس بيضاء. ويحملون رايات بيضاء ويمتطون خيولا بيضاء. وبينما صدق القليلون لمسالة الرمح» حتى في ذلك الوقتء كان جميع الحاضرين يقتنعون اقتناعا تامًا بالفرسان الملائكيين - تماما كما كان جنود مون يصدقون. بعد ذلك بتسعة قرونء بأن ملائكة هم من أنقذوهم. واستغرقت بقية الرحلة إلى القدس أكثر قليلا من عام. ذلك أن الصليبيين استراحوا فى أتطاكيا لمدة خمسة أشهرء ويعد أن استجمعوا قوتهم؛ كان هناك لا يزال قتال طويل قى انتظارهم. فبين أنطاكيا والقدس كان هناك المزيد من المعارك. وكان الصئيبيون يوشكون على الموت جوعا؛ وفى إحدى المرات: على الأقل. اضطرو! إلى اللجوء إلى أكل لحوم 45

البشرء فأكئوا أعداهم من الموتى. لقد وصف أحد الحجاج يدعى ريتشارد»
فى جيش روبرت من فلاندر كيف أن بيتر الناسك شجع على ذلك؛ قائلا: "آلا توجد وفرة من جثث الأتراك؟ إذا ها طهيت وملحت ستكون صالحة للآكل". ويبدى أنها كانت كذلكء؛ وكان طعمها إلى حد ما أشبه بلحم الخنزير. تم الوصول إلى أسوار القدس فى ؟ يونية عام ,144٠ ومرة أخرى كانت تكتيكات الحصار تعمل. كان أقل من ثلث القوة المقاتلة ما يزال متوفرا - نحو اثنى عشر ألفا من المشاة. وألف وثلائمائة من الفرسان. ولكنء: فى ذلك الوقت, كانوا جميعا مقاتلين أشداءء وكان هدفهم أمامهم [المدينة المقدسة]؛ فلم يستطيعوا الانتظار طويلا. وبعد ما لأيزيد على خمسة آسابيم فن يوم الجمعة 826 يولية: ثم امشراق الأسوار - يقول التراث إن ذلك كان فى منتصف التهار. ساعة الصلب. وانهمك الصليبيون فى حفل شرير من التدمير - ويخبرنا مؤلف كتاب أقعال الفرنجة: "كان تاك من الذاب ما حمل جتويها يقوضنوق حت الكاظين فى دماء الأعداء ويسهل أبن الأثير موت أكثر من سبعين ألقًا من المسلمين. ونهبت المدينة» وسلبت قبة الصخرة؛ ثم ذهب الصليبيون ليصلوا عند التابوت المقدس “بعد أن فرحوا ويكوا من كدة الس" : لم يدر إيربان قط ينجاح فكرته البشعة نجاحا لا ينازع؛ إذ مات بعد سقوط القدس بأسبوعينء, بحيث لم يكن من الممكن أن تصله الأنباء. كما مات أديصار مندوب الباباء لقد قتل كفيره فى أنطاكياء ولم يقتله الأتراك بل التيفود. ونجا جميع القادة العسكريين للجيوش الأربعة. بولدوين الآمن فيما تحقق له حديئا من عظمة, أصبح أميرا على أديسا؛ ويوهيموند الذى ترك ليكون مسئولا عن أنطاكيا بعد الكثير من الدسائسء صار أميرا عليها؛ وتنكريد أصبح أميرا على الجليل. وماد ريموئد إلى القسطنطينية, أما رويرت ورويرت فقد عادا إلى أوربا؛ وجودفرى دى بويون» دوق لورين السقلى, ذلك الزاهد الطويل الأشقر الملتحى فقد انتخب انتخابا شعبيا ليكون مدافعا عن الضريح المقدس. ورفض لقب ملك القدسء وقال لن يكون من 46

الصواب أن ارتدى تاجا ملكيا فى المدينة التى ارتدى فيها المسيح الأشواك.
لقد نبعت شعبيته من هذه التقوى؛ غير أن التقوى لا تصنع حاكما قويا بالضرورة. ذلك أن جودفرى كان زعيما عديم التأثير؛ ومن زاوية رفاهية الدولة. ربما كان من الخير أنه توفى خلال عام من تلقيه اللقب. لكن الجميع كانوا يحبونه ويحترمونه. وأقام الكثيرون الجداد غليه. وما إن سمع يولدوين عن وفاة أخيه حتى انطلق من أديسا. من الناحية السياسية. كان أبعد أمراء الفرنجة نظراء ولم يضع الكثير من الوقت فى الحزن على جودفرى؛ فجاء "وهى يشعر بالقليل من الحزن» على موت أخيه. لكنه أسعد ما يكون بخلافته فى إرثه". إنه هو ذلك الشخص الذى كان فى وقت من الأوقات أخا أصغر لا سلطلة لديه: لم يكن لديه من المبادئ ما يمنعه عن تلقى لقب ملك؛ وفى الحادى عشر من توفمبر ١١١٠١ توج بولدوين الأول: ملك القدس. وفيه وجدت الملكة اللاتينية فى الأراضى المقدسة مهندسها. وحين جلس على العرش كان معظم فلسطين تحت السيطرة اللاتينية؛ ومعها إمارات أنطاكياء وأدساء والجليل» غير أن هذه السيطرة فى أفضل أحوالها مهتزة. فأخذ بولدوين على مدى ما بقى من حياته يوسع ويدعم السلطة التى ورثها بكل طاقته وهمته. فدانت له صيدة وارسوف وقيسارية وازوتوس وعكا.
وكانت هذه الموانئ لا تقدر بثمن بالنسبة للمسيحيين؛ قهم محصورون في دولهم المصتنعة, بعيدا عن أوطانهم, مما جعل الطرق البحرية تقدم أسلم وسيلة للاتصال مع أوربا. لذا كانت جوهرية؛ إن لم يكن هناك ما يكفى من الفرنجة فى الأراضى المقدسة كى يدافعوا عما فتحوه من أراض فكانت هناك حاجة دائمة إلى المزيد من الرجال. كان الحجاج يأتون ومعهم المال والقوة الجسدية؛ كانوا كثيرين» لم يكونوا قط يكفون لسد الحاجة إلى الرجال. وإذا خدموا فى جيش بولدوين, فإنما ذلك كان عادة لموسم معين, لأن غالبيتهم لم تكن ترغب فى الاستقرار فى الشرق؛ وهكذا لم يكن هناك مطلقا جيش دائم يعول عليه. سواء للأحوال الطارئة أو للدفاع اليومى. غير أن الطرق البحرية كانت مكلفة, وكان معظم الحجاج يأتون براء مع أن الطرق كانت أكثر خطرا عن تلك الأيام

التى كان فيها الإسلام يمسك بالمدينة المقدسة. كان المسلمون فى كل مكان. وهم إذ بعيشون خارج الأراضي اللاتينية كانوا يعتبرون الفرنجة أعداء ألداء لدينهم: فكانوا يغيرون على الفزاة وينهبوتنهم كلما أمكن ذلك. لذاء "بسبب هذه الإهانات؛ وحين سمع بضعة فرسان عن قطع الطرقء وكانوا مفعمين بالشهور بالشفقة ويحدوهم الأمل فى حياة كاملة. وضعوا خطة كى يكرسوا أنفسهم أساسا للدفاع عن الرحالة, ولسلامة الطرق, ولحماية الضريح المقدس"". لقد كان القرسان جميها من الفرنجة؛. فهم محاربون قدماء من الحرب الصليبية الأولي. لقد مات بولدوين في " أبريل عام 4١١1؛ وريما كان موته هى الذى عجل بقرارهم, لأنهم اتحدوا معا في ذلك العام نفسه. وكانوا قد قضوا تنصف عمرهم تقريبا فى الشرق؛ فأصبح وطنهم. وشعر كاهن بولدوين الخاص» المؤرخ فولشي دى شارتر» بالانتشاء بسبب هذا التحول. وقال: "تديروا وتأملوا. كيف صرنا شرقيينء نحن من كنا غربيين: إن من كانوا إيطاليين أو فرنسيين أصبحوا جليليين أو فلسطينيين؛ وأولتك الذين عاشوا فى ريصز أو شارتر هم الآن مواطنون فى صور أو أنطاكيا. لقد نسينا مسقط رأسنا.... والبعض متزوجون من سورية؛ أو أرمينية» أى حتى مسلمة تلقت رحمة التعميد. ولديهم أولاد وأحفاد... وهناك من يزرع كرومه» ومن يقلح حقوله؛ ومن كانوا فقراء فى أوطانهم أغناهم الرب. فلم يعودوا إلى القربء إذا كان الشرق مواتيا إلى هذا الحد". لقد أصبح الصليبيون يحبون الأزض التى اتخذوها لأنفسهم؛ ويريدون ويحتاجون إلى غربيين آخرين إذا كانوا سيبقون, لأن أرضهم الجديدة ودينهم فى حاجة إلى الحماية. ولكن كى يأتى آخرون, يحب أن تكون الطرق سالمة. منذ عام 44 ١٠ وجدت المستشفى فى القدسء حيث يمكن للحجاج الفقراء والمرضى الإسعاف؛ ولكن لم يكن من واجب أحد حماية الحجاج المسافرين من القدس وإليها. قتحمل الفرسان الذين اتحدوا مها بعد وفاة بولدوين هذا الواجب. وكان أولهم هيو دى بيان. من 46

مواطني شامبنى. كان يبلغ من العصر ثمانى وأربعين سنة» وقد عاش شرق القسطنطينية لما يقرب من اثنين وعشرين سنة. لقد كانت الجماعة التى تحلقت حوله صغيرة جداء ربما لا تزيد على أريعة أشخاص فى البداية؛ بل إن أسماء بعض هؤلاء السبعة غير مؤكدة. كان هناك جيفرى دى سان-اومر: وهو فارس فلمنكى! وبيان دى مونتديفيى, وارشامبو دي سانانيان؛ وأندري دى مونتبار؛ وبيزول أو بيزوت؛ ولك رتعلذق لم تسمل سوى 'استناكيها الاولي: روسال ال رولاتك وج وعمان: وتقوق كتب التراث إنه كان هناك تسعة فى الجماعة الأصلية؛ لكّن هذه الكتب لا تذكر اسم الرجل التاسع. ثمانية أى تسعة كى يقوموا بعمل الشرطة فى إمبراطورية: هذا ليس عددا كبيرا. لكن كل واحد هنهم كان فارسا وزعيما وفى حين كان رجال المستشفى رهبانًا أنقياء وبسطاء؛ فإن هذه الحفنة من الرجال عزمت على أن تعطى نفسها للمسيح وتقاتل فى نفس الوقت. لقد كان الملك الجديد هو بولدوين الثاني, ابن عم الأول» وأدرك على الفور قيمة المجموعة الصغفيرة. ذلك أنهم أقسموا اليمين الثلاثى» الفقرء والعفة والطاعة. وأقسموا أن يداقعوا عن المملكة؛ ولا بد من مساعدتهم. وعلى الفور منح الفرسان إقامة فى منزل بالقرب من قبة الصخرة: وهو الموقع المفترض لهيكل سليمان. وكانوا هم بالفهل قد أعطوا لأنفسهم اسما: جنود يسوع المسيح الفقراء. ويشير ما بهذا الاسم من ضخامة وغرابة إلى ما يتسمون يه من بساطة, كما يدل على تقواهم الصادقة. ولكن قبل أن يمر وقت طويل تغير هذا اللقب الثقيل, وأصبحوا فرسان هيكل سليمان - أو أبسط من ذلك, فرسسان الهيكل. ومن الدم والغضب ولدت جماعة فرسان الهيكل. 49

الجر لجزرء الثانى ١ فى أورياء 107١-1194 ١ 537

الفصل الثانى غرباء وحجاج فرنسا 2 8/1١ "اسمع؛ وسوف أتكلم عن
أشياء ممنازة" فى وقت ما من عام 7١1 - ريما فى أواخر الصيق أو أوائل الربيع -
استقبل دير صفير فى شمال فرنسا ضيفين مهمين. ولم يكن المظهر الخارجى للرجلين
اللذين اتجها إلى بوابة الدير» ولم يكن الدير نفسه. مميرًا بئى حال. إذ كان الرجلان
ملتحيين, يرتديان ملايس عادية قديمة جدا؛ وكان الدير قد أنشيئ منذ إحدى عشرة
أنه كان معروفا فى البلاد المسيحية بسبب رئيسه؛ وكذلك كان زائروه. كان الرجلان
الهيكل. لقد ارتحلا من الأراضى المقدسة عائّدين الى بلادهما وليس لديهما سوى القليلة
الماضية؛ أصبح أكثر الزعماء الروحيين نفوذ! فى العالم المسيحي؛ وتصادف أنه ابن أخ
أندرى دى مونتبار. كان اسمه بيرنار دى كليرفى. وكان بيرنار رجلا ضئيل البنية, له لدية
بنية قليلة الشعر. وحلاقة الشعر التى تبين مهنته. وكان حينذاك» عمره سنا وثلاثين
سنةء لكن جسده كان هزيلا كما لو كان رجلا عجوزاء لأنه كان يعانى من 53

اضطراب مزمن فى المعدة أضعفه بشكل فظيع؛ ومع ذلك؛ فمن خلال الهزال الجسمى ظهر بريق من القوة الروحية أثرت فى جميع من اقتربوا منه. إنه أحد أهم الرجال فى تاريخ الهيكل: وفى رجل كان من الممكن أن يكون غير عادى فى أى عصر من العصور. وكان أحد الأبناء السيعة لعائلة نبيلة فى فوذتين» بالقرب من ديجون. وكان أيوه تيسلان سوريل. سينيور فونتين يشتهر بما كان يتمتع به من رقة وكرمء وكانت أمه إليت تعرف بما لها من تقوى غير عادية. غير أن شهرتهما كانت محلية؛ أما شهرة بيرنار فكان مقدر لها أن تكون دولية. قبل مولده حلمت أمه بأنها تحمل داخلها كلبا ينبح؛ وقال أحد الرهبان تفسيرا! للحلم أن ابنها سوف يشفى الأمراض وسيكون حارسا للكنيسة. وسواء كانت هذه القصة مشكوكًا فى صحتها أم لم تكن كذلكء. فإن بيرنار حقق ما جاء قيها. وقرر الانضمام إلى دير كليرقو فى سن الواحدة والعشرين؛ وحين ذهب إلى هناك فى العام التالى أقنم تسعًا وعشرين شخصا آخر بالذهاب معه؛ من بينهم أربعة من إخوته الخمسة. أما الخامس الذى كان صغيرا جدا فالتحق بهم فيما بعد. وكانت الحياة فى كليرفو من شدة التقشف حتى أن الدير توقف عن القيام بوظيفته والكثيرين من رهبانه غادروه للالتحاق بأديرة أقل قسوة. أصا بيرنار وجماعته فكانوا مستعدين لتقبل التقشف؛ فأنقذ وصولهم الدير من الانتهاء. وأطلق عصر النهضة التى قامت منها الجمعية المسيحية الراهنة. وقوت الجماعة إلى الحد الذى مكن من إنشاء دار مماثلة لها بعد عام؛ وأنشئت دار أخرى فى العام التالى, وثالث فى العام الذى يليه. وأصبح بيرنار وهى قى الخامسة والعشرين من عمره رئيسا للدار الثالثة. لقن بدأ ديره فى حالة من الفقر المدقع. وقدم كونت شامبانى» هيو أرضا كى تكون موقعا له؛ ومن كل أراضى المقاطعة الواسعة؛ اختار بيرنار واديًا كثيف الغايات موحشا يسمى وأدى ابسينث. لم يكن به سوى الغابات وأحد الأنهار - فأزال بيرنار ورهباته الغابات عن الأرض وقاموا ببناء مساكنهم بأنقسهم دون أية مساعدة: وكانوا يعيشون على الحب والجذور وأوراق الشجر. فى البداية, لم يكن هناك سوى مبثى واحد فكانت الكنيسة, وقاعة الطعام, والمطبخ وعنبر النوم جميعا تحت سقف واحد.

وكانت الأرضية من الترية؛ ولم تكن النوافذ سوى مجرد ثقوب لا تزيد على بضعة بوصات؛ وكان الرهبان ينامون على أوراق الشجر والقش. أما صومعة بيرنار فلم تزد على خزانة تحت درجات السلم المؤدى إلى العذير. ومما يثير العجب أن المشروع نجح؛ لكن هذا ليس هو ما حدث بل نجح نجاحا رائمًا. كان الرهيان يصلون وهم يعملونء ويقودهم فى كل شىء ذلك الرئيس ضَئيل الحجم, وهى بدوره يقوده خضوعه التام لله. ذلك أن إيمانه كان بسيطا ومباشرا لا تفريط فيه؛ وهذه الصفات, التى عدلت وخففت منها المحبة والرحمة جعلت من بيرئار رجلا يفهم الجميع؛ ولا يقاومه سوى القليلين. إذ كان فصيحًا يملك رأيًا. وقد انتشرت بسرعة سمعته بصفته معلما ورائد! بسبب مواعظه. وخطاياته وتصائحه وما كان يلقيه من مديح وتحذير. مما كان يفضبه إلى حد ماء لأن الخير لا ينظر كثير! إلى ذاته. ولكن إذا كانت الرحمة منحة من الله, فقد كان بيرنار يعتقد أنها يجب أن تستخدم من أجل عمل الله. وهى لم يكن يتخلى عن العمل أبدا. وكان لا يكاد يذوق النوم» وكان ياكل أقل القليل؛ وأى شىء أقل من العبادة التامة كان فى نظره مضيعة للوقت. كانت هذه هى قوة إيمانه حتي أنه قبل أن تمر عشر سنوات من رئاسته للدير كان قد صار ضمير البلدان الممسيحية يحسم الخصومات:؛ ويونب الملوك» ويسدى النصح لمن يطلبه, ويلهم كل من يصفى. فى أثناء ذلك كانت الجيوش المسيحية تواصل القتال فى الأرض المقدسة, وازدادت شهرة فرسان الهيكل. ذلك أنه فى عام ١١□١, كان كونت فولك من انجى قد انضم إليهم باعتباره عضو مشاركًا؛ ويهذه الصفة لم يكن ملزما باليقاء مع الجماعة طوال حياته. ولكن حتي بعد أن توقف عن العضوية الفعالة كان يعطى الهيكل هبة سنوية من ثلاثين جنيها فضدة. وسار على مثاله, عدد من اللوردات الفرنسيين: كما جاعت الهبات من الشرق. من بطريارك القدس, والكنيسة السورية. وقساوسة الضريح المقدس. ولكن على الرغم من احتمال وجود أعضاء مشاركين آخرينء فلا تبين السجلات المزيد من الأعضاء كاملى العضوية حتى عام 1١77 ففي ذلك العام انضم 55

رجل من أبرز الرجال إلى الثمانية (أو التسعة): هو هيوء كونت شامينىء
الذى كان قد منح بيرنار الأرض التى شيد عليها ديره. لقد كتب بيرنار بأسلويه المميز»
مظهرا فى نفس الوقت إنسانيته وقيمته الروحية: "إذا كنت قد غيرت نفسكء من أجل
عمل الربء من كونت إلى فارس ومن شخص ثرى إلى شخص فقيرء فإني أهنذئوك
على تقدمك العادلء وأمجد الرب فيك ومع ذلك فإن أقسم أنه مما يؤلنى أن أحرم من
حضورك المبهج بسبب طرق الرب الفامضة؛ ولكن على الأقل قد نراك من حين لآخر»:
إذا كان ذلك ممكنا. فكيف لنا أن ننسى الصداقة التى أبديتها نحو دارنا؟ ومقدار الفرح
الذى كنا سنحس به ونحن نعتى بك جسما ونفسا وروحاء إذا جئت كى تعيش معنا!
ولكن ما دام الأمر ليس كذلك؛ فنحن نصلى دائما من أجل الفائب الذى لا يمكننا أن
يكون بين ظهرانينا". ولا بد أن وصول كونت هيو قد آثار الكثير من الذكريات القديمة
لدى قرسان الهيكل. فهى قادم جديد من أرض الوطن التى تركوها منذ ثلاثين سنة؛
وهو سيد بلاد هيى دى بيان؛ كما أن صديقه؛ رئيس الدير العظيمء ابن أحد الفرسان
الآخرين. وعلى الفور كان هناك مطلبان مختلفان جعلا من الأهمية بمكان أن يتم
الاعتراف الرسمى بالجماعة والموافقة عليها من جانب البابا. أولاء فى العام السايق»
6□١١: كان الملك بولدوين ملك القدس قد منح لقب سيد الهيكل لهيى دى بيان؛ وكانت
ممتلكات الهيكل المادية تنموء فكانت هناك حاجة إلى بعض التنظيم. وثانياء سنحت
الفرصة لبوندوين لمهاجمة دمشق وكان فى حاجة إلى المزيد من الرجال. فإذا تمكنت
الجماعة الوليدة من نيل موافقة بيرنارء قمن المؤكد أن تتبعها موافقة اليابا؛ ومعها لن
يكون هناك مستحيل. لذا كتب بولدوين رسالة محكمة الصياغة إلى بيرنار» وتم انتقاء
فارسين لتسليمها. كان الاختيار الأول واضحا: أندرى دى مونتبارء خاله. وذهب معه
رفيق للرحلة» جولديمار. ولا بد أنها كانت تجرية غريبة حين دخل أندرى مع جوندمار
إلى باب كليرقو: وعلى الرغم مما بينهما من علاقة الخال واين الأخت» فمن المحتمل
أنهما كانا تقريبا 50

فى نفس السن. ومن المؤكد تقريبا أن أحدهما لم ير الآخر منذ عشر سنوات, وفى ذلك الوقت: كان بيرنار قد أصبح أكثر رجال الدين احتراما فى العالم الممسيحى. إن حوارهما؛ حين التقيا مرة أخرى كرجال غير مسجلء ولكن من المؤكد أنها كانت مناسبة مفرحة. من الممكن للمرء أن يتخيلهما يتبدلان الأخبار بلهفة عن العائلة» وكونت هيو. وعن جماعة الهيكل الجديدة. ذلك أن بيرنار. شأنه شأن غيره فى أوريا: كان قد سمع شيئًا عن الفرسان المقدسين؛ والآن قدر له أن يعلم بشكل مباشر عن أفعالهم وآمالهم. ثم انتقل أندرى إلى موضوع رحلته فقدم رسالة بولدوين. "إخوة الهيكل الذين خلقهم الله للدفاع عن منطقتنا ونطاقنا والذين أسند إليهم حماية خاصة. يرغبون فى تلقى موافقة رسوفية وكذلك حكم الحياة.... ولا كنا نعرف معرفة جيدة توسطكم مع الرب وكذلك مع ممثله, ومع غيره من أمراء أورياء فنحن نسند إلى عنايتكم هذه المهمة المزدوجة؛ التى نرحب ينجاحها. وليكن دستور الفرسان مناسبا لمن يحيون فى ظل صدام الحرب وما بها من اضطرابء ومع ذلك, يكون مقبولا لدى الأمراء المسيحيين, الذين كان الفرسان عونا لهم. وقد قيض لكمء بإرادة الرب» أن تصلوا بهذا الأمر إلى نتيجة ناجحة سريعة '. ربما لم يكن هيو دى بيان يدرك هذا الأمر؛ ولكن الجمع بين فضائل العبادة وفضائل الحرب كان فى العصور الوسطى ضربة خيالية من أرفع المراتب. أما بيرنار فقد أدرك ذلك على الفور. إن إنه استشعر ذلك بفضل إرثه العسكرى الديني: من أبيه التبيل؛ وأمه الدقية: من خلال فرسان الهيكل - يمكن توسيع نطاق المسيحية ونقويتها؛ - ويمكن التعبير عن الروح القتالية لدى الأوربيين الشبابء ويمكن مباركتها. فأعطى موافقته الفورية. ووعد بأن يبذل كل ما فى وسعه للمساعدة. وبالنظر إلى صعويات التواصل عبر مسافات بعيدةء يمكن القول بأن الأحداث تحركت بسرعة. فتم تقديم نداء للبابا أونوريوس الثاني؛ فوافق من حيث المبدأ ودعا إلى عقد مجلس لتدارس الأمر. وبينما كان بيرنار يشغل نقسه فى أورياء أرسلت الأنباء السارة إلى القدس وانطلق هيو, السيد نفسه. بحرا إلى إيطاليا. ورافقه العديد من الإخوة -

والسجلات 537

المختلفة تقدم أعدادا مختلفة. خمسة: أو ستةء أو حتى سبعة. أما كونت
هيى فلم يذهب؛ إذ إنه. فى حقيقة الأمر. لم يعد إلى أوريا مطلقا. . ومن المؤكد أن
عضوا كامل العضوية على الأقل كان يحب أن يبقى كى يدير شئون الهيكل فى غياب
المعلم. قد يكون هيو وإخوته من الفرسان قد وصلوا إلى إيطاليا فى أواخر عام 1110.١١
وأتيح لهم لقاء مع الباباء ثم فى نهاية السنة, اتجهوا شمالا إلى فرنسا؛ لأنه كان من
المقرر أن ينعقد المجلس فى ترواء على بعد مسافة قصيرة شمال غرب كليرفى. ولم
تكن بلدة هيو بيان أو بان كما تسمى الآن تبعد سوى بضعة أميالء على الضفة الشمائية
من نهر السينء قبل التقائه مع نهر أوب. وكان قد غادر البلدة الصغيرة فى السادسة
والعشرين من عمره,؛ وحين عاد كان عمره ثمانى وخمسين سنة. لقد كانت جمعية
عظيمة مقدسة تلك التى تجمعت فى الكتدرائية فى ترواء. فى عيد القديس هيلارى
فى ذلك العام؛ أى فى يناير عام -١1١74 كان يوما بارداء وكان البرد شديدًا فى
الكتدرائية» خاصة بالنسبة لأصحاب المنزلة الأقل الذين اضنطروا إلى الجلوس على
الأرض. وكان من بين الأشخاص الأكثر حظًا رجل يسمى جون ميكل. بل أنه عد نفسه
أكثر الأشخاص حظا: إذ إنه لم يستطع فقط أن يجلس على مقهد بدلا من الجلوس على
الأرض الباردة بل كانت أمامه منضدة كتابة - لأن:بيرنار قد اختاره كى يكون الكاتب أو
المدون الرسمى للجمعية وبدأ عمله فى التسجيل وهو يشعر بالايتهاج يما أسبغ عليه
من تشزيف وكتب: “أنا جون ميكل قد اعتيرت جديرا بعناية الرب أن أكتب الوثيقة
الحالية بأمر المجلس وأمر بيرنار, الرئيس الموقر لكليرقى, الذى أوكل إليه هذا العمل
عن استحقاق". : وكان ذلك "العمل هو ميثاق الهيكل: موشد الفرسان الجديد للسلوك.
وهى وثيقة طويلة ومفصلة. تتكون من اثنين وسبعين مادة, تغطى كل جانب من
جوانب الحياة 58

اليومية. وكان مثل هذا العمل يتطلب معرفة بالصياة الروحية والحياة فى الشرق» وهى معرفة لا يتمكن منها رجل واحد؛ أما بيرنار فكان محرر الوثيقة وليس واضعها. فلم يكد يحضر المجلس حتى اعتلت صحته بعد دعوته إلى تروا بفترة وجيزة كتب يرد: "إن ما لديكم من سبب لاقتحام ما أنا فيه من سكينة يتعلق بأمور إما سهلة أو صعبة. فإذا كانت سهلة فلا ضرورة لمساعدتي. وإذا كانت صعبة فلست فى حالة تسمح بالاهتمام بها - على الأقل, لا أستطيع عمل شيء يستعصى على غيرى". حتى القديسون يمكنهم أن يستثاروا حين يكونون مرضى؛ غير أنه فى النهاية أمكن إقناعه بالمجيء ونقش جون ميكل برقعة الجلد والريشة أسماء من حضر. من بين الحشد الذى ملأ الكتدرائية كان هناك الكثيرون من المغمورين مجهولى الذكر وكان عددهم كبيرا بحيث 'يصعب التحدث عنهم جميعا" لقد رأى الكاتب المشاهير". كان هناك الكاردينال ماتيو من أولبانى: والمندوب البابوى: وهى الذى يترأس المناسبة المهيبة. وكان بجانبه أساقفة ريمزء وسانء وكان هناك عشرة أساقفة وسبعة من رؤساء الأديرة يجلسون فى نصف دائرة حول هؤلاء الثلاثة. اثنان من رؤساء الأديرةء هما بيرنار» رئيس دير كليرفو, وستيفن هاردينجء رئيس دير سيتو سوف يعترف بهما كقديسين فيما بعد؛ وعلى الرغم من أن كاردينال ماتيى كان يترأس المجلس اسماء كان الجميع يعرفون أن بيرثار هو الزعيم الحقيقى للمجلس. وكان معظم أعضاء المجلس يعرفونه معرفة شخصية. أما القلة التى لم تكن تعرفه, فكانت تحترمه وتعجب يه. وكان هناك لوزدات علجاتتون يسشدروق المفلس أنفنا: "كرون هن اتصاك المتعلمين لكننا نحضرهم كشهود على هذا الشىء لأنهم يحبون الحق". - ولأنه إذا ما تم الاعتراف بهذه الجماعة الجديدة فأمثال هؤلاء الرجال هم من سيقدمون الدعم المادى. وكان أهم شخص من غير رجال الكنيسة كونت تيبو من شامبانيى: وهو صديق أخر من أصدقاء بيرنار. ومنذ البداية كان يميل إلى فرسان الهيكلء لأنه حصل على لقبه حين انضم عمه كونت هيو إلى الجماعة. ولا بد أن هيو دى بيان ورفاقه قد شعروا بأنهم خشنون غير متحضرين فى حضور هذا العدد من الرجال البارزين» كما كانوا يشعرون بالعصبية لدى التفكير فى القرار الذى كانوا ينتظرونه. 59

لم يكن فرسان الهيكل يشبهون أى فرسان آخرين رآهم أعضاء المجلس من قبل. فبدلا من الحرير والفراء المزركش القخم الذى يحبه الفرسان العاديون كان هؤلاء الرجال يرتدون ملابس قديمة مهترئة وممزقة. ولم تكن ملايسهم مرصعة بالحلى أو الذهب أو أشكال معقدة على أسلحتهم ودروعهم: بل كاتنت جميعا باللون الأسود. ويدلا من قصات الشعر الأنيقة؛ واللمى المهندمة كان شعرهم قصيرا بشكل صارم: ولحاهم كثيفة ثقيلة. حين كان أعضاء المجلس ينظرون بفضول إلى من يتوسلون إليهم, استمهوا إلى كاردينال ماتيو وهى يفتتح الأعمال بشكل رسمىء ثم نهض هيى دى بيان كى يتكلم بناء على دعوة من الكاردينال. فتحدث عما مضى من أيام» حين اكتسح الصليبيون الأراضى المقدسة» وأخذو! القدس من المسلمين؛ وتحدث عن الأخطار التى واجهها الحجاج. والتهديدات المتكررة على الدول اللاتينية. وشرح كيف تشكلت مجموعته الصغيرة» وكيف رحب بها ملوك القدس؛ ووصف طريقة جماعته فى الحياة» بما فيها من مزمج غريب من الصلاة والقتال. ولم يستخف بالصعويات؛ ومع ذلك قال إن أسوأها أنه يقاتل وحده هو وإخوانه. دونما عون من مسيحيى الغرب. ويدا أحيانا أنه يسمع الشيطان يهمس قائلا: "لم تكدح بلا جدوى؟ ولم تبذل كل هذا الجهد بلا طائل؟ إن من تخدمونهم يعترفون بكم كشركاء فى الكفاح لكنهم غير راغبين فى المشاركة فى الجماعة. فمتى تأتى تبرعات المؤمنين الخيرية إلى فرسان الهيكل؟ ومتى تصل الصلوات لفرسان الهيكل من المؤمنين فى أنحاء العالم”. وأخيرا كرر الاحتياجات الثلاثة الماسبة التى تطلبها الجماعة. إذا كان لها أن تستمر فى أداء عملها: مباركة الكنيسة واعترافهاء ومرشد أو ميثاق يحكم حياتهم اليومية, ومساعدة عملية على شكل مال ورجال. ولم يكن فى حاجة إلى القلق؛ لأنها قبلت جميعا بحماس شادئ مناسب. بل حتى دون تووسله الحار كانت توصية بيرنار وحدها كافية بالنسبة للجميع أو للجميع تقريبا. لقد كان فى تلك المجموعة من الرجال المخلصين شخص لا يحبه أحد: ذلك الشخص هى جان. أسقف أورليان. ولم يلقبه جون ميكل الكاتب بالأسقف بل لقبه بازدراء 00

الراقص العمومى. وقد وصفه أحد زملائه بأنه 'شيطانة مسافحة ويأنه لواطى" إذ كانت أخلاقه العامة عبارة عن فضيحة. حتى أن اسم شهرته الشائع كان "قلورا" وكان السبب الوحيد لحضوره هو أنه كان مفضلا لدى الملك. وأم يكن يحب بيرنارء كما لم يكن بيرنار يحبه؛ غير أن استبعاده كان من شأنه أغضاب الملك؛ وعلى الرغم من أن بيرنار لم يكن يخشى غضب أحد.ء فإنه كان إنسانا عملياء ولم يكن يرغب فى تعريض "الفرسان"" للخطر. كما لم يرغب أعضاء المجلس فى أن ينظر إليهم باعتبارهم أدوات الشيطان. وكان هيو قد لمس وترا حساسا مما جعلهم يسبغون عليه, بركته وكذلك على جماعته بالشكل المناسب؛ ثم أخرجوا بكل عناية وضمين ميثاق الهيكل. وكانت الوثيقة التى أخرجوها شديدة التفصيل والتعقيد بشكل ممضء وكانت شاملة إلى أكبر حد تمكنوا من تحقيقه. ذلك أن الاثنين والسبعين مادة التى توجد فى نسختها اللاتينية الأصلية غطت كل ما أمكن لأعضاء المجلس التفكير فيه. ابتداء من التحذيرات الدينية العامة إلى النظام اليومى الذى يجب أن يتبعه القرسان. فكانت جوانبه الدينية مشابهة لتلك التى توجد فى أى ديرء وكانت عموما ذات نبرة خيرة: إذ كان على الإخوة أن يصلوا معا فى أوقات معينة فى كل يوم: وإذا كانوا غائبين عن الدار. عليهم ترتيل أعداد مخظفة من الصلاة الربانية (أبانا الذى فى السماء). ولا يجب أن يتناولوا اللحم إلا ثلاث هرات فى الأسبوع؛ ويجب أن تتعقد الوجبات فى صمت, مع قراءة من الكداب المقدس؛ ويجب مراعاة الصمت ليلا. ويؤمر الإخوة بالعناية بأى عضو مريض أو مسن وأن يقيموا القداس لأرواح موتاهم؛ وعليهم بعد وفاة أى أخ منهم إطعام فقير لمدة أربعين يوما. ويجب عليهم تجنب التواصل مع من حرموا من الكنيسة. مع أنهم يمكنهم قبول الصدقات والهبات من أمثال هؤلاء» وعلى الرغم من أن نصب الفخاخ مسموح به؛ فكن ليس مسموحا لهم قنص أى مخلوق عدا الأسد. ذلك أن القن وكيق الضلة بهياة القارس العادئ؛ فنا جعل أغشناء المخلس يظئون»وريما عن حق: أن الإثارة والكد فى المطاردة من شأنه إيقاظ المسرات الخاطئة القديمة فى تفوس جنود المسيح. ولكن إذا كان القنص شراء فالنساء شر لا حد له. إن رعدة الرعب 6

وربما الابتهاج) تكاد تكون مسموعة فى كلمات هذا الميثاق: "إن صحبة)
النساء شىء خطيرء فمن خلالهن أنكر علينا الشيطان القديم الحق فى العيش فى الفردوس؛ لذا لا يمكن استقبال النساء كأخوات فى الجماعة: ... ونحن نعتقد أنه من الخطر على أى متدين أن ينظر أكثر مما ينبغى فى وجوه النساء. 'ولذاء لا يجب على أى واحد منكم أن يجترئ على تقبيل امرأة سواء كانت أرملة أو عذراء أو أما أو أختًا أى عمة أو خالة, أو أى امرأة أخرى؛ لذا يجب على فرسان المسيح أن يفروا دائما من
قبلات النساء." لم يكن هذا معاداة خالصة للمرأة كما يبدوء لأن الإخوة كانوا أيضًا ممنوعين من أن يكونوا آباء روحيين؛ ذلك أن أعضاء المجلس كانوا يخشون من أن هذه
العلاقة قد تثير فى نقوس القرسان الشوق إلى الحياة الأسرية العادية. ولهذا السبب جزئيا كان محظورا على الأطفال دخول الجماعة أو أن يوعدوا بذلك, كما كان المهد فى الدور الدينية الأخرى, ذلك أن فرسان الهبكلء هنذ البداية. كانوا عازمين على أن يقبلوا فقط الرجال الناضجين الذين يحضرون بناء على رغبتهم وقناعتهم. وكان ملبسهم شأنه شأن أى شيىء آخر فى حياتهم ينظمه ميثاقهم. ولم يعودوا يرتدون ملابس قديمة غير مميزة ومستعملة' ويدلا من ذلك؛ وكما يليق بمحاريين تخلوا عن "الثراء البهيج فى ذلك
القرن" من أجل حياة جديدة فى الرب» يجب على الإخوة الفرسان أن يرتدوا زيا
أبيضء شعار! على العفة والنقاء. "لكن ملابسهم لا يجب أن يكون بها بهرجة أو زهو
ويحظر على أى أخ أن يرتدي أى فراءء غير جلد الأغنام... حتى لا تجد عين الحاسد المثرثر ما تنتقده. ولا يتبغى أن تكون الأردية شديدة الطول أو شديدة القصر؛ وإذا ما
اشتهى أى أخ, بسبب الزهو أو التكبرء رداء أفضل أو أجمل. يعطى أشر الأشياء .
وكذلك كان قراشهم محددا مصمما: مرتبة» وملاءة, ويطانيتان؛ وعليهم النوم وهم
يرتدون ملابسهم الداخلية القطنية, التى يضمها حزام؛ ويجب أن يشتعل ضوء فى
العنير طوال الليل. وليس من حق الأخ امتلاك أية ممتلكات شخصية؛ فكل شىء
مشساع. والهدية التى تقدم لأى من الإخوة تعد هدية للجميع؛ بل إن الخصاب 62

الشخصى لا يمكن قراءته بشكل شخصى أو خاصء وإنما يقرأ بصوت مرتفع أمام المعلم. لقد كان كل ها فى الميثاق يقصد منه إقامة أو الإحجبار على إقامة حياة جماعية. إن كان ذلك ضروريا - إتكار .ا هى فردى فى صالح ما هو جماعي. إذ كان أعضاء المجلس يرون التفاخر الشخصى باعتباره أحد الأسباب الجذرية للغيرة والصراع فسهوا إلى منع ظهوره فى أى مكان فى الجماعة - حتى ذلك التفاخر المقلوب الذى يتمثل فى الحديث عن مدى فساد القرد قبل التحول. فلا أعلام بطولة على الرماح, ولا حلى على الدروع ولا أحذية مدببة؛ ولا إفراط فى الحديث؛ أو ضحك؛ وبدلا من ذلك», يطلب الفقر والعفة والتواضع. ولكن فوق هذه الصفات - وهى التزام مدى الحياة طلب الميثاق الطاعة. ش "على كل أخ التزم بالخدمة المقدسة:. أن يطيع المعلم طاعة كلية؛ من خلال الخوف من لهيب الجحيم؛ لأن ما من شنىء أحب إلى يسوع المسيح مثل الطاعة, وإذا أمر المعلم بأى شىءء: أو أى شخص أسند اليه هذه السلطة؛ يجب عمله دونما تردد وكأته أمر من الرب... لأنك يجب أن تتخلى عن إراذتك الحرة ". قد يأتى مثل هذا الإتكار للذات بيسر للقديسين؛ ولكن فرسان الهيكل ليسوا بقديسين مهما بلغ إقتناعهم؛ وقد تبصر أعضاء المجلس الأكثر دنيوية الأوقات التى لن يستطيع فيها حتى التهديد بالحرق الأبدى, أو التفكير فى المسيح كنوع من الدكتاتور الروحى؛ يمكن أن تمنع خرق الميثاق. لذا تم وضع نظام من العقويات العملية, تتراوح من أعمال الكفارة الصغيرة من خلال الأعمال المذلة كان يأكل الشخص طعامه من على الأرضء استمرارا إلى حد الطرد من الجماعة مع السجن الدائم أى دونه: كانت المخالفات تؤخَذ على مخمل الجد فى الجماعة, منذ بدايتها حتى نهايتها الشنيعة:؛ بك اودري لكل عرسيو فى فيك أبدن يعد ذلك لسنوات غدة قد مات جوعا . 63

هكذا أقر ميثاق الهيكل - أنه صارم. ومتقشفء وعلى ما يبدى لا تنازل فيه.
ولكن توجد جملة واحدة فى نهاية الوثيقة: جميع الوصايا والأوامر التى قيلت وكتبت أعلاه تخضع لحصافة وحكمة المعلم. بعبارة أخرىء لا يوجد شىء فى الميثاق نهائى؛ إذ يمكن إضافة أو تغيير أية مادة, ويمكن إضافة مواد جديدة. حين انتهي مجلس نرواء قد يكون أعضاء المجلس قد ذهبوا وهم يشعرون بأنهم قد أنجزوا عملا طيباء وأن اثنين وسبعين من القواعد تكفى تمامًا لأى شخص. غير أن قرسان الهيكل كان رأيهم خلاف ذلك. قعلى الرغم من أن الميثاق الأصلى كان يشتمل على مواد عسكرية دقيقة, مثل عدد الجياد التى يمتلكها الفارسء فإنه من الناحية الجوهرية مرشد للواجيات الدينية. فلم يعر كثير اهتمام للتنظيم والإدارة والتدرج الهرمى الذى يمكن أن يكون ضروريا؛ إذ لم يستقرق دخول إخوة جدد سوى فقرة واحدة؛ ولم يذكر أى شيء على الإطلاق عن تعيين معلم جديد بعد وفاة هيو. تلقى الميثاق بحالته هذه موافقة البابا؛ ثم بدأ الفرسان على القور إضافة أشياء إليه. وحين رضوا عنه. بعد ذلك بمائة وتسع وثلاثين سنة؛ كانوا قد أضافوا ما يزيد على ستمائة مادة إضافية. لقد كان الكثير من هذه القائمة الضخمة أمورا ثافهة أى مواد وضعت - أحيانا على عجل - لمعالجة ظروف عايرة. ولكن كل مادة من هذه المواد كانت تؤثر فى كل فارسء وكانت للكثير منها أهمية عظيمة. وأول هذه الموادء كانت مسالة التدرج الهرمى؛ وتوصيف واحبات كل رجل ومس دولياته, ذلك أنه على الرغم من أن المبدأ الذى يكمن وراء الجماعة وهو فكرة عدم وجود جيش دائم مرتزق كانت فكرة غريبة على الإقطاع وكانت إشارة إلى نهايته. فإن الجماعة كانت منظمة على خطوط ممائلة المجتمع الإقظاعى» الذى تبعت منه. فعلى رأس الجماعة كان هناك المعلم؛ ولم يعرف قط فى أثناء حياة الجماعة بالمعلم الاكبر: وبدلا من ذلك؛ يسمى 'معلم الهيكل فى القدس". وكان رجلا قويًا جدًاء لكنه لم يكن دكتاتورا. ولكن فى حين كان كل أخ مسئولا أمامه. كان هى بدوره مسئولا أمام الجماعة ككل. لقد كان منصبه, الذى يقارن بمنصب رئيس الديرء يعطيه سلطات معينة 064

وامتيازات, ولكنها جميعا كانت محدودة. إذ يمكنه توزيع أى الاستغناء عن
بعض ممتلكات الجماعة؛ ويمكنه منح الهبات باسم الجماعة؛ ويمكنه اختيار خيله
ودرعه؛ وكان هو الحارس على خَزانة مغلقة من المجوهرات تخص الجماعة. ومع ذلك؛
فى جميع القرارات المهمة, مثلاء فى إعطاء أو التخلى عن إحدى ممتلكات الجماعة: أو
فى التخطيط لحملة أو تنظيم هجوم خاص, أو فى تغيير أى جزء من الميثاق أو
الإضافة إليه أو إنفائه. أو فى استقبال أغ جديدء أو فى إعلان الحرب أو عقد السلام -
فى جميع هذه القرارات» عليه أن يستشير جماعة من الفرسانء وعلى الرغم من أن
صوته قد يكون مؤثراء فهو لا يملك سوى صوت واحد. ومع نمو الجماعة؛ كان
المحخيط به شخصيا يشتمل على أحد عشر رجلا: رفيقان من القرسان؛ مستشاراء؛
وكافن خاصء وكاتب» ومترجم» وطاه» وحداد؛ وحارس شخصى.ء وخادمان» ورقيب.
وكان لديه أريعة جياد للاستخدام العادى؛ أما فى الحملات فكان لديه ما يقرب من
عشرة؛ أكثر من الآخرين؛ وكانت راية الجماعة في المعركة تسير فى ركابه. وهى عبارة
عن صليب أسود على أرضية بيضاء؛ لقد أصبح هذاء أى الجونفالون بوسينت» مصدر
يلبلة معهودة بين المؤررخين حين كانوا يكتبون عن الهيكل فى بدايته. وكلمة بوسينت
تعنى تقريبا ذا مظهر حسنء لكنها كانت اسما للراية. فى واقع الأمر فإن كلمة بوسينت
كما تظهر فى الميثاق, كلمة شائعة جدا فى حكايات العصور الوسطى. ولها معنيان:
بيبالد» شبيه الحصانء أى يصورة أكثر بساطة راية. وهكذا فإن الاسم لم يكن أصلا
قاصرا على فرسان الهيكل؛ ذلك أن الكثير من الجيوش كان يمكنها أن تشير إلى راياتها
باعتبارها بوسينت: والكثير من تلك الجيوش فعلت ذلك. كما لم يكن الصليب الأسود
والأرضية البيضاء الجونفالون "الرمز الأصلى لفرسان الهيكل. فقد صودق عليه عام »
وفي ذلك الوقت كان هيو دى بيان قد مات. ولكن المعنى المزدوج كان غريبا على
فرسان الهيكل. لأن الراية التى ركبها هيو ورفاقه قى تلك الأيام الأول كانت أسود
وأبيض: من خيث الشعارء كان ذلك ملحا مع اللون الأسود الداكن أو الأدهم - أن يكون
هناك أبيض ناصعم: يعلوه شريط أسود عريض. 6

وكان عدد قليل من فرسان الهيكل الحق راكبين مباشرة بجانب الراية: وهم ناظر الإقطاعية, والمرشالء وأمراء مدينة القدس ومدن طرابلس وأنطاكياء وأخيرا معلمى الأقاليم, مثل إنجلترا والبرتغال» وأرجونء والمجر وفرتسا. كان هؤلاء هم جميعا أهم المسئولين فى الجماعة. وكان ناظر الإقطاعية هو من يلى المعلم فى القيادة. وكان لديه, بالإضافة إلى الراية. خيمة وختم مطابق لختم المعلم, وينوب عن المعلم فى غيابه. أما المرشالء فلم يكن الثالث فى القيادة فحسب لكنه كان أيضا قائدا عسكزيا أعلى؛ ويتحكم فى تخصيص الأسلحة: والشيؤل: وبقرن التكتكات والاستراتيسية: ويقود الهعات ضد العدو. وكان قائد مدينة القدس مسئولا عن صحة الإخوان ورعايتهم: وكان يصحبه عشرة فرسان دائمين» ويمرور الوقتء. ومع نمى النشاط العسكرى للهيكل؛ أسند إليه واجبان إضافيان: الواجب الأول المتعلق بحماية البفاء: وتأمين ونقل أحد أقدس الآثاى السيهنة: وهى عبار عن قطعة من الخشي يعنتقد آتها قطمة من السلين الحقيقى. وأخيرا قيادة مقاطعات طرابلس وأنطاكياء ومعلمى الأقاليم: كان هؤلاء الرجال فى أراضيهم يتمتعون بسلطات مكافئة لسلطات المعلمء ولم يكونوا يتخلون عنيا إلا إذا كان المعلم معهم. وثمة رجل آخر يمكن إدراجه مع هؤلاء المسئولين الأكشر عظمة: مسئول الأقمشة والملابس. واجباته لم تكن مك لكنه كان شديد الأهمية بالنسبة للجماعة, لأنه هى من كان مسئولا عن كل ما يتعلق بملبس الإخوان وفراشهم. ويمكن قياس حجم أهميته من حقه - المطابق لحق القائد فى امتلاك أريعة من الخيول وثلاث خيام, للملازمين له؛ وهم يتكونون من ثلاثة سكوير (أفندى) وحارس فسن ومجموعة من الحائكين بطبيعة الحال. وجميع الممتلكات الخاصة بالجماعة, سواء كانت قلاعًا أو مزارع» كانت تسمى 'بالدور". ومن بين المسئولين الأقل درجة كان. هناك وتان مهمتان هما قادة الدور, المسئولون أمام قائد الإقليم؛ إوقادة الفرسان الذين كانوا يقومون مقام المرشال. 5 66

ثم يأتى الفرسان. فدونهم لم تكن الجماعة لتوجد؛ وعلى الرغم من أن سادتهم كانوا أشخاصا مميزينء» يمكن معرفة حياتهم وشخصياتهم بوضوح. قمن المناسب أن تظل صورة الفارس على صهوة الجواد. مرتديا درع الزرد والجلباب الأبيض القصير الملفوف حول الخصر هي الصورة المميزة للفرسان؛ لأن الإخوان الفرسان» بصحيتهم 'بوسينت" هم الطليعة والإخرة لكل قوة من قوى فرسان الهيكل. ومع ذلك حتى هم لم يكونوا أكثر المجموعات عددا فى الجماعة - كانوا يجندون من بين طبقة النبلاء؛ وكانوا رأس حربة الجماعة والدفاع عنه. وعن الأراضى المقدسة:؛ غير أنهم كانوا فى حاجة إلى نظام دعم كبير كى يتمكتوا من العمل بشكل فعال. فقدم هذا الدعم الإخوة الرقباء. وكانوا أعضاء من البرجوازية الثرية؛ وكان زيهم أسود أو ينى اللون, وكانت واجباتهم تتراوح من الطهى إلى القتال. وعادة ما كان عددهم يفوق عدد الفرسان بنحو تسعة إلي واحدء وإذا كان الفارس فو العمود الفقرى للجماعة, فإن هؤلاء الرقباء يشكلون الجسد. لم يكن الرقيب يملك سوى حصان وأحدء فى حين أن الفارس يملك ثلاثة جياد. ولكن ثمة امتيازات مفتوحة أمام الرقيب لم يكن للفارس أن يصبى إليها. على سبيل المثال. كان قائد ميناء عكا دائما من الرقباء؛ وكان هؤلاء الرقياء هم الحرس الشخصى للمسئولين الأكير درجة؛ كما كان حامل الراية أيضاً من بينهم. فى البداية» لم يكن للجماعة رجال دين خاصون بها؛ وكان يقوم بخدمة أعضائها من الناحية الدينية كهنة وقساوسة خاصون من كنيسة روماء وكانوا يتلقون الإقامة والطعام؛ ولا شىء أكثر من ذلك؛ ويرتدون ملايسهم العادية. وقبل مرور وقت طويلء. كل هذا سوف يتفير؛ كذلك كانت طريقة استقيال أعضاء حدد تتفير. وكذلك القبول فى الجماعة. ذلك أن الميثاق الأصلى قفز بخفة على ما كان مقدر له أن يشكل مشكلة رئيسية: لم تكن مؤهلات الدخول أقل تعقيدا. "إذا رغب أى فارس علمانيء أو أى رجل أخر أن يترك جماعة الضياع ويتخلى عن هذا القرنء لا تنكروا دخوله. لأن القديس بولس قالى: 'وافقوا على الروح إذا أتت من الرب". حين يكون أمام الإخوة. ضهوا 67

الميثاق أمامه؛ وإذا رغب فى أن يطيع أوامره بكل دقة. وكان المعلم والإخوة راضين عن استقباله. اجمعوا الإخوة فى اجتماع؛ ودعوه يبين رغبته وإرادته أمام الجميع". كان أعضاء المجلس فى تروا رجال كنيسة لديهم تجربة وخبرة. ولا بد أنهم شعروا أن هذا يكفى. غير أن فرسان الهيكلء لم يكونوا كذلك؛ فهم بوص فهم عسكريين: لم يكونوا معتادين على مقفهوم السلطة الروحية. وكاتوا يريسدون أن يكونوا على صواب. لذا فهم فى حاجة إلى المزيد من التفاصيل. فوضعوا مراسم طويلة. وسجلوها؛ وكانت مصممة بحيث تردع أى شخص غير ملتزم التزاما تاما. وتبدأ بأن يقف المرشح للعضوية أمام القرسان المجتمعين؛ يستمع إلى حديث يذكر بالعرس بشكل غريب : "أيها الإخوة الطيبون, ها أنتم ترون جيدا أن معظمكم وافق على جعل هذا (الرجل) أخا؛ فإذا كان منكم من يعرف سببا يمنعه من أن يكون أَخا بحكم القانون, فليقل ذلك, لأن مثل هذا الشىء يحسن أن يقال قيل أن يصير هذا الرجل بيننا وليس بعد ذلك". وإذا لم يقل أحد أى شىء يؤخذ المرشح للعضوية إلى حجرة ملحقة» ويسأله أكبر أعضاء الجماعة. إنهم يشالونة وعلميا إذا كان يرغب فى أن ينضم إلى الجماعة» وإذا رد بالإيجاب, أظهروه على "الوصايا الخيرة والصعوية الكبيرة فى الدار". إذ عليه أن يفهم بوضوح ويوافق على أنه لدى دخوله الجماعة» 'سوف يتحمل عن ليب خاطر كل شىء من أجل الله. وأن يكون خادم الدار وعبده للأيد وجميع أيام حياته". ثم يتم سؤاله عن وضعه: هل هو متزوج أى خطب كى يتزوج؟ هل أقسم أو قدم وعدا قبل ذلك لأية جماعة أخرى؟ هل عليه أية ديون لم يستطع دفعها؟ (إذا كان الأمر كذلك, فسيكون هذا مانعا مطلقا للدخول) هل صحته جيدة؟ هل يعانى من أى مرض خفي؟ هل هو عبد فى أرض أى شخص؟ 0

إذا قنع الكيار بإجابانةه, بوصون الاجتماع بقبول المرشح, وتعاد أجويته
على المجتمعين. ثم يطلب المعلم» أو الشخص المسئول؛ المجتمعين إذا كانوا يرغبون»
باسم إحضار المرشح. ويقدم طلبه الرسمى وهى حاث وواضع يديه في اتجاه المنصة:
باسم الرب وياسم سيدتنا أن تهبوني صحبتكم وفوائد الدار باعتبارى شخصا سيكون
من الآن فصاعدا خادمه وعبده . ثم يأتى نصح وتحذير المعلم للمرشح: "أيها الأخ
الطيب, إنك تطلب شيمًا كبيراء لأنك لا ترى سوى القشرة الخارجية لديانتنا؛ وترى أن
لدينا جيادً) جيدة وأجمة جيدة وطعامًا وشراباء وقد يبدو لك أنك سوف تكون فى
راحة هنا. غير أنك لا تدرى الأوامر والمتطلبات القوية بالداخل؛ لأنه من الصعب عليكء
أنت يا من كنت سيدا لنفسكء أن تجمل من نفسك حَادمًا لآخر. إنك بالكاد ستفعل أى
شىء تريده: إذا أردت أن تكون فى أورياء ربما يتم إرسالك إلى ما وراء البحار. وإذا ما
رغبت فى أن تكون فى عكا؛ قد يتم إرسالك إلى طرابلس. أو أنطاكيا أو أرمينيا. وإذا
أردت أن تنام» قد يتم إيقاظكء وإذا كنت يقظا فقد تؤمر بأن ترقد. أيها الأخ الطيبء
هل يمكنك تحمل كل هذه المشاق". وعلى المرشح للعضوية أن يجيب قائلا: 'تعم,
سوف أتحمل كل ما يرضى الرب" فيجيب المعلم: "أيها الأخ الطيب» قى صحبتنا لا
يجب أن تسعى إلى سيادة أو ثروة, لا ولا راحة جسدية. وعليك أن تسعى إلى أشياء
ثلاثة: أن تنبذ وترفض آثام هذا العالم؛ وأن تقوم بخدمة سيدنا؛ وأن تكون فقيرا تائبا.
فهل تعد إلهنا وسيدتنا أنك من الآن قصاعدا فى جميع أيام حياتك. سوف تطيع معلم
الهيكلء وأى قائد أعلى منك؟ وأنك ستعيش حياة العفة بلا أية ملكية شخصية؟ وأنك
ستلتزم بالعادات فى دارنا؟ وأنك سوف تساعد بكل ما تستطيع على فتح أرض القدس
المقدسة؟ وأنك لن تغادر هذه الجماعة أبداء لا فى القوة ولا فى الضعق, ولا قى الضراء
ولا فى السراء069 ."

فإذا كان المرشح للعضوية مصرا على الانضمام: وإذا كان المجتمعون لا
يزالون موافقين» إذن ينطق السيد بكلمات القبول: 'باسم إلهنا وسيدتناء والقديس
بطرس وأبينا الباباء نمنحهك ونمنح أباك وأمك وكل من تشاء من سلالنك. فوائد الدار.
كما كانت منذ بدايته وستكون حتى النهاية. وأنت ستمنحنا جميع ما لديك من فوائد
وسيكون لديك منها؛ ونعدك بالخبز والماء, والمشقة والعمل, ورداء الدار الفقير' . 0م

الفصل الثالث أوربا والأراضى المقدسة: -11١15 311158 يأتى الحلم من
كثرة الشغل .... سفر الجامعة , الإصحاح الخامسء الآية * كان عام ١١17 عاما يخلو
من الأحداث فى الدول اللاتينية فى الأراضي المقدسة. إذ لم يقم بوادوين الثانى. ملك
القدس. سوى بحملة صغيرة. ولم يقم بها أحتى شهر أغسطس. وكانت علاقته
ببطريارك القدسء, جومبارد؛ علاقة طيبة؛ إن أدار الرجلان الاننة المقذسسة بيتيما
بوسر آنا فيه وراء الصدوك السفحتة :قن مسعقلرة: لمق وحوران: وحلبء
والموصلء,فكان المسلمون هادئين. وكذلك تمكن يولبوين من الإقلال من مسئولياته
الشخصية: ففى العام السابق تخلى عن وصايته على عرش أنطاكيا عين بلغ بوهيموتن
الثانى سن الرشد كان الأمين الجديد:قدوصل بهراء فى أكتوير عام 7١١1؛ كان طويلاء
أنيقا أشقرء يبلغ من العمر.ثماني عشرة سنة. كما كان أحد أبناء أخى ملك صقلية.
وحفيد ملك فرنسماء وما إن وصل إلبن أنطاكيا جتى تزوج ابنة بولدوين الثانية, أليس.
فابتهج بولدوين؛ فعدا أى.شىء آخرء كانت أليس فتاة متعبة: صلبة الإرادة, وكانت
أنطاكيا تبعد عن القدس ثلاثمائة ميل. 00 ومنغ ما ساد من سلام غير معتاد عنام
/1101, - سلام فى دارهء وسبلام فئ المدينة..وسلام فى البلؤد» - تمكن بولدوين من
التأمل.قئ المستقبك..لقد. كان-فزسان 71

الهيكل أناسًا مبشرينء جديرين بالثقة ومطيعين. ولم يكن هناك من
يشبههم فى الأراضى المقدسة بأكملها. فإذا كانوا أكثر عدداء فإن مشروعاته الأثيرة إلى
قليه فتح دمشق وعسقلان تصبح ممكنة. ويدا أن بيرنار دى كليرفو يحمل مشاعر جيدة
نحو الفرسان؛ ويد! أن الوقت مناسب للخطة التالية. لذاء فحين سافر هيو دى بيان
وإخوته إلى أورباء فى ذلك الخريفء. سافروا على خلقية من الاستقرار النسبى. ولكن
فى حوالي الوقت الذى كانوا يقفون فيه أمام مجلس ترواء بدأت الأمور تتغير فى
القدس. إذ مات البطريارك جومبارد. وحل محله ستيفنء رئيس أحد الأديرة فى شارترء
وتصادف أنه أحد أقارب بولدوين. غير أن هذه القرابة لم تكن تعنى الكثير لدى ستيفن,
الذى كانت لديه أفكار محددة تتعلق بمنصبه فى القدس. وحيث كان جومبارد سهلا
ليناء كان ستيفن متشددا متصلباء ويشعر أن السيادة على المدينة المقدسة يجب أن
تكون للبطريارك وليس للملك. لذا فسد ميزان السلام الدقيق» وقبل وقت طويل بدأ
صراع طويل بين الرجلين. ذلك أن بولدوين كان عازما على الاحتفاظ بسلطته؛ وكان
يدرك أن هناك سببًا وجيها يجعل أحد رجال الله يحكم مدينة الرب؛ غير أن القدس
أصبحت دولة زمنية بقدر ما هى دولة روحية. وكان سياسيا؛ لذا حين كان ستيفن
يجادلء كان بولدوين يضع الخطط. كانت الملكية على القدس ملكية انتخابية بشكل
صارم: إذ يختار ال ملك القرسان والبارونات» كرجل أول بين متساوين؛ وليس ملكا.
وكانت لهذا النظام ميزة عظيمة هى أن ا ا او او ررك ا 1 ذلك أنه إذا لم يتفق
المنتخبون, كين اللخ يديه ولصيركي المعاح الخار 11 كان بولدوين مقتنها بأن الملكية
الوراثية يمكن أن تكون أكثر استقرار! من الناحية السياسية. وكانت هناك سوابق بالفعل
فى القدس المسيحية - فجودفرى دى بويون» حاكمها الأول. كان منتخباء؛ لكن
بولدوين الأول كان أخاه. وكان بولدوين الثاني اين أخى كليهما. وكانت لديه. للأسفء
إعاقة واحدة كبيرة: إذا أراد تأسيس أسرة حاكمة مالكة فليس لديه سوى بنات. وكانت
أليس الثانية متزوجة؛ أما الاثنتان الصغريان, 72

فكانتا طفلتين؛ لكن ميليساند الأخت الكبرى» كانت شابة جميلة. فقرر بولدوين أن الوقت قد حان كى تمنح زوجًا. فتم إرسال وفد ثان إلى فرنسا فى أعقاب فرسان البيكل. وفى ذلك الوقت كان المجلس في تروا قد انتهى. وبعد أن نال وفد الفرسان الصغير بالموافقة الروحية: بدأ المرحلة الثانية من عمله. وكانوا يسعون لنيل المساعدة المادية. ولم تتأخر في المجيء. فى الواقع, لقد تم أول تبرع قبل أن يبدأ المجلس: إذ إنه فى أواخر عام /l1□1١١١ قدم كونت تيبو دى شامبانى للجماعة ملكية فى باريون- فييل» على بعد خمسة وخمسين كيلومترًا شمال غرب تروا. كانت تحتوى على مزرعة ما زالت موجودة؛ وما تزال تسمى لا كوماندرى. ومنحت على الأقل ثلاث ملكيات أخرى زمن انعقاد المجلس. وضرب هيو دى بيان المثل بأن تبرع بأرضه في بيان؛ وقدم عضوا المجلس اللذان حذيا حذوه أراضي ومبانى فى يويسيىء ولانو فى شمال شرق وشمال غرب باريس. ثم افترق الفرسانء مرتحلين بمباركات البابا والقديس بيرنار لجمع المساعدة فى أنهاء فرنسا. وها زالث هناك بعض الملحوظات عن جولة هيو إنها موجزة وكانت محل تجاذبات من حين لآخر بين العلماء: ولكن إذا ما أخذنا الأكثر تأكيدا من بينهاء يمكن تتبع صورة عامة عن الرحلة. يبدو أنه اتجه إلى الغرب أولاء وفى إبريل وهاي من عام 8□١١ كان ضيقاأ على أحد رفاق السلاح القدامى» فولك. كونت أنجىء الذى كان قد انضم إلى الجماعة باعتباره عضوًا مشاركًا عام ١□١١: وكان بلاط فولك, شأته شأن غيره فى العصور الوسطى: متنقلاء وتم جمعه في هذين الشهرين فى تور ولامان. ومن هناك اتجه هيو شمالا إلى القنذال. مارا يأراض تخص هنرى الأول ملك إتجلترا. فالتقى هيو وهنري فى بورماتدى, وحسب ها جاء في السجل الأتجلوساكسونء "استقيبله املك بحفاوة كبيرة؛ وإعطاه كنوزا كبيرة. تتكون من الذهب والفضة؛ ثم أرسله إلى إنجلتراء وفناك 73

استقبله جميع الرجال الأخيار وقدم له الجميع الثروات - وفى سكوتلاندا
أيضا وأرسلت بواسطته إلى القدس ويها ممتلكات كلها من الذهب والقضة ولا توجد
تفاصيل عن عبور فيو للقنال؛ ولا عن رحلته فى بريطانياء ولكن من المؤكد أنه وجد
دعما فى بريطانيا - وتقول السجلات إنه دعا الناس للخروج إلى القدس» وذهب معه
وتبعه عدد كبير من الناس لم يذهب مله منذ أيام البابا إيربان» - ومن المحتمل أن
يكون هيكل لندن الأصلى فى تشانسرى لين» قد تأسس حينئذ. وكانت جولة فى
بريطانيا جولة طويلة, إذ يبدو أنها شغلت هيو طوال يونية» ويولية» وأغسطس من
عام ١١28 وعاد فى سبتمبر عبر القتال, هذه المرة فى فلاندر» فى منزل أخيه فى
الهيكل جوضرى دى سان أومر. إذ كان جوفرى قد أعطى ممتلكاته هناك للجماعة: بما
فى ذلك دار كبيرة فى أيبر. وتلقى باسم الجماعة من كونت ويليام الفلاندرى مخالصة
فلاندر - وهى هبة كبيرة عبارة عن مستحقتات تدقع للكونت لدى سبادلة أو بيع
ممتلكات في مقاطعته. ولسوء الحظ أن الكونت كان قد مات بعد أن قدم الهبة بوقت
قصيرء غير أن خلفه جددها فى ؟١ سبتمبر مع توقيع هيئ ويبعد ذلك بيومين» فى ١١
سيتمبر أعطى والد جوفرى للجماعة مخالصة أرضه فى سان أومر. بعد ذلك/ يختفيى
أثر هيو. ولكن من المؤكد أنه كان ما يزال مشغولا. إذ توجد على الأقل أربع ملكيات
أخرى يعتقد أن تاريخها يرجم إلى عام 4١١: كولوميى شرق باريس - وهى هبة أخرى
من كونت تيبى دى شامبني؛ وانسيني» وشالان» فى شرق وشمال غرب روشيل؛ وفال -
دى - لا - هى شمال غرب روان. وتكتسب فال - دى هى؛ أهمية خاصة لأنه يقال إنها
منحت من قبل هنرى الأول ملك إنجلترا؛ وكان فى كنيستها زجاج نافذة مبقع يصور
أحد فرسان اليكل وهى يصلى: كي النافذة. أولا إلى سان دنى» ثم إلى الإنكور» على
بعد ثلاثة وعشرين كيلومترا جنوي شرق باريس؛ حيث ما زالت توجد ويظهر هيو بعد
ذلك فى ترواء بعد عام من التقاء المجلس هناك. وفى الأشهر الواقعة بين زيارته إلى
فلاندر وعودته إلى تروا» وقعت 74

حادثة لا بد أنها قد جلبت السرور إلى قلبه؛, ث شخصيا وياعتباره معلم
الهيكل. ذلك أن وفد بولدوينء الذى يطلب صهر! مناسبا من ملك فرنسا؛ قد أنجز
مهمته, ولم يكن الخطيب الموصى به سوى فولك دى أنجو. البيكل؛ وهو إنسان ناضجء
ومحارب مجرب:ء وواسع الثراء» ولديه صلات جيدة؛ - ابنه هو صهر هنرى الأول. أما
كونه قصيرًاء ولا يتمتع بحسن المنظر بشكل خاص, ومتصلب الرأى فهذه لم يبد أنها ذا
ت صلة؛ فقبله بولدوين نيابة عن ميليساند, وقيل فولك مبليسيائد. وغاداقرضا على ها
يدق مغ هرى فى رزو 157 مين كان فشان اليس قد أقاموا حصنا جيد! قويا فى أوربا
- ليس فى فرنساء وإنجلترا؛ وإسكوتلاندا ولكن فى البرتغال أيضاء حيث منحتهم
الملكة تريزا قلعة وفوائد مدينة صورء على نهر مونديبجو. وكانت هذه إحدى أوائل
الهبات فى 15 مارس عام 2,1١17548 وقى ما يريد قليلا على عام؛ وجدت شبكة من
الدور والقلاع فى معظم غرب أورباء ووفب عدد غير معروف من الرجال للجماعة.
وذهب الكثير منهم مع هيو وفولك إلى الأرض المقدسة مباشرة والغرون مح العرب
السلميت» لكن بعهبهم اشطروا للبقاء لإذارة المنتلكات الجديدة. وجمع حاصلاتها
وعشورهاء والاستمرار فى الترويج للجماعة في أورباء ولإرسال المزيد من الدعم إلى
القدس. لقد كان فؤلاء هم الأبطال الهادون للمسيحية, لأنه إذا كان فرسان الهيكل هم
المدافعون الرئيسيون عن القدس, فإن الفرسان عولوا بدورهم بشكل رئيسى على
الأعضاء الأوربيين كى يزودوهم بأفضل ما لديهم من خيول ودروع ورجال والكثير مما
يملكون من مال. لقد أصبح خدم الهيكل فى أوربا؛ من رجال لم يحملوا سيفا قط فى
حرب مقدسة. ولم يروا قط عربيا مسلما قى حياتهم, جنود الإمداد للحروب الصليبية
ولا يجب نسيانهم. وفى عام 5١١, أصيصوا قوة متناثرة فى غرب أوريا من
اسكوتلاندا إلى البرتغال؛ وكانت جماعة الهيكل تتغير بالفعل. فمن جمعية من تسعة
أشخاص أخذت ثنمى إلى أن صارت إمبراطورية 759

مصغرة. عاصمتها فى القدسء ومستعمراتها فى أورباء وكان ينبغي تنظيم
الممتلكات النابتة, التى بذرت ونثرت فى العالم القديم. وفوق هذه جميعا؛ عين رجل
واحد معلما للهيكل فى فرنسا. وكان هذا الرجل هو بيان دى مونتفيي, أحد الأعضاء
المؤوسسين اأماعة وفص كان التنظ السليم عيدا: بعد تجاحات هيو الهائلة فى الوطن
غادر أوربا لآخر مرة. ويقى مونتفيى فى فرنساء حيث يفترض أنه قضى بقية حياته
فى الإدارة الوليدة, يتلقى هبات للجماعة. ويقوم بتدريب إخوة جدد على القيام
بواجباتهم, وزار إنجلترا مرة على الأقل. إذ ذهب إلى هناك عام 9١١ أو نحو ذلك.
حيث تسلم هبة من ٠ سوليدى من ويليامء إيرل وارين» وأراضى فى هوك نورتون فى
أوكسفوردشير من مالكهاء رويرت دويل. وأبحر هيو دى بيان وفوتك: وفى صحبتهما
أتباعهما من عامانيين (الدنيويين) والإخوة الجدد إلى عكاء ووصلوا إلى هناك فى مايى
من عام 4١١» وتقدموا نحو القدس» حيث تزوج فولك وميليساند فى نهاية مايو.
وكان هناك اتفاق عام على أن فولك هو أفضل اختيار, ذلك أنه رجل يمكن أن يخدم
تحت لوائه البارونات الصليبيون عن طيب خاطر. ويبدو أن الكتفصن الوحية الذى كان
معكركا هئ مبليساند» التى على ما يبدو كانت الشخص الوحيد الذى لم يستشر؛ غير
أن بولدوين الذى سره عدد القرسان الجدد» وصهره الجديد, وجميع التحصينات
الأخرىء تجاهل ابنته بكل سرورء وجلس مع فولك ليناقش فتح دمشق. وكانت نتيجة
المعركة فى أكتوير هزيمة واضحة للفرنجة. ذلك أن أى معركة؛ وحتى اليوم؛ فى إلى
حد ماء مسالة مصادفة؛ وفى القرن الثانى عشرء. ودون جيش دائم, يتشكل بالتدريب
والانضباط كان الآمر هكذا بدرجة أكبر. بل أن قرار القيام بمعركة كان على نقس أهمية
المعركة ذاتها إذ ما إن تشن المعركةء تكون إلى حد كبير خارج سيطرة القائد, طالما كان
من المستميل ليه إعادة ترتيب قواته تقريبا. وما فم يتمتع الجيش المهاجم بميزة
المفاجأة» فإن القتال كان يتوقف تقريبا على الروح المعنوية, لدى الأقراد المتحاربين
وما يتمتعون به من شجاعة ومهارة وحظ؛ ونم يشكل وجود بولدوين أية مفاجأة على
الإطلاق للدمشقيين. وكان أكثر الأجزاء تنظيمً 76

فى الفشل الزريع بأكمله هو الاتسحاب إلى بنياس. إذ ريما كان بولدوين
يأمل فى البداية أن يقدم فرسان الهيكل الجوهر الضرورى للاتنضباط. ولا يوجد أى
سجل عن أداء فرسان الهيكل فى دمشقء على الرغم من أنهم كانوا هناك بالتأكيد؛ ولكن
إذا كان بولدوين قد وضع آماله فيهم. فذلك ليس من الواقعية. ذلك أنه مع ما لدى هيى
وغيره من مؤسسي الإخوة من معرفة ومقدرة. فإن مفهوم المعركة المنظمة الموحدة
كان غريبا بالنسبة لهم. فهم تدريوا بوصفهم فربسانًا أوربيين؛ ولم يصيحوا فريقا مقاتلا
بعد. أضف إلى ذلكء أنهم كانوا فى بلاد غريبة» يقاتلون على أرض غير مالوفة, وفى
مناخ وظروف ما زالت جديدة بالنسبة لهم؛ فكان فرسان الهيكل الجدد يرغبون فى قطع
رقاب العرب المسلمين» يأسرع ما يمكن, غير أن الهجوم على دمشق كان أمرا متسرعا
جدا. ولكن على الرغم مها حدث في دمشقء فقد بهر فرسان الهيكل مواطنيهم فى
الأراضى المقدسة. إذ وصف أحد أوائل المؤرخين, جاك دى فيرى كيف كانوا دائما
مستعدين ومسلحين ”فى أى وقت من التهار أو الليلء قد يطلبون فيه. سواء للقتال أو
لمصاحية المسافرين؛ وحين يطاردون العدو, لا يسألون 'كم عددهم' ولكن فقط أين هم'.
مثل هذه الأخبار وجدت طريقها إلى أورباء عن طريق الحجاج والفرسان الدنيويين.
فاستحوذت على خيال الناس؛ مما أضاف إضافة كبيرة إلى نجاح فرسان الهيكل الذين
بقوا فى أوريا؛ وفى عام ١١٢١ انعقد مؤتمر فى تولوز كان غرضه الوحيد المحدد هو
إعطاء الهبات لجماعة الهيكل. وما يزال المخطوط فى تولوز اليوم, وهو عبارة عن
وثيقة طويلة بها أسماء خمسة وأربعين متبرعا سجلت بها. وتراوحت هباتهم من كميات
صغيرة من المال - بنس الآن ووستة بنسات حين أموت, إلى ذهب وفوائد للكنائس,
وبين ذلك بعض التبرعات العملية والحيوية: مثل أفضل حصان لدى هذا الشخصء
ودرع وحصان ودرع من ذاك, "حين أموتء لى كانت لدى, أما إذا لم يكن» إذن
فعشرون قطعة ذهيا" وأفضل ملاءة لدى هذه المرأة» وكثيرات من النساء كن 77

يتدرعن بقميص كل عام وينطلون قصير (سروال), وأفضل ما لديهن من
عباءات: حين لم يكن هذا هو كل ما تلقاه فرسان الهيكل. إذ كان الإخوة فى أوربا
يطلبون؛ والناس فى أوريا يداومون العطاء. ففئ إنجلترا كانت هناك ممتلكات فى
بكينجها مشيرء ولينكوانشيرء وهيرتفوردشير, واسيكس؛ وفى فرنسا أراض ومبان» فى
دول: وبوديمون؛ وكارلاء وسواسونء ولون» ونيسء وفوا وريشيرش» ولا روشيل؛
وفى آلمانيا قلهة سويليتجبورج؛ وفى قطلونياء قلعتا جرانيرياء وبربيرا؛ وفى أرجون
ونافار, المملكتين التوأمين,. سمى فرسان الهيكل ورثة ث المملكتين. وكذلك تقاطر
الناس فى كل مكان للانضمام إلى الجماعة. حتى أنه من غير المتصور اليوم أن تجذب
جمعية دينية مثل هذه الاستجابة الشهبية الواسعة؛ غير أن أسباب جاذبيتها في ذلك
الوقت واضحة. أحيانا كانت أسبابًا خاصة معينة كما هو الحال فى مثال الفارس الذى
توفيت زوجته وأبناؤه الثلاثة فى تعاقب سريعء أو الفارس الذى دهم الجذام زوجته
بعد أن حملت له ابنة» واضطرت إلى أن تعيش بعبدا عنه إلى الأبد. وأحيانا كان هناك
رجال سئموا حياة الانقماس فى الملذات والعبودية للحرية». والحاجة المستمرة للتفكير
فى الفد؛ بالنسبة لهؤلاء ويالتسبة للكثيرين غيرهم,ء فى ذلك الوقت والآن» لم تكن
حرية الإرادة الشخصية هى أكبر الحريات, وإنما هى أثقل المسئوليات. ولكن بصفة
عامة, فإن الجاذبية الفريدة التى تمتع بها الفرسان كانت الجمع بين الحرب والعبادة,
فهما غرام ذلك العمصر. إذ كان نفوذ الكنيسة فى المجتمع أكبر مما هو اليوم؛ إذ ثم يكن
سوى الشخص الاستثنائى هو الذى يسير عكس تعاليم الكنيسة دون أن يحس إحساسا
صادقا بأنه يعرض روحه للخطر. بالطبع, كان هناك الكثير من الناس الذين تحدوا
كاهنهم أو أسقفهم وانحدروا فى إدمان الضمر ولعب القمارء والزناء ولكن حين كانوا
يفعلون ذلك؛ كان ضميرهم يعذبهم. ذلك أنه كان هناك تمييز بين أثر المسييح على عقل
الإنسان الواعى وقلبه غير الواعي: وبين واجباته ورغباته؛ إذ كانت الكنيسة تقول
للناس ماذا يفعلونء, وكثيرا ما كان ذلك يختلف عما يريدون. 78

ووجد الفرسان الدنيويون أنه من الصعب حسم هذه الفجوة؛ فكانت طريقتهم فى الحياة موضع شك فى أعين الكنيسة. بالنسبة لهؤلاء الناس جميعا - لمن فقدوا أراضيهم أو أسرهم., أو من كانوا يتطلعون إلى هدف صالح فى الحياة؛ أو من أرادوا القيام بواجبهم المسيحى دون التخلى عن مهاراتهم الحربية - قدم الفرسان فرصة مثالية. لقد كانت هناك الكثير من جماعات الرهبنة التى تقدم الخلاص عن طريق الصلاة, أى الأعمال الخيرية؛ واكن فى ذلك الوقت, كان فرسان الهيكل وحدهم هم من وعدوا بالحياة الأبدية عن طريق القتال. أما بالنسبة لأولنك الذين لا قبل لهم بالقتال - النساءء والعجائز. والمرضمي: أو من لم يستطيموا ترك منازلهم لسبب أ آخر - يمكن للخلاص أن يأتى عن طريق الهيكل أيضا . وكثيرا ما كانت تمنح الهبات 'لمحو خطاياى" 'لصحة نفسى" "لقداء نفسى ونفس أخى' بل كان من الممكن ضم الموتى: "أنا وإخوتى وأخواتى وأزواجهنء نعطى هذا لفرسان هيكل سليمان الفقراء للعفى عن ذنوينا جميعا وخطايا والدينا...' وحين كان الفرسان يسمحون بدخول أخ حديد ويطالبون بجميع ما يملك, كانوا يعقدون صفقة صعبة؛ لكن الفوائد كانت جمة. وبالنسبة لبعض من لم يكن مسموحا لهم الانضمام, قد تكون حياة الهيكل بدت لهم بالفة التقشفء لما بها من انضباط وإتكار للذات» وطبيعتها المنظمة تنظيما تاماء لا شك فى قسوتها. ولكن كانت هناك أقسام لهؤلاء الناس أيضا: فيمكن أن يكونوا إخوة مشاركين مثل فولك من أتجوء أى من الممكن أن ينضموا لفترة معينة. وكثير من هؤلاء كانوا أسريين لا يرغبون فى ترك أسرهم للأبد؛ وآخرون كان أبناؤهم كبارا. عمومًا, فإنه مهما كانت لدى المرء من وشائج مع الحياة الدنيوية» يمكن العثور على طريق لجزء من الجماعة. فهيو دى بيان نفسه كان متزوجا - وهذه إحدى التفاصيل القليلة التي تعرف عن حياته. وكانت زوجته قد توفيت, وإن لم يكن من المعروف متى كان ذلك؛ وربما كانت وفاتها هى التى دفعته إلى أن يذهب ليكون محاربا صليبيا. وكان لديهما ابن» أصبح فيما بعد رئيس دير سان كولومب فى سانء وكان؛ مثل أبيه. عضوا فى 79

المرتبة الوسطى من التبلاء. لقد كانت هذه الطبقة هى السبب الأخير وإن لم
يكن أقل أسباب شهبية الجماعة, لأن الناس كانوا عندئذ متعجرفين كما هم الآن. أما
مصداقية هيو فكانت متأصلة فى مرتبته الاجتماعية تقريبا كما كانت راجعة إلى
توصية القديس بيرنار وحين تكون فكرة من الأفكار مقبولة اجتماعيا وتلقى إعجابا
روحيا وتكون مرغوبة من الداخل؛ فلا حد لما يمكن أن تحققه من نجاح. وصار النبع
شلالا. يقال إن هيو أعاد معه مائة أخ جديد إلى الأرض المقدسة, والمزيد من الرجالء
والمال والخيول والدروع تبعوه بلا انقطاع. ويقدر ما كان الأمر يتعلق ببولدوين» كلما
زادت هذه الأشياء كلما كان أفضل؛ فالدفاع عن الأرض المقدسة يحتاج إلى كل ما يمكن
لأوربا أن تقدمه. ففى القدس فى عام ١١٠ كان سلام عام 7 قد طواه النسيان منذ وقت
طويل؛ إذ رفض ستيقن البطريارك المساومة؛ وفى الشمال كان المسلمون قد وجدوا
قائدا جديدا. كان اسمه زنكي؛ وكان قد وصل إلى السلطة بهدوء حين عين حاكما على
حلب فى 18 يونيه ,1١74١ ولكن على الرغم من بدايته الهادئة, كان عازما عن رد
الغزاة الفرنجة عن الأراضى المقدسة؛ ومع مقدم عام كان قد صار سيدا على شمال
سوريا. وفى فبراير عام ١١7٠١ قتل الأمير الشابء بوهيموند الثانى أمير أتطاكيا . صهر
بولدوين عن طريق أليس ابنته الثانية, في ميدان القتال وهى فى الثانية والعشرين من
عمره. وخلف ابنة؛ لكنه لم ينجب ابناء وسرعان ما أعلنت أليسء تلك الفتاة صلبة
الإرادة الطموحة كثيرة الجدل نفسها وصية على العرش - وأعلنت ولاءها لزتكي. فكانت
هذه خيانة بكل المعانى: خيانة لدينهاء وثقافتهاء ومجتمعهاء ومليكها الذى هو أبوها
أيضبا. فى هذه الإيماءة فخامة معينة؛ لكن لم تكن لتنجح. إذ ذهب بولدوين وفولك إلى
أنطاكيا على عجلء حيث أغلقت أليس البوابات دونهما؛ غير أن بارونات المدينة اتخذو!
جانب الملك. كما حتمت عليهم طبيمتهم. لقد كانت أليس محظوظة؛ إذ كان مصيرها
فى يد بولدوين, لكنها ابنته, فلم تعدم بل تفيت. 50

ومرة أخرى أصبح بولدوين وصيا على أنطاكيا: وهو منصب كان يسره لى
تحاشاه. ومع ذلك, ففى ذلك العام كان هناك شىء واحد أراحجه: لقد مات ستيفن
البطريارك» السعض يقولون بالسم. من الممكن أن يكون ذلك هو ما حدث؛ وفى كل
الأحوال: لم تكن تخامر ستيفن أية أوهام تتعلق بمشاعر الملك نحوه. ذلك أنه حين زاره
بولدوين للاستفسار عن صحته: رد ستيفن: "سيدىء إنى أسير كما ترغب". وفى أوربا
أيضا لم تكن الكنيسة فى صحة جيدة. ففى ليلة ؟١ فبراير عام مات البابا فورونيوس؛
وحسب السجلات الأنجلوسكسونية: "لقد نما ابتدا ع كما لم يوجد من قبل. ليرشد
المسيح شعبه البائس!" انشقاق فى الكنيسة, واثنان يطالبان بالعرش البابوى؛ فكان ذلك
أسواأ ما يمكن أن يقع بالنسبة للإمبراطورية المسيحية المترهلة وهى تحاول أن تتحد.
ومع ذلك. فإن أثرها المباشر على البلاد المسيحية فى الشرقء كان مكتوما؛ إذ كانت
هناك كمية هائلة من المشاكل الضاغطة التى يجب التعامل معها. بالنسبة لبولدوين على
وجه الخصوص,ء كانت أوربا تقع على مسافة بعيدة, وتنتمى إلى زمن بعيد. فإذا لم
يستطع المسيحيون فى الغرب تنظيم بيتهم من الداخل؛ فهذا ليس شأنه, بشرط
الاستمرار في تقديم الدعم. إذ إنه فى ذلك الوقت كان يتقدم فى السن إذ كان فى
قرابة الستين حين توج فى عام ,1١١١4 - وكان قد تعب من الصراع. ولم يكن يريد
سوى تأمين السلام فى مملكته بعد موته؛ لذا فقفى صيف عام ١١5١ حين شعر بدنو
الأجلء جمع نبلاءه معا واقترح أن يكون فولك وميليساند ملكين معا. فوافق اللوردات
والنبلاء عن طيب خاطر؛ وكان ويليام, البطريارك الجديد على عكس ستيفن, رجلا
مسالما فجعل من بولدوين راهباء وعينه مسئولا دينيا عن الضريح المقدس. بعد ذلك
مباشرة تقريباء مات الملك. كان ذلك فى يوم الجمعة. 2,5١ أغسطس ١□١١5, وبعد ذلك
بثلاثة أسابيع, تم تتويج فولك وميليساندء فى ١5 سبتمير. وكان لديهما ابن؛ يدعى
بولدوينء على اسم جده. وكانا محبوبين. وبدأ زواجهما زواجا مثالياء 81

إلى المد الذى يمكن أن تكون به مثل هذه الأشياء. غير أن عهد فولك بدأ بالمتاعب: تمثلت فى أليس. ذلك أنها عند وفاة أبيها أعادت تأكيد موقعها كوصية.على عرش أنطاكيا؛ وفى هذه المرة كانت المسالة أقل وضوحا. إذ إن اوردات الأراضى المقدسة الشمالية لم يكونوا قد أقسموا قسم الولاء لفولك؛ كما لم تفعل هيى. والأكثر من ذلك» كانت هناك سوابق كثيرة فى أوربا كانت فيها الملكة وصية على العرش نيابة عن ابتها, وفقتحت مسالة السيادة الأوتوماتيكية على أنطاكيا. تمكن قولك من قمع التمردء بشىء من الصعوبة؛ وطالب لنفسه بالوصاية على العرش, فتراجعت أليسء وأسندت السلطة إلى قائد شرطة أنطاكيا. غير أن هذا الحل لم يكن مرضيا ولا نهائيا؛ وكشف عن ضعف فى شخصية فولك: فهو يفتقر إلى قسوة بولدوين. إذ كان يحب أن يحبه الناس, وفى الأرض المقدسة العسكرية يعد هذا ضعقاء خاصة حين يتسم به ملك. لقد كان الانشقاق البابوى فى الغرب ما يزال دون حسم. وكأته انعكاس لمتاعب السلطة الزمنية فى الشرق. ولكن فى الفرب تم العثّور على محكم, إنه رجل يحترمه الجميع لذا يمكن لقراره أن يكون نهائيا: لقد طلب من بيرنار من كليرفو أن يحكم فى الأمر: إنه رجل واحدء رجل صغير هزيلء رجل غير عادى: أمسك بالبلاد المسيحية شرقا وغرباء فى كفه؛ وصبار رسول الوحدة الدولى. لقد كان كل بابا من المتنافسين لديه مزاعم تتعلق بالبابوية (فالأول الذى اتخذ لنفسه اسم أتوسينت الثاتي» أوصى الكرادلة به البابا المحتضر هونوريوس وقيله أربعة؛ أما الثانيء الذى أطلق على نفسه اسم أناكليتوس الثاني» فلم يقبله سوى اثنين. وكان معلوما قبل وفاة هونوريوس بوقت طويل أن أناكليتوس يريد أن يكون بابا؛ إذ كان رومانيا ثريا طموحاء يتمتع بنفوذ فى أجزاء من المدينة عن طريق ماله. ومكانته الاجتماعية. وقد اتهمه الكثيرون بالجشعء وتدنيس المقدسات. والمتاجرة فى المناصب الكنيسية وشهادة الزور؛ وكانت هذه الاتهامات واسعة الانتشارء ومن الواضح أن هذه السمات لا تليق بمنصب البابا. ولكن من كانوا يخشون أناكليتوس كانوا أيضا يخشون نفوذه فحاولوا عرقلة انتخابه بحيلة غير متوافقة مع القواعد على الإطلاق. لم 852

يكن من الممكن انتخاب بابا جديد إلا بعد ثلاثة أيام من وفاة البابا القديم؛
وأنصار أنوسينت قد انتخبوه حين كان هونوريوس ما يزال على قيد الحياة. غير أن
هذا لم يؤثر فى أناكليتوس بأى حال؛ وواصل عملية انتخابه» ثم قرر شن حرب أهلية؛
فى روما كى يوضح موقفه. فهاجم المبنى الذى كان أنوسينت يقيم فيه غير أنه رد
على أعقابه؛ ثم استولى بالقوة ويمساعدة هؤيديه على كنيسة القديس بطرس. وسرق
ما فى الكنيسة من كنوزء بما فى ذلك الصليب الذهبى؛ ويعد أن كرر هذه العملية فى
كنائس أخرى مختلفة؛ تمكن من شراء دعم معظم بقية روما. وبعد ذلك يأيام قليلة, تم
تعيين الرجلين فى أجزاء مختلفة من المدينة. ولم يقبل أيهما التظى عن موقعه للآخر.
وفر أنوسينت إلى فرنسا حين وجد أن روما ليست أنه وانكقن فتاك وين ايسايس ح
الوزن البسمين: حومترئ هلق | تجلجوا وطلك منهما المساعدة. ويعد بعض الوقتء قرر
لويس مساعدة أنوسينت, واستدعى بيرنار من كليرفى كى يقدم المساعدة. ولكن لم
يتمكن أيهم. سواء الملك السمين:؛ أ الطامح إلى البابوية أى قديس المستقبل من التنبؤ
بعواقب تصرفهم لأنه فتح الطريق أمام أكبر جائزة منقردة يفوز بها فرسان الهيكل. فى
عام ٠ *11: تقريبا يمجرد أن دآ الانشقاق: كتي أناكليكوس زسالة إلى شخص مجهول
زاعما "أن الكنيسة الشرقية بأآكملهاء كنائس القدس وأنطاكيا والقسطنطينية معناء
وتزورنا؛ وتقيم علاقات ودية معنا" وقى عام ؟71١1, يعد أن طلب من بيرنار التدخل,
كتب أنوسينت للملك لويس يقول: "تلقينا خطابات تعبر عن الطاعة والخضوع من
أخيناء ويليام» بطريارك القدس.' وواقع الأمرء أن المسيحيين فى الشرق لم يكونوا
مهتمين بالمشكلة» ومن المحتمل أن فولك كان أقلهم اهتماما: ذلك أن أزمة داخلية
فظيعة أقحمت نفسها عليه. كانت ميليساند فى نصف عمره تقريباء وكانت جميلة؛
وعلى الرغم من شعبية فولك بين نبلاء القدس, كانت هى قليلة الاهتمام به. فهو قصير
القامة عادى المنظر أحمر الشعر. ولكن كان هناك من تهتم به؛ وهذا الشخصء هو ابن
عمهاء هيو دى لا 063

بويسيت, لورد أو سيد يافا. ذلك أنه قد نشأ فى بلاط بولدوين» وكان تقريبا فى نفس سن مبليساند. وشأنه شأن ميليساند كان قد تزوج؛ ومثله مثل ميليسائد كانت شريكة حياته تكبره كثيرا؛ وظل الشابان بعد زواجهما على صلة وثيقة كما كانا من قبل. فانتشرت الأقواويل الفاضحة؛ وشعر فولك, الذى كان يحب زوجته حبا كبيرا بالغيرة؛ وانقسم اليلاط إلى فريقين, هؤلاء مع الملك, وأولتك مع الكونت؛ ثم اتهم هيو بالخيانة. إذ قيل إنه تآمر على حياة الملك. ولم يظهر فى يوم محاكمته. وتم الحكم بأنه مذنب. فطلبت ميليساند واليطريارك له الرأفة من الملك. الذى كان دائئما يسعى إلى إسعاد زوجتهء فاكتفى بنفى هيى لمدة ثلاث سنوات. ولكن قبيل ذهاب هيو للمنفى: تلقى طعنة وكاد أن يقتل. وعلى الفورء كما هو واضح شك الجميع قى قولك. وتم القبيض على المهاجم؛ واعترف بأن الهجوم كان فكرته هو, وحكم عليه بالموت بقطع أعضائه. وكرر اعترافه. مبرئا الملك, بعد قطع ساقيه ويديه. وعمومماء فقد مات هيى بعد ذلك بوقت قصير؛ ولم تغقر ميليساند لفولك أبدا مع أن الأمر لم يكن خطأه. إن سجلات فرسان الهيكل صامنة تقريبا فى هذه السنوات: ولكن يمكن اسنتنتاج بعض الأشياء مما تبقى. إذ كان هيو دى بيان» معلم الهيكل يجرى مراسلات مع بيرنار من كليرفو. وما زالت هناك إحدى رسائل بيرنار إليه. لقد كتبت تقريبا فى نفس وقت انشغال بيرنار فى الانشقاق البابيوى - لا بد أن الراهب الصغير كان منشفلا للفاية. إنها رسالة طويلة موجهة إلى هيو دى بيان, ولكن كان المقصود منها أن تكون معلنة للجميع. وتعرف ياسم ثناء على الفروسية الجديدة. قال فيها بيرنار 'مرة ومرتين وثلاث مرات. طلبت منىء أيها العزيز هيو. أن أكتب مذكرة تشجيع لك ولإخوتك, ويما إنى ممنوع من كتابة أى شىء ضند الطغاة المعادين؛ وأنت أكدت لى أنى سأكون مفيدا جدا لك ... انتظرت لوقت معين: قمل أن أجيبكء وليس هذا لأنى لا أقدر طلبك» ولكن كى أكون أكثر قدرة على الوفاء به. وحقيقة الأمر أنى جعلتك تنتظر وقتا طويلا." وفعلت الرسالة ما هو أكثر من التعويض عن الانتظار: إذ كان بها ثلاثة عشر فصلا من الثناء على فرسان الهيكل ممزوجة بنقد لاذع للفرسان الدنيويين. 84

"لقد ظهرت فروسية جديدة فى أرض التجسيدء إنها فروسية تقاتل معركة مزدوجة؛ ضد أعداء اللحم والدم» وضد روح الشر. ولا أظن أنه شىء مدهش أن هؤلاء الفرسان يقاومون الأعداء المجسدين بقوة الجسدء لأنى أعلم أن ذلك ليس بالشىء النادر. لكنهم يرفعون السلاح مع قوى الروح فى مواجهة الرذائل والشياطينء وهذا لا أسميه رائعا فحسب, ولكنه جدير بكل ثناء يعطى لرجال الرب... فالفارس الذى يحمى نفسه بدرع الإيمان» كمأ يدثر جسده بالدرع: هو حقا لا يخاف؛ ويسمو على التوبيخ. فبدرعه المزدوج؛ لا يخشى البشر أو الشياطين ". كان من بين من عرفوا! عن فرسان الهيكلء أناس لم يستطيعوا) التوفيق بين أفكار الرجل المتدين والحرب؛ فالاثنان لا يتفقان فى قانون الكهنوت ولا فى الشعور العادى. فالقنل. حتى فى ميدان المعركة, هو من المؤكد قتل للبشر؛ لكن بيرنار» عن طريق السفسطة أو المغالطة الدبلوماسية: أمكنه التمييز بين قتل البشر الذى يقوم به الفرسان الدنيويون» وما أطلق عليه قتل الشر الذى يقوم به فارس مقدسء الذى اضطر إلى قتل البشر كى يقتل الشر. إن رؤية العدى باعتباره تجسيدًا للشر - كان إرهاصا بجميع الدعاية العسكرية منذ ذلك الوقتء وكان هذا مؤثرا وفعالا في القرن الذى عاش فيه بيرنار تماما كما هو مؤثر فى القرن الذى نعيش فيه. لم يكن احتقار بيرنار للفرسان العاديين يعرف حدودا؛ فهم تاقهون مغرورون تماما كما أن فرسان الهيكل جادون وجديرون بالثناء, 'إنكم تثقلون خيولكم بالحرير» وتغطون دروعكم بيهرجة لا توصف. وتدهنون رماحكم, ودروعكم وسروجكم. وألجمتكم مرصعة بالذهب والقضة والأحجار الكريمة. تزينون أنفسكم بالفخار من أجل الموتء ولا تركبون خيولكم إلا للدمار... فهل هذه الحلى فخاخ للفوارسء أم هى زينة رخيصة للنساء؟ أو ربما تظنون أن سلاح عدوكم سوف ينحيه الذهب؟ وأن المجوهرات سوف تتجو؟ وأن الحرير لا يخترق؟ هناك أشياء 85

ثلاثة جوهرية للقارس فى المعركة: يجب أن يكون متاهبا للدفاع عن نفسه.
مسرعا إلى سرجه؛ عجولا فى هجومه. ولكن أنتمء أنتم على العكس كالنساء. شهعوركم
طويلة حتى لا تكادون ترون؛ وملابسكم طويلة حتى أنها تمسح أرجلكم؛ وتخفون
أيديكم الرقيقة الناعمة فى أكمام كبيرة وبملابسكم هذه تذهبون لتقاتلوا من أجل أكثر
الأشياء تفاهة وسخفا! . ولا ينجح الغرور والتفاهة إلا حين يوخذ على محمل الجد. لقد
كان رأى بيرنار فى الفرسان الدنيويين واضحا بريئًا وكذلك محرجا مثل رأى الطفل الذى
رأى ما بداخل "ملابس الإمبراطور". لم يكن من الممكن للتناقض مع فرسان الهيكل
ليكون أكثر حيوية وتعبيرا؛ وانهارت أواخر الحواجز وتزاحم الناس فى كل مكان
لمساعدة الفرسان المقدسين. كانت الدول اللاتينية فى الشرق ما تزال فى حالة من
الاضطراب؛ وكانت هناك حاجة إلى كل رجل. وكان فولك دائم السفر تقريباء يقمع
التمرد» ويدافع عن المدن, ويستولى من حين لآخر على قطعة أرض. من بين سنوات
حكمه الأولى لم تكن هناك سوى سنة واحدة ساد فيها سلام نسبى, هى سنة »1154١١
ولكن فى عام 1171: تم حسم مشكلة واحدة دائمة حسما نهائيا: هى مسالة أليس
وأتطاكيا؛ وجاء الحل من لقد اضطر فولك, بالطبع» إلى تولى الوصاية على عرش
أنطاكيا بعد تمرد أليس الثاني. وكان قد أسند المسلطة لرجل آخرء وكان هذ! المندوب
قد مات. أما خلفه فكان رجلاً يتسم بالسوء بصفة خاصة: إنه أسقف رادولف من
ماميستراء الذى كان, مثل أليس, يريد أكبر قدر ممكن من السلطة الشخصية. فدخل
فى مفاوضات مع أليس المنفية؛ وطلبت أليس من ميليساند أن تتدخل مع فولك نيابة
عنها؛ وفولك, الذى كان ما يزال راغبا فى إرضاء زوجته. سمح لأليس بالعودة إلى
أنطاكيا. وما إن صارت هناك. حتى تخلصت من رادولف ولكى تدعم السلطة التى
أوشكت أن تتمتع بهاء قررت تزويج ابنتها كونستانس من ابن الإمبراطور البيزنطي.
فأقزعت هذه الفكرة نبلاء وياورونات 586

الفرنجة ويعثوا برسالة يائسة إلى فولك: يخيرونه فيها أن يجد زوجا آخر لكونستانس بأسرع ما يمكن. فوجد فولك فجأة طريقة للتخلص من أليس المشاكسة إلى الأبد, واستدعى نبيلا فرنسيا على عجل هو ريمون من بواتيى: إلى الأراضى المقدسة ذلك أنه كان يسابق الزمن, لأن القسطنطينية أقرب كثيرا من أوربا؛ وكان الإمبراطور البيزنطي مهتما باقتراح أليس. غير أن ريمون, الذى كان يسافر على عجل وصل إلى أنطاكيا فى أبريل عام ,.1177 ولدى وصولهء واتباعا لتعليمات فولك» أرسل لأليس يبلغها بأنه جاء يطلب يدها للزواج. وكان هذا أمرا مقبولا تماما: فهو رجل نبيل يبلغ من العمر سبعًا وثلاثين سنة؛ وكانت أليس تبلغ التاسعة والعشرين؛ ولم تتجاوز كونستانس الصغيرة التاسعة. لقد كانت أليس فى حالة من الإثارة والترقب - وظلت فى قصرها تستعد لاستقبال الخطيب البارز. وهنا ينبقى على المرء أن يحس ببعض الشفقة نحوها إذ تم استغفالها تماما. فبينما كانت تعد نفسها نقلت ابنتها من القصرء وأخذت إلى ريمونء وتزوج الرجل بالقتاة الصفيرة. ولم يكن فى مقدور إليس فعل أى شىء على الإطلاق. ذلك أن ريمون؛ باعتباره زوج كونستانس, لديه أسبقية قانونية على أليس؛ وكنبيل ومحاربء نال على الفور دعم نبلاء وبارونات المدينة؛ وكان يدين بالولاء لفولك. ولما شعرت أليس بالعجز والغضب» غادرت أنطاكيا؛ بلا رجعة. وعلى هذه الخلفية: من الانشقاق البابوى فى أورباء والصراع الأهلى فى الأراضى المقدسة:. والحرب والدسائسء والثناء. والخدا ع واصل فرسان الهيكل عملهم, وشهدوا جماعتهم وهى تنمو. ثم فى 4" مايىء ,1171 مات هيو دى بيان. كان يبلغ من العمر سنًا وستين سنة, وهى سن متقدمة بالنسبة لتلك الأيام, وفى عمره الطويلء حقق شيئًا نادرا جدا!: كان لديه حلم. وعاش كى يراه يتحقق. لقد كان رجلا غير عادى, ومحظوظا, وقد نأمل فى أنه كان سعيدا . 57

الفصل الرابع كل موهبة ثامة هى من فوق فرنسا والأراضى المقدسة
1١067 1١١9 "انظرء أنا واضع أمامكم اليوم بركة ولعنة" سفر التسمية. الإصحاح الحادى عشر. الآية 55, لقد تم حرمان البابا أناكيتوس الثانى الذى عين نفسه فى الكنيسة عام 1١58 فى مجلس بيزا عن طريق أنوسينت الثانى وست وخمسين من الأساقفة من فرنسا وإيطالياء من بينهم القديس بيرنار. على الرغم من أن ذلك استغرق منه أكثر من عامين. وفعل ذلك تقريبا وحده دون مساعدة من أحذ» وفى أثناء شذين العامين كان نفوده بزداد صع كل يوم؛ وكان مجلس بيزا هو ذروة حياته العملية. وكان صديقًا ثابتًا أكيدا لفرسان الهيكل؛ وما يزال ناشطا ندابة عنهم. ومع انتشار رسسالته إلى هيو فى أنحاء أورباء استمر سيل الهيات: وتمتعت الحماعة بحظوة خاصة فى إسيانيا, والبيرتفالء ولاتجويدوك. وإنجلترا حيث قدم الملك المتوج حديثا ستيفن أرضه فى كولى. بالقرب من أوكسفورد هبة أولى من سلسلة من الهيات. وحقق مجلس بيزا هدفه الثانى فى أثناء أيامه الثمانية من بين ٠٠١ مايق وى 3 يونية: إذ تم تعديل ميثاق الهيكل وتوسيعه بإرشاد من بيرنار وموافقة أنوسينت. في ارتباط أنوسينت الأول الرسمى بالجماعة. وكان حتماء قبل أن يمر وقت طويل؛ أن 09

يضم أنوسسين فرنسان الهيكل إلى قلبه؛ وكان من الممكن أن تكون مساعدة
بيرنار المتحمسة لكليهما رباطا كافيا. غير أن أنوسيئت كان قد تعلم, مما حدث فى
انتخابه من اضطرابء: شيئًا واحدا: الكنيسة فى حاجة إلى عضلات زمنية دنيوية: كى
تدعم كيانها الروحى. ذلك أن انشقاقًا أخر مثل ذلك الذى مضى يمكن أن يكون كارثة؛
وقد لا يوجد قديس آخر يلملم الجرح. بالإضافة إلى ذلك. هناك مسيحيون فى الشرق
والفربء. يشكون من أن الكنيسة الأم المقدسة لم تفعل ما يكفى لحماية أبنائها فى
الشرق. وبوفاة هيو دى بيان؛ وملك القدس العجوزء بولدوين الثانى» انتهى الجيل
الأول من الصليبيين؛ وخبت جذوة الحماس الأولى. وتطلبت الصعويات التى يواجهها
فولك عونا منظمًا . وكان المعلم الجديد للهيكل رجلاً قرتسيًا آخرء هو روبير دى
كريون» الذى يعرف أيضا برويير البيرجاندى. وقد يكون هو العضى المؤسس التاسع
الفامض الذى لا يعرف اسمه. وإلا؛ قد يكون قد انضضم إلى الجماعة مباشرة بعد
تكوينها, ذلك أن لائحة بتاريخ من الناصرة شهد عليها 'روبير فارس الهيكل" غير أن هذا
يسجتهيل تاكيده. له يكن فى وسع الويكل: ٠ فى سنوات التكوين, نبو 1 سكين
شخصيات من قاموا برئاسته وقد تغير تفيرا مثيرًا تحت رئاسة روبير. ذلك أن هيو
خلف جماعة تتمتع بشهرة دولية وثروة واسعة؛ أما تحت رئاسة روبير فقد نمت كى
تصبح كيانا حي مايل بان ين إنغاء البالم القديم. لقد كان روبير» شأنه شأن هيو رجلا
نبيلاء لكنه كان يند ينتمى إلى عائلة أكثر عظمة من حيث الأجداد - إذ كان من : بين
أجداده ملوك لفرنساء وتذكر كتب التراث ث اسم انسيلم» مطران كنتيرى: باعتياره
صهره. . لقد كان هيو يتمع بقذناعات أخلاقية وهدوء مدمر تقريبا مثل ذلك الذى كان
يتمتع به بيرنار؛ أما روبير» فعلى النقيض من ذلك. فحلي الرغم من أنه رجل ور فإنه
دبلومباسىء فهى يعرف الرجال ويحركهم نحو .الغايات التى يعتقد أنها الصواب. وكان
لديه أخوان أكير منه.سنا وبالنسبة لابن الأصغر لرجل من النبلاء كانت عندئذ الطريقة
الوحيدة لتحجقيق بحياة تتمشي مع مرتبته الاجتماعية هى الزواج ع الموفق. وحاول
روبير فعل ذلك يشىء من النجاح -روأنجب إينا يدبعى إنسيلم. على اسم المطران
الشهيرء 20

الذى أصبح بمرور الوقت أسقف لندن. وحين توفيت زوجة روبير: منحه وجود الهيكل بديلا جديدا . ربما كان قد بلغ من العمر سبعا وثلاثين سنة حين ذهب إلى الأراضى المقدسة., لأن البابا إيربان كان قد وعظ الناس بالحرب الصليبية الأولى فى منطقة روبير» وسمعه روبير وهو صبى. وبدأ أن الرجل النبيل والرجل العسكرى قد صنع كل منهما للآخر: فبعد وصول روبير إلى الأراضي المقدسة أصبح ناظر إقطاعية الهيكلء ويلى هيو فى القيادة» وعاد إلى أوريا بصقته هذذء عام ؟؟١١, يجمع الدعم ويقبل الهبات. وتلت ذلك خمس سنوات أخرى فى اليلد المقدسة؛ وحين عاد مرة أخرى إلى الغرب. عام 2١١7/8 كان معلم الهيكل. ومات أناكليتوس البابا المعادى فى 0 يناير, 4١174 وكتب القديس بيرنار "تقد قطع الفرع المكسورء والطرف المتعفن. أنه. ذلك الشخص الشريرء الذى جهعل إسرائيل تخطئ (يقصد أبناء إسرائيل: المترجم) قد ابتلعه الموت, ونزل فى جوف الجحيم." لم يتقبل أناكليتوس أنوسينت مطلقا كبابا وسيطر على روما حتي وفاته. واكن تمكن أنوسينت أخير! من دخول المدينة. وهناك التقى بروبير. كان فرسان الهيكل يمتلكون منزلا فى روما حيث كان من الممكن لروبير أن يقيم؛ ومع ذلك, فإن اجتماعات البابا والمعلم ربما تكون قد حدثت فى كنيسة القديس لاتيران. وكان روبير قد أظهر قدرته باعتباره رجلاً إداريًا؛ وفى أحاديثه مع أنوسينت. أظهر مهارته فى الإقناع. وكما كان أنوسينت يعلم جيداء فإن جماعة روبير تتحمل واحبا خاصا؛ وجادل روبير بأنها كى 3 00 الواجبء فإن فرسان الهيكل في حاجة الى حقوق خاصة. فى الشرق المسيحى لا يتمتع بالاكتفاء الذاتي؛ وكل ما يحتاجه تقريبا ينبغى أستيراده من الغرب. وقد أصبح الحج عملا رابحا فى مواني إيطاليا؛ إذ كان تدفق المصلين لا ينتهى» ومع اذ فدات الهيكل كانوا يبذلون أقصى ما لديهم, فقد كانوا يقدمون آخر ما لديهم, يضنيهم الافتقار إلى المال» وواجب دفع المشور وخضوعهم لملك القدس والنظريا ل وحين كان الملك والبطريارك يختلفان: كان ولاء فرسان الهيكل يمزق؛ وعلى الرغم من الهبات الكبيرة التى تلقوهاء من أنحاء البلاد المسيحية: فإن العشور 9

والضرائب على أراضيهم المتناثرة شكلت عبئًا أكثر من كونها نعمة. ذلك أن
مسئوليات الجماعة نمت نموا هائلا منذ أن أقسموا على جهعل الطرق المؤدية إلى
القدس آمنة للحجاج؛ إذ كانت هناك طرق كثيرة والمزيد من الحجاج؛ وهناك إدارة
منازلهم المتباعدة وقلاعهم ومزارعهم؛ وفوق هذا كله. هناك الدفاع عن المملكة
المقدسة. ومع أن ولاء الإخوة الأول والأخير كان للمسيحيين والكنيسة: فإنهم كانوا فى
حاجة أكبر إلى المزيد من حرية التصرف. إن التواريخ لتلك الاجتماعات غير معروفة:,
ولكن من المؤكد أن أنوسينت لم يستغرق الكثير من الوقت كى يعطى موافقته. إذ أدرك
الفرصة المتاحة أمامه, وقبل أن ينتهى العام كان قد حسم استراتيجيته العظيمة. إذ
قدم له جيش جاهز تام المولاء ويحركة لا خطأ فيهاء بأن يظهر بما لا يدع مجالا للشك
استعداد الكنيسة إلى أن تسعف أبناءهاء أمكنه إسكات نقادها وتامين الدفاع عنها. ولم
تكن هناك سابقة للتحرك الذى قام به» ويظل لا مشيل له فى تاريخ الكنيسة بأكمله. وتم
الإعلان عنها فى 54 من مارس عام ,1178١ "الأسقف أنوسينت إلى ابننا العزيز روبير,
معلم فرسان الهيكل المقدسين الكائن فى القدس, ولمن يخلفونه وإخوته حاضرا
ومستقبلا وإلى الأبد: كل موهية من فوق"... كان من الممكن ألا تعنى هذه العبارة
الرنانة شيئًا؛ أكثر من البلاغة؛ لكن أنوسينت كان يعنى بالضبط ما قال. أولاء أعطى
فرسان الهيكل الحق فى تعيين قساوستهم, الذين يكونون مسئولين أمام المعلم وليس
أمام أى أسقف محلى؛ ومنحهم حق بتاء كنائسهم. وكان من الممكن أن تبدى هاتان
المادتان ثوريتين بالقدر الكافى, ذلك أنه حتى الآن كان الهيكل يعتمد على الأساقفة كى
يزودوه بالقساوسسة والكنائس؛ ومع ذلك كان هناك المزيد. على الكنيسة أن تدعم
المدافعين عن الكنيسة؛ لذا فإن كل رجل دين فى البلاد المسيحية يحظر عليه يصفة
خاصة مطالبة فرسان الهيكل بالعشور - ولكن فى وسع فرسان الهيكل مطالبة الآخرين
بالعشور. ثم» فى نفمة آمرة أخيرة, حرر أنوسينت فرسان الهيكل من كل سلطة عدا
سلطته. ويعد إداريوهم الزمنيون مسئولين فقط أمام 52

الجماعة:» وليس أمام أى أمير أو ملك أى إمبراطور؛ وليس فى وسع أى
أسقفء أو مطرانء أو بطريارك أن يطالبهم بالولاء الروحى. فهذا حق البابا وحده. ولا يسمح لأحد أن ينتزع قسمما أى يطلب توقيرا من أحد فرسان الهيكل؛ وليس فى وسع أى شخص.ء مدنيا كان أو دينياء أن يغير لوائح ميثاق فرسان الهيكل. فقانونهم خاص بهم, ولا يغيره سوى المعلم واجتما ع عام من الفرسان. لقند رلغة الممافة الزشتو'بعة إحدى وعشرين سئة من تسيسها :3 أعلى أنوسينت الفرسان مفاتيح الكنيسة ومفاتيح المملكة؛ ولى كان بيده, لأعطاهم مفاتيح السماء ذاتها. ا ال ل م النباً. فى حقيقة الأمره
من الممكن أنه كان له أثر مباشر على قرار أنوسينت فى إعطائهم مكانتهم العالمية الفريدة, لأنه كان فى روما فى صيف عام :1117/8 وأقام فى دار فرسان الهيكل هناك.
وثمة قصة تروى أنه حين رحل خلقف, ريما صدقة:؛ وريما عن عمد, أحد ملايسه الكتانية» وأن أحد فرسان الهيكل كان مريضًا فشفى ببساطة عن طريق مس الرداء. وسواء كانت هذه القصة حقيقية أم لم تكن كذلك؛ فمن المؤكد أنه كان فى روما حينئذ ولا شك فى أنه كان من الممكن أن يلثقى باتوسينت مرة أخرى. ولم يكن ينقصهم سوى ملك فرنسا السمين, ويس السادس حتى يكونوا الثلاثى الأصلى الذى مهد الأرض من أجل حرية فرسان الهيكل؛ لكن فى ذلك الوقت, كان لويس السمين قد مات منذ عام.
وخلفه لويس السابعء المعروف 'بالشاب' - إذ إن الملك الجديد لم يكن قد تعدى السادسة عشرة حين اعتلى العرش. وكان لويس هذا يتسم بورع استثنائى, ولكنه كانت به مسحة دنيوية معينة. ولدى سماعه ب"هبة" أنونسينت لفرسان الهيكل» أصدر مرسوما يحد ,من أية هبات أخرى: يمكن أرعاياه أن يتبرعوا يما يشاعن للجماعة. باستثناء القلاع, والمدن, ويشرط ألا تتعدى الهبة على حقوق التاج بأى حال. لقد كان

هذا عملا سريها وحاذقا يندر حدوثه من لويس الشاب - يفترض أنه تصرف بناء على نصيحة وزيره. إذ كان تصرقه هو طبق الأصل سلوك من فقد فجأة السلطة على فرسان الهيكل. وكبرت مسألة التحرر من دقع العهشور حتى صارت معركة امتدت لققود كثيرة: شزقا وغريا؛ ؤفى الشبرى ظلى ونه المت وحن: علق الور ويلام: اننقف ضون يا "طريازق القدش 'فومن كسك بمؤسسة الجماهة وفوا تدهاا' ويدا من غير العادى: بل من الفاضح: أن يحرع من أية حقوق على الجماعة. ولا يبدو أن روبيير سمح لهذا الانتقاد أن يقلقه دون داع ففى أعين الناس العاديين» جعلت الحرية التى حصل فرسان الهيكل عليها حديثاء الجماعة أكثر جاذبية» إذا كان ذلك ممكنا. واستغل روبير هذه الحالة المزاجية وذلك بالترتيب لعمل ترجمة للميثاق من اللاتينية غير المفهومة تقريبا إلى القرنسية العادية. وهنا حمدث شيىء أدهش الناس وأذهلهم منذ ذلك الوقت؛ إذ يمكن للمرء أن يفترض أن ترجمة مثل هذا الميثاق يمكن أن تكون سليمة مستقيمة» ومن غير المحتمل أن تطرأ أخطاء؛ ولكن هناك اختلافان بين الميثاقين؛ - اختلافان لهما أهمية جوهرية فى حياة الجماعة. يتعلق الاختلاف الأول والأقل أهمية بفترة اختبار الأخ الجديد. فقى الميثاق الأصلى, يعد الأخ الجديد سالكا أو تلميذ؛ لفترة يحددها تفكير المعلم وحكمته حسب إخلاص من يرغب فى الدخول» وهو شرط بسيطء شائع فى أية جماعة دينية. ولكن فى الميثاق الفرنسى هذه المادة محذوفة تماما. وقد يكون من المقرى إرجا ع ذلك إلى خطأ من الناسخ. لولا القرق الثانى» والتغيير الأكبر. كان الحرمان من الكنيسة هو أقوى سلاح روحى لدى البابا، ويمنع بموجبه الشخص الحى من دخول أية كنيسة: ومن المشاركة فى قداسء بل ونظرياء يحرم من الاتصال بالمسيحيين العاديين. بانطبع, بالنسبة للكثيرين ممن كانوا يحرمون لم يكن للحظرين الأولين كبير أثرء أما الحظر الثالث فكان يتم انتهاكه؛ غير أن الحظر كان يمتّد إلى ما بعد الموت ويقطع نفس الإنسان من الاتصال بالرب. وكان الحرمانء بالنسبة للمؤمنين» يشكل تهديدا مخيفا وعقابا رهيبا؛ ومن يتصل بشخص 24

طبق عليه الحرمان يتم حرمانه هى نقسه. ولهذا السبب منع الميثاق
اللاتينى للهيكل الاتصال بين فرسان الهيكل ومن عوقبوا بالحرمانء إذ يقول, "فى تلك
الأماكن: التى يجتمع بها فرسان غير محرومين؛ يجب أن تذهب ولكن الميثاق الفرنسي
قلب هذه اللائحة المنطقية رأسا على عقبء وبذلك» قوى من الانقلاب: "فى الأماكن
التى تعرف أن فرسانًا محرومين يجتمعون فيهاء نأمرك أن تذهب؛ وإذا كان من بينهم
من يرغب فى الالتحاق بالجماعة, فلا يجب أن تنظر فى الربح الدنيوى كما تنظر إلى
سلامة روحه الأديدية ". يمكن أن يقول قائلء. حتى ذلك كان مجرد خطأ آخر ارتكبه
نساخ غير منتبهين؛ وإذا كانت حالة بسيطة تتمثل فى حذف كلمة, حتى ولو كانت كلمة
حساسة مثل 'غير" فى غير المحرومين» يمكن قبول الحجة. لكنها سرعان ما تفقد
وزنها: فالأمر بالذهاب بين من حرموا تمت صياغته بشكل مختلف وتم التعبير عنه
بشكل أقوى من الحظر السابق؛ بل ويذهب الأمر أبعد من ذلك فى العبارة التالية. إذ
يذكر النص اللاتينى أن على الإخوة "أن يهتموا اهتماما كبيرا ويمنعوا أى أخ من أن
يكون مع أى رجل تم منعه علنا" أما النص الفرنسىء فيفير ذلك تغييرا تامًا إن يقول: لا
توجد طريقة أخرى يجب أن يكون للإخوة فى الهيكل أى اتصال يمن حرم بشكل ظاهر'
. إن هذا التغييز الأخيرء بما فيه من نبرة تشجيع محدودة وإن كانت محددة؛ هو ما
يعطى إحساسا بالصدق - الشعور بأن الميثاق قد تم تغييره عن عمد. د بالطبع, لم يكن
هناك ما يمنع تغيير الميثاق: حت إلى هذا الحذ الجذرى: ولكن من جميع النواحى
الأخنرزى يتطايق المينثاق الفرفسى مع الميشاق اللاتيني؛ ويقى السؤال: لم قرر روبير
إجنراء:هذا التغيير الخاص بعيد المدئ, ولاذا وافق الإخوة؟ فلى أن القديسٍ بيرنار أو
أنوسينت عرفا بهذا التفييرء لم يكونا ليوافقاء ولكن فى.ذلك الوقن اعتبر الميثاق سرا
لا يقرأ إلا أمام عضو جديد لدى دخوله الجماعة. إنأفضل رد - وأبسط الردود, والذى
يعبر عن شخصية روبير - يكمن فى الاستقلال الذى فازبه من أجل جماعتة. فحين يمد
فرسان الهيكل إخوتهم لمن رفضتهم 95

الكنيسة هم يؤكدون على استقلالهم عن رجال الدين العاديين: ويفسحون صفوفهم أمام كثرة من المجندين المحتملين: الذين يحتمل أن يكون بعضهم من الأغنياء. وثمة إجابة أخرى ممكنة هى أن التغيير يرجم إلى درجة مبالغ فيها من الإحسان المسيحى من جانب فرسان الهيكل - وأنهم يرغبون فى إنقاذ نفوس المسيحيين الذين حجبوا عن المسيح. ولكن بشكل ماء لا يوجد أى من هذين التفسيرين أى أى تفسير آخر تم اقتراحه. يعد مقنعا بشكل تام. ذلك أن الإخوة أنفسهم لم يلتزموا دائما بميثاقهم الجديد؛ وبدأ أنهم لا يتذكرونه إلا حين يناسبهم ذلك؛ ويتناسونه حين لا يتلاءم معهم. ولكن أيا كانت الإجابة» فإن فرسان الهيكل استفادوا بسرعة من التغيير: ففى عام ١١47 مات جيفرى دى ماندلفى» كونت أسيكسء وهو محروم من الكنيسة وتم دفنه عن طريق فرسان الهيكل فى أرض جعلت لأغراض مقدسة وألبس رداء الجماعة الأبيض. وتوفى أنوسينت فى ذلك العام؛ كى يخلفه سيليستين الثانى, الذى كان يقفضل فرسان الهيكل مثله. وعلى الرغم من جهود بيرنارء لم يتم حسم الشقاق حسما تامًا؛ إذ حل فيكتور البابا غير المنتخب كهنوتيا محل أناكليتوس. ولم يكن فيكتور ظلا لذلك الشخص الذى كان عليه أناكليتوس» وفى خلال بضعة أشهر خضع شخصيا لبيرنار. ومع ذلك, سيطرت حالة التوتر على سيليستين مما حمله على إصدار مرسوم عنوانه جنود الهيكلء وهى تقريبا تكرار دقيق لما أصدره أنوسسينت. ولم يكن أمام سيليستين من الوقت ما يكفى لفعل المزيد - إذ مات فى العام التالى؛ وحل محله لوسيوس الثانى, الذى أصدر تكرارا آخرء يسمى أيضا جنود الهيكل: ثم مات فى العام التالى. واتباعا لهذا النمط؛ أصدر البابا التالى» يوجينيوس الثالث. تكرارا رابعا؛ يسمى هذه المرة جنود الرب. وكان هو؛ على أى حالء يتمتع ببنية أكثر صلابة, لحسن الحظ؛

ذلك أن رجلا ضعيفا كان يمكن أن يقتل بسبب الصدمة التى لحقت إرثه.
ففى ليلة عيد الميلاد من عام :1144 أعاد المسلمون الاستيلاء على أديساء الحصن المسيحى على الجدود الشمالية الشرقية للأراضى المقدسة. وكانت هذه أول خسارة مهمة يتكبدها المسيحيون فى الشرق: وكانت هذه الهزيمة للمسيحبين ككل صفعة نفسية كبيرة. فمنذ أن استولى بولدوين الأول على أديسا عام 168٠ فى طريقه إلى عرش القدس ظلت آمنة, ورمزا وهميًا على أيدية الفرنجة, إذ كانت بعيدة ومنيعة. فكان فقد المدينة بمثابة انفجار أيقظ المسيحيين الغربيين من سباتهم. فنظروا إلى أنفسهم وكرهوا ما رأوه؛ فاستداروا إلى ضميرهم المجسدء بيرتار» من كليرفى طلبا للنصح. وجاء الرد وأضحا: حرب صليبية جديدة. وكان لويسء الملك الشاب قد بدأ بالفغل فى وضع خطة؛ وكان يوجينيوس: البابا قد وافق عليها بالفعل. من حيث المبدأ. غير أن الناس فى فرنسا ترددوا إلى أن سمعوا قديسهم. وفي فيزلى» فى منتصف الطريق بين ديجان وياريسء في أحد القيامة 7١ مارس 45١1؛ تكلم القديس. لم يحدث مشهد مثل هذا منذ أيام البابا إيربان. ومثله مثل إيربان» كان بيرنار يعظ من فوق منبر خارج الأبواب؛ إذ لم يوجد مبنى يتسع لهذا الزحام. وكما حدث مع إيربان» كانت الاستجابة مذهلة: إذ تقدم الكثير من المتطوعين, ونقد القماش المعد لعمل الصلبان» فاضطر بيرنار إلى تمزيق ملايسه الخارجية لعمل المزيد. ثم بعد ذلك, مثل بيتر الناسك "رئيس الدير الذى كان يحمل روحا صلبة فى جسده الهزيل الذى يكاد يخلى من الحياة. اتجه إئي كل مكانء وأخذ يعظ وسرعان ما ازداد عدد من يحملون الصلبان زيادة تفوق الحصر". هذا التعليق من شاهد عيان على المراسم فى فيلزلى» وهو راهب يدعى أودو دى دوى» وشو القس الخاص الجديد للملك تويس. وكان أودو من تواح عدة رجلا مهما. ولا يبدى أن الأوصاف المعاصرة له مفيدة فى البدأية, إذ تعدد فضائل تقليدية كان الناس يعجيون بها في ذلك الزمان - مثل الكرم: والكرامة, واللياقة فى السلوكء والجدية, وأعصال الفكر, والرحمة والشفقة. ومع ذلك/ فإن نظرة إلى حياته تبين أن هذا الوصف 57

ربما كان وصفا دقيقاء وليس مجحرد صورة نمطية لرجل له منزلة شريفة.
وكان رئيس ديره هو سوجىء الذى يمكن قياس هكانته عن طريق اقتراح القديس بيرنار وقبول لويس له وصيا على عرش فرنسا فى أثناء غياب الملك فى الحرب الصليبية. من هناء يمكن تقييم أودى؛ لأن سوجى دربه كى يخلفه فى رئاسة الدير: واقترح اسمه على لويس كى يكون كاهن الملك الخاص فى الحرب الصليبية. وعلى الفور أخذ لويس يشير إلى أودى علنا باعتياره صديقه ومعلمه. غير أن أوضح تصوير لشخصية أودو فو العمل الذى تركه - وصف للحرب الصليبية الأولى» من بدايتها المقعمة بالأمل حتى نهايتها المأساوية. قيل أن تبدأ الحرب الصليبية» قرأ أودو روايات عن الحملة الأولى كى يقيم الصعويات والأخطار الماثثة أمام المحاربين الصليبيين؛ ثم حين انتهت العملية الكارثية. سجل روايته - "لأنه لن يخفق حجاج إلى الأضرحة المقدسة؛ وآمل فى أنهم سيكونون أكثر حذرا يسيب ما مر بنا من تجارب. لا يكاد يكون هناك أحد كتب على الإطلاق عن الحرب الصليبية» إذ قفضلوا جميعا نسيانها باسرع ما يمكن؛ فكان أودو وحده هو من كتب رواية حية مسلية: فنية» ومليئة بالمعلومات. فى فيزيلى عام 41١57 اتفق على أن يغادر الصليبيون الجدد فرنسا بعد عام. والتقوا حسب الميعاد فى باريس فى مقر إقامة سان دينى؛ وكان لويس» وبيرنار» والبابا يوجينيوس حاضرينء؛ يصحبهم ثلاثمائة من فرسان الهيكل» "جميها يرتدون ثيابهم البيضاء." كان احتقالا مليئا بالرمزية: إذ قدم سوجىء كرئيس دير للويس علم ملك فرنسماء وهو عبارة عن راية قرمزية مزينة يأشرطة ذهبية على رمح ذهبى - راية محركة سان ديني؛ ومنح يوجينيوس حقا جديدا للفرسان. من الآن قصاعدأ هم وحدهم ولا أحد يوهي يمكتهم لرتذاءضلين أعمن على الماش الأنسى من الصدر وكتف عباءاتهم بحيث يرى الجميع فيهم شهارا مزدوجا - اللون الأبيض المعبر عن النقاء» واللون 'لأحمر المعير عن الاستشهاد. لا أحد يعلم على وجه الدقة عدد الرجال الذين غادروا أوريا في ذلك العام. لقد كتب بيرنارء 'كانت"المدن والبلدان فارغة. ويندر أن تجد رجلا بين سبع نساء؛ إلى الحد 98

الذى كانت هناك أرامل فى كل مكان أزواجهن ما زائوا على قيد الحياة."
ولقد عبر عن رأى النساء رجل لم يذهب - وهو شاعر من العصور الوسطى؛ يدعى ماركبرين ففي إحدى أغنياته تبكى إحدى النساء على حبيبها المفقود: "اللعنة على الملك لويس الذى أرسل جميع الرجال كى يدافعوا عن قبر المسيح ويذلك ملا صدرى بالحزن . هناك شيء واحد مؤكد» ذهب رجال أكثر مما كانت إليه حاجة. وتعلم يوجينيوس: شأنه شأن أودى تعلم شيئًا من التاريخ» وفهم صعوية الحرب الصليبية متعددة الجنسيات. لقد كان فرسان الهيكل. جيش البابا الرئيسى: فى معظمه فرنسيًا؛ إذ كان لويس عنوان الورع؛ وكان يوجينيوس يشعر أن هذه ستكون حريا صليبية فرنسية. ويمكن للمنافسات الزمنية أن تعيق تحقيق الأهداف الروحية بكل سهولة. ولسوء الحظ؛ فإن بيرنارء ناسيا الغيرة بين الدول أجبر تقريبا الألمان على الذفاب أيضا. وكونراد ملك الألمان والإمبراطور غير المتوج لم يكن يرغب فى الذهاب مطلقا؛ لكن بيرتار» بما يتمتع به من خطابة وبلاغة قال له: "أيها الرجلء ما هو الذى لم أفعله من أجلك؟ وماذا كان يجب أن أفعل من أجلك ولم أفعله". وكوتراد, الذى رأى فى بيرنار صورة المسيح يوم القيامة, وافق على الذهاب. كان الوضع سيكون أفضل لو لم يذهب. تقد انطلق الصليبيون عام 1141, متبعين طريق الحرب الصليبية الأولى: برا خلال المجر نحو القسطنطينية, حيث كان الألمان يتقدمونهم؛ وأصبحت القسطنطينية, البؤرة الخرافية للإمبراطورية البيزنطية. هى المجازفة المحدقة. وعبر أودى عن هذا باقتضاب: 'القسطنطينية متعجرفة يثرائهاء وغادرة فى أساليبهاء وفاسدة فى عقيدتها؛ وتماما كما تخشى الجميع بسبب ثرائها؛ يرتعد منها الجميع بسيب غدرها وانعدام إيمانها." قد يبدو هذا الحكم قاسياء وإنصافا للإغريق يجب ملاحظة أن الألمان الذين سبقوا التجرية الفرنسية, تصرفوا ببشاعة؛ حتى أنه حين وصل الفرنسيون - وتذكرت القسطنطينية المشكلات التى سببتها لها الصرب الصليبية الأولى توقعت ما هو أسوأ. ومع ذلك فمن السهل اليسير الهودة إلى الوراء فى القرون وتقديم تحليل جاف 99

للأسباب والنتائج؛ إن الأحداث الجارية خاصة تلك التى لها طبيعة عسكرية أو دينية, تكون مليئة بالعاطفة, ولكى نفهم الرأى المعاصر لهاء يجب أن ترى من هذا المنظور. لذا لم يكن بلا داع أن يقتبس أودى فيرجيل ويقول: 'إنى أخشى الإغريق» حتى حين يحملون الهدايا". منذ البداية كان لويس يشعر بالحرج الشديد من الدبلوماسيين البيزنطيين؛ الذين كانت كلماتهم بها من الإطراء ليس فقط ما يخجل إمبراطور» يل والمغفل.' ولكن. على ما يبدو كانت المداهنة بسيرة هينة بالنسبة لهم. إذ قال أودو: "المداهنون الفرنسيون, لا يمكنهم مجاراة الإغريق حتى إذا رغبوا فى ذلك". من الناحية الاسمية» يؤمن الألمان والإغريق والفرنسيون بنفس العقيدة, لذا فهم يعتبرون الحرب الصليبية هدفًا مشتركا. ولكن من الناحية العملية. احتفظت كل أمة بمصالحها المادية فى صميم فؤادهاء وأخذت تسعى بكل جهد لاحتلال المواقع على مدى الحرب الصليبية. إذن: بالنسبة لأودو "كان الإغريق يقسمون باستخفاف على كل ما كانوا يعتقدون أنه سوف يسرناء لكنهم لم يؤمنوا بما نؤمن به» ولم يحترموا أنفسهم. فهم عموما يؤمنون بائرأى القائل بأن أى شىء يتم من أجل الإمبراطورية المقدسة لا يعد شهادة زور". لكن الإغريق» فى رأى الفرنسيين والألمان شاهدو زور, بل أسوأ من ذلك. ذلك أنهم كانوا يزودون الجيشين بالمرشدين؛ وفى كل حالة؛ بدا للأجانب أن المرشدين خونة يقودونهم كى يقعوا فى أيادى المسلمين. ذلك أن الألمان: فى الطليعة فاجأهم الأتراك وذبحوهم.,. واقتيد الفرنسيون إلى أماكن "ما زالت ملطخة بدماء الألمان". حيث هوجموا هم أيضا وهزموا. لقد أدى انعدام الثقة والخداع إلي الكارثة. ولم تر غالبية المحاربين فى الحرب الصليبية الثانية الأراضى المقدسة أبدا. وكتي أودو؛ "وا حسرتاه., يا له من حظ يثير الشفقة ذلك الذى جعل الساكسون الأشداء والباتاقيون وغيرهم من الألمان يفنون بشكل بائس يسبب غدر الإغريق الكسالى! وبسقوط الفرنجة» يكون الحزن المضاعف لا يطاق؛ سيكون لدى الأمتين شىء يتتحبون من أجله ما لم ينتقم أبناء هؤلاء الرجال لموت 100

أبائهم". صحيح أن الإغريق كانو! يستحقون اللوم: لكنهم أيضا كانوا كباش
فداء لسوء حظ الصليبيين وافتقارهم إلى حسن التدبير والتفكير. ومع ذلك, فإن
القرنسيين والألمان على حد سواء انتقموا فى الوقت المناسب انتقاما بشع من
القسطنطينية؛ ومن بين حطام جميع كوارث الحرب الصليبية الثانية كان فرسان الهيكل
هم وحدهم الذين خرجوا بشرف. لم يقد كتيبة فرسان الهيكل روبير ألبيرجندى, ولكن
قادهم أفرار دى بارء الذى كان حينئذ معلم الهيكل فى فرنسا. وفى القسطنطينية أظهر
بار مهارة دبلوماسية فى المحادثات التى أجريت مع الإمبراطور؛ غير أن القيمة
الحقيقية لفرسان الهيكل وما يتحلون به من انضياط لم تظهر حتى مرور بعض الوقت
بعد القسطنطينية» حين كان الجيش الصليبى يحاول اجتياز أحد الجبال؛ فأحاط به
المسلمين. "إن فرسان الهيكل ولورد أفرار دى بار الذى يجب أن يوقر بسبب ورعه.
والذى قدم مثلا شريفا يحتذيه الجيشء أنقذ ممتلكاتهم بحكمة ونشاط وحمى ممتلكات
الآخرين بشجاعة يقدر الإمكان. فى ذلك الوقت أحب الملك المثل الذى ضربوه وسرة أن
يحاكيه ... لذا تقرر أنه فى أثناء هذه الفترة الخطرة يجب على الجميع أن يقيموا إخوة
مع فرسان الهيكلء الفقراء والأغنياء ويقسموا على ألا يفروا من ميدان القتال وأن
يطيعوا فى كل جانب الضباط الذين يعيتهم لهم فرسان الهيكل". لقد كانت أوامر
فرسان الهيكل للصليبيين أوامر بسيطة: وأساسية؛ وتبين بساطتها ما كان عليه الصيش
من فوضى. "لأن الأتراك يسرون بالقفرار ورجالنا يؤمرون بالتحملء إلى أن يتلقوا أمراء
هجمات العدو؛ وينسحبون مباشرة هين تتم دعوتهم» مع أنهم يجب أن يصمدوا كما
أمروا أصلا. وحين يتعلموا هذاء يتعلمون أيضا نظام المسيرء بحيث أن الشخص
الموجود فى المقدمة لا يندفع إلى المؤخرة والطليعة على الأجنحة لا يجب أن يقعوا
فى الفوضى. وفوق ذلك فإن من جعاتهم الطبيعة أو الظروف جنودًا راجئة (لأنه فقدوا
أو باعوا معداتهم. كان الكثيرون من 07خ

النبلاء يسيرون بين الزحام بطريقة غير معتادة بالنسبة لهم) قد سحيوا إلى
المؤخرة كى يعترضوا الأعداء بأقواسهم . إن وصف أودى المفصل لهذه الترتيبات
الأولية ينم عن دهشته لهاء ويكشف عما كان يعانيه المحاربون الصليبيون من تشنت
فيما مضى ومن اتعدام فى الاتضباط. ومع ذلك. فحتى هذا القدر من التنظيم كانت له
السيادة, مؤقتاء فى مواجهة حرب العصابات التركية فى الجبل؛ إذ شق المحاريون
الصليبيون طريقهم إلى سطح الأرض»: حيث "عند الوصول إلى المسطحات الطيتية
وجد الكثير من الأتراك حتفا ولحدا فى مكان مناسب لطبائعهم القذرة. فى حين دمر
هجومنا العارم وملاحقتنا الطويلة من فر متهم وكان جوع الجميع ضمئيلاء وكان يوم
كل شخص أكثر إشراقا". لكن قدرة الصليبيين على القتال معا التى عثروا عليها حديثا
لم يكتب لها العمر الطويل؛ - إذ إن الأتراك استخدموا سياسة الأرض المحروقة, 'ويجمع
الأغنام والماشية من كل مكان, وتركها ترعى أمامناء دمروا المنتجات التى لم يتمكنوا
من حرقها .” وحين انعدم الطعام, بدأ البشر والخيول فى الجيش المسيحى يموتون
جوعا؛ فاكلت الجياد؛ وتم التخلى عن الملايس والأسلحة والخيام. وكانت هناك أربع
معارك. تم الإتتصبار قيها خفت :فيادة فرسيان الفيكلواستطاع الفرسسان:يواشطة
عيلة: تأخير النهاية إلى حين. فعلى الرغم من أنهم هم أنفسهم كانوا على وشك الموت
جوعاء فإنهم تمكنوا من الاحتفاظ بجرادهم؛ عن طريق القيام يعمل جبهة شجاعة مما
أقنع الأتراك بأن الجيش ما يزال قويا. غير أن ذلك لم يكن سوى قشرة: ولم يستطع
تحمل خيانة الإغريق وما فعله الأتراك. حين وصل لويس إلى أداليا على الساحل
الشمالى الشرقي للبحر المتوسطء أقنع بأن يذهب بحرا . وذهب أودو معه. ومات جزء
كبير من الجيش بسبب المرض والمجاعة والهجمات فى الميناء وحوله؛ واستسلم جزء
كبير من بين من بقواء واستداروا للعودة إلى بلادهم. ولم يتشتت سوى عدد قليلء برا
إلى أنطاكيا. 102

وظل الملك الشاب فى الأراضى المقدسة لمدة خمسة عشر شهرا. حتى
أوائل صديف عام 1145ء غير أن أودى الذى يعد عمله ثناء على الملك بقدر ما هو
تاريخ للحرب الصليبية: لا تأتى على ذكر تلك الفترة» ويقول مدون معاصر آخر
للأحداث, باستتكار "لم يكن فى وسعه فعل أى شىء مفيدء أى شىء جدير بالذكرء أوء
فى الواقع؛ أى شىء جدير بفرنسا , بل إن أموالة فقدت: وفى لول موقق مسجل لوقف
ستكون له أمعية كبرئ بالنسية للجماعة. اضطر إلى الاقتراض من فرسان الهيكل.
وتحمل أحد أتباعه من اللوردات 5٠٠٠١ سوء من الدين؛ ومن أجل الباقى» كتب لويس
لوصى عرشه؛ سوجى بمزيج غريب من اتعدام الثقة والسلطة. وقال: “لا يمكننى أن
أفهم كيف كان يمكننا أن نبقى لحظة فى هذه البلاد» بدون العون الذى استمروا فى
تقديمه لنا حتى الوقت الحاضر؛ لهذا أرجوك أن تعطيهم المزيد من آيات الاعترافء
وتبين لهم مدى ارتباطى بهم. وأشعر أنه من الضرورى أن أحذرك من أنهم أقرضونى توا
مبلغا كبيرا من المال. يجب دفعه فى أقرب وقت ممكن, للحفاظ على كلمتى ولمنع أى
ضرر لهم. لذ!ا يجب أن تهتم بتسليمهم دون تأخير ألفى مارك دن القعن ..:. لقى
اشكقرقت الرخلة يرا مق لزنا هن لووض ماما أهنا حورته بحراء فاستفرقت نحو سبعة
أسابيع. وكان الملك كونراد ملك ألمانيا قد سبقه؛ وكذلك سبقته أنباء سلسلة الهزائم.
وحين نزل لويس وحاشيته فى إيطالياء بدء وا على الفور حملة دعائية ضد البيزنطيين
منحية باللائمة فى معظم الفشل.على خيانتهم المفترضة. وعلى الفور نودى بحرب
صليبية أخرى, هذه المرة ضد البيزنطويين. أما القديس بيرنار الذى أدهشه وأهاله فشل
لويس الزريع: فقد تبنى الفكرة الجديدة بكل ترحاب. وإذا ما اعتبرنا أن الإغريق جزء
من المسيحيين: مهما كانت نقاط فشلهم؛ فأقل ما يقال عن هذا التصرف إنه غير
مقدس. ولا يمكن للمرء إلا أن يشعرء بأنه على الرغم من غضب بيرنار من طبيعة
الصئيبيين الخاطئة؛ وما تبعها من عقاب من لدن الله؛ فإنه اعتبر الهزيمة شييًا شخصيا.
وعلى الرغم من أن التفسير البيزنطي كان مقبولا على 103

نطاق واسع, فإن الرأى العام لم يكن يميل إلى تصديق التفسير القائل
بالخطيئة العامة. وبدا أن الكفاح بكل هذه الطاقة فى أعقاب الكارثة أمر يشتم منه
الذنب» أى الخطأ على الأقل. فلحق ضرر بالغ بمكانة بيرنار. وعلى الرغم من أن سوجى
ولويس وافقا مع بيرنار» فإن يوجينيوس كان مترددا جدا فى المحاولة مرة أخرى؛ إذ
إنه كان يرى أن مزج الفرنسيين والألمان عرض الحملة للخطر منذ البداية. وأخيرا فإن
أية محاولة جديدة يجب أن تلقى دعما ألمانيا. على الرغم من المشكلات الدولية؛
وكونراد قد رفض أى تورط أكثر من ذلك؛ حتى بعد أن أخضعه بيرنار شخصيا إلى
حديث طويل من التوينغ الشديد. وفى أعقاب سلسلة الصدمات التى ميزت الحرب
الصليبية الثانية جات صدمة أخيرة. ضئيلة نسبيا فى أعين العامة؛ لكتها كانت جسيمة
بالنسبة لقرسان الهيكل. ذلك أن روبير البيرجتدى, معلم الهيكل. مات,؛ فى ١١ يناير عام
,١١44 وجل محله المعلم الفرنسى الإقليميء أفرار دى بار. ولكن على الرغم من المثال
الذى ضربه في أثناء الحرب الصليبية الثانية, فإن قيادة الجماعة كانت مهمة عظيمة
بالنسبة له. فاستقال بعد ثلاث سنوات فقط كمعلم. ولم يقدم دى بار الكثير من
التفسيرء سوى التعبير عن الرغبة فى أن يكرس نفسه فقط لمبادة الله بسلام والتدبر
فيه؛ لكن الإخوة - على ما يفترض أدركوا أن المعلم غير الراغب فى المنصب لن يكون
نافهاء فلم يقفوا فى سبيله. واضطر إلى الانضمام إلى جماعة أخرى؛ وأصبح راهيًا فى
كليرفو, تحت بيرنار» وظل هناك حتي وفاته؛ بعد أربع وعشرين سنة؛ فى عام
.١١071/ وتم انتخاب معلم جديد. فى الوقت المناسبء هو بيرنار دى تريميلى؛ وفى
قرابة هذا الوقت جاءت أنباء إلى بيرتار ربعا جلبت إليه قدرا من الراحة: لقد تم تعيين
عمه أندرى دى مونبار ناظرا لأراضى الهيكل. وظل العم وابن الأخ يتراسلان بكل حب»
وكثيرا ما كان بيرنار يرجو أندرى أن يزور أوريا هرة أخرى. ويعد خطاب بيرتار الأخير
إلى أندرى الذى كتب فى ربيع ١١١07 خطابا مؤثرا بشكل خاص. إذ إن رئيس الدير في
ذلك الوقت كان فى قرابة الثالثة والستين: وكان اعتلال جسمه المزمن قد بدأ 104

يحدث أثره. "الخطايات التى أرسلت بها إلى القتى راقدا فى الفراش".
واستمر يقول: "تلقيتها بكل اشتياق؛ وقرأتها وأعدت قراعتها كثيرا؛ غير أنى أتمنى أكثر من ذى قيل أن أراك. وأحس بالرغبة نفسها فى خطاباتك, لكنى أيضا أحس بمخاوفك على الأرض التى كرمها إلهنا بحضوره ويباركها بدمه. وما وقع من مصائب لأمرائنا... ولكن دعنا نصعد فوق الشمسء وليستمر ما بيننا من حوار فى السماء. فهناك, يا عزيزى أندرو, توجد ثمار عملك وهناك مكافاتك... أنث ترغب في رؤيتيء لكنك تقول إن الأمر يتوقف على؛ لأنك تكتب انتظارا لقرارى. وماذا فى وسعى أن أقول لك: إنى أتوق إلى رؤيتك: غير أنى أخشى أنك لن تأتى؛ هكذا فأنا معلق بين نعم ولاء أجرى من جانب لآخر» ولا أريد أن أختار. لكنى أنحنى أمام ما تقوله عن الأحزان الكبيرة للأراضى المقدسة, ويبدى لى أن أحوالها ستكون أكثر سوءًا بفيابك. لذا لا أجرؤ وعلى أن أطلب منك أن تعود - ولكن شدما اشتاق إلى رؤيتك قبل أن أموت! سوف تحسن التفكير أفضل منى» ... وقد لا تكون رحلتك عديمة الفائدة, لأنه. برحمة الربء قد يكون هناك فرسان يرغبون فى أن يتبعوك لأنك مشهور ومحبوب فى كل مكان. لكنى أقول هذا لك: إذا أتيت» فلا تآخرء وإلا فلن تجدنى هنا! لأتى بالقعل عليل جدا, ولا أتوقع أن أبقى أطول من ذلك على هذه الأرض ". لم يتمكن أندرى من العودة؛ وتوفى بيرتار» عجورًا. ومريضاء وخائب الرجاءء وحيدا فى ديره المتواضع وحوله رهبانه. كانت الساعة التاسعة صباحا فى ٠١ أغسطس .1167 وفى ذلك العام نفسه توفى شخصان آخران فى هذه القصة: البابا يوجينيوس,2 والمعلم الرابع للهيكل» بيرنار دى تيميلى. إن قتل وهو يحارب فى عسقلان فى أواخر يوليه. ومن المحتمل أن أندرى لم يتسلم خطاب القديس بيرنار الأخير حينئذ؛ ولكن لا بد أنه كان يفكر كثيرا فى ابن أخيه؛ وفى ذلك اليوم قيل ذلك بسبع وعشرين سنة حين التقى الاثنان فى كليرفو. لقد وقع الكثير من الأحداث فى هذ! الوقت القصير؛ ولم يعد أندرئ طالبا جديدا لعضوية الفرسان؛ يسعى إلى الموافقة المقدسة لإخوته. إنه الآن أكثر بركة من الأساقفة. وأقوى من الأمراء. فهو المعلم الخامس للهيكل. 5_1

الجرء الثالث المملكة فيما وراء البحر ١□١□-1١١1□١1

الأراضى المقدسة, 1158-1171 ينبوع جنات » بئر مياه حيةء سيول من ليئان .... نشيد سليمان للأراضي المقدسة اسم فخم ضخم: لكنها من الناحية الجغرافية ضئيلة الحجم. إذ يمكن للمرء أن يطير فوق الدول الصليبية كلها طولا وعرضا فى ساعة أو ساعتين. لقد كان أكثر أسمائها شيوعا فى أوريا ما وراء البحر - وهذا الاسم يضم دفعة واحدة صفات الفرية والقداسة والمجد الزائف التى ميزت فرسان الهيكل بنفس القدر الذى ميزت به التربة المقدسة التى دافعوا عنها. أما بالنسبة لسكان الأراضى المقدسة:؛ فإن "ما وراء البحر' كان يعنى, بالطبعء أوربا؛ ولكن فى هذا الكتاب -- الذى ينظر جنويا بأعين أوربية - فإن ما وراء البحر هو تلك المجموعة من الممالك والإمارات التى أسسها الصليبيون وقام فرسان الهيكل بدور الشرطة فيها. ولقد رتبت مملكة القدس القديمة, وإمارة أنطاكيا ومدينتا طربلس وأديسا على شكل حرف ت باللغة الإنجليزية. وفى أعلى منطقة النفوذ اللاتينية فى الشرقء كانت الدول الأربع معا عبارة عن ستمائة ميل نقريبا إلى الشمالء وحوالى ثلاثمائة من الغرب إلى الشرقء - عبارة عن شريط طويل ضضميق من القرن الشرقى للبحر الأحمر على طول ساحل شرق البحر المتوسطء يعبره 109

حاجز ثقيل من سيلوسيا شمال قبرص إلى أديسا. وكانت طربلس أصغر هذه
الدول: وحتى حين كان الصليبيون فى قمة قوتهم, كان أكبر طول لها هو خمس
وثمانين ميلاء ولم يكن أكبر عرض لها يزيد على أربعين. وعلى حدودها الجنوبية مع
القدس؛ كان هذا يتقاص إلى مجرد ممر ساحلى: وبين بيروت ومدينة طربلس الفعلية؛
لم يتقدم احتلال الفرنجة سوى عشرين ميلا فى الداخل. إنها إمبراطورية».
وإمبراطورية مقدسة؛ ولكن بالمعنى المعاصر كانت إمبراطورية مصغرة - منطقة كلية
تزيد قليلا على أحد عشر ألف ميلا مربعا. ومع ذلك» فى كثير من الأحيان كانت
مساحة أكير كثيرا من قدرة القرنجة الغزاة على الدفاع عذها. على الخريطة يمكن
قياسها بإصبع؛ ومن الجى يمكن مسحها فى خلال ساعة. ولكن على الأرضء حين كانت
أسرع وسيلة نقل هى الخيل؛ وآمن اتصال كان عن طريق الحمام: كانت تلك الأميال
الإحدى عشر ألف ميل مربع شيئًا ممتداء وتشكل تهديدا؛ لأن الأعداء كانو! يحيطون
بالفرتجة. وكان الخوف رفيقهم الدائم. ذلك أن الكهوف التى كانت تنتشر فى المكان
كان من الممكن أن تخفى كمينا مميتا؛ ويمكن للجبل أن يخفى جيشا؛ وكان من
المستحيل القيام بعمليات الدورية فى جميع الحدود الطويلة المترامية. يمكن فهم
الحالة النفسية للسكان الأوربيين فى الدول اللاتينية مجتمعة فهما أفضل حين نعلم أن
عددهم لم يكن يزيد على عشرين ألفًا؛ ولم يكونوا جميعاء بالطبع. مقاتلين. وفى مملكة
القدس بكاملها كان هناك أقل من ألف من الفرسان من غير رجال الدين والبارونات وما
يزيد قليلا على خمسة آلآف رقيبء هم المشاة كاملو التسليح. بالإضافة إلى ذلك قد
يكون هناك ألف أخرى من المدنيين المسيحيينء الأوربيين ويضع مئات من رجال
الدين؛ وقد انعكست هذه الأرقام فى الإجمالى الكلى للدول الثلاث الأخرى. وفى المدنء
وأنحاء الريفء كان السكان المسيحيون من أهل البلاد يفوقون الأوربيين عدداء وهؤلاء
المسيحيون كانوا موجودين هناك قيل الحرب الصليبية الأولى» وسوف يظلون هناك
حين تطهر الأرض من الأوربيين. ولكن على الرغم من أن المسيحيين من سكان اليلاد
كانوا يدفعون 10

الضرائب للأوربيين ويفترض أن يقاطوا من أجل القرنجة, فإنه لم يكن من الممكن الاعتماد عليهم؛ فكثيرا جدا ما كان الفرنجة لا يبدون لهم كإخوة مسيحيين وإنما كغزاة ظلمة. وكان من السهل عليهم خيانة الفرنجة لصالح المسلمين: وقد فعلوا ذلك فى مناسبات عدة. ومع ذلك. فقد كان لدى الدول اللاتينية ذراعان مقاتلان» نصف طائفة اجتماعية من المرتزقة أبناء الأتراك, (اسم محلى يطلق على مرتزقة من الرماة كان الصليبيون يستأجرونهم فى منطقة البحر المتوسط: المترجم.) لا يعول عليهم, مثلهم مثل أى مرتزقة؛ ثم الجماعات العسكرية. وكان من المتوقع أنه يمكن الاعتماد عليهم اعتماد! تاها. وكان فرسان الهيكل أولهم. إذ إنهمء منذ بدايتهم. كانوا عسكريين؛ وقبل الاعتراف بهم فى تروا بوقت غير طويل انضمت جماعة أخرى, هى الإسبتائيون, هذا هو الاسم الشائع وبدلا من أن نطلق عليهم المستشفيين. سوف نستخدم هذا الاسم لشيوعه (المترجم). لقد أسست مستشفي القديس حنا فى القدس عام 2،154 وظلت كذلك تماما لمدة قرن: أى مستشفى لتجدة ورعاية الحجاج. ولكن عند رؤية تجاح فرسان الهيكل الذى يعد ظاهرة تم الاعتراف بالمستشقى على أسس عسكرية. محاكاة للفرسانء ومما يثير الدهشة أيضا أنها يدأت تجتذب من الدعم والتاييد ها تحقق لجماعة الهيكل. إذ على الرغم من نجاح فرسان الهيكلء كان هناك ما يزال مجالاً للمنافسة. وكانت الجماعتان عادة قادرتين على تقديم ما بين ستمائة إلى ألف فارس, مقسمين تقريبا بالتساوى؛ وإذا ما قسنا هذا الرقم بالأرقام السكانية التى سقناها سابقا, تتبين أهميتهم فى الحياة المدنية والعسكرية على نحو أوضح من أى شيء آخر. إذ أمكن أن يمثلوا ما يصل إلى سنة فى المائة من السكان الإفرنجة المقيمين؛ وكانوا هم الجيش الدائم الوحيد. فإذا ما أحذنا هذا فى الاعتبار» قمن المؤسف أن نضطر إلى التسليم بأن أول اشتباك عسكرى مسجل قام به فرسان الهيكل بأتفسهم كان هزيمة فى حقيقة الأمر. 111

لقد وقع ذلك عام :1178 بالقرب من بلدة تسعمى تقواء على بعد تسعة أميال فقط من جنوب القدس. كان المسلمون قد استولوا على البلدة؛ ويبين قربها من المدينة المقدسة مدى ضعف المسيحيين فى دفاعاتهم ومدى قابلية أى شىء للتعرض للهجوم عدا المدينة المصاطة بالأسوار أو الحصون. لدى سماع هذا النبا. انطلقت تجريدة من فرسان الهيكل بقيادة روبيرء ألبير جندى المعلم الثاني. ولكن على الرغم من قدراته الدبلوماسية والإدارية» بدأ روبيرء فى تلك المناسبة على الأقلء أقل قدرة كقائد فى الميدان. وكان مطران صورء ويليام» المؤرخ» يحمل ضفينة دائمة صضد اد ا وضد روبير نضلفة خاضة: بسن الامتيازات الكنسنة التى منحت لهم فى مق تمر الهبة العليا. ولم يضع فرصة لم ينتقد فيها الجماعة» ورأى في تقوا قصاصا عادلا. وهو يقول إن روبير والإخوة أعادوا الاستيلاء على البلدة بسهولة؛ لكنهم ارتكبوا "خطأ عدم ملاحقة المسلمين وهم يفرون". إذ ظل فرسان الهيكل فى البلدة؛ ود وتجمع المسلمون مرة أخرى فى خارج البلدة. وشنوا هجوما مضاداء وقال ويليام باكتئاب ورضا "كانت المساحة كلها ها بين الخليل وتقوا مفروشة بِجِثْث فرسان الهيكل". (هذه المساحة كانت عشرة أميال). من المحتمل أن ويليام كان مبالفا؛ ولكن حتى إذا كان وصفه هو الحقيقة الحرفية؛ يجب النظر إلى تقوا فى سياقها؛ - إذ كانت معركة صغيرة بين عشرات المعارك الصغفيرة؛ وعددا كبيرً من المعارك الكبيرة؛ إنها هزيمة صغيرة بين كم من الهزائم الكبيرة» والانتصارات الكبيرة. إذ كانت هناك ثلاثة تهديدات أكثر سومًا من تقوا بشكل لا يوصف فهى تهديدات قوية على الأمن المسيحي فى الأراضى المقدسة. كان التهديد الأول تهديدا مباشرا: هى زنكىء القائد المسلم الجديد. فمع مقدم عام كان شمال سوريا باكمله تحت إمرته. وفى عام ١١51 كان قد هاجم يغداد مرتين, وحين هزم مرتين؛ وجه اهتمامه إلى الغرب. وهاجم رجال من قيادته أنطاكيا عام ؟711؛ وفى عام ١176 دخل هو نفسه الإمارة. بعد أن حاول دخول دمشق؛ وفى 4 أقترب من دمشق مرة أخرى؛ لكنه قنع بمدينة حوران الإسلامية أيضا؛ وفى عام ١174 حاصر بعليك واستولى عليها. وما بين ذلك» كان يغير على الحصون الحدودية. فأصبح تهديدا مجرياء وقوة يعتد بها. 12

وكان التهديد الثانى أكثر دقة وحساسية:؛ وأكثر خطرا: وهم الحشاشون, تحت قيادة زعيمهم الأسطورى؛ رجل الجبال العجوز. ومن الفريب, أن الحشاشين كانوا. من بحض النواحى, مكافئين إسلاميين لفرسان الهيكلء لأنهم أيضا كانوا جماعة من المجاهدين. غير أنهم لم يقاتلوا علنا فى ميدان المعركة ولم يكن مبدأهم ببساطة التعارض بين المسلمين والمسيحيين والصليب والهلال. إذ كان مصدر إلهامهم هو الإسلام العربى» وليس الإسلام التركي؛ والمذهب الشيعى وليس المذهب السنى. يعبارة أخرى كانوا يعتقدون أن الزعامة الروحية للعالم الإسلامى يجب أن تكون من خلال النسل المباشر للنبى محمدء وليس من خلال خلفاء بغداد؛ وبائتالي» كانوا يرون معظم المسلمين حولهم وكذلك المسيحيين بمثابة كفار, بهذا العدد الكبير من الأعداء. قد يبدو أنهم ليسوا تهديدًا كبيرًا؛ لكنهم كانوا قتلة سريين: ومهرة فى حرفة القتل القاسى الكفء. وكانت طاعتهم للرجل العجوز قائدهم لا يداخلها أى شكء وكان الحشيش يزيد من شجاعتهم. ومن هنا جاء اسمهم. وقد حرفت الكلمة عن طريق الفرنجة بحيث تصبع المفتالين. ومنذ ذلك الوقت احتفظت بمعناها أى القتل السياسي. وهذا العامل على وجه الدقة, أى دافعهم السياسى المعقد, هو الذى جعل المسلمين والمسيحيين على حد سواء يرهبونهم؛ لأنهم لم يكن من الممكن التعرف عليهم, لذا كانوا يستطيعون قتل من يشاءون» - ويستطيعون التحالف مع أى من الجانبين» حسب ما يلائمهم. أما اللتهديد الأخير فكان أكثرها إنهاكاء وهى التهديد الذى أسهم أكثر من غيره فى السقوط النهائى للدول اللاتينية» فى الشرق: وهو انهيار التحالف بين الفرنجة والبيزنطيين. لقد وعد الإمبراطور الفرنجة بالدعم بشرط أن يعيدو) إليه أية أراضر يفتحونها كانت قد أخذت منه فى السابق من جانب المسلمين. وكانت إمارة أنطاكيا من بين هذه الأراضىء التى تمسك بها الفرنجة بقوة منذ استولوا عليها عام ٤٠١٠؛ وفى عام 1177 كان الفرنجة قد قرروا أيضا بقوة أنهم يريدون استرجاع أنطاكيا. فعبر الإمبراطور جون زينس الدردنيل بجيش كييرء وحاصر المدينة. 2/113

وهكذا فإن. مسيحيين حاصروا مدينة مسيحية. وكانت هذه سخرية بلاد ما
وراء البحر القاتلة. ولم يقدم الملك الجديد فولك أى دعم لريمون أمير أنطاكياء على
الرغم من الدور الذى لعبه الأمير فى التخلص من أليس المزعجة؛ وفى عام 1174 عبر
ريمون عن احترامه لجون زينوسء ورفرق العلم البيزنطى فوق أنطاكيا. ومع ذلك كان
هناك مزيد من التعقيد فى السخرية؛ إذ كان للسياسة المزيد من الالتواى ذلك أثهاحين
نامس ينون انظاكناء فاجع تلد ومشق» المستتلون عن زنكى تماماء طربلس. وتم
دحرهم؛ ثم بعد ذلك بعامين: أى فى عام ,١١75 صار الدمشقيون والملك فولك حلفاء.
ضد زنكى. وأعيدت بتياس إلى فولك. ضمن الصفقة. كانت هذه إذن هى صورة ما وراء
البحرء فى الجيل الأول من حكم الفرنجة: عبارة عن شيكة معقدة بشكل لا يكاد يصدق
من العداءات والتحالفات» حيث يمكن أن ينحاز جانب مع الآخر ضد أخيه فى العقيدة,
وحيث تذبذيت المدود باستمرار مع خسارة واسترجاع المدن والبلدان والحصون. وفى
صورة ظلت حقيقية على مدى المائتى سنة من وجود ما وراء البحر: إذن؛ لا عجب فى
أنه حين بدت القدس مسيحية آمنة وجد مسيحيو الغرب أنه من السهل عليهم تجاهل
هذه الأحداث البعيدة المعقدة. وفضلوا التفكير فى مشكلاتهم. غير أن زنكى, ذلك عدو
للمسيحية الطموح الميال للقتال. كان جاهر! لتذكيرهم. أين التاج الذى بوركت به»
وأين الإكليل الرائم؟ أين زينات الملكة, زوجة الأمير الملكية, وروائع قصر العرسء
وأنسجة الذهب المطرزة؟ لم غاب الزوج عن حجرة العرسء ولم غاب أصدقاؤه عن
الكنيسة؟ ماذا جرى أرفاقه؟ إذ لم يعودوا يشدون بأغذية داود. 4 : ضماعت أديساء
فتحها زنكى؛ وسط مشاهد من سفك الدماء والرعب. الشتتق خمسة الاف فى الزعنام
الذعورة وتبخ الاك فخرون وبكى كاهن من أديسا . -« 114

كل ما أخذ منك فجأة, كل ما تلاشى وأنطفا؛ لم يكن سوى أحلامء وأشباح بددتها اليقظة. رأى المسلمون فى زنكى يد الله الرحيم» وقالوا إن الصحراء أزهرت أينما حل. وقال المسيحيون عنه ”وعاء الشيطان. وصاتع الشر" لكن كل من الجانبين وافق على أنه أحسن اختيار الاحظة, ذلك أنه فى العام السابق. مات معارضاء الكبيران. املك فولك, وجون زينوسء مانا مصادفة فى حادثى قنص. وبدون جون أصبح الإنطاكيون والبيزنطيون فى حالة صدام مرة أخرى: ولا يوجد ما يهدد زنكى من الغرب. ودون فولك؛ انتهى التحالف بين الدمشقيين والفرنجة: فلا تهديد من الجنوب. وشكلت أديسا البداية الحقيقية للهجوم الإسلامي المضاد: وفى ما تلا ذلك من سنوات. وبينما كانت الدول اللاتينية تقاتل يوميا من أجل وجودها ذاته. ظهر فرسان الهيكل فى المقدمة. الناس فى حالة اليأس يتشبسون بأى أمل, مهما كان واهيا. حين وصلت أنباء أديسا إلى الغرب. صحبتها شائعة عن ملك مسيحى فى الشرقء» يحارب المسلمين ويحقق انتصارا!. يسمى جون:ء بريستر جون. وكثير من التناس. فى ذئكِ الوقت, وكثيرون آخرون على مدى قرن بعد ذلك آمتو) به إيمانًا تاماء وعلقوا عليه آمالهم فى التجاح. ويعد الحملة التى تلت ذلك من الحرب الصليبية الثانية» حين اعتبره فرسان البيكل مثلا يحتذى وقادة للجيش الملكى, أقسم الكثيرون أن فارسا كان يرتدى ملابس بيضاء ظهر من المجهول كى يساعدهم فى أوقات شدتهم؛ ويختفى حين يكون كل شىء آمن؛ بشكل غامض كما ظهر. وكانت تحيط بفرسان الهيكل هالة من الفموض - إذ إن ميثاقهم أصبح الآن سرياء ولم يكن مسموحا لأى أخ أن يكشف عنه لأى إنسسان؛ وكانت اجتماعاتهم العامة تتم بأقصى درجات السرية: خلف أبواب مغلقة وعليها حراسة مشددة ونوافذ أيضا مغلقة. وكل ممنوع جذاب ومرهوبء ويعض الناسء الذين ربطوا بين صسمت الجماعة بحكاية الفارس الأبيض الغريب رأوا أن فرسان الهيكل مصدر حيرة وإغراء. وسبب الجاذبية واضح: فهى فرقة من النخبة؛ وقاعدتها فى 5ك

أقدس أنحاء البلاد المسيحية؛ ولديها صلات دولية, وثروات دولية. وتنظيم دولى سرى, وتحرر من جميع القيود الزمنية والروحية المعتادة. لذا يمكن النظر إليهم من جميع النواحى كجماعة ذات مكانة معيزة بحق. غير أن هناك آخرين همن فسروا العغناصر نفسها تفسيرا مختئفا؛ ذلك أن السرية, والثراء, والسلطة والحرية جعلت الجماعة موضع شك ودتوجس. ففى وسع المدافعين عن فرسان الهيكل الثناء على ما يتسمون به من تقشف وإخلاص ووحدة. ويمكن للتتقديهم الإشارة إلى التناقضات: فالقرسان الذين أقسموا قسم فرسان الهيكل بالفقر قد انضموا إلى أغنى جماعة فى العالم؛ وقسم الطاعة معناه أن الشخص لم يعد فى حاجة إلى طاعة مليكه؛ والقسم بالدفاع عن البلاد المسيحية معناه أن الشخص فى وسعه تجاهل مطرانه. بالنسبة للمدافعين عنهم, تعد سلسلة القلاع الخاصة بفرسان الهيكل فى البلد المقدسة هى دفاع المسيحيين الأول» وممنلكاتهم فى أوربا نظام منطقى للدعم. أما النقاد فراوا هذه الأشياء باعتبارها تهديدا محتملاء أولا على آمن البلد المقدسة نقسهاء بما أن فرسان الهيكل غير ملزمين بالوقوف إلى جاتب الملك أو البطريارك؛ وثانيا تهديدا لأمن كل يلد فى أورباء حيث إن الجماعة هي الجيش الوحيد النظامى المنضيط. لا يمكن اعتبار أى من هذين الرأيين صحيهًا تماما؛ كما لا يمكن اعتيار أيهما على خطأ تام. فعلى مدى الخمس والأربعين سنة الأولى من حياة الجماعة, لا يوجد دليل مباشر على أن فرسان الهيكل أساءا استخدام حقوقهم, بل هناك قرائن متكررة فى صالحهم: على سبيل المثال. رسائل لويس السابع إلى سوجى» وهذا التعليق فى ميثاق سابق: لا نعتقد أن المؤمئنين يمكنهم نسيان ما قدمه فرسان الهيكل من عزاء وعون للسكان, والحجاج. والفقراء وجميع من أرادوا زيارة ضريح الرب.' ولكن أتصافا لمتتقدى فرسان الهيكل, نجد أن السجلات المباشرة وغير المباشرة لنفس تلك الفترة لا تشهد بأى امتياز عسكرى بارز. فمن المؤكد أنه مع مقدم عام ؟١١١, كان فرسان 16

الهيكل يمتلكون قلاعا من غزة حتى أرمينيا؛ ولكن فى إحدى المرات - في
تقوا انهزمواء وفى معركتين أكثر أهمية. بدا أن سلوكهم أدنى من أن يكون مشرفا.
هاتان هما معركة دمشق عام »1154 وعسقلان عام ؟١١١, فدمشقء؛ التى كانت تعتز
باستقلالها عن المسلمين الآخرين: وعن الفرنجة: كانت مغرية للجانبين» لعقود. إذ حاول
زنكي فتحها مرارا وتكراراء بل إنه مات خارج أسوار دمشق عام :1151 إذ قتله فى
أثناء نومه عبد خصى أوربي. ثم حين تقاطر لويس السابع وكونراد ملك ألمانيا إلى
الأراضى المقدسة مع من تبقى من الحرب الصليبية الثانية, قرر الفرنجة أن يأخذوا
دورهم. وكان الاستيلاء على دمشق المعروف فى الكتاب المقدس فى أنحاء البلاد
المسيحية؛ من شأنه أن يكون أكثر من تعويض عن خسارة أديسا: إذ كان من الممكن أن
يجعل الكوارث فى أنحاء بيزنطة جديرة بالحدوث. ولكن لأسباب بدت غير مفهومة
حينئذ كما هي كذلك الآن, لم يفوزوا بالمدينة, وأنمى الكثيرون باللائمة على فرسان
الهيكل. من السهل علينا أن نفهم السيب الذى جهل القرنجة والمسلمين على حد سواء
يشسيرون إلى دمشق باعتبارها 'لؤلؤة الصحراء". فهي من حيث المنظر كانت مذهلة,
وأليوم عند النظر من الجو إلى المدينة؛ تأخذ النظر ثلاثة ألوان - بياضى المبانى» التى
تلمع فى شروق الشمس؛ والواحة الخضراء. "الحدائق” حول المدينة؛ واللون الأصفر
الذى يشبه الشفق فى الصحراء المحيطة بكل مكان. إنها زمرد ولؤلؤة وضعا في ذهب,
من المؤكد أن دمشق شأنها شأن أية مدينة, بها أجزاء قبيحة قذرة. كتلها السكنية
المرتفعةء ومعمارها الذى يعد من الطراز العاشر؛ غير أن هذه العيوب لا تسسيء إلى
الانطباع العام» وشو أن هذه المدينة ذات قيمة مرتفعة؛ ومنذ ثماني قرون» حين كانت
جيوش الفرب الصليبية تناضل كى تستقر فى الشرقء لا بد أن أثرها على من رأوهاء أو
حتى سمعوا عنها كان بالغ الجاذبية. وفى حياة الفرنجة الصعبة غير المستقرة. تجذر
حلم دمشق وازدهر بسهولة. 117

وطبيعة هذا الحلم. والحقائق والأساطير التى تغذى عليها تروى ببساطة: فدمشق فريدة بحق. بالنسبة لمعظم الصليبيين» كانت أراضى شرق المتوسط لها حظوة خاصة:» ذلك أن جميع أحداث الكتاب المقدس وقعت هتاك؛ ولكن حتى بالمقارنة بالقدس, كان هناك اعتقاد بأن دمشق تتمتع ببركة خاصة. فهى أقدم مدينة على وجه الأرض ظلت مسكونة باستمرار - إذ أنها وجدت قبل ميلاد إبراهيم بألف سنة. لكن قيمتها بالنسبة للفرنجة كانت أكير من محرد القدمء أو حتى من الفائدة الاستراتيجية. إذ إن امتلاك الفرنجة للمدينة من شأنه دق إسفين محسد بين مسلمى الشمال ومسلمى الجنوب» أكثر من أى تحالف بين الدمشقيين والفرنجة» وكان لهذا حسابه. ولكن ما كانت له أهميته بالنسبة للجنود العاديين والحجاج فو أنه بالقرب من دمشق كانت توجد مقبرة هبيل وفى اتجاه آخر ولكن قريبا أيضا كان دير راهبات به أيقونة يقال إنها تشبه العذراء والطفلء ربسمها القديس لوقا وهى الأولى من نوعها! وفى جنوب المدينة هناك مقبرة للقديس جورجء (جرجرس)؛ وفى المدينة نفسها هناك مقبرة لحنا المعمدان؛ والموقع كله هى موقع جنة عدن. ومن طين نهر برداء الذى تقوم عليه دمشق» صنع آدم, - على أى حالء كان المسلمون يقولون باعتزاز إن هذا صحيح: وظلهف الفرنجة إلى قبول هذه المعلومات. كانت هناك غرائبء وأخطاء, أيضا تحيط بهذه المعلموات المنقولة عبر الأجيال. إن مقبرة هبيل طولها نحو عشرين قدما وهى أضيق من أن تتسع لأى إنسان؛ ولكن حراس لبنان؛ وهو قبر مشابه؛ الذى يقال إن به ست, ابن آدم الثالث, فى حين يرقد النمرود فى ضريح بالقرب من حرمون - عبارة عن قبر طوله ثلاثون قدماء وطبقا لسفر التكوين» كان هناك مردة فى الأرضء فى تلك الأيام' وعذراء سيدنا يا المرسومة (وهفى تعنى شيئينء "سيدتنا' 'ومكان صيد') كان وما زال يعتقد أنها تيكى. لقد قبل فرسان الهيكل هذا الاعتقاد. وبمزيج الإيمان والدعاية الماهرة التى تميز أيامهم الأولى؛ عباوا بعض الدموع فى زجاجة وأرسلوا بها إلى أوربا. 7

لو صدقنا كل مكان يقول إن بها رأس حنا المعمدان, فلا بد أنه كانت له
ثلاثة أو أربعة رءوس على الأقل. وبالمثل» تذهب عدة ادعاءات منتنافسة تطالب
بالتكريم إلى أن جنات عدن كانت موجودة؛ ولكن ريما كان الخطأ الذى يثير أكبر قدر
من الشفقة هو ذلك المتعلق بالقديس جورج. إذ لا بد أن الفكرة القائلة بأن القديس
الصامى لإنجلترا مدفون هنا قد أثارت وفتنت الكثيرين من الأوربيين؛ لكنه ليس مدفونا
قى هذا المكان. ذلك أن جورج المدفون بالقرب من دمشق ثم يكن ضابطا رومانياء
وإنما هو حمال حبشيء قد تم إعدامه يسبب دوره فى هرب القديس بولس من
المدينة. وعلى الرغم من ذلك» بمعنى ماء لا تعد هذه الأخطاء والغرائب مهمة. الأمر
المهم هو أن هذه الأشياء عن الأرض المقدسة بشكل عام ودمشق بشكل خاص كان
يعتقد على نطاق واسع أنها حقيقية. ودون هذه المعتقدات» لما حاول أحد القيام
بالحروب الصليبية: ولما كان متاك كيده لفرسان الهيكل. وفى هذا القرن العلماني. حين
تنظر إلى الوراء إلى هؤلاء الناس, من الضرورى أن نتذكر أنهم حينما رأوا القدس - أو
دمشقء لم يروا مجرد أسوار وأبراج ومبان؛ ولم يفكروا فقط فى احتلال الأراضى. بل
رأو! أماكن بعثت أناجيلهم إلى الحياة. إذ لم تعد الأسماء المألوفة من الطفولة الأولى
والتى يوقرفا التاسن مجزد كلمات يقولها الوالذان» لو القساوسة: و[ثما فى حسقائق
مجسدة ذات أبعاد ثلاثة» وفتحها عمل من أعمال العبادة. والعبادة تمشى فى دمشق
الآن, كما كانت تمشى فى ذلك الحينء - عبادة الله. ويهوه؛ والمسيح والتجارة. فهى
النشاط الأساسى فى المدينة؛ وهى تستمر طوال الوقت. بشكل أن آخرء وعادة بقدر
كبير من الجلبة؛ والكثير من الألوان. فصيحات المؤذن ترتفع خمس مرات قي اليوم:
تدعو المؤمنين للصلاة - ويما أن الترتيل يأتى فى هذه الأيام من جهاز تسجيل فلا بد
أن يكون مرتفعا بحق. ولا بد من ذلك إذا كان له أن يسمع ويعلى على الأجراس التى
تدق فرحا » أو تئن فى آداء حزين؛ وفوق صخب السيرات والناقلات؛ وفوق زمجرة
الجمال؛ 0 الدرجات الحاد, وتوسلات الشحاذين» وصيحات التجار: وغمغمة الحوار,
وضنجيج المقاهى. إنه خليط كبير لمدينة كبيرة حيث الصخب والحيوية والمرح؛ وإذا
كانت دمشق كذلك, تصبح شبيهة بغيرها من المدن الكبرى فى العالم؛ فهناك 119

أشياء مع ذلك. تجعلها مختلفة عن أى مدينة أخرى. هناك الشارع المسمى سوق المنصور وهو مقطى بسقف مقوس على طوله الذى لا يتعرج. وأشعة الشمس من خلال النوافذ. صائعة خطوطا من الفبار؛ - وهناك شيىء لا هو بالخطأ ولا هو بالغريب: - إنه موقع تعميد القديس بطرس. وبالنسبة لمن يميلون إلى الحج التاريخى» يوجد قبر صلاح الدين: وهو عبارة عن مبني بسيط نظيفء يحتوى على ضصريح حجرى ألانى ينتمى للقرن التاسع عشرء قبر نور الدين» وقبر بيبرس وسوف يظهرا في هذه الحكاية فيما بعد؛ وعلى المرء أن يقر: هناك عدد كبير من القبور فى هذه المدينة. وهناك أيضًا أماكن وأناس يتمتعون بقدر كبير من الجمال؛ فالناس فى كل مكان, راهبات: وكهنة؛ ومؤذنون» وباعة شربات؛ معظمهم شديدو الكرم. ومستعدون للدردشة, خاصة فى السياسة؛ ولديهم طريقة أخاذة فى تسخيف سياسة أى شخص؛ (وذاكرتهم السياسية طويلة جدا)» فهم فى نفس الوقت يدافعون بصدق عن إعجاب صادق بالأفراد الذين يصنعون ويديرون ويعانون السياسات. ولا بد أنه من أوائل أماكن الجمال المسجد الأموى الكبيرء الذى كان موقعه مقدسا على مدى ثلاثة آلاف سنة, والذى ضمت جدرانه عناصر من أضرحة ما قبل الرومانية» والرومانية والمسيحية والإغريقية والآرامية. وقد بنى فى.شكله الحالى فى أوائل القرن الثامن؛ وقد أتفق فى تشييده ما يعادل سبع سنوات من دخل البلدة» وأضيء بستمائة مصباح معلقة سلاسل من الذهب الصلب. وقد اختفت هذه وغيرها الكثير من الزينات الذهبية منذ وقت طويل؛ نتيجة للحرائق والمعارك - وكان من الممكن أن تضيع قبل ذلك لو أن الصليبيين فازوا. ومع ذلك, يظل مكانا بارزا للجمال البصرى. والهدوء العميق» بأعمدته الرائعة, وأرضيته القرميدية, وجدرانه المنقوشة. وهذه الأشياء غير معتادة فى الإسلام. لأنها تمشيلية,؛ (أى تمثل أشكالاً لأشياء) إذ تصور الأنهارء والمتازل والبساتين» فى زمن رعوى ومكان رعوى مجهول. ويقول البعض إن الصور تسجل دمشق كما كانت في وقت من الأوقات - حدائق الجنة؛ ومكان البراءة العذرية؛ وأن 10

هزيمة الصليبيين عام 1154 تنبع من عدم استحقاقهم لجائزة كهذه. أما بالنسبة للفرنجة؛ فإن الطريق الذى أدى إلى ذلك الفشل الزريع بدأ فى أتطاكيا فى ربيع 4»: حين كان لويس السابع وزوجته إلينور من أكيتان هناك. إذ كانت سمعة إليثور دائما فى مكانة متغفضة:. لأن شخصيتها لم تكن متسجمة مع الفضائل الثى كان الناس يقدرونها فى ذلك الوقت, ولم تكن منسجمة مم الصفات المطلوية من ملكة. لقد كان لويس جادا نقياء إلى حد البلادة؛ أما إلينور فكانت تتدفق بالحيوية؛ وخفة الروح, والذكاء والأناقة. أذا كان رجال الكنيسة والسياسيون فى بلاط زوجها يصدمون من سلوكها الغزلى؛ أما الرجال الأقل قتامة فكانوا يبتهجون بسلوكها. وكان أحد هؤلاء هو ريمونء أمير أنطاكياء وكان عم إلينور: وكانت زوجته الطفلة كوتستاتس لم تتعدى العشرين, لكنهما كانا متزوجين منذ إحدى عشرة سنة. وقبل وقت قصير من وصول إلينور إلى أنطاكياء بدا للجميع أن ريمون وابنة أخيه بينهما ما يزيد على العاطفة العادية. وشعر لويس بالإهانة لشرفه. وقاد جيشه إلى القدس بعد أن أخذ زوجته معه بالقوة. وفى 4؟ يونية؛ انعقد مجلس حرب فى المدينة المقدسة. وكان هناك الإمبراطور كونراد؛ ولويسء ومعلمو الهيكل. والمستشفى. وابن فولك وخليقة»»» بوادوين الثالث. وبشكل ما توصلوا إلى قرار بأن تكون دمشق هى هدفهم - على الرغم من أنها كانت المدينة الإسلامية الوحيدة التى لديها أقل درجة من الصداقة مع الفرنجة. وانطلق الجيش فى منتصف يولية, وهى أكبر جيش تمكن الفرنجة من جمعه؛ عن طريق بتياس. ووصلوا إلى دمشق فى 5 يولية ونصبوا المعسكرات جنوب المدينة» فى منطقة تمتلئ بالحدائق والبساتين. وكانت هذه قاعدة ممتازة: وكان الهجوم فى البداية مبشرا. ذلك أنه خلال يومين, كان أهل دمشق يضسعون المتاريس فى شوارعهم فى حين كان الفزنجة يواصلون ضرب أسوار المدينة. ثم فى ٠3 يولية, نقل الفرنجة المعسكر وانتقلوا إلى الجانب الشرقى من المدينة.

من الناحية السطحية؛ كان السبب هو تقدم التعزيزات الإسلامية؛ لكن
الجنود العاديين كان يداخلهم الشك لأن قادتهم أخذوهم من أفضل قاعدة إلى أسوأ
قاعدة. إذ كانت مكشوفة؛ بلا ماء. وتواجه أقوى جزء من أسوار المدينة. فما إن تحرك
الفرنجة حتى وجدوا أنفسهم فى وضع الدفاع. وكانت تعزيزات المسلمين وشيكة
الوصول؛ ولم يكن فى وسع الفرنجة توقع أية تعزيزات. ولم يكن فى وسعهم فعل أى
شيىء,: بلا ماء أو طعامء ولا دفاعات طبيعية» وفى الميوم التالى أخذوا فى التقهقر.
وتبعهم الرماة المسلمون وقتئوهم؛ وفى هذه المرة كان السهل بالمعنى الحرقى مغطى
بأحجسام الخيلء والبشرء والجيفء التى كانت ملقاة تتعفن دون دفن لأشهرء وقال ابن
القلايسى: إن رائحتها كانت قوية حتى أن الطيور كانت تسقط من السماء ... قحمدا لله
على ذلك». لم تكن هذه بيبساطة هزيمة؛ بل كانت كارثة: إذ تم القضاء على الجيش
العرمرم فى أيام خمسة. وزالت تماما أسطورة منعة الفرنجة. ومن الطبيعى أن الجميع
بحثوا عن سبب وعن كبش فداء. بالنسبة للجنود العاديين؛ والمدنيين الذين بقوا فى
بلادهم, (يقصد الأرض المحتلة: المترجم) لم يكن هناك أى شك فى السبب: لا بد أنها
الخيانة. وكان السؤال الوحيد؛ إذن» من الخائن. وكان عدد البدائل تقريبا كعدد القادة.
ذلك أن لويس وكونراد قاما باللوم الشديد على جميع البارونات الفلسطينيين. كما فعل
الكثيرون من الجنود» وقالوا إن البارونات كانوا يشعرون بالقيرة مما حققه الفرتسيون
والألمان من نجاح فى الجزء الأول من المعركة. أما البارونات فقد أنحوا باللائمة
بدورهم على الملكينء قائلين إنهما لم يقهما الموقف السسياسى فى الأآراضى المقدسة؛
ون المسلمين ليسوا جميعا متشابهين بالضرورة؛ وأن الدمشقيين الأصدقاء لم يكن من
الواجب مهاجمتهم على الإطلاق. وذهب آخرون بخبس إلى أن لويس كان يرغب فقط
فى إثيات نقسه أمام إلينور بشن الهجوم, وأنه بعد ذلك فقد حماسه. لكن أكثر القصص
شيوعا كانت تروى 12

أن المسلمين قدموا رشوة هائلة لواحد أو أكثر من القادة ذوى النفوذ, إما اليارونات الفلسطينيينء أو فرسان الهيكل. من الممكن أن يكون البارونات قد تلقوا الرشى؛ ليس فى وسع أحد أن يؤكد ذلك. ولا يمكن لأحد أن ينفيه. وسواء رغبنا فى قبول ذلك أم لا يبقى من الممكن» أن فرسان الهيكل؛ مع علمهم بالمضامين السياسية لفقد التحالف الفرنجى الإسلامى الوحيدء قد يكونوا قد وضعوا مصاحة جماعتهم أولاء وقد يكونون متهمين بالقساد. وعلى الرغم من المثل العليا لدى فرسان الهيكل. يصبح هذا الاتهام أكثر قابلية للتصديق فى ضوء تصرفاتهم فى عسقلان, بعد ذلك بخمس سنوات فقط. ومهما يكن من أمرء فعند هذه النقطة تدخل شخصياتان جديدتان هذه الحكاية, شخصية مسلمة؛ وأخرى إفرنجية - نور الدين. ابن زنكى» وخليفته؛ ورينلد دى شاتيون. كان نور الدين فى الواقع هو الابن الشانى لزتكى وعند وفاة زنكى كان الفرنجة يأملون فى أن يتقاتل الإخوان فيما بينهما. غير أنهما قسما أراضى والدهما بشكل سلمى؛ فأخذ الأخ الأكبر العراق» وأخذ نور الدين سوريا. وانطلق من هناك كى يفوق والده: وكان جيشه هو الذى دعم دمشق: وكان هو التهديد الذى استخدمه الدمشقيون للحفاظ على معاهدتهم الواهية مع الفرنجة. وكان رينولد دى شاتيون أيضا الاين الأصفر لكنه أقل حظا فى أسرته. ذلك أنه جاء من شاتيون - سير - لوان؛ على بعد مائة ميل جنوب باريس: وكان عضوا من أعضاء طبقة النبلاء الصغرى. وفى قصة طبق الأصل من قصص الكثيرين من الصليبيين: إذ ليس فى وسعه توقع أى ميراث ذى قيمة فى فرنساء ففادرها ريما مع جيش لويس السابع كى يبحث عن حظه فى الأراضى المقدسة. ولكن باستثتاء ظروف مغادرته. لم يكن يشبه غالبية الصليبيين من أى ناحية. إذ لم يلعب الدافع الدينى أى دور فى تركيبه؛ فهو ببساطة ووضوح مجرد شخص يتصيد حظه. وفاز فى الأراضى المقدسة. وخسر عدة ثرواتء كل ذلك بالسهولة التى يكسب ويخسر بها قاطع الطرق المطبوع على ذلك. 123

في التاريخ المسجل يظهر أول ما يظهر فى أنطاكيا. أنطاكيا سيئة السمعة
فى عام ,116١ فى ذلك الوقت» كانت قد مضت سنتان على وفاة الأمير ريمون الأنطاكى, إذ قتل فى معركة ضد نور الدين, الذى أرسل بجمجمة الأمير فى صندوق من الفضة,» إلى خليفة بغداد السنى. وكانت كونستانس قد أظهرت حينذاك أن بها شيئا من روج أمها أليس» وبعد أن رفضت بإصرار كل من تقدموا لطلب يدهاء حكمت أتطاكيا وحدها. ومن المحتمل أنها كانت قد التقت برينولد قبل ذلك. ومن الواضح أن رينود كان فى مقدوره أن يكون ساحر الشخصية حين يلائمه ذلك؛ لأن كونستانس قررت أن تحزوجه فى أوائل عام ؟١1١١» على الرغم من أنه لم يزد قليلا عن أحد جنود الحظ المفلسين. وكان هذا الزواج يتطلب موافقة الملك, فانطلق رينوند على القور للحصول عليها. وكان بولدوين منشغلا بحصار عسقلان: فالتقى هو ورينولد هناك. وكان لهما لقاء قصيرء بهر أثناءه رينولد الملك يهمته. ويدا أن الخاطب من المحتمل أن يكون قادرا على الدفاع عن أتطاكيا دفاعا جيداء وكان الملك منشغلا؛ فأعطى مواققته؛ وأسسمرع رينولد عائدا إلى أنطاكياء وتم الزواج على الفور. ثم بدأ رينولد يكشف عن شخصيته الحقيقية. وكان هو بالفعل موضع نقد لأن الأنطاكيين صدموا من اختيار كونستانس زوجًا وضيع المكانة. إذ كتب ويليام الصورى: "كثير من الناس تعجبوا من هذاء وكان هناك كلام كثير فى أنحاء البلاد؛ ولكن على الرغم من هذا كله. كان رينوك أمير أنطاكيا.' وكامير, لم يكن ليتحمل أى نقد من أوائك الذين كان يعتقد أنهم أدنى منه» وصين اكتشف أن بطريارك المدينة العجوز من أشد منتقديه اختطف ذلك الرجل المسن» وجرده من ملابسه؛, وضربه ثم قيده ولطخ رأسه بالعسل وتركه يومًا بأكمله على سطح ساخن, يعذيه الذباب والدبابير. ومع ذلك, شأنه شأن كل شخص مستاسد كان يولى اهتمامه لمن هم أعلى منه قدراء وحين تلقى توبيخا شديدا من بولدوين» تصرف بالطريقة التى تناسب شخصيته: إذ تم الإفراج عن البطريارك واقتيد مكرما على ظهر حصان حول أنطاكياء وكان رينولد بنقفسه يقود الحصان وهو يسير على قدميه. 4

غير أن هذا الرجل الذى كان يخلو من أي جاذبية من نواح عدةء كان محاربا
حجسورا؛ ويهذا الوصفء حقق الكثير من الشعبية بين الفرنجة. غير أنه لم يكن يحترم أحدا سوى فرسان الهيكلء ولم يكن مما يشرفهم أن يتقبلوا ذلك. وفيما بعد. ذهيوا إلى حد عقد تحالف رسمى معه؛ - وهى تحالف كانت نتيجته النهائية مناقضة لكل ما كان الهيكل يرمز إليه: تفكك وهزيمة بلاد ما وراء البحار. غير أن ذلك كان لا يزال بعيداء وفى عام ١١05 لم يكن لأحد أن يستشعره أو يتنبأ بوقوعه. وبينما كان رينولد يعذب اليطريارك المسن» كان حصار عسقلان فى أوجه, وكان فرسان الهيكل قى الطليعة. كان المسلمون يطلقون على عسقلان "عذراء الصحراء' لأنها هى وحدها التي لت نون أن تيك مند أيام الحرب الصليبية الأولى. وفى بداية العام قرر بولدوين أن يغير ذلك واقتر الجر كن راان القدس. وتم قبوله على الفور وأقسم القادة على الصليب الحقيقي ألا يستسلموا حتى يتحقق الفتح. وكان أمامهم انتظار طويل. كانت المدينة تمتد على نصف دائرةء جانيها المستقيم إلى البحر وقوسها محصن تحصينا قويا. فتمكن المسيحيون من حصارهاء بما فى ذلك الجانب المتجه نحو اليحر,. لكن المدينة كان بها الكثير من المؤن: وكانت الأسوار قوية جدا حتى أن الحصار كان قليل الأثر لعدة أشهر. وفى عيد القيامة دعم الحجاج المسيحيينء لكن هذا حدث به توازن حين تمكن أسطول مصرى من اختراق الحصار البحرى ومعه المؤن. فشعر المسيحيون الذين يقومون بالحصار بارتباك شديد؛ واتفقوا على القيام بجهد إضافي. حتى ذلك الوقت كانت أسلحتهم عبارة عن مجانيق. وقواذف ومعدات تحطم الأبواب الخشبية. فكانت المجانيق تلقى بالصخور؛ والقواذف تقذف برماح ضخمة:؛ طولها سبع أقدام فى رأسها أطراف حديدية طولها أربع بوصات. فى ذلك الوقت تقرر بناء برج للحصار يمكن أن يعلو على الأسوار؛ - لم تكن هذه الفكرة أصلية على وجه الدقة, لكنها كثيرا ما تكون فعالة. وكان البناء ضِخمًا عند الانتهاء منه. وشديد الإيهار

أو شديد الرهبة, هذا يتوقف على وجهة نظر كل شخص. وعلقت حوله أغصصسان الصفصاف والحبال لحمايته من الصخور - لأن المسلمين أيضًا كانوا يملكون المجانيق - وجلود جديدة كى تمتص أثر الرماح والسهام. وأمامه كان هناك "سلحفاء نفق متحرك من العارضات والألواح الخشبية. وتحت حماية هذاء كان الرجال يعدون الطريق من أجل البرج العظيم. ووضعت منصة من الألواح المتحركة تحث عجلات اليرجء وتحركت الآلة ببطء وهدوء كمارد رهيبء إلى أن وقفت أمام الأسوار. فالقى المسلمون بكل ما أمكنهم الحصول عليه فى اتجاهها؛ ورد القرنجة بكل ما استطاعوا الرد به؛ فلم يؤثر أى فريق فى الفريق الآخر. ثمء فجأة. وبطريقة غير متوقعة نجح الهجوم. كان ذلك فى أواخر يوليه. ليلا. وأرسل المسلمون جماعة صغيرة تحت جنح الظلام كى يحرقوا اليرج. قاشتعل بسرعة, جاعلا الليل يضيء باللهب والشرر؛ ولم يتمكن المسيحيون من إطفاء الحريق. ولكن بينما كانوا يشاهدونه وهو يحترق بيأسء تغيرت الرياح - وهب اللهب فى اتجاه أسوار المدينة, التى أضعفتها أصلا معدات تحطيم الخشبء وعند السحر انهار جزء من الجدار. وكان قرسان الهيكل مسئولين عن هذا القسم, وقاد المعلم؛ بيرنار دى تمبلى هجوما من خلال ذلك الشرخ. وصحبه تسع وثلاثون من الإخوة. فى البداية افترض العسقلانيون أن هذه هى مجرد طليعة بقية الجيشء وكانوأ على وشك الاستسلام؛ ولكن حين لم يظهر المزيد من المسيحيين» أحاطوا بفرسان الهيكل. وذبحوهم عن بكرة أبيهم. وتم سد الشق بسرعة؛ وفى اليوم التالى, عَلَّقَتْ أربيعون من صليان فرسان الهيكل من تخصيتات المسلمين. ومع ذلك كان الحصار لينجح بمرور الوقت. ذلك أن ثلاثة أسابيع أخرى جعلت المسلمين يقتريون من حافة المجاعة, إذ لم تمر أية سفن إمداد؛ واس تسلمت المدينة فى ١4 أغسطس. وسمح للسكان بالمرور الآمن إلى مصرء بمنقولاتهم؛ وحين وصلوا إلى هناك. قتل معظمهم المسلمون البدو وسرقوهم. 16

وفى عسقلان تحولت المساجد إلى كنائس؛ واستقر المسيحيون فى المدينة؛
وانتشر الكلام عن فرسان الهيكل. وعرف سبب عدم وجود دعم لتسع وثلاثين من
الإخوة المبتين» ومعهم المعلم» ولم يجادل فيه من تبقى من الفرسان: لقد أمر بيرنار
دى تمنلى مجموعة من فرسان الهيكل بحراسة الشق من الخارجء ويمنعوا المسيحيين
الآخرين من الدخول. أما السيب الذى جعله يفعل ذلك, فهذه مسألة أخرى؛ إذ لم
يستطع الناجون أو لم يشاعوا شرح ذلكء أما هى فلم يمكن سؤاله باعتباره قد مات.
فقال خيار الناس إن فرسان الهيكل كانوا يرغبون فى أن ينالوا شرف فتح المدينة؛
وقال آخرون كثيرون إنهم طمعوا فى أن ينالوا نصيب القادم الأول من الغنيمة. وأيا
كان السيب» كان من الممكن فتح المدينة قبل ذلك بثلاثة أسابيع لو أن فرسان الهيكل
تصرفوا بقدر أقل من الاندفا ع. واتخذت قصص الفساد فى الهزيمة عند دمشق انحناء
فى النهاية» يعبر تعبيرا صادقًا عن الفكاهة المتهكمة لدى الجنود الذين يشغرون أن
قادتهم خانوهم: إن قيل إن النقود التى يقال إن المسلمين دفعوها اتضح أن جميعها
مقلدة زائفة. ولم تخفف مثل هذه النكتة من الشعور فى عسقلان: إذ اعتبر دى تمبلى
وإخوته أنانيين وحمقى عيس الشرف: وانتهى شهر العسل بين فرسان الهيكل وبقية
المسيحيين منذ وقت طويل. لقد توصل إلى هذه النقطة بعض الناس منذ وقت طويل
قبل غيرهم؛ أما الآن فإن جميع من هم خازج الجماعة قاموا بتقييمها فى الممارسة,
وأصبح كل ما فعله الإخوة مفتوحا على رأيين. واستمرت المكاسب والخسائر مثل ما
يحدث فى لعبة الشطرنج. ذلك أن أمير دمشق المسلم تأثر من فتح عسقلان, وبدأ يدفع
لبولدوين إتاوة سنوية. ولكن بالنسبة لأهل دمشق العاديين» فإن التحالف شىء. ودفع
الإتاوة شىء آخرء وفى عام 4 انفتحت أبواب دمشق أمام نور الدين. فحقق حلم أبيه
حتى دون أن يضطر إلى القتال» وفاز بلؤلؤة الصحراء. 227

فى نفس الوقت كان هناك صرا! ع على السلطة ينور بين المسلمين فى القاهرة: إذ قتل الخليفة أحد رجال البلاط يدعى [نصر] غير أنه فشل فى الاستيلاء على العرش وفر إلى صحراء سيناء. وكان يهدف إلى القيام بدورة كبيرة جنوب أراضى الفرنجة نحو اللجوء فى دمشق؛ ولكن فى أثناء مروره بجانب مونريال على بعد سبعين ميلاً جنوب البحر الميت» وقع فى كمين لقرسان الهيكل وأسروه. فعبر على الفور عن رغبة قوية فى أن يصبح مسيحياء فأخذوا يعلمونه العقيدة لمدة أربعة أيام؛ ثم وصلت سقارة من أخوات الخليفة الميت فى القاهرة,. تعرض فدية ستين ألف دينار للقاتل. فسلمه فرسان الهيكل على الفور وأخنوا المال؛ وأعيد مقيدا بالسلاسلء إلى القاهرة, حيث مثلت به أرامل الخليفة الأربع قبل شنقه. ولقف منتقدى فرسان الهيكل هذه الحادثة. لقد أرسل بنادم كافر ونفس أخرى من نقوس الربء إلى حتفه لمجرد المال. وعقدت المقارنات بين فرسان الهيكل ويهوذا الأسخريوطى. ولكن كالمعتاد, كان هناك تفسير آخر: لم يكن قبول نصر للمسيحية أكثر من طريقة لإنقاذ حياته؛ والمال أكثر فائدة للقتال من أجل مملكة الله على الأرض؛ من إضافة معتنق جديد أمره ملتبس. وعلى وجه التقريب تم تطبيق الحجة نفسها على مناسبة أخرى فى العام التالى فقط. إذ كان رينولد دى شاتيون يجرب نفسه مرة أخرى فى أنطاكيا. إذ تم التفاضى عن نقطة فنية فى زواج كونستانس وريتولد: وهى أن أنطاكيا تدين بالولاء إلى الإمبراطور البيزنطي. وكان على كونستانس أن تطلب الإذن من الإمبراطور كما طلبت من الملك. وهى لم تفعل ذلك, فشعر بالإهانة. كما كان قلقا من أن الأمير الجديد قفد بحاول تحرير أنطاكيا من بيزنطة» ولكى يستبق ذلك وضع عرضًا غير عادى. يمكن الاعتراف برينولد, على الرغم من زواجه غير السليم, أميرا على أنطاكيا إذا واقق على القتال من أجل الإمبراطور ضد الأرمن. وإذا ما نجع في قتاله» فإن الإمبراطور يعد بمكافأة مالية أيضًا 125 .

ورينولدء بالطبع» قبل الصفقة, - مال وقتال: ودعم إمبراطورى؛ لم يكن فى وسعه مقاومة ذلك. وكسب معاركه ضد الأرمن: وطالب بما وعد به من مال. غير أن المال لم يكن جاهزا؛ ذلك أن الإمبراطور كان يريد المزيد من الانتصارات أولا. لكن رينولد كان فى استطاعته لعب هذه اللقبة أيضاء فقدم البلاد التى فتحها لفرسان الهيكل. وقبل الإخوة العرضء واحتلوا الإسكندرونا وأعادوا بناء القلعتين التوأمين جاستونء وبغراسء اللتان أطلتا على بوابات سوريا. ولم تمنعهم سمعة رينولد. غير أنه لا بد من توازن فى الصورة: وكان من أسهل ما يكون فى تلك الفترة من الزمان» لصورة مشوهة أن تتكون. إن يجب تذكر أن الأحداث التى سبق ذكرهاء كانت أنعناگا انتتثنائية ومعالم تنكل فى عقؤل الئاس فى مواعهة واجنبات المماعة العادية المألوفة المتمثلة فى القيام بدور الشرطة فى الطرق الكبيرة وحماية الحجاج. كما كانت هناك معالم وأحداث مهمة, من نوع أكثر شرفا؛ وإليك مثالين: من أعمال في أنطاكيا والقدس. لقد وصف أندرى دى مونبار الحدث الأول فى رسالة مؤثرة من الضراعة إلى المعلم فى ذلك الوقت [إفرار] بعد أن عاد إلى فرنساء ولكن قبل تقاعده عن الجماعة. "منذ أن حرمنا من وجودك الغالى: رزئنا بأن خسرناء فى معركة» أمير أنطاكيا (ريمون, الذى وضعت جمجمته فى الفضة).ء وجميع نبلائه. وثمة حادثة أخرى تلت هذه الحادثة الأولى: لقد غزا البرثيون مقاطعة أنطاكياء ولما لم يجرؤ أحد على مقاومتهم حصنوا المكان ووضعوا! حامية. ... وما إن سمعنا بالكارثة. اجتمعنا مع ملك القدس. وحزمنا أمرنا بالذهاب لمساعدة المقاطعة المنكوية. ولم نتمكن من أعداد أكثر من مائة وعشرين فارسا وألف من الخدم. والمرتزقة. ولكى نزود المرتزقة بالمعدات» اضطررنا إلى اقتراض سبعة آلاف من البيسانت فى عكا وألف فى القدس. ... وما إن وصلنا إلى جوار آنطاكيا حتي حاصرنا نور الدين من جانب والبرثيين من الجانب الآخر وحصرونا داخل أسوار المدينة.

ألم يكن وجودك ضروريا إلى هذا الحد بالنسية لإخوبك كما هو الآن؛ ومهما تفعل بنا العناية الإلهية, لا تتردد فى البدء فى رحلة العودة. ونحن نعلم أن الله يمكنه بكل سهولة أن ينقذنا من أعدائنا كما يمكنه تحويل الوثنى إلى متعبد حقيقى» ونحن نضع فيه كل ثقتنا. ولكن لا يدهفشنك العدد القليل من الإخوة الذى نرسله إليك؛ فنحن بناء على أمرك نود أن نجمع ونحتقظ هنا بجميع رجالنا الموجودين على جانبكم من البحر؛ لأن غالبية من جلبناهم لمساعدة أنطاكيا قد ماتوا ... أن وضعنا من الصعوية حتى إننا لا نملك الألوان كى نرسمه: أو الكلمات للتعبير عنه". لم يكن هذا النداء البائس صيحة جبان؛ ذلك أن مونبار وأخوته كانوا قد بذلوا ما يستطيعون وكتب وهو يتوقع بكل أمل فى أن دى بارء كمعلم سوف يفى بما أقسم عليه. كونه لم يفعل ذلك. وترك الجماعة تنضم إلى السيسترسيانيين (جماعة تأملية لاهوتية) فى كليرفىء يبين المحنة التى تقدمها دراسة فرسان الهيكل. إذ لا بد أن معاصريهم واجهوا نفس المشكلة: ولا يملك أحد أن يندد بفرسان الهيكل أو يثنى عليهم بالكامل. فإذا كانوا يوصفهم أفرادًا أى جماعة قصروا فى الوفاء يمثلهم وما أقسموه من إيمان؛ فإنهم كانوا عادة أكثر إخلاصًا لهدفهم المتحد من أى مجموعة من العسكريين. لقد تحدث عنهم القديس بيرنار باعتبارهم مردوجى التسليح؛ ويمكن النظر إليهم بالمثل باعتبارهم مزدوجى الهبء. إذ يحاولون إلى الأبد عمل توازن بين. أخلاق الدير مع السياسة العملية البرجماتية. وليس مما يبعث على الدهشة أنهم لم يكونوا دائما على مستوى مثلهم؛ يل المثير للدهشة هو أنهم كثيرا بل عامة ما اقتربوا من تلك المثل. أما الحدث فى القدسء وهو صورة أخرى للشرفء. فوقع فى عام ؟6١١, حين كان تميلى معلما. إذ كان هو والملك بولدوين كل منهما بقواته يقومان بحملة ناجحة إلى حد ما ضد نور الدين. كان دى تمبلى فى نبلسء ويولدوين فى طريلس. وبذلك كانت القدس دون قائديها الرتيسيين. وحين علم المسلمون ذلك تقدموا بسرعة 1130

نحو المدينة, ونصبوا المعسكر عند جبل الزيتون. وكانوا ينوون شن هجوم مباغت, ولكن أمكن رؤيتهم؛ وتنبه فرسان الهيكل الذين بقوا فى القدسء فهاجموا المسلمين هم ومعهم الفرسان الإسبتاليون. ودهماء من المدنيين تحت جنح الظلام. وتحول اتجاه المفاجأة كلية؛ وتنبه جيش المسلمين من غفلته, وانكسرء وفرء وتشتت كى يقع فى الفخ على ضفاف الأردن. وتقول الأنباء إن خمسة آلاف ماتواء سواء قتلوا أو غرقوا فى النهر. وبعد ذلك الهجوم, الذى تم صده وتحويله إلى انتصار قرر بولدوين أن يحاول الهجوم على عسقلان. وهناك دى تمبلى لقى حتفه. وانتخب أندرى دى مونيارء عم القديس بيرنار معلما للهيكل - وهو أعظم شرف حققه فى حياته, وأثقل المسئوليات. اكن لم يكن لديه ما يكفى من الوقت كى يستمتع بهذا التكريم أو يتحمل المسئولية: إذ مات بعد ذلك بأقل من ثلاث سنواتء فى ١7 يناير ,١١65 آخر المجموعة الأصلية المكونة من ثمانية أو تسعة. وكان المعلم السادس للهيكل هى بيرتراند دى بلانكفورتء وهو عضو من عائلة بلاتكفورت من بوردى. وكان معلما لمدة ثلاث عشرة سنة؛ غير أنه لم يكن قادرا على إدارة الجماعة لمدة عامين من هذه المدة - ذلك أنه فى ١5 يونيه ,١1١61 أسسر فى المعركة, واقتيد مقيدا بالسلاسل إلى دمشق. حدث ذلك خارج بنياس. إذ كان نور الدين» وهو الآن حاكم دمشق الذى يثق فى نفسه قد خرج سرة أخرى:؛ وحوصرت بنياس. وهب لنجدتها يولدوين ويلانكفورت ولكن بسرعة أكثر مما ينبغىء لأنهما لم يتوفر لديهما الوقت كى يقوما قوة المسلمين. وقال ابن القلائيسى. "حين اقترب الفرنجة خرج رجالنا عليهم من الخلف كالأسود حين يهجمون على فريستهم, وأعملوا فيهم الذبح, وتلا ذلك الأسر والنهب. وفر قليل من القرنجة. وفى الاثنين التالى» وصل الأسرى ورءوس من قتلوا إلى دمشق.... وكان من بين الأسرى بلانكفورت وسبع وثمانون من إخوته - وأعفيى هو على الأقل من النهاية الشنيعة". كان 131

الأسرى من المسلمين نصيبهم قطع الرءوس أو سلخها. وقتل ما يقرب من ثلاثمائة من فرسان الهيكل الآخرين في المعركة. وتم عرض الأسرى ومعداتهم ونخبة من الخيلء حول المدينة, وأحدث المنظر فرحا عظيما... وخرج جمع كبير من المواطنين» شيبا وشبابا. ونساء وأطفالا كى يشاهدوا النصر المجيد الذى منحه الله وكان من بين مبادئ قرسان الهيكل عدم التقهقر ما لم يكن من أمامهم ما يزيد على ثلاثة إلى واحد. مات ثلاثمائة وتم أسر ثمان وثمانين كادت الجماعة أن تتحطم. ولكن فى العام التالى أنقذ من نجوا شرف جماعتهم فيما كان بالفعل مباراة عودة؛ وفى هذه المرة هزم الثلاثون المتبقون قوة من مائتين من المسلمين. وكان رينولد دى شاتيون, قاطع الطريق فى أنطاكيا هو أيضا مشقولاء ولكن فى مهام أنانية بحتة. فبأموال سلبها من البطريارك المعذب اغتصب جزيرة قبيرص. لا توجد كلمة أخرى تعبر عما فعله: إذ لم يكن لتصرقه من دافع سوى الطمع: واشتهاء ما هو دون دفاع وجميل. إذ إن الجزيرة كانت مسالمة ونعيش فى رفاهية:؛ وتنعم بحكم أبن أخ الإمبراطور البيزنطى - وهي قرابة كانت لتكفى كي تثير روح الانتقام عند ريتولد. فدمرت المحاصيلء وسرقت الماشية؛ وقتل الشيوخ والأطفال؛ ونهبت الكنائس والمحال والمنازل وأحرقت.ء؛ واختطفت النساء إلى أنطاكياء وسجن الرجال من أجل تقاضى الفدية فى المستقبل, وتم إرسال القساوسة إلى بيزنطة - بعد أن جدعت أتف كل واحد منهم. وقد سائد جميع تصرفات إيمانه الأكيد بأن أحدا لن يفعل شيئًا إزاءها. إذ حاول بولدوين فى وقت متآأخر جدا أن يحذر أهل قبرص من الهجوم؛ وبعد أن انتهى لم يكن فى ووسعه فعل الكثير» لأن قيمة رينولد كانت أكبر مما ينبقى. ولكن حِزئيا كى يبين رأيه فى هذا الأمرء تزوج من ابنة أخ الإمبراطور؛ وقلل رينولد من شأن الإمبراطور. وكما فعل أبى أمانيويل» جون زيتوس فى عام 4□1١» دخل أمانيول أتطاكيا عام 4 وأذل رينولد إذلالا تاما. ذلك أن الجيش الإمبراطورى كان كبيرا جداء حتى أن 132

رينولد لم يستطع المقاومة. واقتيد حافى القدمين إلى خيمة الإمبراطور؛
وجثا أمامها فى التراب، وقال ويليام الصورى 'وأخذ يبكى ويصيح طويلا حتى اشماز
الجميع". يقال إن التماسيح تفعل الشىء نفسه. وكان فى وسع أماتيويل كإمبراطور
خلع رينولد. والسبب الرئيسى الذى منعه من فعل ذلك هو أن الأمر كان بالغ التعقيد.
ذلك أن أنطاكيا كدولة تابعة لخاضعة كانت تضيف مكانة معينة لإمبراطوريته؛
وكمسئولية مباشرة. كان من الممكن أن تستنفذ ماله ورجاله. وكان هو سياسيًا حتى
النخاع, ودائما على استعداد لموازنة الحلفاء مع الأعداء إذا كان هذا يساعد على تحقيق
هدفه؛ لذاء فبعد قبول احترامات رينولد. عقد هدنة - مع نور الدين. استشاط الفرنجة
فى الأراضى المقدسة غضبا؛ لكن الهدنة كان لها تبعة طيبة بالنسبة لهم, إذ تم فك أسر
ستة آلاف من الأسرى المسيحيين من سجون المسلمين, يما قيهم بيرتراند دى
بلانكفورت. وإذا لم يتعلم أحد من الخمسة ألاف وتسسعمائة وتسعة وتسعين من
الأسرى الآخرين شيئا من المسلمين» فى زمن الأسرء فإن بيرتراتد قد تعلم. وسرعان ما
استخدم ما تعلمه. أما رينولد دى شاتيون, الذى لم يشعر بالندم قطء فاستمر فى أعمال
التخريب والنهب حدثما استطاع؛ غير أن قيمته كرصيد تضاءلت طيقا لذلك: لذا فقى
عام ۰ بدخل فى إغارات كثيرة لم د يتقدم أحد لمساعدته. فلما تضخم من فرط الثقة
بالذات. هاجم أخا نور الدين» فأحيط به وأسر وسجن, - ليس لمدة عامين: كما حدث
مع بلانكفورت» وإنما لمدة خمس عشرة سنة. وكان أحد آخر أعماله قيل ذلك» التأكيد
على بيع ممتلكات لفرسان الهيكل؛ لكنهم, شأتهم شأن غيرهفم سعدوا برؤيته يرحل.
بالنسبة للفرسان المقدسينء, كان السلام بعيد المنال كما كان دائماء ولا يمكن تحقيقه
إلا بحد السيف. وكانت الحرب دائما مصاحبة لهم, وكانت الحياة البسيطة على الأرض
محظورة ة عليهم بسبب ما يتسمون به من مزيج السياسة والعقيدة. ولم يكن السبب
فقط عدوهم المباشرء المسلمون؛ بل أن الأحداث في أوربا البعيدة كانت لا تزال 33

تؤثر فيهم تأثيرًا عميقًا. ففى عام ١١057 تم تتويج فريدريك باربروسا
إمبراطورا على الألمان. والانشقاق البابوى عاود الظهور من جديد. ودعم فريدريك
مرشحا يسمى أوكتافيان: أما فرسان الهيكل فرشحوا آخر يسمى إليكسائدر. وفاز
إليكساندر وفى عام 1177 أعاد إصدار وثيقة الهبة العليا وقوى من ما بها من امتيازات
غير عادية, إلى حد ضرب ضريبة على الكرسى المقدس والكنيسة بأكملها دعما
للجماعة. غير أن ينابيع أوريا كانت آخذة فى الجفاف؛ ومات الكثير من الفرسان فى
الأراضى المقدسة, وأخذ عدد المجندين يقل. وكان الاستشهاد يفقد جاذبيته. ولم تعد
الجماعتان بقادرتين على الأمل فيما يكفى من المساعدة لكل منهما. وأحدثت المنافسات
أثرها البالغ فى كل اتحجاه: بين البابا وباربروسا؛ وفرسان الهيكل والإسبتاليين,
والبطريارك والملك, وكنيسة الشرق والغرب. بل إن الجماعتين العسكريتين التقيتا فى
معارك مفتوحة. كل منها تحرس ممتلكاتها ومكانتها بكل حمية. ومع ذلك, كان هناك
جانب أكثر خفة؛ إذ كان فرسان الهيكل والإسبتاليون موحدين فى مقتهم لبطريارك
القدس, ويلغ الاثنان حدا كوميديا لإظهار هذه الكراهية. ورأى ويليام الصورى أن
سلوكهما يثير الصدمة. ولكن حتى هو لم يتمكن من إزالة هذا العبث. ويصف كيف بنى
الإسبتاليون أبراجا فى مواجهة كنيسة الضريح المقدس, أيراجا 'أعلى وأكثر عظمة من
أبراج الكنيسة التى قدستها دماء سيدنا ومخلصنا". وتحتوى على أجراس مرتفعة جدا.
حين كان البطريارك يرغب فئ الحديث إلى الناس ويصعد المنبر كان الإخوة على الفور
يدقون أجراسهم بنشاط كبير ولمدة طويلة حتى أن البطريارك تعوزه القوة كى يرفع
صوته بالقدر الكافيى لذا على الرغم من جميع جهوده. لم يكن الناس يستطيعون
سماعه". وبيتما كان البطريارك يحاول الوعظ؛ والأجراس تدق من حوله. كان هناك
طرق مستمر على الباب أيضًا لأن فرسان الهيكل كانوا يستخدمونه للتدريب على
الرماية. 14

مثل هذه اللحظات كانت مطلوبة من أن لآخر لكسر إيقاع الصراع الرهيب
والتوتر. لأن فرسان الهيكل كانوا بشريينء على الرغم من مثلهم ألتى تفوق البشر, وتبين القصة نقصًا بشريًا آخر: ألا وهو التكبر, الذى أصبح بدرجات غير محسوسة جزمًا من طريقتهم فى الحياة. والذى أصبح فجأة باديا للجميع عام ١١.17/ لقد كانت زوجة الملك بولدوين» تيودورا أبنة أخ الإمبراطور البيزنطى تبلغ الثالثة عشرة من عمرها فقط
حين تزوجت. وفى عام ١١17 حين كان عمرها ست عشرة سنة, أصبحت أرملة. لأن بولدوين الثالث مات فى ٠١ فبراير, قتلته العلاجات التى قدمها له طبيبه. ولم ينجب الزوج والزوجة أطفالاء وانتقل عرش القدس إلى الأخ الأصغر لبولدوين, أماريك. حينئذ اعترف الفرنجة والمسلمون على حد سواء بأن مصر هى مفتاح السلطة فى الأراضى المقدسة: ومن شأن أمتلاك الفرنجة لها شق قوة المسلمين الجغرافية إلى الأبدء ومن شأن توحدها مع خليفة بغداد السنى أن يحيط بالفرنجة بشكل قاتل. ولم يكن أماريك بالشخص الجبان؛ وفى ١١77 11773 قام بشن هجمات على مصرء واندحر هذان الهجومان. أما الهجوم الثانى فقد حسم بمساعدة مفيدة للجانبين: وكان من الممكن أن تستقر الأمور لبضعة سنوات على الأقل. لكن إغراء مصرء وأرض النيل الخصبة: وما باليلاد من موارد طبيعية: وأهمية مصر الاستراتيجية؛ كل هذه الأشياء كانت أكبر من أن تقاوم. وفى عام 1١174 اقترح أماريك القيام يهجوم ثالث؛ ورفض فرسان الهيكل تقديم دعمهم. 135

الفصل السادس المسلم العربى المثالى مصر والأراضى المقدسة,
١١154-19م١9 سأجعل صبيانا رؤساء لهم » وأطفالا يتسلطون عليهم أشعياء »
الإصحاح الثالثء الآية © . لقد كان غزى أماليك لمصر فى عام ١١74 يتناقض تناقضًا
مباشر مع المعاهدة التى عقدها قى العام السابق» وحين رفض فرسان الهيكل
مصاحبته؛ استفاد منتقدوهم وأعداؤهم فائدة كبيرة من ذلك. وقال البعض إنهم
يشعرون بالفيرة لأن المشروع منشأه معلم الإسبتاليين. واستشاط آخرون غضبًاء من أن
الجماعة, التى أسست للدفاع عن الأراضى المقدسة لا يعينون ملكهاء وشكوا من أن
فربسان الهيكل فى استقلالهم إنما يسقطون فريسة للتكبر. وأجاب دى بلانكفورت,
المعلم بأنه هو وإخوته - والملك - ملتزمون بالمعاهدة. وجاء الرد القوى بأن معاهدة مع
الكفار ليست ملزمة؛ ورد الفرسان باقتباس القديس يرميا الذى قال "لا يهم لمن» بل
بمن نقسم . خيانة هى أم تصرف شريف: تتوقف الإجابة على وجهة نظر الشخص.
فتوماس فولر. وهو مؤرخ إنجليزى حين كان يكتب فى القرن السابع عشر. وصف هذا
الأمر وقالء "حين يكون تاج هو جائزة اللعبة: لا يجب أن نتوقع من اللاعبين أن يلعبوا
بشرف". ولكن ويليام الصورىء وهو عمومًا أحد أشد منتقدى فرسان الهيكل؛ أقر 137

بأنهم تصرفوا بشرف. فمن المؤكد أن أماليريك كان غادرا؛ ولم يستفد أحد من خيانته سوى المسلمين. إذ دحر الهجوم الإفرنجي. عن طريق قوات مشتركة مصرية وسورية. فنصب الخليفة المصرى ا معروف بالرشيق كبير الضباط السوريين وزيرا له. وتوفى الوزير الجديد بعد ذلك بعامين» وحل مكله ابن أخيه. وهو شاب مسلم مغمور, يجعله إحساسه بالشرف والدين المسيحيين يشعر بالخجل. اسم هذا الشاب هو صلاح الدين. مع مقدم عام :1115 لم يعد فتح المسيحيين للقدسء الذى تم منذ سبعين سنة, سببًا لبهجة المسيحيينء بل كان مجرد حقيقة تاريخية. ذلك أن سبعين سنة؛ وثلاثة أجيال؛ تعد وقتًا كافيًا جدا لإخماد نشوة تلك الأيام الأولى وتحويلها إلى شىء أكثر من مجرد ذكرى خاملة. إذ إن كل من اشتركو! فى المعارك والمقامرات فى بداية القرن كانوا قد شبعوا موتا. وبالنسبة للناس قى أوربا كانت الأراضى المقدسة مسيحية وهذا هو كل ما فى الأمر. إذ كانت كذلك منذ زمن أجادهم, ومن المحتمل أن تظل كذلك: فهى فى نهاية الأمرء مدينة الرب؛ وهم عبدة الله الوحيدون الحقيقيون. بل إن الصدمة التى حدثت حين سقطت أديسا تاكلت - جزئيا لأن الناس آم يكونوا يريدون التحدث عن الحرب الصليبية الثانية التى تمت بسوء تدبير وعيوب فى التصرف؛ وجزئيا لأنهم تقيلوا الأمر الواقع, ما دامت المدينة المقدسة نفسها آمنة؛ ولكن فى الأغلب لأن الأوربيين. المنشغلين بمشاكلهمء كانت هذه كلها أمورا بعيدة جد عنهم. وبالنسبة للكثيرين من الفرنجة فى الأراضى المقدسة أيضًاء فقد الحلم القديم بريقه. فالقدس الذهبية قد صنعت من حجارة وطوب ووحل مثلها مثل أى مدينة أخرى. من المؤكد أنها مقدسة, وسوف يدافعون عنها من أجل ذلك - لكن ما هو أهم من ذلكء أنها وطنهم. ذلك أن آلاف المسيحيين من أصول إفرنجية ممن يعيشون فى الأراضى المقدسة لم يروا أوربا قط؛ ولن يروها أبدا؛ ولم يرغبوا فى ذلك بشكل خاص. فهى أيضًا بعيدة جداء وباردة ومظلمة ومبئلة. ولديهم الصعويات الخاصة بهم وهى كبيرة مثل تلك التى يواجهها أى شخص فى أورياء لأنهم لم يستمتعوا بإثارة الفتح, وإنما يواجهون المشكلة اليومية المتعلقة بحماية منازلهم فى أرض غير صديقة.

من بعض النواحىء واجه هؤلاء الناس: أحفاد الصليبيين الأول أشق صعوبات واجهها أى إفرنجى فى الشرق. ذلك أنهم حين كانوا يقاتلون, لم يكن ذلك من أجل مجد كنيسة روماء وليس بالضرورة من أجل مملكة الله على الأرض؛ وإنما كان قتالهم من أجل المكان الوحيد الذى عرفوه كوطن لهم. أما القدس كطم بعيد فيمكن بسهولة أن تكون لها هالة من القداسة. أما كمكان يعيشون فيه؛ من يوم إلى يوم؛ ومن سنة إلى سنة؛ فقد احتفظت بقداستها فقط لدى أولئك الملترمين بالله, وهم رجال الدين. ورجال الجماعات العسكرية. فبالنسبة لهم أسماء الأماكن فى الأتاجيل حقائق حية. وحين يقرءون فى كل يوم فى كتبهم المقدسة أسماء البلدان: والأتهار والجبال والوديان التى كانوا يرونها حولهمء كانت الحياة لها معنى, وهدف يعلى على مدر الحياة اليومية. لقد رأت عينا المسيح نفس المناظر؛ ومست قدماه نفس التربة. بالنسبة لأناس مثل هوّلاء, يمكن أن تكون الحياة فى أرض الكتاب المقدس مصدر قوة وإلهام. وكان لدى فرسان الهيكل مصدر آخر للقوة: الاستقرار والنظام. إذ كانت حياتهم منظمة تنظيمًا صارمًا بالانضباط الثنائى الذى يتحلى به الرهبان والمحاربون؛ فكل لحظة من لحطات اليوم تستوى :على واجب يسالون نحت أمام الآخرين. فى الصيفء يبدأ اليوم فى حياة فارس الهيكل من الرابعة صياها. أما فى الشتاء. فيبدأ فى السادسة, ولكن عدا ذلك. فإن التنويع فى الطعام والملبس والمراسيم الكنسية طبقا للموسمء وكل يوم يسير إلى حد كبير هكذا: بدقة من جرسء يوقظ أحد الأعضاء الآخرين: لكى يرتدو! ملايسهم:» عليهم فقط أن يضعوا أرديقهم البيضاءء أو البنية أو السوداء فوق الملابس الداخلية التى كانوا ينامون بها. ولا يتوقع منهم الاغتسال, ولا يتناولون طعام الإفطار. ويذهبون مباشرة من عنابرهم إلى الكنيسة الخاصة لأداء الصلوات الصباحية وهى صلاة السادسة والتاسعة وصلاة منتتصف الصباح ومنتصف النهار - كلها فى نفس الوقت معا. وهكذا يتم تركيز الواجبات الدينية معا؛ فهم ياعتبارهم رهبانًاء لا يمكنهم إهمال الصلوات, ولكن باعتبار أن 139

عليهم واجب العناية بأجسادهم بالإضافة إلى أرواحهم لا يمكن أن يكونوا دائما فى الكنيسة. لذا فهم بعد القداسء يتفرقون للقيام بمهامهم المختلفة؛ إذ إن مهمة الفارس فى الهناية بجياده وسلاحه ودروعه لإصلاح أي خطأء ثم يستمرون فى تدريبهم المستمرء مستخدمين أسلحتهم المعروفة - الرماح ذات الرءوس الحديدية, والسيف والخنجر والدرعء والدبوس. أول وجبة فى اليوم تكون فى وقت متأخر من الصياح. أو عند الظهيرة؛ وياكل الفرسان والرقباء أولاء ويليهم الخدم من الإخوة. وأخيرا يأكل المرتزقة. وكل شخص يحضر معه إلى المائدة وعاءه, وفنجانه وملعقته وسكينه؛ ومعلم الدير وحده أو القائد هو الذى يشرب من كوبء تشريفا له وكاحتراس لتوقى السم. وكان القرسان يجلسون على مقاعد طويلة خشبية أمام مائدة طويلة خشبية: ولا يتكلمون فى أثناء تناول الوجبة؛ والصوت الوحيد الذى يسمع هو صوت أخ كاهن يقرأ فى الكتاب المقدس. وتطلب الطلبات بالإشارة؛ وإذا شاء الفرسانء فيمكنهم استبدال الخدم بطعامهم, ولكنهم لا يشجعون على الامتناع عن الطعام كلية. ذلك أنهم يجب أن يكونوا لائقين دائما للقتال, لأن الصيحة القتال يمكن أن تأتى فى أية لحظة. عدا ذلك؛ لا يوجد سوى ظرف واحد يمكن للأخ أن يترك المائدة فيه دون إذن» ذلك الظرف هو إذا ما نزقت أنفه. إنه استثناء غريب؛ ولا بد أن ذلك كان حدقًا شائعًا حتى يكتب فى الميثاق. هناك استثناءات عجيبة أخرى أيضا. إذ كان يجب على الإخوة أن يكونوا فى الكنيسة بعد الظهيرة لسماع صلوات المساءء التى تجمع مها كما حدث فى الصباح. لكن اليعض كان يسمح لهم بألا يحضروا!: الأ الخبانء "إذا كانت يده فى العجين"" والأخ الحداد 'إذا كان يقوم بتسخين حديد على النان" وأى أخ من حملة الدروع إذا كان يعني بحدوات الخيلء والحوافر" وأى أخ يقوم بغسل شعره. ولكن جميع الإخوة عليهم ترنم أبوناء سسمواء على إيقاع مطرقة أو لحرير الماء المصتنع. وعلى كل أخ أن يترنم بأبانا مائة وثمان وأربعين مرة يومياء - أربع عشرة مرة فى كل ساعة: وثمان عشرة مرة لصلوات المساءء؛ وثلاثين مرة من أجل الأحياء وثلاثين مرة من أجل الأموات. لا بد أن العد السليم كان يشكل صعوبة. 140

وكان التكرار تقريبا مستمرا؛ ولكن "حتى إذا أصبح آليا؛ فإنه يكون بمثابة خلفية مهدئة تأملية لجميع أفكارهم وأفعالهم". وكانوا ياكلون مرة أخرى فى المساء؛ وإذا ما قدم لهم اللحم؛ كما كان يحدث ثلاث مرات فى الأسبوع, يكون هناك نوعان أو ثلاثة أنوا ع بالإضافة إلى النبيذ والماء للشرب؛ ثم ينتهى اليوم كما بدأ. بالصلاة معا ومباركة عامة. إذن» كان هذا هو طقسهم اليومي المرسوم, ولى كان هذا هو كل شىء, لما اختلف كثيرا عن أى نظام هادئ مسالم لدير جيد التنظيم. مع هذا النشاط كله - جميع النشاط الذى يتخيل المرء أنه يرتيط بالخيل والرجال الذين هم فى حالة دائمة من التدريب من أجل الحرب. ومع عمل جماعة بدائية إلى حد ما ومقيدة - فإن الجو الذى يميز أى دار لفرسان الهيكل كان يمكن أن يكون جوا هادئًا. غير أن هذا الهدوء فى الحركة الدائية لم يأت صدفة؛ بل كان ثمرة إدارة جيدة التنظيم واعية التحديد. لقد كان جميع الإخوة يدربون على التصرف بلياقة ورحمة طوال الوقت مع بعضهم بعضا. كما يليق بخدمة المسيح. فيجب تحاشى الضحك بصوت مرتفع؛ ويكون الخؤاز فى أضدق الحدود:ويتم بضوت متغفشن: ومع ذلك: فى مواجهة المثال الناعم الرقيق. كانت هناك مادة خاصة بعدم ضرب الخدم المتطوعين بالجماعة من جانب الفرسان: وهى تشى بقدر من الحرية فى مفهوم الفرسان للرقة. منذ البداية, كانت إدارة الجماعة إدارة إقطاعية, ولا بد أنها فى أول الأمر كانت مرنة - أى أنها كانت فضفاضة. ولكنها لم تكن أبدا تسير كيفما اتفق. ومع ذلك» حتى قبل وفاة الجيل الأول من الإخوة, تم التضييق إلى حد كبير؛ وعلى الرغم من النقص النسبى فى الأدلة المباشرة, فإن الأدلة الداخلية للسجلات المخظفة تعطى صورة بشكل ما عن بيرقراطية فرسان الهيكل. من الجلى الواضح أنها كانت تنظيما بيرقراطيا. ذلك أن كل شيىء فى إمبراطورية فرسان الهيكل كان مركزا قى القدس بشكل صارم؛ وكل شىء فى هيكل القدس مركز وقائم على المعلم, على الأقل نظرياء إن 141

لم يكن فى الممارسة القططية. من الواضح أنه سيكون من العسير على
رجل واحد مراجعة حسايات كل دار من نور فرسان الهيكلء على سبيل المثال: من
إيزلتدا إلى اوتلجردين (القسم الجنوبى الشرقى من مملكة القدس) ومن البرتفال إلى
المجر؛ غير أنه قمة هرم له قاعدة واسعة والبناء الاتحادى بأكمله يتطلع إليه. وفى
وسعه؛ إن شاءء. التفتيش على أى جزء من أى تنظيمات محلية؛ وبنفس الطريقة: لو أن
أيا من الإخوة, مهما كان تواضع مكانته لديه شكوى أى شعر بأنه عومل بظلم فى
مستوى محلى, يمكن لذلك الأخ أن يقدم قضيته أمام المعلم نقسه. من المناسب بالنسبة
لجماعة تتخذ الطاعة فيها مكانا بارزا؛ أن تعاقب التعديات على الميثاق عقابا صارماء
لكن هذا يبدى غير منحاز. إذ كان يتم سماع القضايا وإصدار الأحكام فى الاجتماع
الأسبوعي؛ أما الاجتماع العام فكان أكثر عظمة وأقل تكراراء يجتمع فيه الأعضاء
الأقوياء فى الجماعة لمناقشة السياسة الداخلية والخارجية. ومع أن الاجتماعات
الأسيوعية المنتظمة كانت أكثر تواضعا فإنه لم تكن ترتب بشكل أقل التزاما بالرسميات.
وكانت عادة ما تتم يوم الأحدء إما فى الكنيسة أو فى القاعة الرئيسية فى الدار,
وكانت تنعقد فى كل دار يسكنه أربعة أو أكثر من الإخوة. وكان جميع الإخوة: خدما
ورقباء. وفرسانًا يشاركون. وعند دخولهم الاجتماع, كانوا يركعون أمام المذبح, ويرتلون
أبانا الذى» ويخلعون قبعاتهم قبل الجلوس - من اللباد الأحمر أو الأبيض القلانس
الضيقة. (عند هذه النقطة يعطى الميثاق تفصيلا قاتنا بأن الإخوة الصلع يسمح لهم
بالإبقاء على قلانسهم الضيقة) ثم يبدأ المعلم» أو القائد أى الأخ الأكبر الحاضر
الإجراءات بموعظة مليئة بالنصائح الأخلاقية والروحية؛ ثم يفتح المجال للاعترافات.
ولم تكن هذه الاعترافات تتعلق بإساءة تصرف روحىء تتطلب تطهيرا يقوم به أحد
الكهنة وإنما تتعلق بخروقات للنظام والانضباط. مع ذلك فإن نوعى الاعتراف قريبا
الصلة حتى أن الكثير من الإخوة. خاصة ذوى العقول الأكثر بساطة. أخفقوا فى فهم
القرق - وهو تقصير فى الفهم يشاركهم فيه الكثير من خارج الجماعة, 2

مما سوف يتسبب فى الكثير من الضرر فى المستقيل. وكانت الاعترافات الطوعية يتم التعامل معها بقدر أكبر من الليونة هن تلك التى تأتى بناء على اتهامات؛ وقى حين كان فى وسع أى أخ أن يبرز إلى العلن خطأ أخ آخرء فأنه إذا ما اتضح أن الاتهام خاطئ أى يدوافع سيئة, فإن مقدم الاتهام يطلب منه الاعتذار علنا ويقدم نفسه لعدالة الدار. ويعد أن يقر بخطئهء يجب عليه ترك الاجتماع» فى حين تتم مناقشة قضيته سرا. وبعد ذلك بالعديد من السنوات, استخدمت هذه السرية, مثلها مثل البلبلة المتعلقة بالاعتراف والعفو والتطهير سلاحا لاتهام وتوبيخ الجماعة كلهاء لكن القرض الأصلى منها كان بسيطا ومنطقيا: إلا تأتى العقوية من أخ بمفرده مما قد يؤدى إلى نشوء مشاعر سيئة بين الإخوة. وانما من الجماعة ككل. من المهم بشكل خاص على ضوء الاتهامات التى استخدمت القضاء على الجماعة, فحص الأفعال التى كان الإخوة أنفسهم يعدونها جرائم. ففى الجانب الأدنى من السلم كانت هناك مخالفات مثل فقد أو تدمير أى شىء يخص الجماعة. ومن بين المخالفات النموذجية المسجلة فى هذا القسم ضياع مطرقة فى أحد الأنهار, من جاتب أحد الإخوة ألقى بها على أحد الطيور, أو كسر صينية مليئة بالاكواب من جانب أخ آخر, بعد أن يكون قد أسقط كوياء فالقى بالصينية كلها بسيب القضب. فكانت الأخطاء العارضة أو الصغيرة مثل تلك, تستتبع عقويات تختلف وتتراوح من صيام يوم فى الأسبوع على الخبز والماء لمدة عام إلى الحرق على الظهر العارىء إلى الندم بالحط من المكانة لمدة عام يفقد فيه الأخ حقه فى ارتداء ثويه الذى يميزه. ويجبر على أن يأكل الطعام من الأرض مع الكلاب - ولا يسمح له بمطاردتها. وهذه الفئة من المخالقة كانت غامضة:؛ وتتوقف على ما يمكن أن يحدث من أسبوع لآخر؛ إذ لم يكن فى وسع الإخوة فى الاجتماع أن يبحثوا عن العقاب المناسب فى كتاب من الكتب وإنما كان عليهم استخدام ما لديهم من حصافة. ذلك أن الجرائم الخطيرة هى التى كانت مدونة» وكانت لها عقوبات معروفة محددة. هناك عشر مخالفات تستحق الطرد من الجماعة. هى المتاجرة فى المتاصب الدينية. والسرقة: واللواط, والابتدا ع والتآمر وقتل مسيحى» 103

والخيانة! وإفشاء أسرار الاجتماع, والتقهقر أمام أقل من ثلاثة من الأعداءء ومفادرة الدار بئية وسيلة غير البوابات. وأى أخ يثبت أنه متهم بأى من هذه المخالفات يطلب منه المثول أمام الجمع بأكمله. ولا يرتدى سوى سرواله وحزام حول رقيته. عندئذ يجلد بعصا درس الحبوب أو بحزامه ويعطى الإذن بانقإذ نقسه - وهذا معناه أن يلقى به قى الخارج» ويجبر على الانضمام إلى جماعة أخري أكثر شدة. إلا أنه لا يمكنه الانضمام إلى الإسبتاليين, - إذ اتفقوا وهم فرسان الهيكل في وقت مبكر على ألا يقبلوا الإخوة المطرودين من أيهما. وكل مخالفة من هذه المغالفات تعرض الأمن الداخلي والخارجى للجماعة للخطر؛ لهذا فإن العقوبة عليها شديدة - حتى يرى العالم كله تطهير السلوك المشين من صقوف الهيكل. ومع ذلك فعلى الرغم من أن فرسان الهيكل أنقسهم لا يتسامحون مع مثل هذه الأشياءء, فإن الاتهامات بخمسة من هذه الجرائم المحددة, وهى المتاجرة بالمناصب الدينية, واللواط والابتدا ع والتآمر والخيانة, هى التى شكلت أساس السقوط المدوى للهيكل في واقم الأمر» فإن هذه الأحداث, بالطبع. كانت نادرة الوقوع؛ فاللواط على سبيل المثال؛ لم يسجل سوى مرة واحدة فى تاريخ الجماعة الذى امتد لمائتى سنة وكانت أعمال الاجتماع الأسبوعى تجرى عادة حول أهور تافهة. ثم تنتهى الإجراءات بمباركة وداعية من الأخ الأكبر بين الحضور يذكر فيها الآخرين بأن السلوك الذى لم يتم الاعتراف به لم يتم العفو عنه. أما بالنسبة للباقى "فإنى أعطيكم كل ما يمكننى من عفوء باسم الله. وسيدتناء والقديس بطرس.ء والقديس بولسء ولكم أنتم الذين منحتمونى السلطة". لكن المعلم الأخير؛ جاك دى موئيء قد غير ذلك؛ فكانت احجتماعاته تنتهى بكلمات "اغفر لكم الأخطاء التى لم تعترقوا بها من خلال خجل الجسد., شونا عن عدالا الدار". وعلى الرغم من سلامة القصد فى هذا الفرق» فإنه كان عميقا. ومن الممكن أن الإخوة فى جيله فسروا ذلك باته يعنى جميع الخطاياء وليس مجرد الخروج على الاتنضباط. وشعروا بالتخفف. والأفعال التى كانوا ينفرون منها كانت عندئذ شائعة. 4

ولكن فى الأزمنة الأولى» وفى معظم تاريخ الجماعة, كان الميثاق هو الميثاق على قسوته, وتجب طاعته. لقد كانت هذه الصرامة ومعها الإلهام الروحى الذى وجده الإخوة فيما يحيط بهمء هو ما أعطى فرسان الهيكل ذلك الإحساس بالهدفء والاستقرار. حتى كبار السن. والمرضى والجرحى كانوا قادرين على الاحتفاظ بهذه الراحة. وكانوا يلقون عناية خاصة؛ ويعتنى بهم بأكبر قدر من الرقة, والحكمة. وكان ضحايا ذلك المرض الأكثر فظاعة, الجذام؛ يضطرون إلى ترك الجماعة والانضمام إلى مجموعة خاصة:؛ جماعة القديس لأزاروسء ولكن حتى هم كانوا يعاملوا بكل رحمة. - ومما يدل على أكبر قدر من الاستنارة - أن الجماعة كانت تتعامل مع المصابين بالصرع ليس كاأناس نلبستهم الشياطينء وإنما كمرضي يمكن التحكم فى مرضهم. باستثناء الإسبتاليين: لم يكن لدى أحد فيما وراء البحر الأمن والاتجاه النابع عن حياة جيدة التنظيم. إذ لم يعد الأشخاص العاديون من الفرنجة تلك الطموحات الفريدة التى وحدت آباءهمء أ تلك الأهداف البسيطة؛ لقد تحققت هذهء ويدلا منها كان هناك الغيرة والمنافسة:, والعداوات والتحالفات التى تسم أية مجموعة مفككة. أما فرسان الهيكل. الذين كانوا يعتزون بتنظيمهم ويثقون به. ويزدرون الحياة الدنوية التى تتناقض معهمء فقد أسهموا فى هذا التشتيت لدى غيرهم. ولكن مع ذلك فإن المسبحيين فى الأراضى المقدسة لم يتحملوا التفكك؛ إذ إن آباءهم استفادوا من انقسامات المسلمين, ولكن لم يكن هناك مطلقا أي فتح حقيقى للشرق. ومع أنه قد تم الاستيلاء على مدن وقلاع لم يتم تأمين شىء تأمينًا حقيقيًا؛ وكانت سلامة المسيحيين تعتمد على ضعف المسلمين أكثر من اعتمادها على قوة المسيحيين. وهذا لم يدم. فعاجلا أى آجلاء كان لا بد للبلاد الإسلامية التى تحيط بالفرنجة أن تشحد. لقد قال دى بلانكفورت بالحس العسكرى الثاقب الذى جهل معلمي فرسان الهيكل يتحدثون كالأنبياء, ذات مرة إن أخشى ما يخشاه أن "يقوم أمير مسلم بمفرده بإعادة توحيد أقوى مملكتين إسلاميتين, القاهرة ودمشق» ويمحى اسم مسيحى". ذلك 145

أن الفرنجة اعتمدوا لعقود على العداء المتبادل بين مصر الشيعية وسوريا السنية, وقاموا بألاعيب دبلوماسية بالدول الواقعة بينهماء وهم يدركون أن مسيحيى بيزنطة وأوربا سوف يتحدون لمساعدتهم إذا كان ذلك جوهريا. وقد نجح هذا المزيج لعقود؛ ولكن فى الثلث الأخير من القرن الثاني عشرء دمر وزير مصر السورى الشاب هذا التوازن إلى الأبد. كان صلاح الدين أحد أولتك الناس النادرين الذين يملكون صقات تجبر أصدقاءه وأعداءه على احترامه. وكل من التقوا به قالوا ذلك عنه: فباستكناء مواهبه كقائد كان عادلاء وكان تقياء وكان معتدلا؛ وكان يتصف بالرحمة بصفة عامةء وجسورا مقداماء دائما ما يفى بكلمته. كانت هذه جميعا صفات المسلم الكامل, المسلم المثالى؛ كما كانت صفات مسيحية مثالية. ولكن لم يكن هناك قائد فى المعسكر المسيحى يشاركه هذه الخصال حتى بين فرسان الهيكل. وحتى إذا كان أى مسيحى قد أظهر هذه الخصال, لم يكن هذا ليفت من عزم صلاح الدين» كمسلم تقى؛ على استرداد القدسء والتخلص من الكفار وخاصة فرسان الهيكل الذين كان يثق بهم كأتاس شرفاءء لكته كان يكرههم كراهية عميقة كمحاربين لدين آخر. غير أن صلاح الدين لم يكن دائما طموحا هكذا. وعلى الرغم مما يحكى عنه من حكايات تتعلق بانتصاراته فى أثناء شبابه فى القنص» يبدو أنه كشاب كان متكبا على الدرس, متحفظا حذرا فى سلوكه. يميل إلى التمسك بالقواعد إلى حد ما. لقد ولد عام 0 أو ١١58 سنة 077 هجرية - فى قلعة تكريت على ضفاف نهر ذجلة. شمال شرق بغداد. وعاش كطفل أولا فى بعلبك؛ وكان فى دمشق حين استولى عليها تور الدين عام :١١04 ويقى هناك عضوا فى البلاط لمدة تسع سنوات. ثم شن أماليك ملك القدس فى عام ١١77 هجومه الأول على مصر. وعبر عم صلاح الدين عن الرأى الشائع العام المتعلق بهذا البلد - إنها 'بلد بلا رجال: ويها حكومة بفيضة غير مستقرة. لكنها نسبيا كانت تمتلك موارد غير مهدودة, وكان أماليك ونور الدين يعرقان أنها مفتاح القوة. فهاجمها نور الدين فى السنة التالية على أماليك؛ ورد 146

أماليك بهجوم آخر عام ١١717؛ فكان الدخول الأسطورى لصلاح الدين
فى التاريخ الإسلامى الإفرنجى. ذلك أنه فى قيادته المستقلة الأولى» صمد لحصار دام
خمسًا وسبعين يوما فى الإسكندرية؛ تحيط به قوات مشتركة إفرنجية مصرية:» إلى
أن أنقذه جيش سورى. وبينما كان رجاله يجلونء وقع رهينة فى معسكر أماليك؛
ويقال إنه هناك قدمث له قفروسسية مسيحية. ولا يوجد دليل مؤكد على هذه القصة:,
ولكن سواء كانت صحيحة أو لم تكن كذلك, فإنها بينت الاحترام الذى كان يكنه له
الفرنجة وفرسان الهيكل بمرور الوقت. وكانت نزاهته الكاملة أحد أسباب هذا الاحترام؛
إذ ثم يخرق معاهدة أبدا. ومثل هذا السلوك كان في الدول اللاتينية الإقطاعية هو
المعيار من الناحية النظرية؛ أما من الناحية العملية فلم يسمع أجد عن هذا السلوك. بل
كان القاعدة التى كان الجميع حتى قرسان الهيكل يكسرونها؛ وككل شىء آخرء كان
انعدام الثقة هو ما تسبب فى سقوط دول ما وراء البحر: لقد مات بيرتران دى
بلانكفورت في ؟ يناير عام + ١١١15١ وكان فيليب دى ميلى من نبلس هى خليفته,
وهى تبيل من أصول إفرنجية, لكنه مولود فى البلد المقدسة: وكان أول معلم من أهل
فلسطين. وكان فى حياته الدنيوية سيدا قويا يستحوز على مقاطعتى اولتريجوردين,
التى تضم قلعة الكرك القوية ومونريال. وقد اختاره فرسان الهيكل بسبب مكانته
الدنيوية, إذ لم تكن له قط أية مهنة دينية - ودخل الجماعة فى ؟١ أغسطس عام ١١55
وصار معلما فى خلال أسبوع. ويقيادته حقق فرسان الهيكل نصرا واحدا له أهميته:
ففى ديسمبر عام ١١١ء حين كان صلاح الدين يختبر قوته الجديدة فى مصرء عبر
الحدود وحاصر حصن دارون؛ المعقل الإفرنجى فى أقصى الجنوب: على ساحل
المتوسط. لقد كانت قلعة ضعيفة؛ وعلى وشك التسليم حين أنقذها أماليك وفرسان
الهيكل. وكانت الجماعة فى حاجة إلى انتصار كهذاء لأن سلوكهم فى ما يتعلق بمصر
كان لا يزال يثير المرارة» وفى أرمينيا نحى الشمال كان مرتد من قرسان الهيكل يقود
غارات من المسلمين على أراضى الفرنجة. .إلا أن دى ميلى لم يبق طويلا: إذ استقال
بعد انتخابه يأقل من عامينء من منصب المعلم وأصبح سفير 147

أماليك الدائم إلى القسطنطينية. ومن بين السببين الذين ذكرهما عند
استقالته هناك سبب مقنع: إذ شعر أنه يستطيع خدمة الأراضي المقدسة بشكل أفضل
فى دوره الجديد. أما السبب الآخر الذى ساقه فلا يوجد أحد من فرسان الهيكل يمكنه
تخيله: وهو الفتورء إذ جف فيضان الدعم من أوربا إلى أن صار قطرات. فى عمام ١١٧١
دهمت الأراضي المقدسة سلسلة من الزلازل المدمرة التى قلبت مدنا وقلاعًا لا يقدر
إنسان على تدميرهاء وتروى لنا مدونات بيرًا فى عام 11797 أن نحو ستة آلاف رجل
ماتوا. وتوقع الذين يميلون إلى قراءة مثل هذه الأشياء كتذر أن كارثة توشك أن تقعء
ولكن لم تكن هناك أية نتيجة واضحة على ذلك سوى الانتخاب العرضي لمعلم جديد
لفرسان الهيكل. ل أن المتنبئين» نظرو! أبعد قليلاء لكان من الممكن أن يبدى هذا
الانتخاب كارثيا بالقدر الكافى. كان اسم المعلم ألثامن هو أودو دى سان أمان. وكان
يحتل مراتب فى البلاط, كمرشال القدسء وحامل كاس الملك, ولكن على الرغم من
هذاء أظهر نفسه كمعلم بأنه أحد فرسان الهيكل المخلصين ولا شىء غير ذلك؛ يدافع
عن حقوق الجماعة ضد أى دخيل. وقد شفى ويليام الصورى من ضمعفه المؤقت
وانقمس في الهجوم يكامل قوته: وقال إن سان أمان "كان رجلاً يمتلئ غضبا وهو لا
يخشى الله ولا يحترم الانسان. ومما يبرر انحياز ويليام الهائل» أن أفعال سان أمان بدا
أنها توضح ذلك. إذ إنه لم يتنازل أمام بطريارك أو ملك. ولكنه التزم بشكل صارم
بالمعنى المرفى المطلق لامتياّات فرسان الهيكل. وقد كان هذا من الناحية الفنية اتجاهًا
لا غبار عليه؛ أما هن الناحية العملية فإن المساومة تجعل الأمور أكثر يسرا. ذلك أن
فرسان الهيكل فازوا بحقوقهم عن طريق الديلوماسية؛ ويدا أن الإصرار على هذه
الحقوق ضرب من المجرفة. لم يحدث صدام مباشر حتى عام ؟171١ء لكنه حينئذ جاء
مصحويا بالانتقام. إذ جاءعت سفارة إلى الملك أمائريك من الحشاشين - دون الناس
جميعا. فهؤلاء الشيعة المتشددون أزعجهم نهوض صلاح الدين فى مصرء إذ إنه. على
الرغم من أن هذه 248

البلاد كان يحكمها الخليفة الشيعى اسمياء فإن صلاح الدين نفسه كان سنياء وكان يقبض على زمام السلطة الحقيقية باعتباره وزيرًا. لذا سعى الحشاشون إلى عقد تحالف مع أماليك؛ الشيعة والمسيحيون ضضد السنة؛ وأشار السفراء إلى أنه إذا ما نجح هذا التحالفء قإن الرجل العجوز ورجاله قى الجبل سوف يدينون بالمسيحية. ولم يكن هذا محتملا أو وارداء غير أن أماليك لم يعباً يذلك؛ فالحشاشون سوف يكونون حلفاء أقوياء. ولم ينصوا سوى على شرط واحد: أن ترفع أموال مفروضة على بعض من أراضيهم من جانب فرسان الهيكل. وهذا ثمن لا يذكر؛ لذا وافق أماليك. ووعد فرسان الهيكل بأنه سوف يعوضهم عن الخسارة. وعندها اكتشف أن سمعة عدم الوفاء بالوعود يمكن أن تكون عائقا .خطيرا. بينما كان سفراء الحشاشين عائدين إلى قلعتهم فى الجبلء قلعة الموت - وكر النسرء - نصب واحد من الفرسان منفردا لهم كمينا وقتلهم, بأسلوب يليق بهم. كل ما يعرف عن القاتل أن أسمه وولتر دى ميسنيلء بعين واحدة. ولا يعرف هل أودو دى سان أمان هى من أمر بالقتل أم لاء ولكن بما أنه قد تم» فقد ساند وولتر على القور. فاستشاط أماليك غضباء وطلب أن نتم محاكمة وولتر كمجرم عادى؛ فرقض سان أمان تسليمه. وأشار, كما فعل كثيرا من قبل, أن الجماعة مسئولة فقط أمام البابا الذى يمكن أن يحكم فى القضية, - إذا بلغت أصلا هذا الحد. وقى ما يتعلق بفرسان الهيكل: فإن وعد أماليك بأن يرد لهم ما يخسرونه من مال مجرد كلام فى الهواء؛ إذ إن فرسان الهيكل يفضلون المال المجمد وليس التحالف الملتبس الغامض. عند غزو أماليك الثالث لحصرء أظهر الإخوة أنهم لن يقاطوا رغم إرادتهم؛ ويقتلهم للسفراءء. تدخلوا تدخلا مباشرا فى حكم أماليك. لذا كف الملك عن الكلام. وركب إلى صيدة علي رأس مجموعة من الجنود. حيث كان وولقر يوضع فى أمان مفترضء واندفع داخلا دار فرسان الهيكل, وقيض شخصيا على الفازس ذى العين الواحدة. وتم حمل وولتر إلى السجن, ولم يسمع أحد عنه أى شىء بهد ذلك. 149

ومع ذلك. فإن التحالف المقترح بين الفرنجة والحشاشين لم يصل إلى شىء» وأصر فرسان الهيكل على إتاوتهم. إذ إنهم كانوا يتجاهلون الملك هتى شاءوا؛ ويتبعون ما يرونه هم. فأخذ غضب أماليريك يتزايد». وحين سلم اثنا عشر من فرسان الهيكل حصنًا لا يمكن الدفاع عنه, للمسلمين فى معركة صغيرة عام /١1١14 “ريطهم الملك على الفور" - أى أنه شنقهم. وحاول أن يفعل المزيد: وبدأ مع ويليام الصورى وضع رسالة إلى البابا مفصلا شكاواه؛ ومطالبا بحل الجماعة. غير أن الرسالة لم يتم إرسالها أبدا ء بل ولم نتم. لأنه فى ١ يولية ,١١1/4 أنهى أماليريك حياته التى تدفق فيها الدم: أى بعبارة أكثر ركاكة. مزيج من التيفود والدوزينتاريا. وقبل ذلك بأقل من شهرينء كان الموت قد اختطف نور الدين من المسلمين؛ وكان السبب احتقانًا فى المنجرة؛ ويعد أماليريك بشهرين مات خليفة القاهرة الشيعى. وكان السلطان السورى الجديد صبيا فى الحادية عشرة؛ وكان ملك القدس الجديد فى الثالثة عشرة؛ وكان ملك مصر الجديد هو صلاح الدين, البالغ من العمر سبعا وثلاثين سنة والراغب فى النجاح. لقد أعاد صصلاح الدين مصر إلى الحظيرة السنية المصاقظة, بسهولة وهدوء. دونما أية معارضة من الشعب المصرى. أما من الناحية السياسية لم يكن الأمر سهلا بالنسية له فى مصرء وفى عام ١١70 وافق على عقد هدنة من عامين مع القدس فى حين قام بتنظيم مملكته الجديدة. وعلى الرغم من أن الفرنجة كانوا من الممكن أن يهاجموا أن استطاعواء فإتهم اعتبروا أنفسهم محظوظين بالهدنة لأن ملكهم, البالغ من العمر ثلاث عشرة سنة:؛ بولدوين الرابع» لم يكن صغيرا فحسب وإنما كان مصابا بالجذام. هكذاء على أى حالء تقول الروايات المعاصرة له. لقد كان بولدوين الرابع مريضما مرضنا مميًا. هذا أمر لا شك فيه. ولم يلاحظ أحد مرضه إلى أن كان فى نحو العاشرة. حين كان معلمه ويليام الصورى, الأسقف والمؤرخ يراقبه وهو يلعب مع أصدقائه. وكان الصبية يجربون التحمل بنشب أظافرهم فى أذرع بعضهم بعضًا؛ وكان الأمير الصغير هو الوحيد الذى لم يرمش جفنه؛ فاكتشف ويليام أن الصبى لم 130

يستطع الشعور بالآلم. فأطلقوا عليه جذامًا؛ ولكن لم يكن مسموحا لأى أحد؛
حتى وريث العرش, بالحياة العادية إذا كان مجذوما. يقول فور "تقد كان الجذام
المسمى داء الفيل؛» وهى مؤذ للمريضء لكنه غير معد لأصحابه" - ومع ذلك» فهو
مميت؛ وحول الأراضى المقدسة؛ كان صلاح الدين يصذع عقدة مميتة أيضا. ذلك أن
دمشق فتحت له أبوابها فى نوفمبر :»1!5١ وحسب مأ قاله فولرء كانت القدس مملكة
فقيرة هزمها الطقس. فهى كئيبة موحشة منكشفة أمام عواصف الأعداء من كل جانبء
ليس لها من غطاء أو حماية من صديق طيب بالقرب منهاء ترقد فى فم الأسد بين فكه
الأعلى وفكه الأسقل؛ دمشق فى الشمالء ومصر فى الجنوب؛ مملكتان تركيتان قويتان,
متحدتان تحث لواء أمير قوى, هو صلاح الدين. .... أما أمراؤنا الغربيون فهم كرماء
بشفقتهم, لكنهم مقترون فى مساعدتهم. ذلك أن حرارة الحرب فى فلسطين جعلت
رغبتهم فى الذهاب إلى هناك تبرد". ومع ذلك. لم تخضع جميع الدول الإسلامية بهذه
السهولة لمصر وساعد الفرنجة تلك الدول التى لم تخضع كل ما أمكن ذلك. وكانت حلب
واحدة من هذه الدول؛ إذ أنقذها جيش من الفرنجة من الحصار الذى فرضه صلاح
الدين فى أوائل فبراير عام ,» وكانت حلب بالقعل تحتجز عددا كبيرا من السجناء
المسيحيين فى معارك سايقة؛ قحين رفع الحصارء أقرج الحلبيون عنهم جميعا عرفانا
بمعروف متقذيهم. من بين المفرج عنهم كان ذلك البارون اللص النموذجى رينولد دى
شاتيون - وكان أكبر سناء لكنه لم يكن أكثر حكمة ولى بأقل قدرء ولم يكن غاضبا بأى
حال بسبب الخمس عشرة سنة التى قضاها فى السجن. والآن انقلبت طاولات الحرب
أنقلايا كاملا؛ لدى المسلمين والفرنجة» إذ تبددت أرواح أجدداهم مثل رمال الصحراء.
والفكرة القديمة التى قادت المسيحيين إلى القدس - فوضى المسلمين فى مواجهة
مملكة المسيحيين انقلبث انقلابا تاما. وانفلق فكا الأسد ببطء حول المملكة المقدسة,
وفى داخل الملكة, نتشرت المنافسات كانتشار المرض فى جسد بولدوين. فكان الملك
وا مملكة يقتل

لقد كانت منافسات تلك السنين الإحدى عشرة: [ه/١١ -81١1]؛ معقدة كأى
تراجيديا مسرحية. ومثل ما يحدث فى تلك الحبكة. تكشفت مستويات الحبكة مرحلة
همرحلة, وتفاعلت معا حتى وصلت إلى الكارئة. وكانت الشخصيات الرئيسية الأولى
هي ريئوالد دي شاتيون؛ وريمون الطريلسي, وفرسان الهيكلء والإسبتاليين» وبولدوين
الملك المجذوم. فيما أن بولدوين كان صغيراء فهو فى حاجة إلى وصي على العرش
إلى أن يبلغ السن المناسبة وهى السادسة عشرة؛ وكان وصى العرش هو ريمون
الطربلسى. وبدعم من أبتاء بلده من البارونات, والإسبتاليين حاول إقامة علاقات
سلمية مع المسلمين حولهم؛ ذلك أن الاستمرار فى الحرب كان يشكل عبئًا ثقيلا على
المسيحيين. غير أن فرسان الهيكل ورينولد كانوا ملتزمين بالحرب - فرسان الهيكل
بدورهم كفرسان للرب: وريثولد بما لديه من افتراض سابق بسلطنه كاميرء وما يتسم
به من عقلية قطاع الطرق. إذ أنه حين أفرج عنه من السجنء وجد نفسه معدم بلا
أرضء وأمير حرب بلا عملء لأن إقطاعيته فى أنطاكيا قد سلمت فى غيابه لابن
زوجته» وزوجته كونستاتس قد توفيت. لذلك, ما إن أطلق صراحه حتى تزوج وريثة
اولتريجوردين ونصب نفسه لورد! على قلعتى الكرك ومونريالء - اللتان كانتا فى إحدى
المرات من ممتلكات فيليب دى ميلىء المعلم السابع للهيكل, وما زالتاء من أهم المناطق
من التاحية الاستراتيجية؛ باعتيارهما الدفاع الشرقى الجنوبى عن المملكة المقدسة.
لكن المسافة بين أوريا ويلاد ما وراء البحر التى كانت فى وقت من الأوقات منطقة
جذب للمظلومين والمعدمين كما كانت قداسة الحروب الصليبية بالنسبة للتقاة أصبحت
صديقا لا يؤتمن بالنسبة للجيل الجديد من الفرنجة فى الأراضى المقدسة. وإذا كان
هناك رعب فى الخروج لفزى أرض أجنبية, فهناك الإثارة أيضاء وهناك إمكانية أمام
الفقراء والأغنياء فى أن يجدوا حيأة جديدة أفضل على وجه الأرض. غير أن هذه
الإثارة وهذه الإمكانية لهما وجود محدود. وعندما استنفدت الأرض» لم تعد هناك أية
مقاطعات كى يكسبها أخدء أو ممالك يوجدها أحد؛ وليس فى وسع الفقير سوى
استبدال سيد بآخر. وحينما يجب أن يتحول 152

العدوان إلى دفاع, يتبخر ما فى الحرب من إثارة؛ ولا يتبقى سوى الرعب.
بل أكثر من ذلك: فإن أولئك الذين استمروا فى الخروج من أوريا فى أواخر القرن الثانى عشرء: يملؤهم ما يملؤهم من مزيج من التقوى والغرور والطمع» وجدوا فى الشرق أناسا يعرفونهم بالكاد كأقارب. لقد كانت هناك روابط اللغة, وقشرة مسطحية من الثقافة المشتركة؛ وغير ذلك لا بوجد الكثير. ذلك أن الغربيين جاءءا يبحثون عن عالم يعلم: فرنجة الشرق أنه غير موجود. ولم يستطع تقاة أوريا أن يفهموا أنك ببساطة كى تبقى على قيد الحياة: لا بد من عقد معاهدات مع الكفار؛ وبالمثل خاب رجاء الآملين والجشعين حين أدركوا أتهم استدعوا كى يدافعوا عن أراضى غيرهم فحسب.ء دون أن يحصلوا على أية مكافأة مادية لأنفسهم. لذا قلت التعزيزات القادمة من الغرب, كما أن تلك الأعداد القليلة التى كانت تأتى وهى تجهل حساسية الوضع السياسيىء كل هؤلاء كل لأسيايه - حب الله أو حب الذهب اتنضموا إلى المزيج الحريى الخطير المكون من رينولد وفرسان الهيكل. لقد تفاقم التعارض بين المعسكرين المسحيينء الذين كان أحدهما ينشد السلام» والآخر متشدد بلا تنازل, تفاقم هذا التعارض بسيب خصومات شخصية. ذلك أن زوجة رينولد كانت متزوجة من قبل وقد قتل زوجها الأولء وكانت مقتنعة بأن اللوم يقع على الوصى على العرشء ريمون الطريلسى. كما كان ناظر أراضي الهيكل جيرار دى ريدقور يحمل لريمون ضفينة شخصية. ذلك أنه قد جاء إلى الشرق كفارس عادى مع الحرب الصليبية الثانية, والحق نفسه ببلاط ريمون. ووعده ريمون بتزويجه من أول وريثة مؤهلة لكن الأولى اتضح أنها مؤهلة أكثر مما ينبغى - كان اسمها لوتشيا من بوترن» وحين عرض تاجر إيطالى على ريمون وزن الفتاة ذهبا للزواج منها كان من المناسب لريمون أن ينسى الوعد. فانضم جيرار إلى فرسان الهيكل تعبيرا عن الاشمنزاز. دون أن ينسى غضبه وخيبة أمله أى يتحدث عنهما . ويدأ سرا وفى صمت بخطط للانتقام. ره

ولكن على الرغم من الانشقاق فى الدولة قى القدسء بدا أن الأمور تسير
سير حسنا فى البداية. فقى عام 1177, بلغ بولدوين المجذوم السادسة عشرة: واعتبر
بالغا. وتنحى ريمون عن الوصاية على العرش؛ وتولى بولدوين السلطة الكاملة, وسرعان
ما أظهر أنه عوض عن أية إعاقة بمجرد الحماس. وانتهت الهدنة مع مصر؛ فواجه الملك
المعوق على الفور تقريبا غزوة حين عبر صلاح الدين وجيشه الحدود الساحلية للبحر
المتوسط. فكتل سان أمان جميع فرسان الهيكل فى غزة إذ بدا أن هذا هو الهدف
الواضح؛ لكن صلاح الدين تخطاه بالكامل؛ واندفع شمالاء قانطلق بولدوين لمواجهته بما
لا يزيد على خمسمائة فارس. والتقيا فى عسقلان: حيث طوق الجيش المصرى الكبير
القوة الإفرنجية واحتجزها عاجزة فى البلدة. ثم ترك صلاح الدين يولدوين والخمسمائة
فارسن معاطين: وتؤظل شمالا: وقجَأة اتضع هدقه العقيقي: القدس نفسهاء المفتوحة
التى لا يوجد من يداقع عنها. ويدا أن كل ما يحتاج العرب المسلمون فعله هى مجرد
الدخول والاستيلاء ولكن حنيئد أطي مؤانوين ها يمكقه فطله: فاستتيعي سات أمان
من هزة تشجاعة النائن, واندفع برجاله الخمس مائة خلال خطوط العدى وتواعد مع
فرسان الهيكل وركب متنعها شمالا باققتس سترعة وقخاط يسلا الديك: أما
الغري:اللناعون: فسيت القية المفرطة خففوا من درجة الانضباط. وفى 5" نوفمبرء
كانوا يعبرون واد ضيق» فى مكان يسمى مونتجيسارد لا يبعد عن شمال غرب القدس
سوى خمس وأريعين ميلا حين هاجم بولدوين» وهى يقترب دون أن يراه أحد مطلقا
على غير توقع من الشمال. كان هناك ست وعشرون من القفرسان العرب المسلسين:
ويضع مشات من المسيحيين؛ ولكن تم التخلص من المسلمين. وقتل معظمهم؛ أما
صلاح الدين نفسه ققد هرب ققط: لأنه كان مركن ثاقة سباق ورك املك الشاب» ووذ ةا
مشمضة: فن مقدمة الهجوم المسيحى - وإلى جاتبه القديس جورج. كما قال الناس,
والصليب الحقيقى يلمع كالشمس. وسواء كان ذلك صحيهحا أم لم يكن كذلك. فقد كان
نصرا لا يكاد يصدقء وكان صدا للحرب الصليبية الأولى. لكنها كانت أيضا آخر مرة
يهزم فيها 154

مثل هذا الجيش المسلم الكبير عن طريق مثل هذه القوة الصغيرة» وعلى المدى الطويل لم يفعل أكثر من منع الهزيمة النهائية. بمزيد من العون من القرب, ربما سمارت الأمور سيرا مختلفا. وكان لدى الفرنجة بعض المبرر للأمل فى الدعم. ذلك أنه فى ذلك العام نفسه اتفق هنرى الثاني ملك إنجلترأ ولويس السابع ملك قرنسا على القيام بحرب صليبية معاء وأرسل البابا بمبعوث للبحث عن بريستر جون؛ ولكن سرعان ما تخلى لويس وهنرى عن الفكرة؛ وعلى الرغم من أن ميعوث البابا بلغ الحبشة:؛ لم يتم العثور على بريستر جون. فى زمن مضي كان هناك مجال لحب الاستطلاع: والاهتمام بل والصداقة:. بين الفرنجة والمسلمين. فقبل ذلك بجيل؛ نشات مثل هذه الصداقة بين فرسان الهيكل وأحد الدبلوماسيين المسلمين. هو الأمير أسامة الشيرازى: لقد كان يعيش بشكل رئيسى فى القاهرة ودمشقء غير أنه قام برحلات متكررة فى الجزء الأول من القرن إلى القدسء يراقب ويلاحظ طريقة الفرنجة فى الحياة باهتمام تجاهل معه السياسة. وكان يمقت العلاج الطبى الإفرنجى؛ ويعجب بنظام العدالة الذى أسسه الملك أماليريك؛ وأدهشه ما يتسم به الأزواج والزوجات الفرنجة من قلة الغيرة الزوجية؛ وكان يحب فرسان الهيكل ويحترمهم. كتب أسامة, 'حين كنت فى القدس كنت أذهب إلى الملسجد الأقصى (قبة الصخرة)؛ ويجانبه مكان للعبادة حوله الفرنجة إلى كنيسة. وكلما دخلت المسجدء الذى كان فى يدى فرسان الهيكل الذين كانوا أصدقائي, كانوا يضعون المكان تحت تصرفىء حتى أتمكن من الصلاة هناك. وذات يوم دخلت وقلت الله أكبر؛ ونهضت كى أبدأً صلاتي, حين ألقى أحد الفرنجة نفسه على من الخلفء؛ ورفهنى وأدارنى حتى صرت أواجه الشرق. وقال "هذه هى طريقة الصلاة.' وتدخل بعض الفرنجة على الفور, وأمسكوا بالرجل. وأبعدوه عن طريقى. ولكن فى اللحظة التى توقفوا فيها عن مراقبته أمسك بى مرة أخرى وأجبرني على أن أتوجه شرقاء مكررا قوله إن هذه هى طريقة الصلاة. ومرة أخرى تدخل فرسان الهيكل وأبعدوه. واعتذروا لى قائلين: 'إنه أجنبى 155

وصل اليوم؛ ولم ير قط أحدا يصلى ويوجه وجهه إلى جهة غير الشرق".
فقلت لقد انتهيت من صلاتى" وغادرت المكان وأنا مذهول من هذا المتعصب". مع الجيل الثاني, كان المسيحيون القادمون من الغرب أجانب بالنسبة للفرنجة والمسلمين على حد سواء؛ ولكن مع الجيل الثالث, لم يعد لدى أحد وقت للتسامح. إذ أصبحت الحرب بالنسبة للمسلمين تحت قيادة صلاح الدين جهادا وحربا مقدسة؛ أما بالتسبة للفرنجة فقد أصبحت قتالا يوميا من أجل اليقاء. على أى حال. لقد صاحوا قائلين» الذئب مرات كثيرة؛ و"الأجانب" الذين احتقروهم فى وقت من الأوقات توقفوا عن المجيء. مع أن الحاجة إليهم كانت أكبر من ذى قبل. ومهما كان ما قاله المنتقدون الغربيون عن فرسان الهيكلء فقد حافظوا على معاهداتهم مع المسلمين. حتى إذا كانت هذه الثقة الآن صعبة. فعلى ضفاف نهر الأردن؛ عند نقطة العبور حيث صارع يعقوب الملاك, شرعوا فى بناء قلعة. وكانت فى منتصف متطقة لا يملكها أحد حيث كان التحصين مستبعدا بنص المعاهدة؛ فقال سان أمان؛ الذى كان لا يزال متمسكا بالميثاق, إن المعاهدة بين صلاح الدين وبولدوينء لذا يمكن لفرسان الهيكل أن يفعلوا ما يحلى لهم. فعرض صلاح الدين أولا على بولدوين ٠ من القطع الذهبية ثم 0٠ لوقف البناء. ولكن لم يكن ممكدًا منع فرسان الهيكل. وانضم بولدوين إلى المغالطة: وييِنما كان فرسسان الهيكل يقومون بالبناءء وضع دائرة دفاعية حولهم مدعيا أن البناء والدقا ع عمليتان مختلفتان تماما. ويدأ البناء فى أكتوير عام 74١1١؛ وتم البناء فى إبريل عام 178١/ وسميت شاتيلى؛ وتم وضع حامية من ألف وخمسمائة من المرتزقة وستين من فرسان الهيكل من بينهم ناظر الأراضى. وتراجعت الدائرة أو الحلقة, وعلى الفور أقام صلاح الدين حصارا على القلعة الجديدة. وتم صدهء وقضى الأسابيع القليلة التالية فى شن الفارات على المنطقة؛ ثم ثار لهزيمته فى ٠١ يونية» فى مونتجيسارد. إذ كان الفرنجة يمرون خلال مرج عيون, فى أعلى نهر الأردن - كان يولدوين (محمولا على محفة)؛ وريمون. وسان أمان؛ وفرسان الهيكل, 156

والجيش الملكي: كانوا جميعا موجودين. وأزعج مرورهم القطعان التي كانت ترعى فى الوادى» وراقبهم صلاح الدين من نقطة مراقبة فى أعلى التل. وكان هجومه مفاجأة تماها كما كان هجوم بولدوين فى مونتجيساردء كما كان نجاحه عظيما كذلك. لقد قر الملك وريمون؛ وتشتت الجيش المسيحي؛ وأسر سان أمان. وكان ذلك خط فرسان البيكل. حتى هم لم ينكروا ذلك؛ لأنهم انضموا إلى المعركة مباشرة لدى رؤيتهم لجيش المسلمينء قبل أن يستعد الجيش الملكى: فجعلهم الهجوم الإسلامى المضاد يرتدون على إخوتهم من المسيحيين. طيشء؛ تسرع, هزيمة؟ أنقذ الملك ولورد المملكة الأول بالكاد؛ وأصبح معلمهم فى الأسير؛ - وأصبح فرسان الهيكل مسئولين عن الكثير فى مرج عيون. وبعد أن تحرك صلاح الدين جنويا وصل مرة أخرى إلى شاستيلى:ء القلعة التى توجد عند منطقة عبور يعقوب. وحاصرها لمدة خمسة أيام من 4؟ حتى 595 أغسطس,» مرسلا مهندسين لتقويض الجدران؛ ونجح فى هذه المرة. والجدران التى أقيمت بسرعة منذ أشهر قليلة» انهارت» وفى النهاية لم يبق شىءم: لا بشر ولا حجر: إذ قتل كل من فى الحامية» وسويت القلعة بالأرضء بعد أن بدا البناء بعشرة أشهر فحسب. وحين لا تكون هناك أية إمكانية للسلام أو الثقة. يمكن لفارس من الدنيويين أسر فى أثناء القتال أن يأمل فى أن يطلق صراحه مقايل فدية. أما أحد فرسان الهيكل فلم يكونوا يتزحزحونء ولم يتوقعوا أى شىء؛ ذلك أن الفارس كان يلتزم بميثاقه» ويرفض أن يفتدى بأى شىء أكثر من حزامه وسيفه. وهذا ما حدث مع سان أمان» فمات بعد عام فى أحد سجون دمشقء ويقال إنه كان شديد الكبرياء بحيث لم يفكر فى مسماألة الفدية وبسواء كان الأمر يتعلق بالكبرياء أى الفهم الحرفى للكلمة المكتوبة فلقد كان سان أمان مصدر شقاء للمملكة, أما إلى أى حد كان كذلك؛ فيمكن معرفته والحكم عليه من التوبيخ الذى أرسله إليه البابا إليكساندر الثالث, عام 8/١١١:

"تحن نعلم أن إخوة الهيكل تعدوا الميزات التى منحها لهم الكرسى المقدس
ويفعلون أشيار 3 تين العمروبين تلت الرمه ودر مستطيراً النفوس. .. ... لذا ردي تنقيا
سرس دن لكين وحار جحت القكر الابيي طلا شير رد الكنائس التى لا تخصهمء يجب
أن يتركوا للأساقفة تعيين القساوسة؛ ولا يسمح لهم فصصل من عينوا دون استشارة
الأساقفة؛ وإذا جحاءعا إلى كنتيسة محظورة قانونا, يدفن المحظورين قانونا هناك. إنها
لفة قوية ودقيقة؛ ولا يملك أى ألحد حتى لو كان فرسان الهيكل؛ لذا يتضح من كتابته
هو بالذات لمثل هذا التوبيخ أنه يعتقد أن فرسان الهيكل قد تجاوزوا حقوقهم كثيرا
ويشكل كبير. ومع ذلك, ففى أيام سان أمان نما الهيكل نموا لا حد له فى السلطة
الزمنية فى الأراضى المقدسة, من حيث شراء القلاع والبدء فى التجول فى أنحاء
البلاد مع عودة ملاكها إلى الغرب؛ ومع ذلك شعر فرسان الهيكل أنفسهم بأنه قد حان
الوقت لإجراء تغيير قى السياسة؛ لأن الرجل الذى انتخبوه كى يكون معلمهم التاسع
كان نقيض أمان من عدة نواح. هذا الرجل هو كان لديه الحذر والتحوط المتوقع من
السن؛ ومنذ كان معلم الهيكل فى إسبانياء منذ عام /11510: لم تكن لديه آية صلة
يأى من الجماعات السياسية فى الأراضى المقدسة. لقد كان هذ الاختيار جديرا
بالإعجاب من عدة نواح, لأن طبيعته المعتدلة هدأت. إلى حين. الانتقادات التى كانت
توجه إلى فرسان | لهيكل - لكن فضيلة عمره المتقدم صراع مفتوح مع الملك: لقد
دخلت منافسات تلك الفترة فى الأراضى المقدسة مرحلتها الثانية عند تلك النقطة وزاد
من حدتها أحداث وقعت ما وراء الحدود. من بين أعمال القديس أمان 156

الأخيرة قبل السجن عقد اتفاق مع معلم الإسبتاليين 'أنهت طوعا ويشكل لا رجوع فيه, جميع الجدال بين الجماعتينء هنا وما وراء البحرء المتعلق بأراضينا وأموالناء وممتلكاتنا المختلقة" - وهذا أحد أعمال القديس أمان القليلة للتصالح. لكن هذا التصالح غير توازن سياسة السلطة فى الأراضى المقدسة عن طريق جلب الإسبتاليين إلى جانب فرسان الهيكل؛ ويعده تماما قى عام :.1160١ يدا تغير مثير خارج البلاد حين مات الإمبراطور مانويل زينوس. ولم يترك وريگًا سوى صبى يبلغ من العمر الحادية عشرة. وفى عام ١١48٠ أيضاء مات بطريارك القدس؛ وحل محله هيراكليوس, أسقف قيسارية» وهو رجل أمى تقريبا غير أنه جميل المنظر إلى حد ملفت؛ ولم تكن سمعنه طيبة. ويرجع اختياره إلى حد كبير إلى نفوذ أم الملك. وفى نفس العام تزوجت أخت الملك سيبيلا من شاب فرنسى غير معروف يدعى جى دى لوزينيان. وهى الاين الثالث لنبيل صغفير فى فرنساء وسيمء يقال إنه ينحدر عن الشيطان عن طريق جنية الماء. ميلوزين: ولكن لم يكن لديه ما يميزه غير ذلك بأى حال. ويما أن الملك, فى ذلك الوقت. كان يوشك على الموت. وقف كي يورث عرش القدس. ويذلك تشكلت الأحزاب» تقريبا من كونت ريمون من طريلسء الوصى السابق على عرش بولدوين. والبارنونات من أبناء بلده من جانب, والذين كانوا ما زالوا يأملون قى نوع ما من السلام؛ وعلى الجانب الآخر. كان هناك من يميلون إلى الحرب» ويتكونون من فرسان الهيكل ورينوالد دى شاتيونء ومعهم حلقاؤهم الجددء الإسيتاليون, والبطريارك المنحل هيراكليوس والوريث الجديد الأحمق» جي دى لوزينيان. فرجحت كفة المجموعة الثانية» الجماعة الميالة للحرب؛ ولكن لو أن بيزنطة صمدت. لكان لأفعالهم وسوء تصرفاتهم قدر أقل من العواقب الوخيمة. وما وقع هى أن ست سنوات من التفاعل بين الناس والأحداث أدت إلى وقوع المأساة التى لا فكاك منها. لقد كان الحدث الوحيد الباعث على الأمل فى ذلك العام ١١8١ هى معاهدة سلام جديدة بين بولدوين وصلاح الدين: كان القصد أن تدوم لمدة عامين. وكانت إحدى موادها تسمح بالمرور الحر للتجار الفرنجة والمسلمين من خلال أراضى كل منهما؛ 159

ولكن حدث أن طريق قوافل إسلامية رئيسى إلى مكة يمر من خلال الاكريعوردين: تحت أسوار قلعة رينولد, الكرك. ولمْ يكن من المتوقع بأى حال توقع أن رينولد يمكن أن يقاوم الإغراء المتمثل فى تلك المجموعات من الجمال المحملة بالثروات وهى تمر أمام بابه؛ فلم يستطع المقاومة. ولم يقاوم. وفى عام ١١٤١ استولى على البضائع فى قافلة بأكملها. فطلب صلاح الدين عودة البضائع أو التعويض؟ ورفض رينولد رفضا قاطعاء ولم يتمكن بولدوين المسكين من فعل أى شيء. إذ إنه كان قد صار أعمي يلزم فراشه غير قادر حتى على توقيع اسمه. وتصادف أن ألفًا وخمسمائة من الحجاج ليسي عرقت سفيتتهم على الساحل المصريء وطن الفور آخدّقم:ضلاح الذين رهائن؛ وكان رينولد متصلبا. فبقيت البضائع والرهائن كل فى مكانه؛ ونشبت الحرب مرة أخرى. وفى عام 1165 كأن صلاح الدين يوسع إميراطوريته فدمر شمال سوريا؛ واقتنص رينولد الفرصة كى يقوم بإجراء عملية فى حياته. وأى كان رأينا فيه فإن جسارته فى حد ذاتها تجبرنا على الشعور بشىء من الإعجاب؛ لأنه حينئذ كان قد سئم الغارات البرية المحلية. فكانت القرصنة هى الشىء التالى: والقرصنة على تطاق كبير. وعلى مدى طيران الغراب: تقع الكرك على بعد مائة وعشرين ميلا شمال وشمال شرق خليج الفقية: القرن الشرقى البهن الأعهمر: ومن إيلاء الميناء الواقغ شسمال الخليع: إلى الميسة ستفرق الركلة يمرا وورا سوال لواكة وحسنة ولد أناالن مكة فهى تزيد على آلف ميل. غير أن مكة والمدينة, أقدس مدينتين فى الإسلام كانتا هدف رينولد الجديد. ولقد كانت غابة موآب شرق البحر الميت» بالقرب من الكرك مزدهرة. فقطعت الأشجار بناء على أوامر رينولد؛ وتم بناء خمس سفنء وجريت فى البحر الميت, وفككت وحملت على الجمال؛ مسافة تلك الأميال المائّة وعشرين إلى عيلا. وتم الاستيلاء على البلدة بسهولة؛ وتم تجميع السفن؛ ويقيت سفينتان لحصار حصن جزيرة جرىء وانطلقت. بقية السفن تغرق وتحرق السفن الأخرىء وتخرب وتنهب المدن, بزهى واستهتار وغرور. لم يفكر أحد من قبل فى شيء كهذا؛ وكان العالم الإسلامى 10

غير مستهد مطلقا؛ ولدة عام تقريباء كان أسطول رينولد سيدا فى البحر
الأحمر. أما رينولد نفسه. الذى كان أقرب إلى الراعى منه إلى البحار فقد بقى على الشطء فى الشمال؛ أما بحارته فلا بد أنهم كانوا يعيشون أسعد أيام حياتهم» فى نشاط دائب رائع من ساحل إلى ساحل. فعلى الساحل الإفريقىء نهبوا إيديبء الميناء النوبى
الرئيسىء وأخذوا تجارًا مع بضائعهم القادمة من الهند وعدن. وعلى ساحل العرب,
أحرقوا جميع السفن الموجودة فى ميناء المدينة» ووصلوا إلى الراغب, أحد الموانئ التى تخدم مكة - وتقول بعض الأخبار العربية إنهم بلغوا عدن. لقد كانت مغامرة رائعة,
ولكن لم يكن من الممكن أن تدوم. إذ تشكل أسطول من المسلمين تحت أمير بحر
يسمى لولو. وهذا اسم غير محتمل إلى حد ما. ولحق بالقراصنة وهم منشغلون فى الهوارة» ميناء المدينة. لقد أوشك الأسطول على النجاح, مما أثار أكبر قدر من الدهشة والفزع لدى المسلمين؛ لأن الرأغب تقع على بعد ما لا يزيد على خمس وستين ميلا من مكة. بل إن قليلا من القراصنة وصلوا إلى مكة - ولكن كسجناء: لآن لولى دمر سفتهم. وتم تقسيم الناجين إلى مجموعتين أخذت إحداها إلى مكة؛ والمجموعة الأخرى أخذت
إلى القاهرة؛ وفى المدينتين, تم إعدام المجموعتين بالمراسم المناسبة. ومن أغرن حواقت هذه الزاقعة أن حدونا افركسا وانفوا هو الذئ تكرها اساسا كان سكوير يدعى
ايرنول ووصف الأودسا (الملحمة) القرصانية باعتبارها حملة علمية "لمعرقة ما كان يعيش الناس عليه قي هذا البحر". أما بالنسبة للمسلمينء فكانت أكير انتهاك للعقيدة منذ سقوط القدس, وأقسم صلاح الدين أن يقتل هو شخصيا رينولد. وتركز الكتابات الإسلامية بالطبع عن رحلة التدمير هذه على دمار السفن وحرقها. والفوضي والخراب
الذى خلقه رجال رينواد. ولم يتناول المسلمون أو ايرول فى تعليقه الموجز ما يبدو
الآن أهم جزء فى القصة بأكملها: العمل الكبير المتمثل فى تنظيم وتحمل نقل تلك
السفن من اليحر الميث إلى البحر الأحمر. لا أحد يعرف طريق رينولد من الكرك إلى الساحلء ولكن توجد إمكاتية واحدة فى الواقع: هى الطريق الروماني القديم الذى كان
يربط بين العقبة ودمشق البعيدة, والذى

كان يمر من أمام باب رينولد. حتى اليوم. ما زالت أجزاء من هذا الطريق باقية, وتكشف الرحلة على طولها. هذا الطريق من بحر إلى بحر المنظر الحى الفاتن عبر الزمان, وتعيدنا إلى ذلك اليوم حين بدأت جمال رينولد تشق الطريق نحو الجنوب, بالعوارض والألواح الخشبية لسفنه المربوطة على ظهورها المتأرجحة. وبين البحر الميت وقلعة الكرك يجرى وادى الكرك؛ وهو واد ضيق متعرج يقطعه مجرى مائى يكبر بسرعة فى نوبات الأمطار النادرة حتى يصيع نهرا. من الممكن أن تكون سفن رينولد قد تم جرها إلى الشاطئ عند نقطة معينة إلى حلق الوادى وفككت هناك على الشاطئ. إن مجرد كونها فككت وجمعت يثير سوالا عن كيفية بنائهاء ولا يمكن أن تكون الإجابة عن هذا السؤال سوى مسالة تخمين؛ من الممكن أن تكون على نسق تصميم أوربى وأمنت بأوتاد» ولكن من الممكن, ربما الأكشر احتمالا أنهم استخدموا تصميما شرقيا مثل الدهى (سفينة عربية). ذلك أن رينولد كان يستغل البيئة المحيطة به أكبر استغلال, والسفن من عائلة الدهى لها ميزتان فى عملية البحر الأحمر: ذلك أن أشكالها المألوفة لن تعطى أى إنذار بوقوع أى خطرء وبناءها التقليدى - إذ تربط بألياف, بدلا من أن تثبت تثبيتا دائما - ريما يكون قد ساعد على حل مشكلة نقلها برا. ولكن بالنسبة لشخص أوربىء سفن الدهو ليست سهلة فى التعامل معها, حتى إذا ما قورنت بسفينة تنتمى للقرن الثانى عشر؛ ويما أن تغطيس شىء فى اليحر الميت يستلزم جهدا وعزما فمن الممكن أن فترة الاختبار كانت فترة تدريب لطواقم السفن. ولكن سواء تعلق الأمر بتدريب أو اختبار, فما إن ينتهى وتحمل السفن على الجمال. يجب أن تبدأ الرحلة الطويلة الصعبة. كما أن وادى الكركء نقطة الانطلاق كان إحدى أصعب المراحل: عبارة عما يقرب من عشرة أميال من طريق منحدرء يرتفع أربفة آلاف وثلاشائة قدم عن مستوئ البطر اميت إلى القلعة تفسها. ويرتفع الطريق منحدرا من شاطئ صخرى تنتشر عليه النباتات. خلال أجراف مسننة من الحجر الرملى والجرانيت؛ ثم بعد المرور بقطعة من الأرض صغيرة ولكنها ثرية, تجد نقسك آخيرا يجائفٍ قمتى الجبل المستفيرتين من الجر الجيرئ. ها هئ الكزك ضافتة متامُلة وبها شيء من الوعيد, ترتفع فوق رأسك.

إن حجمها رهيب. ويرجع تاريخ المبنى إلى أوائل القرن الثانى عشرء غير أن الموقع كان به سكان منذ ۰۰۰۱ ق.م. ويتحدث العهد القديم عن لعنة صبها النبى أشعياء على البلدة. ولقد شهدت الكرك االكثير من المعارك الكبرى فى زماتهاء سواء بسبب تلك اللعنة أو بسبب موقعها الاستراتيجى على طريق التجارة الشمالى الجنوبى. فى مقاطعة أوتلجوردين الصليبية. كانت انكرك تسود بهيئتها. وتهدد: وتحمى» وتخنق؛ إذ تعلم من هم خارجها غريزة البقاء» فى حين تعلم من بداخلها أن يتذوقوا الفتح وينظروا إلى ما وراء الأفق. إنها قلعة مبهرة. غير أن تركها يبعث على الشعور بالارتياح. ومن المحتمل جدا أن قراصنة رينولد شعرو! بذلك الشعور. وإذا ما سلمنا بمعا هى غير محتمل أى أن بعضهم كان يجيد القراءة والكتابة - فإن هذا يجعل الافتقار التام إلى سجل يفصل رحلتهم الصحراوية أكثر قابلية للفهم. ذلك أنهم بعيدا عن وكر رينولد كانوا سادة أنفسهم ولم تكن الصحراء سوى عقبة صغيرة قبل البدء فى مغامرتهم الكبرى. كان من الممكن أن يتوقعوا العودة. كى يحكوا عنها؛ وريما كي يكرروها؛ إذ إن الكتابة - إن كان أحد منهم يقدر عليها - لا محل لها إذا ما قورنت بالتجرية الفعلية. لقد كان قدرهم قدرا قاسيا. إذ يتعثرون فوق الحجارة المحرقة. وريما توقفوا قليلا عند قمة ممر رأس النقب» على بعد عشرين ميلا جنوب بتراء وحملقوا فى الصخور البنية المجدبة إلى الجبال الزرقاء على المدى؛ ثم يهبطون إلى مساحات الغور الواسعة, تلك المسطحات الطينية الجافة التى تخلى تماما من المياه, التى أحرقتها الشمس فاسحالت كالصوانء وأخيرا يعيرون الرمال الصفراء فى الصحراء الجنوبية. حتى هم لم يكونوا ليتجاهلوا الجبال هناك. إنها يروز عملاقة من الصخر الصلبء يبلغ ارتفاع الكثير منها ما يزيد على ألفى قدم. تحولت إلى عشرات الأشكال الرائعة بفعل عواصف القرون. ريما استراح الناس فى ظلهاء أى عثرواء شاكرينء على تلك البرك القليلة التى يجرى فيها الماء والتى ترقد مختفية بين تلك الأشكال. 10

ولكن سواء كان الفرنجة أميين أم غير أميين» فإن صمتهم الشامل
بخصوص هذه الرحلة الشاقة ينبع من سبب أكثر بساطة وعمقا من أى سبب آخر: ألا
وهو أنه بعد ما يزيد على ثمانين سنة من الاحتلال المسيحىء فإن هذه الأراضى
الواقعة شرق البحر المتوسط كانت بمثابة الوطن. وكانت أخطارها ومخاطرها معروفة
ومقبولة, لأنه بالنسية للفرنجة فى القرن الثانى عشر فإن الشرق اللاتينى, بحالته
الريفية هذه كان كل ما يعرفونه فى حياتهم أو من الممكن أن يعرفوه. ومع ذلك فإن
هذه المشاق والمخاطر فى الأرض لم تكن أقل واقعية؛ ويشكل ما من الخير معرقة
ذلك, فرجال رينولد الرحلء مع كونهم بلا شك سفاحين. وقتلة» فإنهم كانوا طلقاء فى
البحر الأحمر لما يقرب من عامء قبل مقتلهم الكئيب الاحتفالى بسيوف المسلمين. وفى
الوقت الذى تم فيه تدمير أسطول رينوكد فى صيقف 87١1:؛ كان صلاح الدين سيدا
على حلب. ذلك أن ملك سوريا الصبي كان قد توفى فجأة قبل ذلك بعامين؛ ريما
مسموماء ولم يكن على صلاح الدين سوى أن يملأ القراغ. ولم ينعم الإسلام بملك بهذا
القدر من العظمة لما يربو على مائتى سنة؛ إذ امتد حكمه من ليبيا إلى عدن إلى دجلة؛
وهو مثلث ضخم أكبر بكثير من جميع الدول الصليبية مجتمعة. أما الآن فهى لا تعدو
مجرد شريط حدودى ضيق - لكنها موجودة؛ وكان وجودها يشكل وصمة عار على
الإسلام. ويجب استتئصالها. وكان صلاح الدين يعلم أنهم لا يمكنهم انتظار المساعدة؛
فالفرب قد سئم كما أنه منشغل - والحركة الأخيرة فى أنماط القوة أن حكم بيزاتطة
القوى المستقر كان يتفكك. والإمبراطور الصبى قد سمم, مثله مثل ملك سوريا الصبى؛
وكان الإمبراطور الجديد طاغية يحكم إمبراطورية توشك على الإفلاس وجيش لا
يذكر. فركز صلاح الدين على رينولد. وفى القدسء كان مرض ال ملك بولدوين يعمل
عمله يبطء فى جسده؛ ويدأ ذراعاه وساقاه يتاكلان. ويسبب إلحاح أمه, وأخته.
والبطريارك المنحل أعطى الوصاية على العرش إلى الشاب الجميل الضعيفء جى دى
لوزينيان. غير أن جى كان من الضعف, والجين والتردد والفظاظة مع مليكه المحتضرء
حتى أن أحدا لم يطق فكرة 14

وجوده فى السطة حتى مساتدوه الثلاثة. فتم خلعه فى مارس عام ١١47ء
ونودى باين زوجته ابن أخت بولدوين وريثا للعرش. أنه بولدوين آخر. سيكون الخامس
الذى يحمل هذا الاسم؛ وستكون حكايته هى الأقصر والأكثر مدعاة للحزن. عند هذه
النقطة أدى جهل أرنولد دى توروج بالسياسة الفلسطينية إلى أن يضل الطريق, ذلك أنه.
لسبب غير مفهوم حاول هو ومعلم الإسبتاليين معا ومعهم هيراكليوس التوسط من
أجل جيى. وتم نفى الثلاثة جميعا من البلاط؛ ثم؛ بعد ذلك ببضعة أشهر أرسل الملك
بولدوين بهذا الثلاثى فى مهمة لا بد أنهم جميها كانوا يعلمون أنها بلا أمل - وهى دق
طبول الصرب في أوريا كى يبعثوا الافتمام هناك من أجل شن حرب صلييبية أخرى.
وهكذا حرمت الجماعتان من قائديهما المختارين. فى أثناء ذلك, كان صلاح الدين
يستعد لرينولد. وكان مصاره للكرك هى آخر حدث كبير فى عام ١١65 وفشل هذا
المصارء ولكن فى أثنائه وقع حادث غير عادى إنه إيماءة تعد من أعلى درجات الشهامة.
إذ إن الحصار بدأ فى ٠١ نوفمير. وتصادف أنه كان يتم الاحتفال يزفاف فى القلعة.
وبينما كانت صخور مجانيق المسلمين تهز الأسوارء استمر حقل الزفاف فى الداخل.
وأرسلت أم العريس أطباقا من الوليمة لصلاح الدين» وحين علم أآين يتم الزفاف: أمر
بوقف قصف ذلك الجزء. لقد أصبح الكونت ريمون وصيا على عرش القدس مرة أخرى.
ولدى تقدمه نحو الكرك. اتسحب صلاح الدين. كان ذلك فى 4 ديسمير .1١185 وكانت
القلعة وريمون فى أمان؛ لكن صلاح الدين كان فى وسعه الانتظار. وفى خريف ١١84
سار نحو الكرك مرة أخرى؛ ولم يتمكن من كسمر دفاعات القلعة. غير أن هذا لم يكن
مهما حقا: فرينولد كافر غير مؤمن:ء لكنه واحد بين كثيرين» وكان الوقت فى جانب
صلاح الدين. 105

ففى ١١ سبتمبرء خضع أرنولد دى توروج لمقتضيات سنه. وتوفى فيرونا؛
وكانت هذه هى النتيجة الوحيدة للبعثة إلى القرب. ولم يكن هذاك أى أمل من أورياء
والطاغية البيزنطي؛ أندرينيكوس زينوسء الذى قلب السياسة المسيحية رأسا على
عقب. حيث عقد معاهدة مع صلاح الدين ضمن فيها ألا يساعد الفرنجة. ولم تفد هذه
المعاهدة اندورنيكوس بأقل القليلء لأن طفيانه أثار تمردا فى عام ١١80 وتم القبض
عليه وتمزيقه إربا . وتسارعت عجلة القدر فى هبوطها بفعل الدسائس. وتم انتهخاب
معلم جديد للهيكل؛ وكان الانتخاب سريا كالمعتاد, ولكن يبدو أنه لم يحسم سوى بعد
نقاش عنيف فى الجماعة. ففى القدس أشيع أن جيليير اريل قائد القدس وأمين خزانة
الجماعة, ورفيق توروج فى الرتبة» سوف يكون المعلم الجديد؛ ولكن حين أعلن ناخبو
الهيكل قرارهمء كان جيرار دى ريدفورء الذى باع ريمون عروسه. كان دى ريدفور قد
ارتقى كى يكون ناظر أراضى الهيكلء فلم يكن من غير المعتاد أن يرقى من ناظر إلى
معلم» ولكن بقلبه المليء بالضفينة والحنق على الوصى على عرش الملكة. كان انتخابه
أسوأ أختيار ممكن. وقى ١٧ مارس ١١١850 توفى الملك المجذوم بولدوين متخلصا
أخيرا جدا من ألمه الذى دام طويلا. وتوج أبن أخته كبولدوين الخامسء وفى هذه
المجموعة من الممالك التى يرأسها أطفالء كان أصقرهم جميعا: إذ لم يتعد عمره سبع
سنوات. وأطلق عليه الناس اسم بودوينيت. وصحب موت الملك المجذوم وتتويج
الملك الطفل مجاعة فى أنحاء المملكة. وبدأ أن المجاعة سوف تضع حدا للحرب
القديمة بين الهلال والصليب دون أى دفمعة من صلاح الدين فطلب الكونت ريمون فى
يأس هدنة لمدة أربع سنوات. ولم يكن يأمل فى أن يقبل الاقتراح - غير أنه قبل لآأن
صلاح الدين كان مريضاء وكان يعتقد أنه يحتضر. وبدأ ذلك بالنسبة للفرنجة وكأنهم قد
انتشلوا من بين فكى الأسد. لقد كانت هذه القرصة الأخيرة مجرد وهم. ففى نهاية
أغسطس عام 11845, توفى بودوينيت بعد عيد ميلاده بووقت قصير. لقد توفىء
على الأقل, لأسباب طبيعية. 1066

لأنه كان دائما معتل البدن. فكان موته شبه متوقعء وكان بولدوين. الملك
المجذوم» قد ترك لة اختطياطية فئ رصيته: لتغطية الغلاقة على العرض»بطيقا لهذه
الخطة, يقوم البابا وملكى فرنسا وإنجاترا وإميرطور الألمان بتقييم المزاعم المتنافسة
بين أخت الملك المجذوم سيبيلا؛ وابنة زوجة أبيه, إزابيلا؛ فكانت خطة حساسة:
وبيتما كان يولدوين يحتضر أقسم جميع بارونات المملكة وقادتها العظام على تنفيذ
الخطة. وكان هيراكليوس ودى ريدفور من بين من أقسموا على تقديم المساعدة. أما
رينولد دى شاتيون فلم يكن موجودا؛ لكن رفيقه فى السجن من أيام دمشق يدعى
جوسلان كان حاضراء وأقسم اليمين مثل الجميع. وحين توفى بودوينيت» أطلقت
الخطة الاحطياطية. فدعا الكونت ريمون إلى عقد اجتماع لجميع لوردات المملكة
لاتخاذ قرار بشأن السفراء الذين سوف يتجهون إلى الغرب. وكان المقرر أن يعقد
الاجتماع فى القدس؛ غير أن جوسلان أقتم الكونت بأن طبرية ستكون أكثر أمناء بعيدا
عن تأثير البطريارك هيراكليوس المنحل غير المؤتمن. وسار ريمون بثقة كى يدخل
الشركء وسافر إلى طبرية. وكان بودوينيت فى عكا. وما إن غمادر ريمون المدينة.
حتى احتلتها قوات جوسلان. إلى جاتب صور وبيروت. وأعاد فرسان الهيكل جثمان
املك الهزيل إلى القدسء حيث قاموا بدفنه بكل أيات التكريم فى كنيسة الضريح
المقدس. واستدعى جوسلان ريتولد من الكرك؛ وسيبلا وزوجها عديم النفع جى دى
لوزينيان من عسقلان ووجههم إلى القدس. وفى عكا أعلن عن سيبيلا ملكة, ثم اتجه
مسرعا شمالا كى يلقاها هى والآخرين. وحين تجمعوا جميعاء أغلق فرسان الهيكل
يوابات المدينة المقدسة. ووضعوا الحراس لمراقبة الكونت ريمون. وذهب هيراكليوس
وريدفور كي يطالبوا بالشارات الملكية؛ وكانت هذه محفوظة فى خزانة ذات أقفال
ثلاثة. مفتاح منها كان لدى البطريارك والمفتاحان فى البداية رفض معلم الإسبتاليين
الذى كان وفيا لقسمه تسليم مفتاحه؛ ثم ألقى به ياشمئّزاز من النافذة. والآخران لدى
معلمي الجماعتين. وفصل نفسه وجماعته كلية من تتابع الأحداث. 107

وحين أمن هيراكليوس شارات الملك, قام بتتويج سيبيلاء ثم قامت هى بتتويج جى؛ وهو أضعف وأسوا من حكم بلاد ما وراء البحر من ملوك. ورفع جيرار دى ريدفور صوته فى مباركة ساخرة صائحا: "هذا التاج يعوض عن زواج بوترن". ورفض ريمون الخضوع لجى. وكانت الهدنة مع صلاح الدين لا تزال سارية المفعول؛ مع أن صلاح الدين شفى وأصبح قويا مرة أخرىء, وكان من الممكن مع ذلك أن يتم بث الحياة فى المملكة على الرغم عن ملكها عديم الشخصية. ولكن عندئذء لعب رينولد دى شاتيون ورقته الأخيرة. ذلك أن مجموعة أخرى من تلك الجمال المحملة بالثروات أخرجته مرة أخرى من وكره فى الكرك. فذبح الحراس المصاحبين لهاء وزج بالتجار وأسرهم فى سجونه, وقال لهم اطلبوا العون من محمد. وكانت غنيمته من هذه الغارة هى أكبر غنيمة فاز بها فى حياته. وكانت أشبه بالإعادة لآخر إغارة على قافلة. إذ طالب صلاح الدين بالتعويض؛ ورفض رينولد؛ ولم يستطع الملك جى فهعل أى شىء؛ فاستونقت الصرب. لكنها هذه المرة كانت حرب إبادة تامة. 105

الفصل السابع قرون حطين الأراضى المقدسة سأدفعهم ليد أعدائهم . 56
وأجعل مدن يهودة خربة بلا ساكن. أرميا الإصحاح الرابع والثلاثون, الآيات 14- بب.
لقد أثر جو انعدام الثقة والخيانة فى الجميع فى بلاد ما وراء البصر - حتى الكونت
ريمون؛ الذى كانت وصايته على العرش جديرة بالثقة ويمكن الاعتماد عليها . وقال
المسلمون إن الفرنجة فى ذلك الوقت لم يكونوا يعدون أحدا أشجع أو أكثر حذقا منه؛
ولكن بعد تتويج جى» تحول ريمون إلى الخيانة والتمرد. فحاول أولا اقتلاع سيبيلاء
وجى وأن يحل محلهما إزابيلا وزوجهاء همفرى من تورون؛ غير أن الخطة فشلت حين
أقسم همفرى يمين الولاء لجى. ثم. بدأ التراسل مع صلاح الدين حين أصبحت الحرب
الشاملة أمرا حتميًاء وفى أوائل عام 141١ كون الاثنان معاهدة خاصة ضمن فيها صلاح
الدين أن يجعل ريمون "ملكا على جميع الفرنجة". من المؤكد أن هذا التصرف كان
تصرفا ذكيًا: إذ كان ريمون يعلم أن الفرصة الوحيدة لبقاء بلاد ما وراء البحر تكمن فى
مد السلام إلى أبعد حد ممكن وإلى أطول وقت ممكن. ولكن من المؤكد أيضاء أن هذا
كان ضربا من ضروب الخيانة. ولم يحاول ريمون إخفاء ما فعله, وحين عرف الأمر فى
القدسء جمع الملك جى جيشه واستعد لإخضاع ريمون بالقوة. ولم تكن الحملة,
بالطبع: فكرة جى - إذ إنه. فى الواقع لم تكن لديه أبدًا أفكار 169

تخصه فلهب ريدقور على أنعدام التفكير لديه على نحو يخلو من الأخلاق.
ذلك أن حقد دى ريدفور على ريمون لم يكن يعرف حدوداء فكان هو من دقع بجى إلى هذا الوضع غير المالوف من معارسة السلطة. لى أن جى هو من دقع بالأمور لكان ذلك ضريا من ضروب الجنون. ولارتكبت بلاد ما وراء البحر انتحارا في الحرب الأهلية؛ لأن ريمون كان قد امتلك دعما من المسلمين فى جيشه:؛ وكان فى وسعه التعويل على موارد إمبراطورية صلاح الدين غير المحدودة. غير أن الأمر لم يصل مطلقا إلى هذا الحد, ذلك لأن مستشارا جديدا قد ظهر: إنه باليان من ابيلين» الذى بين بقوة ما فى هذه الخطة من حمق. إذ يمكن الاعتماد على جى فى شيىء واحد» ذلك الشىء هو أنه يتبع أحدث نصيحة تقدم له. وبدلا من استخدام القوة, واقق على استخدام الدبلوماسية, وأرسل باليان» فى صحبة رئيس أساقفة صورء معلم الإسبتاليين وجيرار دى ريدفور التوسط عند ريمون. قشعر ريدفور بالإهانة بحدة, لكنه كان مضطرا للحضورء ذلك أن سلامًا دونه يمكن أن يكون عديم الجدوى. وكان وصيف باليان فى هذه الرحلة شايًا يدعى أرول. وكان يجيد القراءة والكتابة, وهذا لم يكن شيئًا شائعا؛ بل والأمر الأقل شيوعا أنه كان لديه الافتمام الكافى بالكتابة كى يسجل ما رآه. وهو الذى كتب السجل الإفرنجى الوحيد عن قرصنة رينولد دى شاتيون مع أنه لم يشارك قيها مما يفسر كوته عزا دوافع أعلى لدى رينولد مما كان يستحق. لكن روايته عن السقارة لريمون جاءت عن خبرة مباشرة» وتفصيلية وحية. لقد غادر الوفد القدس فى 5 إبريل 11417١ وفى ذلك اليوم قطهوا ستين ميلاء واستراحوا قى قلعة باليان في نبلس. وفى صباح يوم ثلاثين» حين قرر باليان البقاء فى داره وتنظيم شئونه, أرسل رئيس الأساقفة والمعلمين قبله؛ ورتبوا أن يلتقوا على بعد خمسين ميلا إلى الجنوب عند قلعة لافيف. وفى المساء كان باليان مستعدا للسفر؛ وانطلق هو وأرول فى وقت متأخرء وكانا يقصدان السفر طوال الليل. ولكن حين كانا يمران بالسامرة: تذكر باليان موعدا: ذلك أن الصباح التالى» ١ مايى هو عيد القديس فيليب والقديس جيمز. فقرر التوقف فى دار أقرب أسقف والاحتفال بالقداس فى الصباح. 110

وبعد الفجر بقليل فى يوم الفيد. واصل المسير مع أرول. ووصلا إلى لافيف
عند الضحىء وسرهما رؤية خيام فرسان الهيكل منصوبة أمام أسوار القلعة؛ ولكن حين
اقتريا أحسا بأن هناك خطأ ماء إذ خيم الصمت على كل شىء. ففتشا الخيام وكانت
جميها خالية. فدخل أرول القلعة وفتشها - وكانت أيضا خالية. إن لم يكن فى المبتى
كله سوى جنديين فقط؛ متمدديين فى أحد الأدوار العلياء وفى حالة من الإعياء حتى
أنهما لم يتمكنا من الكلام. فى القلعة لمدة ساعتين إذ لم يكونا يدريان ماذا يفعلان غير
ذلك؛ وهما فى حالة من الحيرة والقلق؛ ثم انطلقا فى الطريق مرة أخرى. وفى الطريق
إلى الناصرة التقيا فجأة بفارس واحد وحيد - أحد فرسان الهيكل» جريحا ينزف دما.
وحين اقترب كل منهم من الآخرء صاح باليان: ما الخبر” فأجاب الفارس "الأخبار
سيئة" وهناك فى الطريق الترابى: علما بمأ جرى. فى الليلة السابقة» فى قرابة الوقت
الذى كان باليان وارول يخرجان فيه من تلش فصل ركس الأساقفة والطماق نش لاقيف
حي وسطلتهم رتساقة من رومون: تقول الرسالة إن صلاح الدين طلب إذنا من ريمون
كى يعبر ابنه أرض الكونت فى رحلة استطلاعية لفلسطين. فاضطر ريمون إلى الموافقة
التزاما بمعاهدته؛ لكنه وضع شرطا بألا يدخل المسلمون أرضه قبل فجر ١ مايوء وأن
يخرجوا قبل حلول الليل دون إلحاق أى أذى بأى من مدنه أى قراه. وتم تحذير أهل
البلاد من الزيارة» وأمرهم ريمون بالبقاء داخل دورهم, حتى لا يصيبهم سوء.
واشتملت رسالة ريمون إلى رئيس الأساقفة والمعلمين على النصيحة نفسها؛ فاتبعها
رئيس الأساقفة ومعلم الإسبتاليين, روجى دى مولان. أما جيرار دى ريدفور فلم يفعل.
واستدعى مارشال الهيكل جاك دى ميلى من قرية قريبة» كى ينضم إليه ويحضر جميع
إخوانه معه. وأطاع دى ميلى الأمر, ووصل إلي لاقيف ومعه تسعون فاريسا من فرسان
الهيكل - وكانت خيمتهم تلك التى فتشها باليان وأرول دون جدوى. 171

فى ذلك الصباح: حين كان باليان يحضر القداسء كان فرسان الهيكل قد غادروا لافيف. وتوقف رئيس الأساقفة فى الناصرة؛ واستمر المعلمان والإخوانء والمرشال» يدعمهم أريعون من الفرسان من غير الجماعات الدينية. اهتم الجميع برسالة ريمون؛ فيما عدا مائة وثلاثة وثلاثين فارساء وكانت الطرق خالية. اتجهت المجموعة على ظهور الخيول مسافة قصيرة يعد الناصرة: ثم وهم يصعدون أحد التلال» شاهدوا قوة الاستطلاع الإسلامية فى أسفل. وكانوا سبعة آلاف. ويمبادرة من أحد فرسان الهيكلء أقسم على ألا ينسحب ما لم تكن المجموعة أمامه أكثر من ثلاثة إلى واحد. وهناء عند ينابيع كريسون, كانوا ثلاثة وخمسين إلى واحد؛ فلم ير جاك دى ميلى وروجى دى مولان أى جدوى من مواجهتهم وقالا ذلك. أما جيرار فأبى الانسحاب. وأدار ظهره بغضب إلى روجىء ونظر إلى جاكء وهى طويل أشقر يمتطى جوادا أبيضء وقال هازئا؛ "إتك تحب رأسك الشقراء حبا جما حتى لا ترغب فى فقدها.” فرد جاكء "إنى أموت فى المعركة كما ينبغى لرجل شجاع, إنه أنت من ستفر كما يفر الخائن . وحين أثار كل منهما ما وجه الآخر له من إهانات, نزلا بالجيش إلى المعركة اليائسة. وتحمققت كلمات جاك دى ميلى: فمن بين المجموعة المكونة من مائة وثلاثة وثلاثين رجلا لم يهرب سوى ثلاثة - كان دى ريدفور من بينهم. وكان دى ميلى آخر من سقط. ذلك أنه قاتل كشيطان - أو كملاك. عندئذ كان من الشائع لدى الفرنجة أن يروا القديس جورج يقاتل إلى جانبهم فى انتصاراتهم» وهى اعتقاد كان المسلمون يعلمونه. أما بالنسبة لفرسان الهيكل. فقد كان غائئيا فى كريسون؛ ولكن حين رأى المسلمون مظهر ميلىء وما تحلى به من شجاعة, اعتقدوا حين أسقطوه أنهم قتلوا القديس المسيحي المحارب. بالنسبة للفرنجة؛ لم تكن لهذه المذبحة سوى نتيجة بناءة واحدة: إذ سلم ريمون نفسه لجى» حين رأى فطاعة الذنب الذى اقترفه يسبب المعاهدة التى عقدها مع صلاح الدين: وسلم نقسه دون تردد. ذلك أنه شهد أدلة بشعة على المذيحة» فبعد 12

ظهيرة ١ مايى. حين التقى باليان وأرول بالفارس المحارب. كان ريمون فى طبرية يراقب عودة دورية المسلمين. وكان يعلم أنهم حافظوا على كلمتهم: فلم تضار مدينة ولا قرية ولا مبيني. غير أنه استطاع أن يرى رءوس فرسان الهيكل معلقة على رماحهم. على الأقل؛ - أخيرا؛ وفى آخر لحظة كان هناك ما يشبه الوحدة فى المملكة. وفى مايو مرت قافلة حجاج من الكرك؛ هذه المرة لم يجرؤ رينولد على المساس بهاء لأن من بها كانوا يشملون أخت صلاح الدين وابنهاء وكان صلاح الدين بنفسه على رأس الحراسة المصاحبة. وفى نفس الوقتء كانت الجيوش من جميع أنحاء إمبراطوريته تتجمع شرق بحر الجليل. واستعد المسيحيون كأفضل ما يكون الاستعدادء وفى نهاية يوليه كانوا قد جمعوا ما يقرب من ثلاثة عشر أنفًا من الرجال: عشرة آلاف من الجتود المشاة, ونحو ألفين من الفرسان, وألف ومائتين من الفرسان. وقدمت الجماعتان العسكريتان كل ما استطاعتا, محتفظتين فقط بحاميتين هيكليتين فى حصونهما. بالإضافة إلى ذلك قدم فرسان الهيكل لجى نصيبهم من الأموال التى تم تلقيها من هنرى الثانى ملك إنجلتراء - والجنود الذين دفعت لهم الأموال من هذه كانوا يصملون سلاح إنجلترا. وكان يفترض أن يكون هيراكليوس على رأس الحجيش يحمل الصليب الحقيقى باعتباره البطريارك والزعيم الروحي, لكن كان من المناسب له أن يمرض» فاضطر أن يعطى الصليب لأسقف عكا. وكان معظم الناس يعتقدون أنه فى واقع الأمر, كان يلهو مع عشيقته. ولم يكن أمام الجيش المسيحى وقت يضيعه؛ فصلاح الدين مستعدء وهو الذى طلب المواجهة. وفى 51 يونيه. استعرض جيشه؛ وقسمه إلى ثلاثة أقسام وكان هو فى المنتصف. فى ترتيب المعركة قاد رجاله إلى جنوب بحر الجليل. وفى ١ يوليه, عبروا نهر الأردن. وفى »” يوليه سقطت مدينة طبرية؛ لكن القلعة التى كانت تقودها زوجة ريمون. صمدت,. وأرسلت رسالة إلى زوجها فى معسكر الملك فى عكا. 173

لقد كان الجيش الملكى بالفعل يتحرك. وفى اجتماع مع الملك» كان الكونت ريمون قد نصح باتباع الحذر واتباع استراتيجية دفاعية: كانت حرارة الصيق بالفعل لا تطاق؛ والأرض عطشى. - ولكن بالنسبة للجيل الثائث من الفرنجة. كان ذلك أمرا مالوفًا؛ ولم يكن صصلاح الدين يعلم ذلك؛ وإذا أمكن تحاشى الممركة فسإن الطقس والأرض يمكن أن تعمل نلصائح الفرنجة. إذن كانت نصيحة ريمون سليمة: لكن خيانته كانت قريبة العهد جدا. فاتهمه رينولد دى شاتيون ودى ريدفور بالجين والغدر؛ وكانت العاطفة لدى الملك جي تتغلب على العقل. فأمر بهجوم عام. وفى أصيل " يوليه. كان الجيش الملكي يعسكر فى سفورياء وهو مكان جيد الرى ويه الكثير من المراعى» فى منتصف الطريق بين عكا وطبرية» وعلى بعد ثلاثة أميال من كريسون. وهناك وجدهم المرسال القادم من طبرية. وأنباؤه الآتية من سيدة فى حالة من الكدر. مست الفرسان الذين يتسمون بالشهامة؛ وكان رد الفعل العام هى إقامة المعسكر على الفور والذهاب لتقديم العون. ولم ينشق سوى صوت واحدء كان صوت ريمون دون كل الناس. مع أن طبرية هى مدينته؛ وزوجته معرضة للخطرء وقال إنه يفضل أن يخسرهم جميعا على أن يضحى بال مملكة, - لأنه» توقع أن تكون هذه هى النتيجة لو ترك الجيش موقعه القوى. قى هذه المرة ساد عقله والمثال الذى ضريه؛ واتخذ القرار بالبقاء فى سيفورياء واستراح الجيش فى نلك الليلة. ثم حين هدأ كل شىء. عاد دى ريدفور إلى خيمة الملك. ومرة أخرى اتهم ريمون بالخيانة. إن طبرية تبعد ست قصبات وإن خسارتها ستكون عارا على المسيحيينء وأنه هو وإخوانه يفضلون بيع عياءاتهم البيضاء على أن يدعوا مدينة مسيحية تسقط بهذه السهولة. وحين سمع جى ذلك» غير رأيه حتما. وصدر أمر جديد: ليخرج الجيش إلى طبرية فى الصباح التالى. وجاء القجر سريعا فى ؟ يولية إنه قجر منتصف صيف والهواء. حار وجاف وساكن. وبشكل ماء ما إن طلع الفجر. حتى خمن صلاح الدين - أو علم - بأمر الملك. ربما غادر خونة حقيقيون ممسكر جى تحت جنح الظلام. فبينما كان جيش الملك يغادر المياه والمروج فى سفورياء عبأ المسلمون وتحركوا عشرة أميال إلى الشمال الغربى, مباشرة بين الفرنجة وطبرية. وتوقفوا عند قرية صغيرة تسمى حطين. 1/4

الأرض هناك تنحدر بسرعة بعيدة من الفرب إلى الشرق. ويؤدى السهل الغربى العظيم إلى تل صخرى ذى قمتين, ارتفاعه مائة قدم؛ يسمى "قرون حطين. وتبعد قرية حطين أقل من ميل عن القرون لكنها تقع تحتها بست مائة قدم؛ أما بحر الجليل؛ الذى يبعد خمسة أميال؛ فينخفض بمائة قدم أخرى. وحطين مثل سفوريا بها الكثير من المراعى والماء. لذا تمكن صلاح الدين من الاستراحة وأنعاش رجاله وخيله؛ لكنه كان يخاطر مخاطرة كبيرة. إذ لم يكن جيش جى أصفر كثيرا من جيشه. ومن شأن الهزيمة هناك أن تجيره على التقهقر أسفل التل نحو البحر. ومع ذلك: كانت مخاطرة محسوبية: ذلك أنه بين سقوريا وحطين السهل الغريى جاف كالفظمة. ويثيغى على الجيش المسيحى أن يسير عبره مسافة اثتى عشر ميلاء بالدروع» وتحت الصرارة اللافحة, لشمس منتصف الصيف. وقال أحد المسلمين "بدو وكأنهم جبال تسير وبحار تغلى؛ على موجة ... والهواء حار والضوء معتم» والسهل استحال إلى غبارء فتعلق المصير قوق رءوبسهم" . وحين كان الفرنجة يتقدمون: خرحت عليهم تجريدات رأكبة من الرماة» من معسكر المسلمين. وكان الكونت ريمون قد تولى قيادة طليعة الفرنجة؛ وركب معه باليان وارول. وتولى جى الوسط؛ أما فرسان الهيكل فكانوا قى المؤضرة. وكان الطريق من الحجر الجيرىء الذى يلمع باللون الأبيضء بلا ظل أو ماء. وأحاط الرماة المسلمون بالفرنجة, يعملون فيهم القنل. مركزين على فرسان الهيكل ويضفطون عليهم بشدة جعلتهم يكادون ينعزلون عن بقية الجيش الملكى. وحين قطع الجيش عشرة أميال كان كل فرد من أفراده قد أنهك. وهدّه العطشء ولفحته الشمسء وأثقلته الدروع وقيد الرماة شركته: فتموجى بالتوقف: وحين ستمع ريبمون الآمر ضاخ وا احسرتا! يا إلهى» اتتهت الحرب! إنا هالكون. والمملكة قد قضى عليها". وكان هو وحده يعلم بإمكان وجؤد بثرء فى لوبية» على المنحدرات الجنوبية لقرون حطين؛ فجرجر الجيش الملكى نقسه إلى الأمام قليلاء لكن البثر كانت جافة. 175

ولم يتمكنوا من الاستمرار؛ لا ولم يتمكنوا من التقهقر. فأقاموا المعسكر بالقرب من البئّر الجافة, دون مرعى لأخيلء ولا مياه لأى مخلوق, إنسانًا كان أو حيواناء وجفت حلوق الرجال حتى أنهم لا يكادون يأكلون. وطوال الوقت؛ كان جيش صلاح الدين فى كان الليل مسيقا للجحيمء بما فيه من حرارة وذعر. وتحت جنح الظلام أحاط المسلمون بالفرنجة, وأشعلوا النار فى العشب الجافء وجزوع الشجر. ومع مقدم استطاع الفرنجة أن يسمعوا ويروا المسلمين وهم يغنون ويصلون بصوت مرتفع؛ وتحمل أرول هذا كله. وحين جاء الصباح أخيرا - السيت 6 يولية - رأى مقدار إحاطة المسلمين» ورأى أن القطة ذاتها على صغفرقا لا يمكنها النفاذ. ولكن بعيدا, أسفل كان يمر الجليل بادياء يلمع تحت الشمس الساطعة. فدفع منظر كل هذا الماء الكثير بمشاة الفرنجة إلى اليأس: فشقوا الصقوف واندفعوا نحو دائرة المسلمين قى هجوم مميث. كان المسلمون مستريحين» ومندتعشين نشطاء. وجيدى التسليح: كانت لدى كل رجل جعبة كاملة من السهام؛ وحمل سبعين جعلاً من السهام فى انتظار استعمالها لتزويد الجنود. ولم يتمكن أحد من مشأة الفرنجة من النفان. بدأ هجوم المسلمين بسحابة من السهام "كأسراب كثيفة من الجراد" وقتل الكثير من جياد الفرنجة, فى الهجوم الأول الكبيرء والفارس بلا جوادء فارس بلا حراك. ومع ذلك: وعلى الرغم من العطش والحرارة والدخان الذى لا زال يتصاعد من الجزوع المحترقة, فإن القرنجة قاتلوا بشراسة. "اشتعلوا ولمعوا فى عذاب وجنون" كما كتب أحد المسلمين: 'لكن حين كانت السهام تسقطهم صار من بدوا كأسود مجرد قنافذ' . ومع موت وعجز المشاة عن الحركة التجأ الفرسان إلى قرون حطين. وحين أحكم المسلمون الخناق» أمر جى ريمون بانتهاز الفرصة الأخيرة والقيام بهجوم مباشر في حين يتجمع هو ومن تبقى من القرسان حول الصليب الحقيقي. وكان القسم الذى 176

هاجمه ريمون بقيادة ابن أخت صلاح الدين الذى رد يتكتيك كلاسيكى حين
رأى هذا التحرك إذ إنه تراجع وترك الفرنجة يمرون: ثم ضم الصفوف. فأصبح هجوم
ريمون عديم الفاءلية بل أسوا من ذلك: الآن انشطربظ قوة الفرنجة» ولم يبق أمام
ريمون سوى التقهقر فى اتجاه طربلس. وانفصل باليان وأرول بعد ذلك بوقت قصير مع
ريجيناد حاكم صيدة؛ ويعد ذلك لم يهرب أحد. وعلى القرون قام جى ومائة وخمسون
من الفرسان الآخرين بوقفتهم الآخيرة. وفى وسطهم خيمة الملك الحمراء والصليب
الحقيقى. وكان اين صلاح الدين البالغ من العمر ست عشرة سنة فى الجيش: وقال 'لقد
كانت أولى معاركى. وكنت إلى جانب أبي. وحين تراجع ملك الفرنجة إلى التل؛ قام
فرسانه بهجوم جرىء, ودفعوا بالمسلمين إلى الخلف نحو أبى. فلاحظت غضببه - إذ
تغير لونه. وجذب لحيته وأإندفع إلى الأمامء وهو يصيح: "أسقطوا الشيطان!" فانهال
رجالنا على العدو, الذى تراجع صاعدا التل. وحين رأيت الفرنجة يفرون والمسلمين
يلاحقونهم. صحت فى حبور: لقد قضمينا عليهم"' لكن الفرنجة عاودوا الهجومء
وأزاحوا رجالنا مرة أخرى إلى حيث يوجد أبى. فحثهم مرة أخيء إلى التقدم, فدفعوا
العنى فى أعلى التل. وصحت مرة أخرى: "لقد قضينا عليهم؛" لكن أبى استدار إلى
وقال: "اصمت! - نحن لم نهزمهم ما دامت هذه الخيمة قائمة هناك!' وفى تلك اللحظة
انقلبت الخيمة. ثم ترجل أبى وجثا على الأرضء يحمد الله. ودموع الفرح وكسان
مندوب هيراكليوس من بين الموتى» وهو أس قف عكا الذى كان يصمل الصليب
الحقيقي. وكان يفترض أن يكون حامله بلا سلاح أو درع؛ لكنه كان يرتدى سترة
معدنية تحت ملابسه. قرأى المسيحيونء بعد ذلك: هذا على أنه نموذج على الافتقار
الشامل للإيمان, وهو سبب الكارثة. من الصعب علينا الآن أن نفهم ما فى الحرب يدا
بيد فى العصور الوسطى من بشاعة ورعب؛ ولكن بعد حطينء ساد الخطاب الإسلامي»
فى شماتة وسعادة بما تم من عمل فى ذلك اليوم. 177

ألقيت ضلوع من سقطوا عارية, فى هيدان القتال؛ متنائرة أشلاء على“
موقع النزال مقطعة وممزقة. وانشقت الرء وسء وانشطرت الحلوق؛ وقسمت الظهورء
وكسرت الأعناق. وصارت الأقدام أشلاء. وشوهت الأنوفء وبترت الأطرافء وتشوهت
الأعضاء وتطايرت الأجزاء. وقلعت العيون» وخرجت الأحشاء, وصار الشعر بلون الدم:
وقطلعت الأضابع. واتكسرت الضلوع: وفككت المفاصلء وفشمت الصدونء واتقسمت
الأجساد نصفينء وسحقت الأذرعء وذبلت الشفاة؛ وثقبت الجباه.ء وصارت قرمزية
اللوَذر وتدَرْحَت الهو فى النساء واتشتعة السواعد: وكرت العظام وصرقت الثيابء
وفارقت الحياة الوجوهء وففرت الجراح فيها, وسلخت الجلود. وقطع الشعرء وانسلخ
الجلد عن الظهورء وخلعت الأسنان, وسالت الدماء؛ وخرجت آخر أنفاس الحياة: وتدلت
الأعناق: وسالت المقل» وعلقت الرء وس, وسحقت الأكباد. وهشمت الرء وسء
وأزهقت الآرواح» أشباحهم ذاتها حطمت؛ كحجارة بين حجارة: إنها لعبرة أن يعتبر".
فى تلك العبارة الأخيرة مفارقة كنيبة غير ذكية: فلم تكن هذه المعركة هى أول درس
يتعلمه المسيحيون فى حطين. إن تذكر بعض الكتب أن هذا التل ذا القمتين كان موقع
موعظة الجبل التى قالها المسيح. على الأقل لم يكن فى وسع الموتى معرفة عظم ما
لدق بهم من هزيمة. ولكن بالنسبة لمن نجواء وبالنسبة للبلاد المسيحية. لقد فقد شىء
أكبر من الهزيمة فى ميدان القتال فى حطين: ألا وهو الصليب الحقيقى: الذى تم
الاستيلاء عليه وجره فى التراب. وعش:خين أنتهت الغرب: الست الذبع: إذ ثم إحخيار
من تهوا من القرتجة: يما فنهم ما يربى على مائة من فرسان الهيكل والإسبتاليينء أمام
صلاح الدين. وتم بيع الفرسان من غير الجماعات الدينية كعبيد؛ ثم قطعت رأس فرسان
الجماعتين المقدستين واحدا واحدا أمام صلاح الدين. فى ذلك اليوم مات مائتان
وثلاثون من فرسان الهيكل منهم من أعدم ومنهم من قضى فى القتال؛ ولم ينقذ سوى
دى ريدفور, ومعه الملك جى: ومجموعة من البارونات ورينولد دى شاتيون. ذلك أن
الملك وريدفور 17

كانا رهينتين أثمن من أن يقتلا؛ والبرونات يمكنهم طقى فديات عنهم؛ وصلاح الدين كان قد أقسم على أن يقتل دى شاتيون بنفسه. فاقتيد دى شاتيونء ودى ريدقور والملك جي إلى خيمة صلاح الدين: بالقرب من ميدان القتال. وحياهم صلاح الدين جميها بكل أدب, وأمرهم بالجلوس والراحة؛ ثم قدم لجى كوبا من ماء الورد, المتلج بالجليد. وحسب العادات الإسلامية فإن تقديم الطعام أو الشراب يضمن الأمان لمتلقيه؛ فشر. جى شاكرا وأعطى الكوب لشاتيون. فقال صلاح الدين على الفور لمترجمه: "هذا الكافر لم يحصل على إذن منى بالشرابء وسوف ينقذ حياته بهذه الطريقة". ونهض صلاح الدين واقفا أمام رينولد وعدد خطاياه بغضب. ولكن لم يكن هناك أى شىء يمكته أن يجعل رينواد يحس بالخجلء فرد بوقاحة. فاستل صلاح الدين سيفه. ويحركة سريعة واحدة خلع رأس رينولد. فأخرس الذعر جى؛ ولكن حين تم سحب الجثة من الخيمة: استدار إليه صلاح الدين وقال: "أقسمت مرتين بأن أقتل ذلك الرجل: مرة حين حاول الهجوم على مكة والمدينة ومرة حين خرق الهدنة واستولى على القافلة؛ لكن الملك لا يقتل ملكا". وغادر حيش المسلمين ومعه رهائنه وعبيده ميدان القتال» بسرعة وبدءوا مسيرة طويلة في بقية فلسطين: كانت مسيرة أشبه بموكب النصر منها إلى الحملة الحربية. وفي ٠ يولية» بعد حطين بيوم: استسلمت طبرية؛ وأعطيت زوجة ريمون وأهل بيتهاء مرورا أمنا إلى طريلس. وفى اليوم العاشر سقطت عكا؛ وتبلاس فى اليوم الرابع عشر؛ ويافغا فى العشرين؛ وتورون فى اليوم الرابع والعشرين؛ وصيدة فى التاسع والعشرين؛ وبيروت فى السادس من أغسطس؛ أما عسقلان ففى الرابع من سبتمبر. ومع مقدم منتصف سبتمبر لم تكن هناك ممتلكات للفرنجة جنوب طريلس سوى بضعة قلاع وميناء صور والقدس نفسها. وكانت صور على شبه جزيرةء لا يربيطها بالساحل سوى شريط ضيق من الأرض؛ وقد هرب إلى هناك جميع اليارونات المهزومين: وأقاموا دفاعا قويا. أما القدسء فلم يكن بها سوى فارسين؛ لكنهم رفضوا أن يتركوا المدينة تضيع. مع أن صلاح الدين وعدهم بالحياة والحرية. وكان من بين 179

اللاجئين الذين اكتظوا فى المدينة المقدسة زوجة باليان حاكم أبين وأبناؤه'
أما باليان نفسه فكان قد ذهب إلى صور. وطلب من صلاح الدين السماح له بالمرور الآمن كى يحضر أسرته إلى صورء فسمح له بذلك: بشرط ألا يحمل أى سلاح. وألا يقيم سوى ليلة واحدة في القدس. ووافق باليان يحسين نية؛ وذهب إلى القدس مع أرول؛ ولكن ما إن أصبح هناك حتى كان من المستحيل عليه أن يحفظ قسمه: إذ إن المواطثين ببساطة رفضوا أن يدعوه يرحل. وكان ذلك أمرا محرجا بالنسبة لرجل شريفء فكتب باليان إلى صلاح الدين شارحا سبب خرقه لوعده؛ فحله صلاح الدين» كدأبه. من قسمه, وقدم حراسة تصحب أسرته. ذلك أن مثل هذه الإيماءة على أهميتها لم تكلف صلاح الدين شيئًاء لأن الجميع كانوا يعلمون أن القدس مآلها إلى السقوط؛ فكان ذلك نبلاً خالصاء وعطفًا لاضرورة له. وبدأ حصار المدينة المقدسة فى ؟ سبتمبر. وفى > أكتويرء ذكرى صعود النبى محمد إلى السماءء (يقصد الإسراء والمعراج) كتب أحد فرسان الهيكل يدعى تيريك إلى هنرى الثانى» ملك إنجلترا: "وا حسرتاة! لقد سقطت القدس. وأمر صلاح الدين بأن يتم إنزال الصليب من قمة هيكل الربء وأن يحمل لمدة يومين فى المدينة» ويضرب بالعصى. ويعد ذلك أمر بأن يفسل الهيكل بماء الورد» من الداخل والخارج ومن أعلى إلى أسفل". قبل ذلك بثلاثين سنة فحسبء زار مدينة القدس حج ألمانى اسمه جون فورتسبورج. وقال إن المبانى التى يمتلكها فرسان الهيكل عبارة عن مدينة داخل المديتة» وحصن داخل الحصن؛ وكانت الإسطبلات من الاتساع بحيث إنها كان بها ما يزيد على ألف وخمسمائة من الجمالء؛ أو ما يربى على ألفى حصان. وكانت قاعة طعامهم قاعة واسعة مسقوفة: لا تزينها سوى غنائم الحرب - من سيوف وخوزات ومعاطف واقية أخذت من العدو. فتجولت القطط والكلاب فوق الأرضية التى انتشر عليها ورق الشجر الجاف. وكانت عنابر نوم الإخوان غرفًا صغيرة مؤثثة بفراش, ومقعد وصندوق مفتوح لكل فرد منهم. م_م

وفى الخارج هناك حجرات تخزين مسامير الألجمة وفرن صهر المعادن»
ومصنع الدروع: وورش الحائك والإسكافى والمخازن والمخبزء والمطابخ وأقبية
الخمور. ومخازن العلف - المحفورة فى الصخور الطبيعية ومسلخ الحيوانات. فى خلال
أسبوع واحد من الفتح الإسلامي: تغير ذلك كله لأن صلاح الدين يذل جهود خاصة
لإزالة جميع آثار فرسان الهيكل. وفى يوم الجمعة, ؛ أكتوير. بعد تنظييف وتطهير
المسجد الأقصبى صلى هناك؛ ثم بدأ فى التخلص ممن نجوا من الحصصار. ولا يمكن أن
يكون هناك نقيض أكبر من هذا مع تصرف القرنجة عام 46 إذ كان لا بزال هناك ما يريد
على عشرين أثفا من المسيحيين على قيد الحياة؛ تم أفتداء سبعة آلاف بالمال من
الخزانة الملكية والجماعتين العسكريتينء وتم الإفراج ببساطة عن ألق ومائتين؛ ويقى
الممسيحيون من أهل البلاد فى القدس. أما أولتك الفرنجة الذين لم يتمكنوا من دفع
القدية - وكاتوا عدة آلاف - فقد صارو) عبيدا؛ ولكن لم يقتل أحد. لى أن هيراكليوس
أحسن التصرفء ريما لم يكن هناك عبيد مطلقا؛ لكن الأخلاق لم يكن لها دور كبير فى
حياته. ذلك أنه دفع فديته من عشرة آلاف قطعة ذهبية وغادر المدينة» مما أثار
أشمئزاز المسلمين والمسيحيين على حد سواء. مثقلا بعبء حقيبة مملؤة بالذهب»
ويقود قافلة من العربات المجملة بالبسطء وغير ذلك. ولا يعرف أحد ماذا جرى له بعد
ذلك؛ ويكقي تعليق فولر تيرس: "لقد عاش عيشة ملؤها الرذيلة» ومات مغمورا"".
ابتداء من معركة حطين حتى سقوط القدس, استفرق فتح فلسطين اثنى عشر أسبوعا
وستة أيام. ولم تتبق سوى صور؛ إذ إن صلاح الدين افترض أنها سوف تقع بسهولة كما
وقعت بقية المدن» فلم يعبأ بالاستيلاء عليها فى وقت مبكر. ومما أذهله كما أذهل
الفرنجة أن الوقت كان قد تآخر كثيرا . ففى منتصف بوليه. بعد حطين بعشرة أيام؛
كان الميناء على استعداد للاستلام؛ ثم أبحرت سفينة إلى الداخل: حاملة كونراد: مركيز
دئى' مونقراء وشقيق زوج الملكة سيبيلاء من زواجها الأول. وتولى على الفور الدفاع
عن المدينة. وشغل جيش المسلمين بالفنائم الأكثر سهولة. 151

وفى نوفمبرء بعد أن أخضع صلاح الدين بقية البلاد. عاد إلى أسوار صور؛
لكنها حينذاك كانت قد قويت كثيراء وأصبحت المدينة جيدة التنظيم» فلم يتمكن
المسلمون من اقتحامها. وفى يوم من العام الجديد, »1١44 رفع صلاح الدين الحصار
الثانى عن صورء وعاد بجيشه إلى الداخل. لقد بدأ عام 1141 بالخيانة والدسائس فى
بلاد ما وراء البحر. وفى نهايته لم يتبق شىء من مملكة القدس اللاتينية؛ لا شىء سوى
عظام جافة متناثرة فى أنحاء قرون حطين - وميناء واحد عبارة عن شبه جزيرة.
بالنسية للمسلمين, لم تكن صور سوى مجرد مصدر ضئيل للإزعاج؛ أما بالنسبة للفرنجة,
فكانت الصخرة الأخيرة, والأمل الوحيد. 1_2

الفصل الثامن قلب الأسد قبرص والأراضى المقدسة. ١١9 - 1١149 ليس
للموتى ولا للسجناء أصدقاء ولا أقارب ريتشارد قلب الأسد, في أسره. مع تفكك
فلسطين الإفرنجية فى خريف عام 11417١ تجمع فرسان الهيكل الذين تم اجتياح
أراضيهم فى صور. وكان تيريك من بينهم. وهى الذى كان قد كتب إلى هنرى الثانى
ملك إنجلترا!؛ إذ كان هو مدير الهيكل فى القدسء وفى أثناء أسر دى ريدفور تونثى
مسئولية الجماعة. وفى صورء تعاون مع كونراد دى موثفيراء إذ كان يشهد على الوثائق
القانونية» وينظم دفاعات المدينة» ويقوم بكتابة مناشدات حادة إلى الغرب. وبدا أنه
يعمل بشكل جيد مع ريدفور - عمومًاء لم نجد انتقادا من أيهما للآخر. ذلك أن الوضع
الذى وجدا نفسيهما فيه يتطلب التعاون؛ غير أن العلاقة الجيدة لم تدم. ذلك أن ريدفور
عاد فى أوائل عام ١١44 إلى فرض إرائته على فرسان الهيكل مرة أخرى؛ إذ كان قد نال
حريته بعد أن أمر إخوانه فى غزة بتسليم القلعة لصلاح الدين. وفى يولية, تم إطلاق
صراح جى دى لوزينيان أيضا. وبعد ذلك بوقت قصيرء كتب كونراد لرئيس أساقفة
كنتربرى. ويبين خطابه الأثر الذى كان يتمتع به جى ودى ريدفور. 153

إن قال: "إنك تعلم ماذا تكلفت كى أدافع عن المسيحيين فى صور؛ ولأنى أكافح كى أحتفظ بهم هناك, فإن دى لوزينيانء الملك السابق يهاجمنى هو وباروناته ومعلم الهيكل: وهم لا يكتفون بتلطيخ سمعتيء والقدح فى شرفىء بل يعترضون المساعدة الضرورية بالنسبة لى؛ والأسوأ من ذلك أن دى ريدقور استولي على صدقات ملك إنجلترا؛ ويرفض أن يعطيها لى". لم يكن التعليق الأخير حقيقيًاء ذلك أن فرسان الهيكل كانوا قد أنققوا جميع حصتهم من صدقات هنرى فى الأعداد لحطين: وفى الفديات فى القدس - مع أنه من الجائز جدا أن يكون دى ريدفور قد ادعىء ببساطة من قبيل الحقد, أن الأموال لا زالت موجودة: ويتم حجبها. لكن بقية الشكوى كانت صادقا؛ وأهم ما فيها عبارة "الملك السابق". إذ كان جى يظن أنه؛ طالما كان ملكا ذات مرةء فهو ملك دائماء لذا فحين تم إطلاق صراحه ذهب رأكبا إلى صور, كى يتحكم فيما تبقى من مملكته. ومهما يكن من أمرء فإن كونراد كان يعلم أنه يحسن التصرف بشكل أفضل من جىء ورفض التخلى عن السلطة: بل رفض السماح نجى بدخول المدينة. ولمدة عام كامل؛ ظل الملك الشرعي غير قادر على الحكم؛ ويدون كونراد كان من الممكن فتح المملكة. وكان كونراد يعتبر أن جى فقد حقه فى الحكم؛ وأن العرش خال. فى انتظار كتابة اسم كونراد عليه. وكان فى ذلك ما يكفى لإحياء المناقسة القديمة؛ فعظام رينولد دى شاتيون ترقد فى حطين, ويقال إن ريمون من طريلس مات خجلاء ولكن فرسان الهيكل بقيادة دى ريدفور ما يزالون يدعمون جىء وكان أهل صور عندئذ قانعين بكوتراد. ويدا لهم أن جى لم يكن قط ملكا محظوظاء ومما زاد من فداحة الانشقاق انتشار شائعات بأن دى ريدفور وعد صلاح الدين بأته سوف يعتنق الإسلام. ولم ينتظر جى طويلا مع انفلاق بوابات المدينة فى وجهه؛ ولكن بعد قضاء الشتاء فى طريلس» عاد إلى صور فى ربيع عام ١١45 وجدد مطالباته. ولما تم تجاهله ورفضه كما حدث من قبل أقام معسكرا خارج آسوار المدينة. وفى نفس الوقت تقريباء وصل أسطول من بيزا يتكون من خمس وخمسين سفينة» وهذا يعد دعما مهما لكونراد؛ ذلك 14

أن المساعدة الوحيدة التى جاته من الغرب كانت كتيبة من صقلية فى العام
السابق. وبقى جى أمام المدينة لمدة أربعة أشهر عديمة الفائدة, وفجأة فى نهاية أغسطس نفد صبرهه: ورحل - آخذا دى ريدفور معه. وكذلك فرسان الهيكل والأسطول البيزى والصقليين. ولما كان البعض يباركون كوتراد كمخلصء ويلعنه البعض الآخر كقاصب» لم يكن فى وسعه فعل أى شىء سوى مراقبتهم وهم يرحلونء ثم يكتب شكواه المريرة. وكان جى قد قرر الذهاب إلى عكا. وعكا شأنها شأن صورء كانت مبنية على شبه جزيرة؛ لكنها تختلف عن عكا من حيث إن المسلمين كانوا يستولون عليها. لكن جى الذى كان لديه أسطول كبير يحاصر به اتجاه البحرء وجيش يغطى اقتراب الأرض»: أعتقد أنه يستطيع محاصرة المدينة والاستيلاء عليها. وكان قراره إيماءة تحدى كبيرة وشجاعة فى وجه كونراد؛ فهو كملك بلا مملكة لم يكن لديه الكثير الذى يخسرهء سوى حياته. أما النجاح فى عكا فمن شأنه أن يقدم.له قاعدة مناسبة؛ ومصداقية لم يتمتع بها من قبل. من المؤكد أنه شجاع, لكنه أيضًا متهورء ذلك أن جى كان يعول على انشغال صلاح الدين فى مكان آخر. أن كل شىء فى هذا القرار - بما فى ذلك من تهور وافتقار واضح إلى التفكير يوحى بأن من زرعه فى عقل جى: هو حليفه الميقرى الشرير دى ريدفور. ذلك أن دى ريدقور المهووسء المتصلبء الخالى من التعقل؛ ريما ظن فى ذلك الوقت بأنه باعتباره معلم ميليشيا الرب يحمل تعويذة للحياة. فالحظ؛ من قبل: كان يدفع به إلى الأمام - فى كريسون؛ وفى حطين: وفى سجنه. أما فى هذه المرة فقد خذله. لقد بدأ حصار عكا فى 17؟ أغسطس. وكادت المدينة تسقط تحت الصدمة الأولى؛ غير أن الفرنجة لم تكن لديهم آلات حمصارء فلم يتمكنوا من تأكيد الميزة التى أتيحت لهم. وكان الأمل فى ألا يعير صلاح الدين أى اهتمام ضصريا من ضروب الجنون. فكان هناك فى خلال اسبوع.: والفرنجة:. الذين يحيطون بعكا برا وبحراء كان خلفهم أيضًا جيش من المسلمين. وفى + أكتوبر اصطدم الجيشان. ولم يكن القتال حاسمًا؛ ولكن فى أثنائه. تم أسر دى ريدفور مرة أخرىء وألقى به فى ذ1,5

السجن مرة أخرى. ولم يعد. والجنون شىء نسبي؛ ويمكن تعريفه بأنه اقتناع طاغٌ يختلف عن الاعتقاد الذى يعتقده عامة الناس. وفى عصرناء الذى يفتقر إلى العقيدة الدافعة فى بلدان المسيحية فى العصور الوسطى يمكن أن تبدى قصة الحروب الصليبية بتكملها ضربا من الجنون - ذلك أن الكثير من الطاقة والجهد والكثير من الأرواح بددت على تلك القطعة الصغيرة من الأرض التى تسمى الأراضى المقدسة. أما بالنسبة لهمء لم يكن هذا جنونًاء لأنهم كانوا يمتقدون أن هذه الأرض مقدسة. ولكن دى ريدفورء آخر معلم منتخب لفرسان الهيكلء فى القدسء ريما كان مجنونا بالفعل. وما إن ولىء بدا أن حظ جئ يتغيرء ذلك أنه مع اقتراب الشتاء. مرض صلاح الدين» وسرح جزء من جيشه. وتراجع إلى الداخل مع من بقى. وعلى الرغم من أن المسلمين فى عكا دعموا دفاعاتهمء ولم يكن هناك أى تدخل مباشر متوقع من الغرب رفض إرسال رجال ضد الفرنجة فى الوقت الذى لا يمكنه فيه أن.يكون فى القيادة. وقال؛ "إذا لم أكن هناك مههم, لن يحققوا شيئًا مطلقاء وقد يضر ذلك أكثر مما يفيد". فحفر رجال جى الخنادق, وينوا تحصينات من الطين, واستعدو! لخنق عكا خنقا بطيئًا. لى أنهم عرفوا ما ستستغفرقه هذه العملية ريما لم يكونوا ليبدءوها أصلا؛ ذلك أنه حين وصلت الحرب الصليبية الجديدة بعد عامينء كانوا لا يزالون هناك. وكان الأورييون قد ألفوا منذ وقت طويل رفض الأنباء السيئة المعتادة, والتوقعات الأكثر سومًاء التى كانت تأتى من الأراضى المقدسة. وأخيرا كان للأنباء الفظيعة عن حطين أثرها - بلبلة مرتبكة من الندم. وكتب المؤرخ توماس فولر معلقا: القد انتحب الكرادلة نحيبا يفوق الوضفء مقسمين على إصلاح الأخلاق؛ وألا يتلقوا الرشى أبداء وألا بحيوا حياة الرذيلة؛ أجلء وألا يركبوا حصانا ما دامت الأرض المقدسة تحت أقدام الأتراك. غير أن هذا الانفعال تبدد بما فيه من عنقء واتتهى إيمان هؤلاء البحارة مع العاصقة". وفى أكتوير عام 41١1؛ وحتى قبل أن تصل أخبار القدس إلى روما؛ كان البابا 16

أوربا - خاصة هنرى الثانى» ملك إنجلتراء وفيليب أغسطس ملك فرنسا -
أصوات ضجيج عن التقوى والورع؛ بل إن هنرى قرر "عشور صلاح الدين' عبارة عن
ضريبة مقدارها عشرة فى المائة على دخل كل شخص من غير رجال الدين فى
مملكته, كى يدفع المال من أجل حرب صليبية. ونكن فى البداية لم يحدث الكثير غير
ذلك. إذ تم جمع المال بنجاحء مع أنه وقعت فضيحة حين صاح أحد فرسان الهيكل بأن
جيلبيرت من هوكستون حاول اختلاس المال الذى كان فى عهدته؛ ومع ذلك لم تقع
حرب صليبنة وكاق الشيب :هق الحرب كنية الذائمة ميخ إتولترا وفرسا؛ كانت قد
خسدت بعد الصدمة الأولى لسقوط القدسء ثم اشتعلت مرة أخرى بعد أشهر قليلة: هما
أبقى على اللكين داغل وطنيهما: ولكن ثمة شخص واحدا كان قد آخذ الصليب وقرى
أن يفى بقسمه: إنه كونت فرنسى صعب المراس يدعى ريشار من بويتى. ولقد أكسبته
رحلته إلى الأراضى المقدسة والأعمال التى قام بها هناك اسما جديدا: ريتشارد قلب
الأسد - ملك إنجلتر) . ومن المفارقة أن يصبح ريتشارد أحد أبطال إنجلترا الشعبيين:
ليس فقط لأنه لم يكد يعيش فى إنجلتراء بل كاد يجعل البلاد أقرب إلى الفقرء بل أنه
لم يكن يتكلم الإنجليزية. فى محاولة فهم ريتشارد ورد الفعل الشعبى الإنجليزى عليه -
وفى محاولة نى قن اللسند: د على لمزم أنهي قن المكانات بلاطيو التن ذازت حسولة
وأحاطت به. ذلك أن معظم هذه الحكايات خلقت بعد وفاته بأريعمائة سنة» فتم تكبير
الأحداث الحقيقية, كما الصقت أحداث خيالية. ذلك أن كتاب القصص الخيالية
استعاروا من الكثير من الحكايات عن الشخصيات الحقيقية, أو الأسطورية وأطلقوا
لأنفسهم العنان فى مقارنة ريتشارد بأبطالها - من أمثال شارلمان» ورولاند» وأرثرء
وردبين هود. وإذا ما تغلغل المرء فى هذه الزخارف, سوف يقف وجها لوجه أمام رجل
أقرب مواز له هو البارون اللص رينولد دى شاتيون. بل إنه لى توفر لدى رينولد بعض
الشاعرية داخل نفسه والقليل من الدعاية, لكان من الممكن أن يكون بطلا شعبيا مثل
ريتشارد, فأفعالهما متشابهة بشكل ملحوظ. أما الفروق, فأولاء كان دافع رينولد فى 1
7

المقام الأول هى الطمع, فى حين كانت أفعال ريتشارد بها قشرة سميكة من
الدين؛ وثانيًاء فإن ريتشاردء كملك أوربى. كان يتحكم فى جمهور أكبر من رينولد -
وهوء فوق ذلك جمهور بعيد بشكل مريح: عن موقع الأحداث؛ وهو أكثر ثقافة وتهذيبًا
عن جمهور رينولد؛ وهو مستعد للاحتفاء بأبطاله بالغناء والشعر والنثر. ولد فى إنجلترا
فى سبتمبر عام /1101: وكان ريتشارد هو الابن الثانى لهنرى الثاني ولينور من أكوتين
التى طلقها لويس الشاب ملك فرنسا عام ؟611 بعد عودته من الحرب الصليبية الثانية
عديمة الجدوى. ونشأ ريتشارد فرنسيا أكثر منه إنجليزيا: إذ كان يعيش فى بلاط أمه
فى بواتيىء ويتعلم مثله. وكان. كرجل» تجسيدا لهذه المثل - إذ كان طويلاء قويا
وأتيقاء له شعر أحمر ذهبى؛ وكان جم الطاقة؛ وفارسا ممتازاء يتقن استخدام السيف؛
كما كان سريع الانفعال, لكن تسهل تهدئته - خاصة بواسطة الذهب؛ وكان قائد معركة
من الطراز الأول شهما مع النساء وشاعرا جميلا فى البلاط. أى أنه كان تجسيدا لعصره.
وتعد مصادر شهرته فى الفرووسية والشهامة الرومنسية أقرب إلى فرنجة فرنسا
وإنجلترا منها إلى فرنجة فلسطين. ذلك أن مشكلات فلسطين أكثر إلحاحا من العثور
على قافية للغناء؛ بالإضافة إلى ذلك؛ فإن تصف مغفامرات ريتشارد حدثت خارج
الأراضى المقدسة: فى رحلاته إلى هناك والعودة منها. إذ مرت أربع سنوات بين تلقيه
الصليب ووصوله إلى عكا. بالتسبة للبلاط الرومانئسى فى بواتيىء: فإن الصليبى
الكامل» الذى كان فى وقت من الأوقات يعد نموذجه فارس الهيكل الورع المتقشف, بدأ
الآن قديم الطراز قليلاء ولكن إذا ما قام الرجل ببعض الفتوحات العارضة فى طريقه؛
وهو ذاهب لمقاتلة الكفارء عندئذ. يكون ذلك أفضل. أما بالنسبة للإنجليز, فكان الأمر لا
يزال أكثر يساطة, ذلك أنهم, حتى فى ذلك الوقت كان لديهم إحساس متطور بالقومية.
وقد يكون ريتشارد نصف إنجليزى بالمولد. وتقريبا فرنسيا كله بالتربية؛ غير أن هذا لم
يكن مهما؛ إذ إن تتويجه جعله إنجليزيا كله. وجعل من شخصيته مثالا "لجميع فرسان
إنجلترا البواسل", حتى ذلك الوقت كان الإنجليز قد لعبوا دورا صغيرا تسبيًا فى
الحروب الصليبية؛ ولكن ما 156

إن أعطاهم ريتشارد دورا قوميًا فى المشروع؛ حتى كالوا له الثناء يحيث يغتفر للمرء أن يظن أنه هزم جميع المسلمين وحده. لقد أصبح ملكا على إنجلترا فى 5 يوليه عام +1١49 وتم تتويجه فى 7 سبتمبر. فشرع مباشرة فى إعادة تنظيم المملكة, والاستعداد للحرب المقدسة. "عن طريق ألف مهارة أميرية جامهًا الكثير من العملات وكأنما لا يتوى إعادتها". وأخيرا أمكن البده فى حريه الصليبية. وكان فيليب أغسطس ملك فرنسا قد حزم أمره أخيرًا بأن من الخير لسياساته أن ينضم خير من البقاء فى الخارج؛ وبذلك لم يكن المشروع ملكا لريتشارد, أى حتى ملك لإنجلترا!؛ غير أن فيليب كان رجلا هادئًا لا يحب التظاهرء ولما كانت شخصية ريتشارد المشعة هى التى سادت الحرب الصليبية. بدا وكثئه, هو الوحيد الذى شارك فى الحرب. وغادر المكان من فيزيلى فى فرنسا فى ؛ يولية ,.١١5١ - بعد ثلاثة أعوام بالضبط من معركة حطين. ويعد ليون بمسافة قصيرة اتخذ كل منهما طريقا مختلفا إذ اتجه فيليب إلى جينواء أما ريتشارد فاتجه صوب مرسيلياء حيث انتظر أسطول كل منهما على حدة لنقلهما مع جيشيهما إلى بلاد ما وراء البحر. وكانا قد قررا فصل الرحلة فى صقلية؛ فذهب فيليب مع رجاله بحراء ووصلوا بعد رحلة آمنة عند ميسينا فى ١غ سبتمبر. أما ريتشارد فقد كان هناك بالفعل. فهو, شأنه شأن رينولد دى شاتيون كان لا يحب البحر. وقرر فى آخر لحظة أن يسافر برا من خلال إيطاليا فى حين سافر رجاله بحرا. وفى أثناء مروره بإحدى القرى حاول سرقة أحد الصقورء فهجم عليه صاحبه وكاد يقتله. ففرء لكن هذا الحدث غير اللائق دمغ رحلته بأكملهاء وحين وصل إلى ميسينا فى 7 سبتمبرء لم يكن يشعر بأى تدمء وكان فى حالة مزاجية غاية فى السوء. وحدث أن أخته المفضلة» جوانا كانت فى صقلية» تقريبا سجينة عند تانكريد الملك. وكان رد فعل ريتشارد دائمًا حادا فى الإهانات؛ على أنه. هى شخصيًا كان 159

يسب الناس بحرية؛ وعلى الرغم من إطلاق تانكريد الفورى لصراح جوانا
كان عمل ريتشارد الثاني فى حريه الصليبية هو الاستيلاء على هدينة إيطالية صغيرة
نيابة عن أخته. وتبع ذلك بأن وضع قواته فى دير صقلى ملقيا الرهيان فى الخارج
بالقوة. وكان هناك اعتقاد شائع فى إيطاليا وفرنسا بأن الإنجليز لهم أذيال, ولم تكن
طبيعة ريتشارد الحادة لتتحسن عند سماع الصقليين يرددون هذا الرأى. وفى ؟ أكتوير
قام رجاله بنهب ميسيناء ورفرفت رايته فوق البلدة. ولم يكتف ريتشارد بإزعاج الملك
الذى يستضيفه. تانكريد, بل راح يسىء إلى الملك فيليب شريكه فى الحرب الصليبية.
ذلك أنه كان هناك تقاهم منذ عدة سنوات بان ريتشارد سوف يتزوج من أخت فيليب
أليس؛ والآن, أعلن أنه لا يوجد ما يحمله على فعل ذلك. ولكن بشكل لا يعقلء - كما
تقتضى أساليب السياسة - ابتلع قيليب الإهانة؛ وأعطى تانكريد أريتشارد وجوانا
عشرين ألف أوقية من الذهب لكل منهما؛ وقضوا حدنها الشداء على الجزدرة السعرة:
غادن فيلِيب صطليّة فى * مارس: 'أما ريتشازد فقادرها فى ١١ إبريل عام 114١ وبقى
إخوان فرسان الهيكل والإسبتاليون مسئولين عن ميسينا. وكما حدث من قبل, كانت
رحلة فيليب بطيئة وسالمة؛ لكن ريتشارد بدا وكأئه يجتذب المتاعب والأحداث أينما
ذهب. ذلك أن رياحا عاتية وأمواجا عالية بعثرت أسطوله. وغرقت إحدى السفن,
واثنتان قزف بهما على قبرصء وتوقف ريتشارد نفسمه أولا فى كريت ليوم واحد؛ ثم
توقف لمدة عشرة أيام فى رودس. ومرض حدا فى أثناء العاصفة حتى أنه كاد لا يفكر
فى رحلة بحرية أخرىء ولم يغادر رودس بحرا إلا لأنه لم يكن هناك طريق آخر. ويعد
أن أرسل بنبأ إلى عكا بأنه سوف يصل قريباء توجه إلى قبرص - لأن السفن التى ألقى
بها إلى هناك لم تكن تضم أخته فقط وإنما تضم أيضا عروس المستقيلء بيرجينجاريا
من نافار. وكان الوصول إلى البر فى 8 مايى. وكان إمبراطور قبرص الذنى نصب
نفسه. إزاك» قد منع جوانا وبيرجيناريا من نزول الجزيرة؛ ويعد أن قضى ريتشارد أياما
كثيرة قى البحر؛ كان يشعر بالرغبة فى الانتقام. وفى ١ مايو. وصلت 0ذظ1

السفن من الأراضى المقدسة. تحمل فرسان هيكل من أرفع الرتب, كما تحمل
حى دى لوزينيان» المفعم بالأمل والمتلهف للمساعدة. وفى اليوم الثاني عشرء تزوج
ريتشارد وبيرجيناريا ملكة إنجلترا؛ وفى اليوم الثالث عشرء حين وصلت بقية سفن
ريتشارد, وبمساعدة جى» وفرسان الهيكل بدأ هجوما شاملا على الجزيرة. وقبرص»
قبرص القابعة فى البحرء عبارة عن جزيرة صفيرة: إذ تزيد مساحتها قليلا على 56٠٠
ميل مربع. غير أنها ليست بالمكان الذى يمكن اختزاله قى عبارة واحدة, سواء فى
الواقع أو الخيال. فى الأزمنة القديمة كان شكلها يقارن بأحشاء علقت كى تجف. فعلى
الساحل الشمالى, هناك كيرينيا بما بها من تحصينات ضخمة فينيسية ترتقع من شاطئ
البحر. وفى الجنوب توجد ليماسولء حيث نزل ريتشاردء وخليج بافوس القديم, حيث
ولدت أفروديت. وإلى الغرب. فى شبه جزيرة أكاماسء توجد الكهوف التى حفرها
القديس نيوفوتوسء وحيث كتب عن "سحابة الإنجليز" الذين غزوا الجزيرة. وإلى
الشرق»؛ توجد شبه جزيرة كاربازيا, التى يمكن للمرء أن يرى منها؛ فى يوم صاف جبال
لبنان؛ وفى وسط الجزيرة توجد جبال ترودوسء بمأ بها من مناجم نحاس قبيحة
فاغرة فيهاء ونيقوسياء العاصمة؛ وبين قمم الجيال المليئة بالرياح؛ وصمت البحر
وصخبه. يبدو أن هناك كل منظر وكل خضيرة - من حقول حنطة؛ ويساتين غريبة من
المشمش والموالح؛ مزارع لوز وزيتون؛ وخلايا نحل؛ وغابات صنوير» وشقائق نعمان.
وشجيرات, ويلوط ذهبى وأشجار كرز. وتوجد كنائس وأديرة فى كل مكان, الكثير منها
مهجور أى محطم. وفى الوقت الذى نزل فيه ريتشارد قلب الأسد فى ليماسول؛ كانت
حضارات ميسيناى:؛ وفينقياء وروما ومصر وبيزنطة قد تركت آثارها على قيرص.
وعلى بعد بضعة أميال من ليماسول؛ تحت أمواج خليج أكوتيرى: تقع مدينة أماتوس
القارقة؛ وإلى الفرب فى كوريوم: يوجد ضريح أبولو الروماني» فى الغاياتء ومذبحه لا
يزال فى مكانه. وبقيت قنوات وحمامات واستاد يتسع لستة آلاف من اليشر. أما الشىء
الأكثر غموضا من أى من هذه الأشياء. فهو قصر فونى, فى الشمال بجانب خليج
نورفو. إذ 1981

توجد الجدران, والشرفات, والأفنية, والحمامات: والممرات ويثر السلم, التى يرجم تاريخها جميعا إلى القرن الخامس ق.م. ومع ذلكء لا يعرف أحد على وجه الدقة من بناهاء ومن كان يعيش هناكء ومن أين جاء هؤلاء الناس. لقد كان احتلال فرسان الهيكل هو أقصر احتلال فى تاريخ هذه الجزيرة, كما أنهم تركوا أقل ما يمكن أن يتركه أحد: كنيسة صغيرة فى فاماجوستا, وبعض الصخور المحفورة قى كتدرائية القديسة سوفيا في نيقوسياء وفى الخارج فى شبه جزيرة كاريزيا تركو قلعة من كانتقزيا لا بيقى حنها أسؤى الأسناس. لس كمة ماهو كوحن ذلك :اك يننق أنه لم يكن هناك وفاق تقريبا بين قيرص وفرسان الهيكل. ذلك أنهاء بالنسية لهم كانت دوما جزيرة منكودة الطالع؛ أما بالنسبة لريتشارد قلب الأسدء فكانت عكس ذلك تمامًا: لقد جلبت عليه قبرص شهرة أكير وثروة أكبر مما كان لديه فى أى وقت من الأوقات. وتم ذلك بسرعة أيضياء ذلك أن فتحه المرح الصاخب لم يستغرق أكثر من ثلاثة أسابيع. ففى نهاية 1141» كانت الجزيرة بأكملها فى يدى ريتشارد» واستسلم الإمبراطور إزاك. ولم يشترط إزاك سوى شرط يثير الشفقة إلى حد ما - هو ألا يقيد بالحديد؛ فوضعه ريتشارد فى أصفاد من السلاسل الفضية كنوع من الفكاهة الثقيلة. وفى ه يونيهء بعد أن وضع إزَاك فى الأصفاد, ويعد أن تبع جى وفرسان الهيكل. وصسارت ثروات قبرص فى قبضة ريتشاردء وأسندت مسئولية قبرص إلى اثنين من الإنجليز» م ع 00 ولا بد أنه كان يشعر بالسعادة لأن الرحلة لم ت 3 تستفرق أكثر من ثلاثة أيام. ٠ ومع لك؛ قفى هذا الوقت القصير جداء تمكن من الدخول فى قتالء هذه المرة مع غليون (من القرون الوسطى) عبارة عن سفينة مؤن كبيرة للمسلمين تحمل الطهام إلى عكا. وأغرق الفليون - للأسف قبل التمكن من إفراغ شحنته - وقتل طاقمه. أو ماتوا فى أثناء الفرق. وبالطبع خرجت حكايات عن هزه الحادثة؛ وتروى هذه الحكايات عن ريتشارد وهو موليا ظهره إلى الشراع, حيث قتل الجميع سوى ثلاثين من الطاقم الذى 12

كان يتكون من ألف وستمائة. من الواضح أن دوره لم يكن بكل هذا الحجم؛
لكنها كانت أول مرة يقاتل فيها مسلمين حقيقيين. ويبدو أن هذا أفهمه معنى الحرب المقدسة: إن هناك أناسًا حقيقيين لا يشاركونه العقيدة, وهم على استعداد لأن يقتلوا كى يحموا عقيدتهم. وهكذاء فحين وصل إلى عكا فى 8 يونية عام 21181 كان مدربًا ومشحونًا. ومستعدا ومتحرقا للبدء فى القتال. وكل ما كان فى حاجة إليه هو أن يتغلب على دوار البحر. أما فيليب ملك فرنسا فلم يكن رجل حرب؛ وكان يفضل مؤاسرات السياسة ودسائسها على المواجهة فى الممركة: وفى أثناء الأسابيع السبعة بين وصوله ووصول ريتشاردء تلهى بعمل ماكينات حصار محكمة. كما كان أيضاء شخمنًا وضيعاء ولم يدفع لجيوشه أكثر من الكمية المتفق عليها؛ وكانت معقولة بالقدر الكافي: ولكن فى حصار دام عامين: كان لا يد من شىء إضافى لضبط الميزان. هذا القدر قدمه ريتشارد. وكانت شهرة ريتشارد قد سبقته؛ ومجرد كونه فى عكاء جعله يجلب بعض الطاقة للحصار المعتل, الذى كان فى ذلك الوقت قد بلغ أسبوعه الثالث والتسعين وانحدر حتى صار جمودًا لطيفًا. إذ كان الأطفال من المسلمين والمسيحيين يلعبون معا بين الخطوط؛ وكان المحاربون من الجانبين يبدءون مبارزات فردية: ثم يتوقفون الدردشة. لكى يكسب المرء حرياء لا يجب أن يسيش أقرب مما يجب من العدو؛ فهو يصبح إنسانياء وكثيرا ما يصبح محببا إلى حد ما. أما نظرة ريتشارد إلى المسلمين؛ فهى طبق الأصل نظرة القادم الجديدء إنها نظرة جديدة وواضحة؛ إن لم يكن لديه وقت كى يتطهر من التعصب الفكرى - بل إنه كان قد اندفع إليه حديثا. فذكر وجوده المسيحيين بأن جيرانهم هم فى الواقع أعداؤهمء بل هم أعداء من نوع مقيت بشكل خاص: إنهم كفار أسروا الصليب الحقيقى. لقد كان فى وسع فيليب أن يكون غيور! بقدر ما كو ومين وكانت آلاته وماكيناته جاهزة؛ إذ إن ريتشارد كان قد أهأنه فى صقلية:؛ ومع ذلك, كان يتمتع بشعبية تفوق شعبيته. لذا دون أن ينتظر إلى أن 3

يتحسن الملك الإنجليزي: قام بشن هجوم اشترك فيه فرسان الهيكلء هذا الهجوم يتم تذكره بسني مظلهؤة أكرمن لكر لقد كتب أحد المشاركين: "يمكنك رؤية عدد غير مفهوم من المسلحينء وكانت هناك الكثير من السترات المعدنية اللامعة, والكثير من الخوزات المتلألئة, والكثير من الخيول الأفميلة تعمهل: والكتحر هخ العباعات البيسسات والككمن من الفرسنان الدرسة: الجسورين. والكثير من الرايات. حتى أنه لم يظهر قط مثل هذا العدد". ولكن على الرغم من هذا الاستعراضء لم ينجح الهجوم. فبعد القذال طوال النهار - وكان اليوم هو الاثنين» 17١ يونية - ألقى الفرنسيون أسلحتهم وويخهم الأتراك بخبث؛ وأغاظوهم بأنهم لم يكملوا ما بدأوه. بل إن الأتراك قذقوا نيرانهم الإغريقية» ورويدا رويداء دمروا ماكينات ومعدات الحرب التى صنعها الملك الفرنسى بكل عناية. فغلبه ما كان بحس به من غضب وغل حتى إنه سقط فريسة للحزنء ولم يتمكن حتى من امتطاء حصان من ارطاما لض يدن الختطراب وخر : وبعد ذلك بعدة أسابيع» حين شفى ريتشارد بالقدر الكافى بحيث يفكر فى القيام بمحاولة أخرىء كان فيليب لا يزال حزينا بحيث إنه لم ينضم إليه. وفى كل الحالات, كانت طريقة ريتشارد شيئا لا يمكن لفيليب المقتر أن يهضمها. فكتب نفس مدون الأحداث: 'فقرر (ريتشارد) إنه, ما دام فى عالم الأعمال يتقدم العمل من خلال الامتياز فيمكنه جذب أرواح الشباب عن طريق إعطاء المكافأة, بدلا من إصدار الأوامر عن طريق القادة. فمنذا الذي لا يجذبه عبير المال". كانت فكرة ريتشارد غاية في البساطة: رفع أجر الجنود» وقدم منحة, أولا من قطعتين من الذهب ثم ثلاثة ثم أربعة» مقابل كل صخرة تزال عن أسوار عكا. وكان ذلك فى استطاعته؛ إذ إنه امتثك الكثير من المال حين غادر إنجلترا. كما جعلته فتوحاته العارضة تقريبا لميسينا وقبرص شديد الثراء. ونجحت الفكرة. إذ تم إسقاط أحد 4

الأبراج الدفاعية,. فقد أضعفته التار من أسفلء وتدافع من الصخور من
أعلى؛ ثم اندفع الشباب وهجموا مجموعات نحو الجدار. وحين كانت الصخور تقتلع:
كانوا يستمرون فى تلهف. طمها فى الثناء وكذلك الأجر. بل كانوا يعملون بشجارة بين
قذائف الأعداء. وجرح الكثيرون منهم؛ وآخرون بقوا بعيدا عن الخطرء خوفا من الموت,
لكن بعضهم دون حماية من درع أو أسلحة؛ دفعوا بالأتراك بعيدا برجولة عن السور. لقد
كان ذلك السور شاهق الارتفاع, وشديد السمك؛ غير أن الشباب أزَالوا الكثير من
الصخور.... لقد بين ريتشارد للفرنجة الفوائد العملية من الفتح, وأنها أكثر جاذبية من
متطلبات الواجب أو اعتبارات الدين غير الملموسة. واشتد القتال بحرا ويرا؛ مما خنق
المدينة» جاعلا المسلمين فى البر الرئيسى فى الخليج؛ فاستسلمت الحامية فى ؟١
يولية. وكان الحصار قد دام لثمان وتسعين أسبوعا؛ أما ريتشارد فكان موجودا هناك
ألدة أريفة وتلاكين يوما: كانت شروط السلام صارمة. إطلاق صراح المسلمين
المحاصرينء ولكن لا يستطيعون أخذ أى شىء من المدينة عدا ما يرتدون من ملابس.
أما الأسلحة؛ والأثاث. والطعام, والمال - وكل شىء آخر يجب أن يبقى. وتم افتداء
المسلمين الذين أسرهم الفرنجة مقابل ٠٠ قطعة من الذهب؛ والصليب الحقيقى ومعه
ألف ومائة من المسيحيين الأسرى الذين حددت أسماؤهم. تتم إعادتهم إلى الفرنجة؛
والإبقاء على ألفين وسبع مائة من المسلمين كرهائن, إلى أن يتم الوفاء بجميع الشروط؛
وتم تحديد الموعد النهائى بالشروط بنهاية الشهر - أى بعد أقل من ثلاثة أسابيع. فى
البداية» سار كل شىء بشكل لين سهل. إذ تم تسليم الرهائن المسلمين, وأجليت
المدينة. وريتشارد الذى كان دائما مستعدا لاحترام المحارب الجيدء تماما كما كان
مستعدا دائمًا إلى إهانة المحارب الضعيف, أصدر أوامره ألا يجرح أحد أو يسيء إلى
المسلمين الراحلين. غير أن هذا الأمر لم يكن ضروريا؛ فالمسيحيون كانوا مفتونين
بمنظر خصومهم. وكانوا يعرفون بعضهم, وكتب شاهد عيان: 155

"فى ذلك اليوم الحرج كانت استقامة الأتراك جديرة بالإعجابء وكذلك شجاعتهم العظيمة... والآن: وهم يعبرون الأسوار العالية فى طريقهم إلى خارج المدينة» كانت أعين المسيحيين المحبين للاستطلاع والذين كانوا يعجبون بهم بوصقهم جنودا. يحملون لهم الذكريات. وكان مظهرهم: وهم يخرجون خاوى الوفاض. من المدينة تقريباء بما فيه من جلال وكرامة مثيرا للدهشة. فعلى الرغم من أن الضرورة القصوى أضعفتهم فأنزلت قدرهم إلى مستوى المتسولين تقريباء فإن ما يتسمون به من ثيات لم يختف؛ بل بدا أنهم منتصرون بروحهم العالية". لقد كان هؤلاء النازحصون محظوظين. ذلك أن معاهدة السلام قد عقدت دون موافقة صلاح الدين؛ فخط الاتصال الوحيد بينه وبين المدينة المنكوية عن طريق إرسال رجل يسبح من الساحل خلال حصار الفرنجة عند مدخل المرفاً. فأحضر مثل هذا الرجل إلى صلاح الدين نبأ المعاهدة المقترحة, وكان صلاح الدين يقوم بكتابة رسالة يمنع فيها التسليم حين رأى أعلام المسلمين تنزل من فوق الأسوار وتحل محلها رايات إنجلتر! وفرنسا. وسواء تم السماح بالمعاهدة أم لم يتم, فقد وقعت,. وياسمه؛ فوافق على الالتزام بها. وحين أفرغت المدينة, تراحم المسيحيون إلى الداخل: وتداقعوا فى الشوارع. وشم يصيحون» ويغنون ويرقصونء ويركب الملكان على رأسهم - ريتشارد بطل الساعة, وهى منتش؛ وصاخب. وفيليبء بجانيبه. صلب وكثيب. أرفعت الرايات وأعلام الملكين المضاعفة فوق الأسوار والأبراجء وقسم الملكان المدينة بالتساوى. كما قاموا أيضا يعمل توزيع متناسب لمؤن السلاح والطعام, وتم تقسيم الأسرى من أعلى درجات النبالة أ المنزلة بينهما بالقرعة. ... وفوق ذلك» أخذ ملك فرنسا من بين نصيبه قصر قرسان الهيكل النبيل وجميع متعلقاته. وحصل الملك ريتشارد على القصر الملكى» وأرسل إليه ملكتيه (جواناء وبيرجينجاريا)ء ومعهما الأطفال والخدم ." 6

فأشعات هذه القسمة مباشرة شرارة إحدى صيحات التمرد التى كان الفرنجة
ينغمسون فيها حين لا يوجد من يقاتلونه من المسلمين. إذ كان الكثيرون من أفراد
جيش المسيحيين لديهم ممنلكات فى عكا قبل الفتح الإسلامي. وكانت جماعة فرسان
الهيكل أكبر مالك وحيد؛ إذ كانوا يملكون سوق الماشية؛ وشوارع السوق, وقصر بجانب
البحرء وتحت قيادة معلمهم الجديد, روبير دى سابل» كان فرسان الهيكل يتزعمون
الشكاوىء قائلين إنهم لم يقاتلوا كى يثبتوا ملكين أجنبيين» وإنما كى يستردوا
ممتلكاتهم المفقودة. وتم التوصل إلى حل ودى قبل أن يمر وقت طويلء لكن هذه
الحادثة كانت نموذجا لاتجاهات الفرنجة عموماء وريتشارد على وجه الخصوص,ء
وأكدت على التناقض بين شخصيتى ريتشارد وصلاح الدين. ذلك أن ريتشارد كان ملكا
بالحق الملكى, لكنه فارس منحرف بالطبيعة. ولم يكن يشعر بالكثير من المسئولية نحو
رعيته الإنجليزية» ولا يحس بأى مسئولية نحو جتوده فيما عدا حين يكون فى ميدان
القتال. هناك. يمكن أن يكون قائدا رائعاء يرى الفرص وينتهزهاء ويرى الأخطار
ويتجنبهاء ويضرب دائثما مثالا على الشجاعة الشخصية. لكنه أيضًا يمكنه أن يكون
فظاء وأنانيا لا يعتمد عليه. ولا يوثق به - وفى اللحظة التالية شاعريًا حنونًا حسن
الطبعء وجديرا بالإعجاب. وفى جميع هذه التناقضات,. كان ببساطة, مرآة ثقافته.
وصلاح الدين الذى كان يعرف ذلك: ويعرف ريتشارد معرفة جيدة؛ كان شديد الحذر مع
هذه المعاهدة. وسأل قرسان الهيكل الذين كان يثق فى كلمتهم مع أنه كان يكرههم, عما
إذا كان ريتشارد سوف يفى بالجزء الخاص به من المعاهدة أم لا. فنرفض فرسان
الهيكل الرد. ولا يمكن العثور على تقييم أكثر استتكار! لذلك لنزاهة ريتشارد. لقد كان
ما اشتهر به صلاح الدين من أمانة ورحمة قائما على أساس متين: وكان سلؤكه فى
القدس أوضح الأمثلة على هذاء بل أن ذلك اشتهر حتى فى أوربا. وكانت سلطته على
شعبه قائمة على حبه الواضح لهم, وعلى إيمانه الذى لا يتزعزع بالإسلام. ذلك أنه. فى
ذلك الإيمان فقط يمكن أن يصبح متعصيا أى غير إنسانيء كما 17

اتضح فى إعدامه لفرسان الهيكل فى حطين. لكنه. كان يقاتل» على وجه
العموم. فقط كي يحفظ طهارة أراضيه. ودينه؛ ليس كما كان الفرنجة يفعلون كثيراء
حبا فى القتال والنهب. لذا كان من الصعب على صلاح الدين الوفاء بمعاهدة ريتشارد
فى عكا. وكان الوقت قصيرا؛ إذ كان عدد الأسرى الذين يجب إطلاق صراحهم كبيرا؛
ومبلغ المال كان ياهظًا؛ والصليب الحقيقي, الذى لم يعد فى نظر المسلمين سوى قطعة
من الخشبء كان أقيم جزء فى المساومة المضادة يمكن أن يملكوه. وبينما كان صلاح
الدين غير قادر على الحنس بكلمته. لم يكن هناك ما يضمن أن ريتشارد سوف يحافظ
على كلمته. لذاء تفاوض صلاح الدين على إجراء تغيير على الشروط: بقى عدد الناس
كما هى ولكن تم مد الوقت إلى ثلاثة أشهر. فى كل شهر يتم تسليم ثلث إجمالى
الأسرى وثلث المال. وكان صلاح الدين غير راغب فى التخلى عن الصليب الحقيقى؛
وهنا يكمن تفسير تصرف ريتشارد التالى» وهو أقسى فعل ارتكبه فى حياته كلها. فى ؟
أغسطس وصلت أول مجموعة من الأشخاص والمال. وكان قليل من السجناء المذكورة
أسماؤهم غير موجودة: فى المجموعة, وطلب صلاح الدين استيدال الرهائن
المحتجزين فى عكا بمجموعة جديدة. وكان كل من الجانبين يشعر بشك عميق فى
الجانب الآخر. فبالنسبة لريتشارد, بد صلاح الدين مراوغا. وحسب فهمه؛ كان ذلك يعنى
شيمًا واحدا: الغدر. لذا كان رد فعله يتعد! حدود العقل من حيث قسوته. وفى أصيل "١
أغسطس انطلق مع جيشه على صهوات الجياد إلى أن أصبحوا على مرأى كامل من
معسكر المسلمين. وأحضروا معهم جميع الرهائن المسلمين - ألفين وسبعمائة من
الرجال. وأصدر ريتشارد أمره؛ وقال أفرنجى يرضى بعد ذلك *دونما ابطاء. قفز اتباع
الملك إلى الأمام متلهفين إلى تتفيذ الأوامر» شاكرين الرحمة الإلهية التى سمحت لهم
بالانتقام"". والمسلمون المعسكرون فوق التلال كانوا يراقبون» دون أن يفهموا فى
البداية. ووصف وزير صلاح الدين بهاء هذا المنظر البشع فى ذلك اليوم. 8

"أحضر القرنجة الأسرى المسلمين مقيدين فى السلاسل ... ثم هووا عليهم كرجل واحد وذبحوهم بدم باردء بالسيف والرمح. وكان جواسيسنا قد أخبروا صلاح الدين بمناورات العدو. فأرسل ببعض التعزيزات؛ ولكن حينئذ كان الذبح قد وقع. وما إن أدرك المسلمون ما حدث هاجموا العدى واشتعلت المعركة, مع وجود قتلى وجرحيى فى الجاتبين» حتى جن الليل. وفصل بينهما. وفى الصباح التالى أراد المسلمون أن يعرفوا من سقطء فوجدوا رفقاءهم من الشهداء يرقدون حيث سقطوا؛ وتعرفوا على بعضهم”". منذ ذلك الوقت. حاول الناس سبر تفكير ريتشارد واكتشاف دافع لهذه المذبحة. ولم يجدوا سوى إمكانيتين قحسبء وشرحهما بهاء الدين باقتضاب: "أحدهما أنهم قتلوهم انتقامًا لسجنائهم الذين قتلوا من قبل. والسبب الآخر هو أن ملك إنجلترا كان قد قرر التقدم نحى عسقلان ولم يشأ أن يخلف وراءه عددًا كبيرًا من جنود العدو.” وأى التفسيرين ممكن؛ وكلاهما مقيت. ولكن هناك سبب ثالث. لم يذكر من قبل: مسالة العتلين المقيقن. حتى فى القرن الثاني عشر كان هناك شطرات كافية من الصليب الحقيقى في العالم تمل عدة سفن, وحقيقة الصليب الذى امتلكه الفرتجة فى حطين من الواضح أنها كانت موضع تساؤل. ومع ذلك فإن الشيء المهم هو أن الفرنجة كانوا يعتقدون اعتقادا جازما أنه الصليب الحقيقي. غير أن ما حدث لذلك الصليب بعد حطين يظل لغزا. فالمسلمون يقولون إنه قد أرسل إلى دمشق, ثم إلى بغدادء حيث دفنه الخليفة فى 4 يونيه 11/454: وثمة تاريخ دقيق - كى تدوسه أقدام المسلمين. ولكن صليباء مغطي بالذهب. ومحلى بالآلئ والحلى» كما كان 'الصليب الحقيقي كان يحتفظ به فى معسكر صلاح الدين» وكان يعرض على المبعوثين من الفرنجة الذين قبلوه على أنه الصليب الحقيقي. وأخيراء زعم أحد الفرنجة القلائل الذين فروا من حوين أنه دقنه هناك فى الرمال» حين رأى أنهم خسروا المعركة. وتعهد بالعثور عليه مرة أخرى» غير أنه لم يستطع بعد ثلاثة أيام وليالى من الحفرء واستسلم وتخلي عن البحث. 9

هذا التفسير الأخير هو أقلها معقولية؛ إذ لا يوجد مسيحي مؤمن بأنه يعرف
مكان الصليب الحقيقى يمكن أن يتخلى عن البحث بعد ثلاثة أيام فقط. والسؤال هو
أى من الروايات هى تلك التى صدقها ريتشارد؛ ومن الممكن, أنه. بعد أن قبل دون
تفكير الأنباء عن وجود الصليب فى معسكر صلاح ألدين» ربما يكون قد سمع عن دفنه
فى بغداد. وحين صدق ذلكء ربما يكون قد اعتقد أن صلاح الدين جعل منه أحمق.
وسواء صح ذلك أم لاء فإن مجرد التفكير فى ذلك أمر لا يطاق؛ وريتشارد حين يغضب
كان لا يرحم. أيا كان السبب الحقيقى غير المكتشف - 'والله خير العالمين" كما كتب
بهاء الدين بتعاسة - ترك ريتشارد عكا بعد ثمان وأربعين ساعة واتجه جنوياء بحقد
تاركا الاهساد المذبوخة كى يتم جمعها لوتترك كى تتعفن. وكان جيشه من .مائة آلف
من الأقوياءء فى طليعتهم, مجموعة صغفيرة من بضعة مئات: هم تخبة القوة من
العباءات البيضاء - فرسان الهيكل: مع معلمهم الجديدء روبير دى سابل. أما مصير
جيرار دى ريدفور فكان مجهولا. إذ لم يسمع أحد عنه منذ أسره خارج عكاء قبل ذلك
بنحو عامين. وانتظر فرسان الهيكل عاما ونصف عام قبل انتخاب معلم جديدء ذلك
أنهم لم يكونوا متأكدين من أنه ميت أو حىء وما إذا كان لا يزال مسيحيًا أى مرتدا .
وربما كانوا متأثرين بسبب الخمول الزاحف عليهم بسبب أشهر الحصار الطويلة؛ ومن
المؤكد أن وصول ريتشارد قد بعث فيهم النشاط كما حدث مع غيرهم. فلم يكد يصل
حتى حددوا اختيارهم أخيرا: دى سابلء إنه رفيق للملك الإنجليزي. لقد كان دى سابل
أحد القلائل الذين طلب منهم بوضوح الانضمام إلى الجماعة؛ وتم انتخابه مباشرة - بعد
دخوله. وكان مؤهلا تماما للمنصب الرفيع: فهو ثرىء كريم وتقى» وناضج؛ ومجرب
وصاحب نفوذ. ترك فى فرنسا مقاطعاته فى أنجى فى يرولى ولا سوزء ويلدته سابل
التى تقع على بعد خمسين ميلا جنوب غرب باريس. كما ترك أسرة -- ابنتين» كليهما
متزوجتينء وزوجة وابن» كليهما صيتين. ويدين دير 200

للرهبان وآخر للراهبات بوجودهما وحياتهما بالفضل له؛ وثمة كنيسة خاصة
تحيى ذكرى زوجته. وفى طريق الخروج إلى عكاء كان هناك أحد أمراء يحر ريتشاردء
وكانت أراضيه فى أنجو قد جعلت ريتشارد سيده الأعلى؛ ولكن حين كان ينادى
ريتشارد وفيليب أغسطس يا "ابن العم” لم يكن يراعى أصول الأدب فحسبء بل كان
يراعى الدقة. فقد تصادف أيضا أنه كان يمت بقرابة بعيدة لمعلم فرسان الهيكل الثاني»
روبير دى كرونء الذى انتخب قبل ذلك بخمس وخمسين سنة. وهذا مهل عرضى؛ غير
أن روبير دى سابل كان يتمتع بشىء من المهارة ذاتها التى كان يتمتع بها روبير السابق
عليه. فهى المعلم الدبلوماسى الذى أكسب جماعته الميثاق الأكبر؛ وكان فرسان الهيكل
فى حاجة إلى معلم دبلوماسى أكثر من أى وقت مضى منذ أيام روبير ديكرون. ذلك أن
أفعالهم غير الحكيمة الأخيرة بقيت حية فى عقول الناس أكثر من الحماية التى
قدموها؛ إذ إن معلمًا واحد! متصلب الرأس يمكنه أن يعطى الجماعة سمعة سيئة أكبر
من تلك القن نكن أن يتهوها غلاثة من الزعماء الحككم] با ميرنان دي مزلي تود
بلانكفورء واودى دى سان أمان» وجيرار دى ريدفور؛ نقد كان لفرسان الهيكل أكثر مما
يكفى من المعلمين العنيدين النزقين - على أى حال فى الوقت الحاضر. وكان الأعضاء
من أفراد طبقة النبلاء العليا نادرين بين فرسان الهيكل فى ذلك الوقت. وكانت سمعة
دى سابل طيبة أصلاء ويمجرد قبوله لمنصب المعلم. خطى خطوة كبيرة نحو الذنب
الذي عزاه الكثيرون إلى الجماعة - وهو ذتب الهزيمة فى حطين, وما تلا ذلك من
خسارة القدس. وأصبح قورا شخصية رئيسية فى المعسكر الأنجلوفرنسى فى عكا. لذا
قبعد تقسيم ريتشارد التعسفى للمدينة وما تلا ذلك من تمرد دام عاما أنيطت بدى سابل
مهمة تخصيص الممتلكات والإسلاب. وبينما بقى فيليب فى الأراضي المقدسة:. كان دى
سابل يقوم دائما بالتحكيم بين الملكين؛ وحين أمر ريتشارد باستعلاء أن يلقى براية
دوق النمسا بإهمال كان دى سابل وإخواته الجدد هم من حموا ريتشارد من غضبة
النمساويين. 201

لقد كان من المهم بالنسبة لفرسان الهيكل أن يعملوا على تخفيف التوتر بين الفرنجة ذلك أنه. على الرغم من أنهم هم والإسبتاليون كانوا القوة المسكرية الوحيدة المتبقية فى الشرقء فإنهم كانوا يحتاجون إلى شد إزار الصليبيين الجدد إذا كان لأى شىء أن يتم استعادته. وريما كان من حسن الحظء أن الملك فيليب غادر إلى أوريا فورا بهد إعادة الاستيلاء على عكا. معلنا أن قسمه قد تم الوفاء يه وأن دوره فى الحرب الصليبية قد انتهى. وقبل أن يغادرء سلم جميع مواده الحربية وما لديه من طعام إلى دى سابل؛ كى يتم تقسيمها بين الجماعتين. فهو لم يكن لديه كثير حب للحروب الصليبية» وكثيرا ها كان عائقا أكثر من كونه نافعا؛ وانتقد رحيله علنا. لكن الكثيرين رحبوا به فى دخيلة أنفسهمء وعلى الأخص الإنجليز. أما بالنسبة لمعظم الصليبيين كانت القدس هى الهدف الوحيد؛ لذا لم يغادر سوى القليل من الفرنسيين مع ملكهم. وظل الباقون: وتحركوا جنوبا مع ريتشارد. وعلى الرغم من خبرة دى سابل فى ميادين الحرب الأخرى, كان قادما جديدا على فلسطين. فتلقى النصح بحصافة من إخوانه. الذين كانوا يعرفون البلاد والعدو معرفة جيدة. وكان ريتشارد: بدوره» عموما يصغى إلى نصيحة دى سابل» ويعمل بها بصفة عامة. لذاء فاثناء هذه المرحلة من الحرب؛ كانت روح فرسان الهيكل فى الروح الهادية؛ وقد حدث شيئان على الأقل بينا للإخوان إلى أى حد بعثت صورتهم العامة وتحسنت. حين افترض أن دى ريدفور قد مات؛: وصار دى سايل مسئولاء توقف جميع ما كان يوجه من انتقاد لأعمال قرسان الهيكل؛ وعلى الرغم من أنه على الأقل. مرة واحدة تناقضت نصيحة فرسان الهيكل مع آمال الصليبيين» فإن هذه النصيحة تم قبولها. لقد كان ريتشارد فى حاجة إلى مستشارين؛ إذ كان شخصا مليئًا بالطاقة فى حاجة إلى توجيه وسيطرة:؛ وإلا فمن الممكن أن يحرق كل شيىء دونما تمييز. ذلك أنه 202

لم يكن إداريًا بأى حال؛ وأقل من ذلك لم يكن من بناة الإمبراطوريات.
وكانت قبرص آخذة فى الأثقال عليه. والمال آخذ فى النفاد. فاقترح دى سابل حلا للمشكلتين: أن يشترى فرسان الهيكل الجزيرة. فوافق ريتشارد مباشرة, ذلك أنه ابتهج من فكرة التخلص من ملكية غير مرغوب فيها وملء خزائنه بالمال. وتم تحديد الثشمن بمبلغ ١٠٠٠٠٠ بيزنتة ذهبية. ودفع دى سابل مبلغ ....؛ نقداء نيابة عن الجماعة, ورتب لدفع بقية المبلغ حينما تكون هناك حاجة إليه وكما تكون هذه الحاجة. ومين توفر لريتشارد الأمن المالى. والقوة العسكرية, والنصيحة السليمة, كانت ثقته يلا حدود. من أجل المسير إلى عسقلان» أوصى فرسان الهيكل بالطريق الرومانى القديم بجانب الساحل - وهو طريق أطول من الطريق المباشرء إلا أنه أكثر أمنا» حيث يتحكم فى البحر أسطول الإمداد البيزى. وتحرك صلاح الدين بحذر فى موازاتهم؛ محاولا إغراء ريتشارد بالهجوم؛ لكن دى سابل جعل الملك يركز ناظريه على الجنوب. ولم يتم الالتهام فى المعركة أخيرا حتى بلفوا أرسوفء على يعد مائة ميل من عكا, وفى منتصف الطريق إلى عسقلان. لقد اختار صلاح الدين الموقع؛ وكان الهجوم الأول مسلما؛ لكن النصر كان من نصيب ريتشارد. إذ كان تشكيل المعركة إحدى روائع الذكاء الكلاسيكى. فى المؤخرة كانت هناك قوة احتياط من المشاة تحرس طايور الأمتعة. وثلاثة أضعاف هذا العدد من المشاة والرماة شكلوا الصف الأمامىء الممتد على ثلاثة أميال من الطريق الروماني؛ وبين الصفينء على الطريق نفسه:؛ انقسم الفرسان إلى اثنى عشرة فرقة, وكان فرسان الهيكل فى الجناح الأيمن, والإسبتاليون فى الجناح الأيسرء وريتشارد فى المنتصف بعلمه. فتكسرت موجة من المسلمين تلو الأخرى فى مواجهة الفرنجة الذين كانوا ينتظرون كالصخور؛ ثم حين جاء هجومهم, كان ريتشارد فى المقدمة. واعتلى وزير صلاح الدينء: بهاء الدين أحد التلال ابتغاء السلامة, فكانت له نظرة طائر مع اندفاع الخيول ذوات الدروع إلى الأمام. وكتب وهو لاهث الأنفاس. 203

رأيت بنقسى فرسانهم يتجمهعون مما فى وبسط المشاة؛ وأمسكوا'
يرماحهم. وصاحوا صيحة المعركة الخاصة بهم كرجل واحد» فأفسم المشاة, واندفعوا
فى شجوم كبير فى جميع الاتجاهات - بعضهم على جناحنا الأيمن» ويعضهم على
جناحنا الأيسر, والبعض فى المنتصف» إلى أن انكسر كل شسىء . وكانت أجمل ساعات
ريتشارد. لقد كان يبلغ من العمر الرابعة والثلاثين» أى أنه فى قمة الحيوية. وفى عكا
جعل جيش صلاح الدين الضخم عديم الأثر. وهزمهم فى ترسوف فى معركة حامية,
وأظهر نفسه كواحد من أكبر القواد فى زمانه وثقافته. وعلى نفس الدرجة من الأهمية»
قد بين أن صلاح الدين الذى لم يهزم منذ حطين, ليس منيها. ويمكن للحرب الصليبية
أن تستمرء ويدا ألا شيء يمكن أن يوقفها. فصلاح الدين الذى يكبر ريتشارد بعشرين
سنة, بمقياس الزمن» كان مقبلا على الشيخوخة. وكان مريضًا قد تعب من الحرب.
وكانت أمنيته الرئيسية هى الحفاظ على القدس من أجل الإسلام. فبدأ يقاتل بطريقة
غير معروفة بالنسبة له من قيل: سياسة الأرض المحروقة فى المؤخرة» ساحيًا قواته
إلى داخل الأرض المقدسة. بؤرة الاهتمام. وسويت عسقلان بالأرض؛ وتفككت
تحصينات اللد. والرملة, ونترون» وهى القوس الشرقى للدفاع عن القدس. فتركزت
جميع طاقات صلاح الدين على القدسء التى كانت ضسعيفة التحصين بشكل يائس؛
لأن ريتشاردء ملك الفرنجة صاحب قلب الأسد قد يدخل فى أى وقتء وجميع العمل,
وجميع القتالء وجميع الأرواح التى فقدت من أرواح المسلمين فى سنوات أريع من
الجهاد قد تضيع بالكامل. لكن هذا لم يحدث أبدا. لقد تقدم الفرنجة ينشاط وحماسء
وقد حذيبهم مغناطيس القدسء وفكرة أن المدينة المقدسة اقتريت من أن تصبح فى
قبضتهم؛ ثم عند حصن بيت نوباء على بعد ما لا يزيد على اثنى عشر ميلا من هدفهم,
أمر ريتشارد 204

بالتراجع. فكانت خيبة الأمل مذهلة. ووقف الإنجليز بجانب ملكهم. كما فعل
فرسان الهيكل؛ والإسبتاليون؛ أما الفرنسيون الذين شعروا بالغضب والإحباط؛ فبدء وا
يتركون الخدمة. ومع ذلك إذا كان ريتشارد قلب الأسد قد فقد الشجاعة:؛ فلم يكن ذلك
خوفا من صلاح الدين؛ فلقد كان يرغب بشدة مثل رجاله فى الاستيلاء على المدينة
المقدسة. لقد كان واضحا من التلال حول بيت نويا؛ حين ركب إلى هناك ذات يوم: كان
أن رأى ريتشارد القدس فغطى وجهه بدرعه كى لا يرى المدينة» القريبة جداء والمفرية
جدا والضعيقة جداء والخطرة جدا. لقد رأى ريتشارد خطرا مستقبلا؛ فمنعه ذلك: كما
منعته متاعب فى الأراضى التى تركها من فتح كان من شأته أن يجعل البلاد المسيحية
تلهج باسهه. لقد كان دى سابل وفرسان الهيكل بمساندة الإسبتاليين والباروتات من
سكان البلاد هم من عارضوا الفتح. إذ كانوا يعلمون» كما كان ريتشارد وغيره من
الصليبيين يعلمون أن المدينة متاحة لهم؛ سوف تضيع أرواح: ولكن يمكن الفوز
بالمدينة. ولكن حين تؤخذ؛ من سوف يحتفظ بها؟ ذلك أن غالبية الصليبيين سوف
يرحلون إلى بلادهم بالتاكيد؛ وسوف يضطر ريتشارد أيضا إلى العودة إلى عرشه
الإنجليزى البعيد. ولن يكون لدى الفرنجة من الفلسطينيين شىء سوى شريط ساحلى
ضيق؟ ومدينة كبيرة بعيدة عن البحر: يحيطها الأعداء وتنقصل عن الأصدقاء. سوف
تكون جاذبية الفتح بلا حدود, ولكن سيكون هذا تهورًا غير محسوب. حتى إذا كانت
مملكة القدس هى مملكة القدس اسماء فيجب أن تكون موحدة جغرافيا وسياسيًاء إذا
كان لها أن تتحول إلى واقع مرة أخرى. فكانت عسقلان هى الهدف الجديد, وعمل
الشتاء الجديد هو إعادة تحصينها. واستدار الجيش المكتئب الحزين وسار فى أسى
نحو الساحل. وكان الشتاء فى ذروته؛ نطلل القون جمرم الأشتراء الثى كانت مجر
منفصات من قبل صارت لا تطاق تقريبا فهناك المسير فى الوحلء والمطر والطين.
وإقامة المعسكرات فى الطينء واليرك. وهناك 2.05

الطعام المتعفن. حتى فى عسقلان كان الحال أفضل قليلا - كانت المدينة محطمة, وكان العمل الشاق ضروريا لمجرد حجب المطر. وفى عكا أيضا كان الشتاء ساخطا. ذلك أن جى دى لوزينيان: ملك القدس اسمياء كان وحيدا بين أهل بيته؛ فزوجته سيبيلاء وابنتاهما قد متن جميعاء فى العام السابق. وكوننراد دى موتقفيراء مخلص صورء كان قد هندس طلاق الأميرة الأخرى, إزابيلا من زوجها همفرىء ثم تزوج إزابيلا هو نفسه. هناك مطالبان اثنان بعرش واحد غير موجود: كان الأمر يمكن أن يبدو ملهاة رخيصة لولا أنه كان أقرب إلى المأساة. ولم يكد ريتشارد يقيق من هذه الأخبار من عكا. حتى جاءته أنباء تصرفات أخيه جون السيئة فى إنجلترا. وعلى الملك الجائل أن يعود يأقصى سرعة: وما لم يكن يرغب» مثل جىء أن يفقد مملكته. وأخذت الأمور تتجاذبه من كل جانب؛ فمن ناحية هناك ميوله؛ وفناك طموحه. وواجبه. فوازن زيتشارد جميع هذه الأشياء فى أواخر شهوره فى الحرب الصليبية: وكان دى سابل هو من ينصحه فى جميع المناسبات. وفتحت مقاوضات من أجل السلام مع صلاح الدين. وقى نفس الوقت؛ رفعت مسالة من يجب أن يرتدى تاج القدس الفارغ أمام مجلس عام يتكون من جميع الفرسان والبارونات. وأيد ريتشارد شخصيا جىء على ما به من عدم فاعلية؛ بما أن آل دى لوزينيان من أنجو كانوا أتباعا للملك الإنجليزى. وفعل دى سابل نفس الشىء لنفس السببء لكنه. الآن, بما يتمتع به من بعد نظر أدرك أن التاج يجب أن ينول إلى الرجل الأفضل. وفاز كوتراد بصوت فرسان الهيكل - وكل الأصوات الأخرى أيضا. لم يذهب صوت واحد لجى. ومع ذلك كان جى قانعا؛ لأن دى سابل حين كان يصوت لكونراد ملكا للقدس, اقترح مملكة جديدة لجى - جزيرة قبرص. ذلك أن حكم فرسان الهيكل لم يعد يمثل احتلالا عسكريا بل حتى فى ذلك كان حكما محدوداء إذ لم يكن من الممكن الاستغناء عن أكثر من أربعة عشر فارسا من البر الرئيسى. وهؤلاء الأربعة عشر لم يكونوا يستسيغون الاستعمار, ولم يتمكنوا من التحكم فى أهل قبرص

للحرية؛ لكن جى أسعده شراء الجزيرة: وعاد الفرسان الأربعة عشر إلى عكا وهم سعداء أيضا. أما كونراد دى مونفيرا فلم يكن يتمتع بمثل هذا الحظ. فحين سمع بنبأ انتخابه السارء صلى لله ألا يسمح له أن يقبل إذا لم يكن الشخص المستحق للعرش. ومات بعد ذلك بثمانية أيام. بطعنة من خنجر مغتال بين ضلوعه. وتطايرت الاتهامات فى كل اتجاه - إنه جيء إنه ريتشارد, إنه صلاح الدين. فى الواقع كانت مبادرة المفتالين أنفسهم, عملهم الأول والأخير فى كل الحرب الصليبية الثالثة وقد أدى إليها عمل من أعمال القرصنة قام به جيء حيث سرق سفينة بضائع تخص الطائفة. أيا كان الأمر, فقد فتح ذلك المشكلة على مصراعيها مرة أخرى؛ لكن الشيطان يظهر عند الحاجة, وريتشارد باعتباره شخصا ينتمى إلى عائلة بلانتاجينيت؛ ادعى انتسابه إلى الشيطان. فوجد زوجا جديدا لإزابيلا فى خلال يومين» وبعد ذلك بخمسة أيام كان للقدس ملك جديد - هنري من شامبينء الذى تصادف أنه ابن أخت ريتشارد. ومن المناسب أنه كان أيضنا ابن أخى فيليب ملك فرنسا أيضًا. وأخيراء كان لبلاد ما وراء البحر زعيم يمكن أن يتبعه الجميع - أو الجميع تقريبا. ومرت الأشهر القليلة المتبقية من الحرب الصليبية الثالثة فى حراك سريع من الأعمال المتبادئة من العدوان ومفاتحات السلام. وفى 7؟ مايو من عام ؟151١, أعاد ريتشارد الاستيلاء على دارون؛ أقصى قلعة فى الجنوب يفقدها صلاح الدين. وفى ٠١ يونية؛ وعلى طريقة رينولد دى شاتيون: استولى على قافلة للمسلمين بها كميات كبيرة من البضائع والطعام؛ وعدة آلاف من الجمال والخيول. وتقدم مرة أخرى نحو بيت نوباء وتراجع مرة أخرىء دون أن يعلم أن صلاح الدين كان على وشك الأمر بالتراجع هى نفسه نحو الشرق. وفى 55 يوليه, تبع صلاح الدين الفرنجة نحو الشرق واستولى على يافا؛ وفى اليوم الواحد والثلاثين استعادها ريتشارد. وكانت المعركة الأخيرة فى 0 أغسطسء خارج أسوار يافا. وكانت, مثل تارسوف, استعراضا رائها أقيادة ريتشارد؛ وفى حركة أخيرة مستهترة بدا أنه يضع أصابعه 207

فى وجه صلاح الدين. كان المقصود من هجوم الفجر أن يفاجئ الفرنجة
وهم نائمون» غير أن تحذيرا فى اللحظة الأخيرة وفر لهم ما يكفى من الوقت كى
يستعدوا؛ وبألفين من المشاة, وأربعة وخمسين من الفرسان» وخمسة عشر من الخيول»
دحر ريتشارد ها لا يقل عن سبعة آلاف من الخيالة المسلمين. لم يكن للأمر أن يستمر.
ذلك أن كلا من الجيشين كان قد أنهك. وكان كل من ريتشارد وصلاح الدين مريضنا.
ولم يتم إحراز انتصار أخيرء كما لم يتم إلحاق هزيمة نهائية, غير أن كلا من الملكين
كان يدرك أنه لا هى ولا الملك الآخر يمكنه الاستمرار. وفى ؟ سبتصير وقع ريتشارد
معاهدة سلام لمدة خمس سنوات. ورقض كملك أن يقسم؛ فأقسم دى سابل نيابة عنه.
وفى اليوم التالى وضع صلاح الدين اسمه على المعاهدة؛ ويذلك أنهى الحرب التى
قامت فى الحرب الصليبية الثالثة, التى جعلها ريتشارد قلب الأسد بإرادته النارية
وشخصيته حريه الخاصة. وتم بعث بلاد ما وراء البحر. واختزلت إلى كسر من حجمها
السابق. لكنها عاشت. وتحقق السلام بشرفء حيث كان كل شيء قد ضاع بالنسية
للبلاد المسيحية منذ بضعة سنوات مضت. وتمكن المسيحيون من زيارة الأماكن
المقدسة فى القدس؛ وأمكن لقوافل المسلمين والمسيحيين أن تمر بحرية» بلا خوف.
فى أراضى كل منهما. لقد انتهى القحال» وبرت الممرفن: لكن مغامرات ريتشارد لم تنقه
بعد. إذ كان لا يزال عليه أن يسافر الأميال الطوال قى عودته إلى إنجلترا وكون الكثير
من الأعداء فى تلك الرحلة. وقدم دى سابل آخر مساعدة يمكنه تقديمهاء وغادر
ريتشارد الأراضى المقدسة مقنعا كأحد فرسان الهيكل. لكن بعض الشخصيات لا يمكن
أخفاؤها. فقد تم التعرف عليه وهو يمر من خلال النمساء وقبض عليه وقدم الدوق, -
الرجل الذى أهمل رايته فى عكا. ويعد ذلك بخمسة عشر شهراء أطلق صراحه. حين
ذهب كل ما لدى إنجلترا من فضضة لبناء ا 205

حينئذ: كان كل من صلاح الدين ودى سابل قد توفى: الأول فى الربيع»
والثاني فى خريف عام .1١157 ولحق بهما ريتشارد بعد ذلك بست سنواتء وهو يقاتل
كما عاش يقاتل. توفى صلاح الدين فى سلام مع شعبه ومع أعدائه ومع ربهء يتذكره
المسلمون بالحبء ويتذكره الفرنجة بالاحترام. ولا يعرف الكثير عن نهاية دى سايل؛ إن
لا تذكر السجلات سوي حقيقة أنه مات. ولكن كما أعاد ريتشارد بلاد ها وراء البحر,
أعاد دى سابل شرف الجماعة بما كان يتسم به من حكمة وحصافة؛ وحتى الأحياء
لفترة قصيرة:» يمكنهم أن ينعموا بالسلام. 209

الفصل التاسع أوربا. بيزنطة والأراضى المقدسة 1١١97]| لابد أن يكون
بينكم بدع أيضا. ١ كورينثوس » الإصحاح الحادى عشرء ١9 لقد كان من بين الأهداف
الرئيسية للحروب الصليبية توحيد البلاد المسيحية الشرقية والبلاد المسيحية الغربية»
ومن بين المبادئ الأساسية فى ذلك الوقت. أن الاعتقاد الدينى - التحول إلى العقيدة
الحقيقية الوحيدة للكنيسة الرومانية - يمكن إقامته بطريقة فعالة بالقوة. وما لم يضع
المرء هذا نصب تفكيره؛ فإن أحداث العشرين سنة التى تلت وفاة صلاح الدين ودى
سابل تكون جوهر الجنون. ومع ذلك» حتي مع تذكر تلك المبادئ؛ من الصعب رؤية
السنوات من ١١5* إلى 1555 إلا باعتبارها أشنع انحراف عن تعاليم المسيح؛ ومسحًا
كئيبًا لكل شخص فى البلاد المسيمية - حتي فرسان الهيكل كان لهم دور فيه. لقد تم
لعب هذه المسرحية القبيحة فى ثلاثة مسارح منفصلة: جنوب فرنساء وشمال سورياء
والقسطنطينية. وكان قرسان الهيكل متورطين, إلى حد كبير أو صغير» فى المسارح
الثلاثة جميعا؛ وخلف الثلاثة جميعاء وفى نفس الوقت محرك عرائس» وإحدى
العرائسء كان هناك رجل قوى: إنه البابا أتوهسينت الثانى. 211

لم تكن إمبراطورية صلاح الدين لتصان إلا عن طريق شخصيته. لذا حين توفي عام 1197 خلف سبعة عشر ابنا وابنة واحدة! فبدأت الإمبراطورية تتفكك على الفور. لقد انتزع السكين من رقبة بلاد ما وراء البحر» غير أن فرنجة فلسطين لم يستطيعوا استغلال الفرصة لإعادة الفتح؛ ذلك أن مملكتهم الضئيلة كانت فى غاية الضعف. وكان هنرى من شامبين يتمتع بكامل السلطة الملكية. مع أنه لم يتوج أبدًا ملكا على القدس؛ وكانت سياسته نحو المسلمين دائما هى سياسة الدبلوماسية المسالمة» وتتسم بتبادل الكلمات بدلا من الضربات؛ وأيده فرسان الهيكل ابتغاء صائح بقائهم. بل إن هنرى عقد تمالفا جديدا مع الحشاشين. وقد احتفى رجل الجبال العجوز بهذا التحالف بطريقة مبهرة: إذ دعا هنرى إلى اجتماع على قمة جرف حيث استعرض أتباعه إخلاصهم بأن قفزوا واحدا بعد الآخر إلى حتفهم فى أسفلء إلى أن رجاه هنرى بإنهاء الاستدمراض. أما فرسان الهيكل فلم يكن لديهم كثير وقت لمثل هذه التوافه. وكانوا ممتنين لهذا التحالف: لقد أزيل تهديد آخر. واتباعا لسنة دي سابل الحصيفة, تجنبوا أى صراع مع المسلمين لمدة أربع عشرة سنة تقريبا بعد وفاته. غير أنهم كانوا منشغلين فى اتجاه آخر - منشفلين بمولد عشرين سنة من تقاتل الإخوة فى بداية الأمر بدأ ذلك لا ضرر منه. مجرد مسالة بسيطة تتعلق ياسترداد ممتلكات مفقودة. على بعد ما يقرب من ثمانية عشر ميلاً شمال أنطاكيا تقع قلعة تسمى بفراس. قبل حرب صلاح الدين» كانت ملكا لفرسان الهيكل. وقى عام 11191 استولى صلاح الدين عليها ومحاها؛ ثم غادر هو ورجاله مباشرة:» فاحتل أمير أرمينيا ليو الثاني, الموقع» وأعاد بناء القلعة. وما إن انتهى من إعادة البناء. حتى طالب الأمير بوهيموندء آمير أنطاكيا نيابة عن فرسان الهيكل بأن ترد إلى الجماعة؛ فرفض ليو الطلب رفضا قاطعا؛ ومن هذا الرفض نشبت حرب دامت لعقدين بين مسيحيى فلسطين ومسيحيى أرمينيا.

فى تلك الأيام التى كان يوجد فيها ملوك سياسيونء كان ليو من أوضح هؤلاء الملورك. فهذا الملك الذى تم تتويجه عام 18اا»ء نال عرشه عن طريق الكلمات المعسولة والنفاق؟ وحافظ عليه عن طريق الوعود الفارغة والابتزاز الروحى الحكيم متلاعيا بمن هم أكبر منه ضد بعضهم بعضا. ولم يكن من الممكن منح تاج الملك إلا عن طريق إمبراطورء أو البابا؛ وكانت كنيسة روما تعد الكنيسة الأرمينية مبتدعة. لذا حصل ليو على تاجه من الإمبراطور البيزنطى وعلى صولجانه من الأمبراطور الألماني» وهى أعظم حاكم زمنى فى ذلك الوقت. وفى نفس الوقت: دخل فى مراسلات مع البايا المحتضر سيليستين الثالث, موحياء بأثه قى مقابل الاعتراف البابوى سوف يهيد الكنيسة الأرمينية إلى الحظيرة الأرثوذكسية. وتمت الصفقة؛ وحقق ليو طموحه؛ وتم الاعتراف به ملكا من جانب كل أصحاب الشأن والأهمية. ويعد أن حقق ذلك. كانت له طموحات أخرى. إن يمكن أن تكون أنطاكيا إضافة جذابة لملكه. ولتحقيق هذا الهدف, كانت بغراس موقعا استراتيجيا له أهمية كبرىء وعلى الرغم من حث البابا على أنه يجب أن يعيد القلعة لفرسان الهيكل, كان ليو عازما على الاحتفاظ بها. وكان فرسان الهيكل أيضا عازمين على استعادتها. ولا يعرف الكثير عن الرجل الذى كان معلم الجماعة حينذاك. حتى اسمه غير مؤكد؛ فيقال عنه بأشكال مختلفة مرة كجيلبيرت أريلء أو هورال؛ أو اريلء أو رورال. كما لا يعرق أحد عمرةء أو مسقط رأسه؛ لكن على العكس من سلفه دى سابل كان من فرسان الهيكل بالمهنة". وكان منصب المعلم الرفيع طريقه الطويل الشاق. وقبل انتخابه كمعلم يعشر سنوات, كان كبير رواد الهيكل فى القدس؛ وكان هو الذى تم تخطيه لصالح دى ريدفور الخطر. ويمكننا أن نخمن ذلك مما بينهما من فروق من حيث الشخصية: فهو وريدفور كان يكره كل منهما الآخر كراهية تامة؛ لكن إيريل قد أعفى من ألم الإحباط الذى يمكن أن ينجم عن الخدمة الشخصية لدى ريدقورء ذلك أنه. فى عام 66 تنصب معلما على الهيكل فى إسبانيا ويروفانس. ويقى هناك أربع سنوات. يراقب عن بعد الزعامة المدمرة الخرفة وما أدت إليه فى حطين؛ ثم فى ا5اا2 213

فى القترة بين ريدفور ودى سابل» حين كان الهيكل ككل بلا معلم. نصب مندوب المعلم للهيكل فى الغرب. لذا يبدو أنه كان شخصا يعتمد عليه؛ وأنه موضع احترام ويتسم بالضمير الحى؛ ومع أن السرية التامة لأعمال الهيكل تحظر ذلك. من المعقول أن نخمن أنه اقترح مرة أخرى كمعلم بعد اختفاء ريدفور فى عكا. ومع أنه كان يمكن الاعتماد عليه, فإن فرسان الهيكل كانوا فى حاجة إلى رجل يعترف به خارج حدودهم: رجل يمكن أن يعيد الاحترام للجماعة ليس فى أعينها فحسب بل فى أعين العالم أجمع. وحين توفي دى سابل لاحت فرصة اريل؛ وفى عام 11947 تم استدعاؤه من القرب, وأصبح الخادم الأمين للهيكل ومعلمه الثانى عشر. ويعد ذلك بخمس سنوات» حين وضع ليو تاج أرمينيا على رأسه وأحكم قبضته على يفراسء قد يكون بدا لفرسان الهيكل أن الظروف هى التى حددت اختيارهم للمعلم. وكان اليابا سيليستين الفجوز قد رحب بعودة الأرمن إلى المذهب الصحيح. غير أنه لم يفعل الكثير من حيث استعادة بغراس. ومن المؤكد أنه كان هناك أمل أكبر فى خليفته؛ -- لأن أنوسينت الثالث كان صديقا شخصيا لجيلبيرت اريل. ومع ذلك فإن أى تفاؤل من هذا القبيل لم يكن على أساس سليم. إذ إن الرجلين كانا يشتركان فى سمة واحدة: الولاء العميق للأجهزة الدينية التى يرأسانها. ولكن بينما كان أريل متباطئًا عادى التفكير, مباشرًا ومستقيمًاء كان أنوسينت نشط الحركة» مشبوب العاطفة, وصاحب رؤية وشديد القوة - فهى ليس بالرجل الذى يلتزم بمقتضيات الصداقة حين تكون هناك أمور أكبر فى الميزان. وحين أصبح أنوسينت بابا فى عام 4411؛ كان لم يتعد سبعا وثلاثين من عمره. ولم يحدث أبدا أن يحتل مثل هذا الرجل الشاب مثل هذا المنصب الرفيع؛ غير أن أنوسينت كان بحق شخصية استثنائية إن لم يكن شخصية فريدة. ذلك أنه درس اللافوت والقانون الروماني؛ والقانون الكنسى فى باريس ويولونياء (ريما يقصد بولندا) وكون أفكارا محددة عن مهمة البابوية وهى أفكار رسمها بحيوية. وربما بقسوة؛ فى يوم تنصيبه. إذ أقام موعظته على اقتباس من أرمياه: هنا والآن؛ أعطيك سلطة فوق الأمم؛ 214

بكلمة سوف ترفعهم وتنزلهمء وتقلبهم وتحولهم إلى ركام. بكلمة سوف
تبنيهم وتزرعهم من جديد ٠. وكان يعنى ما قال فى كل مقطع. فعلى مدى مائة وعشرة
من السنينء منذ أن شن إيربان الثانى الحرب الصليبية الأولى لم يكن للكنيسة بابا
يتمتع بهذه الرؤية العريضة والشخصية القوية. إذ كانت رؤية أنوسينت هى لبلاد
مسيصية أشبه بجمهورية عظيمة» يشترك فيها جميع الناس فى عقيدة واحدة, وتكون
جميع الأمم؛ رغم استقلالها خاضعة لسلطة زمنية وروحية واحدة؛ - هى سلطته وسلطة
من ياتون بعده. كانت فكرة أتوسينت هى إيجاد وحدة جامعة روحية كبيرة يترأسها
الإحسان الزبوى للحبر الروماني, وقد نجح فى تحقيقها تقريبا أكثر من أى بابا قبله
ومنذ وقته. ففى ألمانيا وإيطاليا وفرنسا وإنجلترا والنورويج وأرمينيا وأرجصون» تم
الاعتراف به كسيد روحى؛ ويدأ مفاوضات مع الإمبراطور البيزنطىء باعتباره رئيسا
للكنيسة اليونانية, عاملا على توحيدها مع الكنيسة الرومانية. وسيكون أنوسينت»
بالطبع» رئيسا للكنيسة الموحدة. غير أن ما بدا لأنوسينت تجمعا روحيا بدا لفيره
دكتاتورية روحية. فلم يكن الجميع على استعداد لاتباع خطته - من المفهوم أن
البيزنطنيين كانوا مترددين؛ وكان إخلاص الأرمن فى خضوعهم موضع شك؛ وأهل
جنوب فرنساء الثائرون الجسورون كدأبهم بدءوا يشككون فى العقيدة الثابتة التى لا
تقبل الشك لدى الكنيسة. والقدس نفسهاء بالطبع» وهى نظريا مركز وركيزة المسيحية
كانت فى يد الكفار. إذا كان ليو ملك أرمينيا مثالا جيدا على الكيفية التى يكون عليها
الملك السياسى؛ فإن أنوسينت كان المثال الذى لا نظير له كبابا سياسى. إذ لم يكن
هناك من يضارعه فى العالم الكتسى؛ ومن بين جميع سادة أوريا الدنيويين مناقسه
الوحيد المحتمل هنرى السادسء ملك المانياء الذى متح ليو الصواجان - توفى فجأة
مما يلائم البابا. ثم شقت المأنيا الحرب الأهلية. لأن فريدريك وريث هنرى كان فى
درجة أدنى. غير أن فريدريك كان تحت حماية أنوسينت, الذى اجتث وقلب وأعاد بناء
الأمم اتباعا دقيقا 215

لكلمات موعظته. فأصدر حكمه على الحرب الأهلية الألمانية» وتوج الرجل
الذى اختاره إمبراطوراء ثم خلع ذلك الشخص بمرور الوقت, ووضع فريدريك الشاب
مكانه. وفعل الشىء نفسه فى إنجلترا بأن خلم الملك جون الضعيف الذى لا مبداً له.
ورقض إعادته إلى أن أصيح أحد أتباعه. والشيء ذاته حدث فى النورويج. وفى فرنسا
أجبر أنوسينت فيليبب أغسطس على إنهاء زواجه الثاني, وإلا يكون متزوجا من
زوجتين؛ وفى إسبانياء تم إجبار الملك ليون على التنازل عن زوجته. لمن كان على
قرابة وثيقة به؛ وعندما شهد ملك أرجون هذا كله. أسرع إلى إعلان ولائه للبابا المتقلب.
فى خضضمم هذا التتابع للحوادث؛ بدت مسألة ملكية يغراس مسالة بعيدة غير ذات
أهمية. ذلك أن أنوسينت كان يطم أن فرسان الهيكل لن يتركوا كنيسة روما مطلقا, لكنه
كان يشك فى عمق اعتناق ليو للمذهبء ولم يكن يرغب فى فقد تابع تم اكتسابيه بكل
يسرء لذا ترك ليو يحتفظ بالقلعة موضع النزاع. وأخذ جيلبيرت اريل يرسل الرسالة تلو
الرسالة إلى من كان صديقه فى وقت من الأوقات, يناشده مراعاة العدالة, غير أن
أنوسينت لم يكن يتأثر بأى مناشدة فى هذه القضية بالذات. وعلى فرسان الهيكل
مواصلة حريهم الخاصة ضد مسيحى مثلهم - فهو لم يجد ما يعترض عليه فى هذه
الأحوال. ومع ذلك, فقد ساعد الإخوان بهمة فى نواح أخرى. واعتبرهم جيشه الخاصء
ولن يسمح لأحد بأن ينسى ذلك. وفي السذوات السبع الأولى من بابويته أعاد التأكيد
على الهبة العليا ثمان مرات» وفى سنته الثانية :١١49 طلب منه أن يدافع عن الجماعة
ضد الهسجوم الوحيد الذى لا يستطيعون مقاومته مطلقا: ألا وهى الحرمان من
الكئيسة. إن مجرد فكرة أن فرسان الرب يجب أى يمكن حرمانهم من الكنيسة تبدو
فكرة من قبيل العبث. لكنها حدثت؛ وتبين هذه الحادثة السبب الذى جعل الناس في
ذلك الوقت تتكون لديهم مشاعر مختلطة ضد فرسان الهيكل. م216

لقد كانت النقود هى أس المشكلة. ذلك أن فرسان الهيكل كانوا قد تعودوا منذ زمن طويل على التعامل مع مبالغ كبيرة من المال، ليس فقط من حيث حساباتهم فى تمويل عملياتهم العسكرية الممتدة على مسافات بعيدة, ولكن التعامل فى المال أيضا نيابة عن الآخرين. وكانت قلاعهم فى أوربا عنوانًا على القوة والأمن: وكان من الشائع بالنسبة لأى ملك أوربى تصادف أن يملك بعض المال أن يعطيه أو يودعه فى أيادى فرسان الهيكل للمحافظة عليه. ولم يكن فيليب أغسطس سوى واحد من هؤلاء؛ ققى زمن حربه الصليبية مع ريتشارد ملك إنجلترا، كانت خزانة الدولة الفرنسية مودعة فى قباء هيكل باريس. ولم يكن الملوك هم الوحيدون الذين بحثوا عن مستودع آمن للمال الاحتياطى داخل جدران فرسان الهيكل؛ بل إن الأساقفة ورؤساء الأساقفة والتجار والمواطنين الفاديين جميعا أودعوا أموالهم داخل دور فرسان الهيكل. وما لم يكن هذا المال يقدم كهبة صريحة: فإن هؤلاء الناس كانوا، بطبيعة الحال. يتوقعون استرداده حين يطلبونه. وللأسف، كان معظم فرسان الهيكل من الأميين, فكان حفظهم للدفاتر شديد العشوائية فى غالب الأحيان. وفى بعض الأحيان كان رجل واحد؛ ربما رئيس مقر ريفى لقرسان الهيكل، يعلم أن رصيدًا مودعا، فإذا مات أو نقل قبل أن يستعاد المال» فقد لا براه مالكه مرة أخرى. كما كان يحدث أحيانا، أيضا أن المال الذى أودعه شخص ما يطلب به وريثه. وبقليل من حسن النية من كلا الجانبين» يمكن تسوية مثل هذه المطالبات بكل يسر؛ غير أن حسن النية لم يكن دائما متوفرا. ووفقا لأخلاقيات ذاك الزمان, لم يكن حب المال هى أصل الشر وإنما التفاخر والعظمة - التعالى, والتكبر والعجرفة - وفى أيام أنوسينت كان من الشائع أن فرسان الهيكل لديهم من هذا الكثير. وحتى ريتشارد الأول» وهو نفسه لم يكن ملكا متواضعا، دفع عن نفسه اتهامات بأته متكير وذلك بأن قال بأنه سوف يزوج تكبره بفرسان الهيكل, بما أن التكبر مالوف لديهم. فى عام ,1144، اجتمع عنصرا المال والتكبر. ذلك أن أسسقف طبرية أرسل مطالبة للمبعلم. جيلبيرت أريل. لرد ألف وثلاثمائة بيزنتة ذهبية أودعها سلفه لدى

فرسان الهيكل؛ ورفض فرسان الهيكلء لسبب غير معروفء رد المال. ورشح أسقف صيدة للتحكيم؛ وعموماء كانت فكرته للتحكيم هى التهديد بالمرمان من الكنيسة, ليس فقط لأريل والجماعة كلهاء وإنما أيضنا لأصدقائهم وزملائهم فى أوربا والأراضى المقدسة, ما لم تعد التقود فى خلال ثلاثة أيام. وأعيد المال - غير أن الأسقف نفذ تهديدة عم ذلك. فأصاب الذهول أريل وإخوانه, وشعرو! بالفضب. فإذا حرموا من الكنيسة لن - يتمكنوا من الوفاء بتسمهم المقدس. فقالوا, حسن إذن» سوف ننسي ما أقسمنا عليه, ونلقى بعباءاتنا البيضاءء ونفادر الأراضى المقدسة ونعود إلى ديارتا. فتدخل أنوسينت على الفور. ويعد أن اتهم الأسقف بالحمق الشديد أو الخبس الخطير” أوقف الرجل عن أداء وأجباته ومنع أى رجل دين من أن يتعدى حدوده مرة أخرى. وكان هذا نوعا من الانتصار لفرسان الهيكل, الذين سحبوا تهديدهم المتهور؛ غير أنه لم يفد سوى فى تعميق الكراهية التى يشعر بها رجال الكتيسة العاديون نحو الجماعة؛ ويمكن معرفة عمق هذه الضغينة من سرعة وشدة حكم الأسقف ضد فرسان الهيكل. كما يشير رد فعل أنوسينت السريع إلى عزمه على أن يحرر فرسان الهيكل هن أية سلطة عدا سلطته. لقد أصبح فرسان الهيكل والإسبتاليون ملاكًا كبارا فى فلسطين الإفرنجية من خلال الشراء بأسعار بخسة للمتلكات أو الاستيلاء على ممتلكات هجرها المدنيون الذين فروا فى اتجاه الغرب. وكان أنوسينت الثالث واسع الثراء من حيث الأراضى. وشديد الانضباط من الناحية العسكرية: ويتمتع بمنعة شرعية وروحية كان ذلك كله تحت تصرفه؛ وكان من شأن هذه الإمكانيات جميعا أن تذهب بعقل أى رجل أقل من أنوسينت الثالث. لكن أنوسينت لم يطر صوابه؛ بل إنه كان يرى بدقة كيف يمكنه. هو وحده, استخدام فرسان الهيكلء بما يتمتع به من عقل قانوني صارم, ونظرة شاملة للجمهورية المسيحية؛ فبمجرد اعتلائه العرش البابوى: بادر بالمرب الصليبية الرابعة. 216

وكانت لديه كل الأسباب التى تجعله يأمل فى تحقيق النجاح التام. لم تكن الظروف أكثر ملاءمة مطلقا لهذا منذ أيام إيربان الثاني. ذلك أن الفشل الذريع للحرب الصليبية الثانية» والإنجازات المحدودة للحرب الثالثة. شكلت نقيضا حاداً) للانتصارات الكاسحة للحرب الصليبية الأولى. بالنسبة لأنوسينت كان السبب واضحا فى حد ذاته لم يذهب ملوك إلى الحرب الأولى. وحيث لا يوجد ملوكء لا توجد منافسات ملكية. ذلك أن التناحر والغيرة العادية بين الألشخاص يمكن لمندوبى البابا التحكم فيها؛ ويمكن لأنوسينت. من موقعه الذى لا يمكن تحديه. إلا تلطخ حربه أى ملوك. كما يمكنه تحاشى الوقوع فى خطأً إرسال رجال من أمم مختلفة للقتال من أجل ما يفترض أنه هدف مشترك؛ أما بالنسبة للمحاريين الخاصين به؛ فلديه لهم دور خاص. فيما أنهم أصلا فى الأراضى المقدسة, قمن الواضح أنهم ليسوا فى حاجة إلى السفر. وبدلا من ذلك: ينتظرون الجيوش الأوربية التى سوف تتشكل؛ ويدعمون ما يملكونه. ويمهدون السبيل من أجل هجوم عظيم موحد؛ وهما يملكونه من احتياطى أسطورى من ذهب وحلىء يمكنهم المساهمة فى تمويل العملية الكيرى. يدا هذا كله بسيط الجمال بحيث لا يسمح لأى فرصة للفشل. وإذا كان جميع المشاركين يلهمهم الله كما يعتقد أنوسينت بأن الله يلهمه. كان من الممكن أن تنجح. لكن كل شىء كان خاطئا بشكل مأساوى على نحو بشع؛ لأن عقول الناس بها قوى لم يأخذها أنوسينت فى الحسبان:ء لم يكن بقادر على فهم قوتها. 1 بادئ ذى يدءء لم يكن فرسان الهيكل متلهفين بأى حال إلى الدخول فى حرب مقدسة جديدة. ذلك أن ضياع بغراس كان يفضبهم بشكل مؤلم. وليو تجاهل طلب أنوسينت الوحيد بأن يتخلى عن القلعة» وتعجب قرسان الهيكل من عدم مبالاة البابا الظاهرة. وتوقى جيلبيرت أريل فى ١١ ديسمبر عام ١5٠١ وهو فى حالة من البلبلة والشك فى دواقفع صديقه القديم؛ وإذا كان فيليب دى بليزيى خليفة أريل: حذرا وملتويا فى التعامل مع أتوسينت قلم يكن ذلك سوى انعكاس للحيرة التى تحسها الجماعة كلها. 219

وكانت هناك مع ذلك أسباب أكثر إلحاحا وعملية لتحاشى الدخول فى حرب غير خسرورية. ذلك أن دى بليزيى (الذى لا تعرف أصوله ومراتبه السابقة معرفة تامة) أصبح معلمًا فى وقت خاص شديد الصعوية: إذ أنفقت فصول الصيف الثلاثة الأولى من احتلاله لهذا المنصب فى التعامل مع الجفافء. والمجاعة. والزلازل والطاعون وعاصفة رملية عاتية. وفى أثناء الزلازل تم تدمير مدن عكا وصورء وطربلس تدميرا كبيراء ومن العجب أن دار قرسان الهبكل فى عكا كان من بين المبانى القليلة التى بقيت دون أن يلحقها أى ضرر. لذا فإن التعميرء وإيجاد الطعام لعشرات الآلاف من الجياع: والفقراء اللاجئين من الريف المحطم كان عملا يكفى وزيادة؛ غير أن الكوارث الطبيعية على الأقل. ضريت الجميع؛ من مسلمين ومسيحيين, فتمكن دى بليزيى من تجديد الهدنة مع المسلمين. أما أنوسينت البابا الميال إلى الحرب؛ فلم يكترث بذلك مطلقاء وانما استراح حين سمع من دى بلزيى أن المسلمين بدءوا يدفعون إتاوة ابطريارك القدس فى مقابل المعاهدة. ريما كانوا يفعلون ذلك. وريما يكونون قد صدقوا ادعاء دى بليزيى بأنه يمكنه أن يضمن سلاما دائما إذا ما استمرت الإتاوة - ولكن من حسن حظ دى بليزيى أن أنوسينت لم يسمع بهذا الادعاء. وعلى الرغم من مراوغة فرسان الهيكل المعقولة جداء فإنهم لم يستطيعوا منع وقوع الحرب الصليبية. وتم جمع مسهاهمتهم فيها فى الوقت المناسب؛ وانطلق المشروع فى أوريا؛ وعلى القور بدأ الخطأ فى العمق بشكل يهدد بالخطر. ذلك أن مبدأ الشيطان كان يتحكم. فكان مقدرا للحرب الصليبية الرابعة أن تصبح إحدى أكبر جرائم المسيحيين ضد المسيحيين. لقد كانت مسيحية أنوسينت فى أفواه الناس لكنها لم تكن فى قلويهم. وكان قادة الحرب الصليبية الرابعة منجذبين بإغراء الثراء وشهوة الانتقام - وليس الثراء فى السماء. وليس الانتقام من الكفار. لقد بدأ الجنود العاديون بحسن نية. وتجمعوا فى يونيه ١٢١" فى فينيسيا. والاقتراح الذى قال به ريتشارد قلب الأسد قبل ذلك بعشر سنوات. وهو أن الحرب الصليبية يجب أن تبدأ بهزيمة مصر أولاء تم قبوله, وتعهد أهل فينيسيا بأن يقدموا السفن والطعام لمدة عام. وكان ثمنها مرتفعا جدا: ٠٠.86 من 220

المركات الفضية. وفى الوقت الذى تجمع فيه الجيش الصليبي, اكتشف قادته أنهم لا يستطيعون جمع مثل هذا المبلغ. وكل ما استطاعوا تقديمه هى خمسون ألفاء بما فى ذلك مساعدة فرسان الهيكل. وما لم يكونوا يعرفونه آنذاك» هو أن أهل فينيسيا فى حين وافقوا على نقل الجيش إلى مصرء كانوا قد عقدوا اتفاقية تجارية مع سلطان مصر - اتفاقية وعدوا فيها ألا تطأ قدم جيش أوربى التراب المصرى. منذ سنوات عديدة. كانت الجمهوريات الإيطالية التجارية, فى بيزاء وجينواء وفينيسيا قد اكتشفت أنه يمكن تحقيق أعمال تجارية جيدة مم الأمم الإسلامية: ولم يرغب أهل فيئيسيا على ويجه الخصوص فى إفساد أسواقهم الرابحة المستقرة. لقد كان أعداؤهم أكثر قربا منهم. ولا كان الصليبيون غير قادرين على الوفاء بالجاني الخاص بهم من المعاهدة, وهم ينتظرون فى فينيسيا لم يكن أمامهم سوى الموافقة على أبة شروط يملييها أهل فينيسيا. ويدا أن العرض القدم له يكسم يكرم كتير: يمكن تتجيل دقع ميل اللنن مرك المتبقى ويمكن البدء فى الحملة, إذا ما استطاع الصليبيون فقط مساعدة أهل فينيسيا فى ميناء زارا فى دالماتيا. إنه شىء تافه؛ فزارا على بعد يومين فى البحر من فينيسيا, وهو على الطريق إلى الأراضى المقدسة. فقيل القائد الصليبى» بونيقاس دى مونفيرا. شقيق كونراد. مخلص صور العرض بسرعة؛ مستخفا بحقيقة أن زارا مدينة مسيحية؛ وفى ذلك الوقتء رأى هو أيضًا هدفًا أفضل من فلسطين. وأدرك أنوسينت أنه فقد السيطرة على الحرب الصليبية بعد فوات الأوان. إذ إن أوامره اليائسة بحظر العدوان على المسيحيين تم تجاهلها. وفى ١١١5 أبحر الأسطول يحمل أربعة آلاف وخمسمائة فارس وتسعة آلاف من مساعدى الفرسانء وعشرين ألفا من المشاة, ويعد ذلك أصبحت زارا أو ما بقى منها ملكا لفيئيسيا. واستخدم أنوسينت السلاح الوحيد الذى يملكه. وذلك بأن حرم مدينة فينيسيا من الكنيسة وكذلك كل الجيش الصليبى. ومع ذلك, فيما أن الصليبيين قد تم ابتزازهم, فقد رفع الحكم عنهم, وعلى الرغم من أن أهل فينيسيا ظلوا مدانين» فإنهم لم يشعروا 221

بئى خجل. ذلك أن زارا بالنسبة لهم أم تكن سوى المقدمة. فيونيفاس كان قد رتب لطريق جانبى آخر فى مؤتمر مع أنريكو داندولى الممسن نصف الأعمى والذى لا يعرف مكره حدودا آلا وهى القسطنطينية. لقد كانت لداندولو ضغائن شخصية مع البيزنطيين. إذ إن فقده لنصف أبصاره نتج عن جرح فى الرأس تلقاه فى منذ ثلاثين سنة. حين اشتيك فى معركة هناك حين كأن سفيرا إلى القسطنطينية؛ ويعد أن صار حاكما (دودجى) أو دوقًاء ثبت أن كراهية اليونانيين له أمر ضار بالتجارة. كما تذكر أهل فينيسيا بمرارة كيف أن أبناء مدينتهم طردوا بقسوة من القسطنطينية عام ١١٧١؛ كما رأى الصليبيون أن لديهم ما يكفى من الأسباب لكراهية اليونانيين حين فكروا فى الأمر. إن الكنيسة الشرقية منشقة ومبتدعة, والمبتدعون الذين رفضوا كلمة المسيح أكثر سوءًا من الكفار الذين لم يسمعوا عنهاء كما أن الجميع يعلمون أن اليونانيين خونة؛ فمنذ أكثر من خمسين سنة بدأ القديس بيرنار التعليمات التى لا زالت قائمة وهى أن غدر اليونانيين هى الذى قضى على الحرب الصليبية الثانية» وكتب أوبى أن "فرنسا والمانيا سيكون لديهما ما يندمان عليه ما لم ينتقم أبناء هؤلاء الرجال ولم يثاروا لموت آبائهم . وتمكن بونيفاس بيسر من أحياء هذه الذكريات. وأضاف إليها ما يخصه فى المشروع. إذ ادعى أن شقيق زوجته, هو الإمبراطور الشرعى لبيزنطة. والإمبراطور الحالى مفتصب يجب خلعه واستبداله فى صالح القانون الدولى والوفاق. وفى روماء لم يكن أمام أنوسينت سوى انتظار الأخبارء بعجز ونفاد صبر. ولم يندد بالخطة مباشرة؛ فإذا نجحت» فإن وحدة البلاد المسيحية الشرقية والغربية أمر يستحق التضحية. وحين بدأت الأثتباء تصل ببطءء كان يشعر بالحبور - إذ حدث انقلاب ضد الإمبراطورء وجلس الإمبراطور الجديد على العرش؛ وسوف يتم دفع الديون لأهل فينيسياء ويتم توحيد الكنيستين» وينضم عشرة ألاف بيزنطى إلى الحرب الصليبية. أى أن كل ما كان يمكن أن يؤمل فيه قد تحقق» ولسوف تهبط القوات المتحدة لأوربا وبيزنطة على الأراضى المقدسة. 222

ثم تغيرت الأخبار ببطء» وجاءت أنباء تتحدث عن حرقء وتعذيب, واغتصاب, وتدنئيس للمقدسات. وتحوات القسطنطينية؛ قلب بيزنطة وفخرها إلى مذبح هائل. ففي ثلاثة أيام من الشغب والصخب قتل الصليبيون أكبر عدد ممكن من اليونانيين: من أطفال صغار ورجال ونساء. وشيب وشباب؛ ودخلوا القباء. ونهلوا ما شاءوا من النبيذ اليوناني اللذيذ. ثم اندفعوا كى يشعلوا النيران فى المكتبة الكبيرة؛ واندفعوا إلى الأديرة كى يعبثوا بالراهبات؛ وهشموا أبواب كنيسة القديسة سوفياء وشربوا نبيذ المذبح» ومزقوا الحرير المعلق» وانتزعوا الزينات الذهبية والفضية, وأفرغوا صناديق الآثار الدينية, وتبرزوا على الإيقونات, ونظفوا أنفسهم بصفحات من الكتب المقدسة؛ وطوال الوقت, كانت العاهرات يقفزن بين المقاعد. فى حين كانت إحداهن تجلس على مقعد البطريارك وتغني عن مباهج العشق. وحين جمعت الجثث أخيراء كان من بينها جسد الإمبراطور الذى أعيد تنصيبه. ذلك أن جميع وعوده كانت بلا أساس: لم يكن هناك رجال للجيشء ولا مال لأهل فينيسيا. فتم خلعه؛ وخنقه, وتوج مكانه قارس من الفلمتكيين سيدا على جميع التونافية: أما فى أوربا "فكان الانتصار الصليبى" يتمتع بشعبية؛ طاغية. ودفع المال لأهل فينيسيا من الفضة المأخوذة من كتوس التناول التى تم صهرهاء وتدفق سيل من الآثار المقدسة الثمينة فى كتدرائيات فرّنساء وفلاندر: وإيطاليا وأديرتها. وكان أنوسينت وحده هو الذى رأى أن حلمه الكبير قد تحطم؛ الآن لن تتحد الكنيسة الشرقية والغربية أبدا. فأدار ظهره إلى بيزنطة؛ وأخذ فى كابة ينظم بيته من الداخل. ريما أحياناء فى الاثنتى عشرة سنة المتبقية من عمره؛ قد يكون أنوسينت تمكن من النسيان. تمكن من الهرب من ذكرى الدخان والقذارة بينما كانت حضارة وثقافة بيزنطة تذوى وتموت تحت صليبييه. ربما؛ لكنه تغير, وطهرته النار وجعلته صلبا. فعلى الرغم من أنه لم يكن مسئولا مسئولية مباشرة عن جرائم الحرب الصليبية الرابعة» فإن غضبه من نتائجها كان ممزوجا بشعور عميق بالذنب. وللتطهر من الانفعالين كان 223

فى حاجة إلى مخرج من العنف المبرر؛ ووجد هذا المخرج تقريبا تحت أنفه» فى الوسط الجغرافى للبلاد المسيحية الغربية؛ - جنوب فرنسا. بلاد اللانجويدوك.
لقد كانت فرنسا منقسمة شمالا وجنوياء إلى ثقافتين, هذا الانقسام يتجاوب بشكل تقريبى إلى مجرى نهر لوار. وكان ريتشارد قلب الأسد بما له من خلفية بواتيفينية نتاج نموذجى للجنوب الرومنسى؛ أما فيليب أغسطس حاكم الشمال والسيد الأسمى على الجنوبء فكان نموذجا لشعبه الأكثر برودة وصلابة وقسوة. وكانت الفروق بين الإقليمين تتمثل فى لغتيهما: فكلمة نعم فى الشمال كانت أويب؛ أما فى الجنوب فكانت أوك. وكانت سيطرة الشمال مع الوقت هى التى دعمت الكلمة الفرنسية الحديثة وى؛ غير أن لفة أوك, لا تزال تحدد الجنوب. ولم يكونا يختلفان فى اللغة فحسب وإنما أيضا فى الدين. وقد فرض أنوسينت الإيمان على فيليب» غير أن هذا الإيمان لم يسد فى الجنوب. وفى إحدى المرات شكى القديس بيرنار من أن الكنائس هناك خاوية ومهدمة. وسيب ذلك هو أن أهل الجنوب كانوا قد وجدوا ديانة أكثر إرضاء لهم من الكثوليكية الرومانية - هي ديانة الكتاريين, أى كما أصبحوا يعرفون من مركزهم الروحى الفرنسي.ء الإلبيجينزيين. وكانت الكتارية أكثر من مجرد طائفة من الكنيسة الكاثوليكية. فمع أنها قائمة على الديانة المسيحية؛ فإنها كانت ديانة أخرى» لديها مفهوم للمسيح ينكر على الكنيسة الكاثوليكية الحق حتى فى الوجود. وكان الكتاريون يزعمون» عن حقء أن قداديسهم أقرب جدا إلى المسيحيين الأوائل من أى قداديس فى الكنيسة الرومانية. كما أنهم تبعوا تمييز القديس بولس بين الجسد والنفس والروحء معتقدين أن النفس البشرية ملاك ساقط محبوس فى حسد بشرىء وأن جسده الروحى بقى فى السماء. ولا يمكن توحيد النفس والروح إلا عن طريق المعرفة؛ - الفنوصية» وهى لا تعنى المعرفة العقلية, لكنها معرفة خاصة يوحى بها وفهم للأسرار الروحية؛ ودون هذه الغنوصية: يحكم على النفس بأن نتناسخ إلى جسد آخر فإن» بشرى أو حيواني» حين يموت جسدها الأول. كما مير الكتاريون بين أجزاء الثالوث, التى لم يعتقدوا أنها جوانب ثلاثة أكيان وأحد: 204

المسيح كان ملاكاء رسولا سماويًاء علم المعرفة التى تحرر بها النفوس من
أجسادها. ولم يأت للتكفير عن خطايا البشر؛ ومع أنهم يعتقدون بأن رجلاً قد دق
بمسمار فى صليبء فإنهم أنكروا أن هذا الرجل هو المسيح. ويذلك أنكروا البعث
والتجسد. وهما المذهبان المركزيان فى العقيدة المسيحية. إذا بدا ذلك أمرا معقداء فما
ذاك إلا لأنه غير مألوف. ففى جنوب فرتسا فى القرنين الثانى والثالث عشرء كان هذا
المذهب يتم الوعظ به فى كل مكانء وكان مالوفا للجميع. ومع أن الكتاريين لم تكن
لديهم مبان كنسية, كانت لديهم منظمة شاملة للمعلمين فى بلاد اللانجويدوك, رجال
يعلمون الناس مذهبا للسلام واليساطة, ويبدق أنهم عاشوا وققا لما كانوا يعظون الناس
به. ومع ذلك. مهما كان الكتاريون مسالمين ومتسامحين فإنهم ينتهكون العقيدة الصلبة
الكاثوليكية. بصراحة وبشكل جازم: ولم يستطع أنوسينت ليتحمل ذلك. قد يعيشون
كما يجب أن يعيش المسيحيونء لكنهم مبتدعون؛ وفى 1515 أمر البابا بتدمير من
يؤمنون بمذهب الكتار. ومع وجود سابقة القسطنطينية, أعلى من شأن هذه العملية بأن
أطلق عليها اسم حرب صليبية. وطلب من فرسان الهيكل تأييده. وفعلوا كما فعل
الكثيرون غيرفهم, وإغراهم بذلك صكوك الغفران التى منحت لجميع المؤمنين
الحقيقيين. بالنسبة للفرنسيين. جاءعت الحرب المقدسة إلى أعتابهم, فكان من الأيسر
بكثير إحراق المبتدعين فى الوطن عن مواجهة مشقة الرحلة الطويلة إلى فلسطين.
7" ويكفى مثال واحد كى يببين التفكير الذى يكمن وراء حرب الإبينجينزيين. ففى
يوليه أحيطت مدينة بيزيي» وهى ليست بعيدة عن الحدود الإسبانية, ويالقرب من
ساحل البحر المتوسط بحيش الإيمان' وتم الاسيلاء عليها بسرعة. وحين سئل
" المندوب البابوى بما يجب فعله مع مزيج الكتار والكثوليك رد ببساطةاقتلوهم جميعا؛
والرب انضم فرسان الهيكل إلى أعمال الحرق. والشنق بإرادة» غير أن الأمر استفرق
وقتا أطول من الأيام الأربعين التى توقعها أنتوسينت لإحراق العقيدة الكاترية. 225

وبمساعدة النظر إلى الوراء. يمكن النظر إلى هذه الفترة فى بداية القرن الثالث عشر كوقت لنذير كبير لفرسان الهيكل. كبروفة أ تدريب شيطانى بالملابس لنهايتهم المؤلة؛ ذلك أنه من لهيب البى وتولوز نشات الشرارة التى سوف تشتعل وتغمرهم جميعا. فى رماد الكتاريين والقسطنطينية كتب فرسان الهيكل مصيرهم بفباء. ويعيدا عن تقديم أى عون لبلاد ما وراء البحرء دمرت الحرب الصليبية الرابعة وما تلاها فى بلاد لأنجويدوك المملكة تدميرا حقيقيا. وساعد وفد من فرسان الهيكل فى تتويج أول إمبراطور لاتينى, وقد قدم وعودا متفاخرة بالوعد العسكرى الوشيك. وهى وعود لا يمكن بدا الوفاء يها؛ وحين رأى الكثيرون من الفرسان من غير رجال الدين الفنائم التى يمكن الحصول عليها فى فرنسا وبيزنطة, تركوا ها فى الأراضى المقدسة من أخطار وفقر إلى الأبد. ويعد عام 5 ١١ كان الفرسان الغربيون الوحيدون الذين ذهبوا إلى هناك هم أولئك الذين انضموا إلى الجماعات العسكرية. من الذاحية السطحية: بدا أن فرسان الهيكل لم يحققوا الكثير فى مقابل أموالهم التى أنفقوها فى الحرب الصليبية الرابعة, ولكن من الممكن» وإن لم يثبت ذلك قط, وأثير حديثا فقط - أنه من بين دمار القسطنطينية, فازوا بجائزة أكبر من أى جائزة فاز بها غيرهم: جائزة لا يكادون يدركون طبيعتها, لكنهم قدروها وعظموها أكثر من أى شىء عدافا. ذلك أن فرسان الهيكل مختفون خلف جدار لا يخترق من الصمتء: ومحصنون من أعين الجميع سوى قلة مختارة؛ تمكنوا من أحد أكير ألفاز العالم بما لهم من تكتم وسرية؛ وهذا شىء كانوا يعتقدون أنه مصدر قوتهم ومجدهمء لكن ما أشيع عن ممتلكاتهم أدى إلى محوهم . محوا! تام

الفصل العاشر قلعة الحاج الأراضى المقدسة 144-1214 هلم نبن لأنفسنا
مدينة وبرجاء رأسه بالسماء سفر التكوين» الإصحاح الحادى عشرء الآية 4 من حيقا
إلى عسقلان؛ ينساب ساحل إسرائيل (فلسطين ال محتلة: المترجم) فى انحناء رفيق لا
ينقطع تقريبًاء متجها غرب الجنوب. وحيقا نفسهاء حيفا القديمة تقع فى ظل مشبك
من الأرض. ولكن إذا ما ركبت قاربا وأبحرت نحو الغرب حول ذلك المشبك أو
الخطافء فى البحر المتوسط الصافى؛ ثم إذا ما غيرت الاتجاه, مع اتجاه الأرض إلى
ميديان» جنوب جنوب غربء» وتبعت الساحلء لا يوجد شىء بينك وبين عسقلان. لا
شىء سوى نتوء طويل يدعى عتليت. حين تبحر فى ذلك الساحل من الإسكندرونة فى
تركيا الحالية إلى دمياط فى مصرء سوف تمر بجميع موانئ أيام الصليبيين - اللاذقية؛
وجبلاء وطرطوس» وطرابلس؛ وبيروت وصيدة. وصور؛ وعكاء وحيفاء وقيساريةء
ويافا وعسقلان. ولكن لا يوجد مكان واحد من هذه الأماكن, ومعظمها مدن كبيرة اليوم؛
يعيد للذكرى الحروب الصليبية وفرسان الهيكل على وجه الخصوص - كما تفعل عتليت.
إن النتوء الذى بقع على بعد تسعة عشر ميلاً بحريًا جنوب حيفا - أى رحلة بحرية
تستغرق بضع ساعات 227

يبرز ثلث ميل إلى البحرء ويقطى بأكمله بحطام أقوى قلعة شيدها فرسان
الهيكل فى أى وقت من الأوقات: إنها قلعة الحاج. وقلعة الحاج التى بنيت عام
5148‏1: بعد أن أسس جى دى بايان ومجموعته الصغيرة الجماعة بمائة عام بالضبط؛
تعد مثالاً كاملاً على كل ما كان فرسان الهيكل يرهزون إليه. وكان الغرض المحدد لها
هو "إحضار جمعية الهيكل من مدينة عكا الخائرة, إلى أن يتمكنوا من الانتقال إلى
القدس المحصنة". وكان فى إمكانها أن تقسع لأربعة آلاف من البشرء وداخل أسوارها
يمكن أن يجد المرء كل ما يحتاجه الناس من أجل االحياة: فهناك المراعىء ويرك
الأسماك. ومناجم الملح, وينابيع المياه العذبة, والبساتين» وحدائق الخضراواتء.
وحوض للسقن بجانب المرقأ الطبيعي. ويمكتك الرسو هناك عند جسر طوله مائتا قدم؛
وحتى اليوم لا زالت تثير الرهبة والجلال. وإذا ها سرت بينها يمكنك تخيل القرسان
يعباءاتهم البيضء والخيول والحرس, باللون الأسود أو البنى؛ الحجاج الذين شيد
عملهم القلعة والذين اشتقت اسمها منهم. وكانت هناك الكنيسة:, وهى بناء متعدد
الأضلاع شبه دائرىء بنيت على نموذج كنيسة الفسريح؛ وكانت هناك الأبرا ج الكبيرة؛
كل منها يبلغ طوله مائة قدم. وعرضمه أربع وستيهون قدعاء تدافع عن الواجهة ة
المتجهة إلى الأرض؛ وهناك القاعة المحدية التى كان فرسان الهيكل يعقدون قيها
اجتماعاتهم السرية. إن القلعة المتكبرة الرهيبة المكتفية بذاتهاء أى قلعة الحاج؛ هى
العالم المصغر لجماعة فرسان الهيكل بكاملها. لقد بدأ ويليام دى شارتر المعلم الرابع
عشر فى تشييدها. ذلك أنه بتحريض من البابا أنوسينت الثالث الميال للحربء رفض
قيليب دى بلزيي؛ المعلم السابق تجديد الهدنة مع المسلمين, فمات فى ميدان القتال
في أواخر .1515 ودامت مدته كمعلم ثمانى سنوات ونصفء وهذه مدة متوسطة؛ ذلك
أنه من بين المعلمين الثلاثة والعشرين جميعاء لم يدم أكثر من سبعة لمدة تزيد على
عشر سنوات. لكنهم لا بد كانوا كثيرا ما يرحبون بالموت, إذ على الرغم من أن أنهم
كانوا يلقون تكريم الأمراء. كان عليهم مزج مهارات رجل السياسة. والقائد العسكرىء
ورئيس الديرء ورجل الاقتصاد. وقد تولى ويليام دى 228

شاتر هذه المسئولية الجسيمة لتسع سنين عصيبة. على مدى ست من هذه السنوات, كان الفرنجة والمسلمون فى حالة من السلام, ولكن دون ذلك ريما لم يكن لفرسان الهيكل فى الشرق أن ينجى من أحداث تلك الفترة. إذ لم تعد بغراس إلى الجماعة حتى عام 1١5□١؛ قبل ذلك قام ليى إمبراطور أرمينيا بتدمير دورهمء فى أتطاكياء وقلاعهم فى أرمينياء كما ضم هنرىء الإمبراطور الثاني اللاتينى لبيزنطة جميع قلاعهم فى اليونان. لم يتسبب أحد لفرسان الهيكل فى الصعويات أكثر ممن كانوا يشركونهم العقيدة. ومن المؤكد أن قلعة الحاج كانت أكبر تراث خلفه ويليام دى شارتر لإخوانه. إن شيدت كمكان للدفاع وملجاً ولكن أيضا كقلعة قوية يسكنها بشر وبها مؤن ليست كشىء سلبى فقط؛ بل إن هذا الصرح فى حد ذاته كان يمثل تهديد! فعليا. كان نشطا فى حالة القلعة حتى يكفى لأن يهدم المسلمون إحدى قلاعهم, - وهى قلعة منيعة تقريبا على جيل تابى - خوفا من الحصن الجديد المتشامخ على عتليت. وما على المرء سوى أن يخمن المشاعر التى أحس بها الجواسيس المسلمون وهم يراقبون أول خندق يتم حفره ومجموعات الثيران وهى تجر الحجارة الصفراء التى تكون الجدار إذ كان كل حجر من الكبر بحيث إن الثورين لم يمكتهما سوى جر حجر واحد فى كل مرة. وقد استفرق الأمر ستة أسابيع من الحفر لمجرد وضع الأساسات؛ وبننما كان الحجاج وفرسان الهيكل يحفرون اكتشفوا أنهم لم يكونوا أول من اكتشف ما فى النتوء من إمكانيات. ذلك أنه بعيدا فى أعماق الأرض كان هناك جداران كبيران منسيان منذ فترة طويلة, هما بقايا بعض التحصينات القديمة. ولم يجدوا ذلك قحسبء وإنما وجدوا كنزا: وجدوا نقودا من نوع لم يره أحد من قبل. فتلقاها الإخوان بكل الابتهاج؛ ورأوا فيها هبة من إله عملى جداء واستخدموها - على ما يفترض أنهم صهورها وأعادوا تشكيلها - لسد بعض من نفقاتهم. ثم جاء كنز من نوع آخرء كان أكثر قيمة من وجهة النظر العسكرية: إذ انبسق نبع من المياه العذية حاملا معه البشرى بالحياة, والطعام والوقرة داخل الأسوار. وبالمياه التى منحها الله. وأطنان الرمال المستخرجة: وقواقع 229

البحر المسحوقة من الشاطئ؛ مزج الإخوة والحجاج الكادحين الأسمنت
الذى من شاته وحين انتهى المعمل فى الجدار الشرقيء كان ارتفاعه يبلغ نحوا من تسعين قدماء وسمكه ست عشرة قدماء ولا توجد به سوى بوابة واحدة صغيرة. ولم يكن فى وسع أحد ممن رأوا القلعة وهى تشيد.ء أن يفكر فى أنها يمكن أن تستسلم - وهى لم تستسلم. بل صمدت لثلاث وسبعين سنة: إلى أن سقطت جميع ممتلكات الفرنجة فى بلاد ما وراء البحر. غير أن أحد جوانب القلعة المثيرة» إذا ما مر المرء فى آثارهاء هو الجدار الشرقى وهو خط الدفاع الوحصيد. أما من الغرب والشمال والجنوب كانت قلعة الحاج تقريبا مفتوحة على البحر. وذلك الانفتاح والفرض من القلعة - إيواء مجموعة الهيكل "إلى أن يستطيعوا الانتقال إلى القدس الحصينة" - كلاهما تعبيرا عن ذلك الزمان. إذ كان الفرنجة لا يزالون يتحكمون فى البحر؛ وكان فرسان الهيكل بصفة خاصة لديهم النية فى استعادة ممتلكاتهم القديمة؛ أى الهيكل فى قلب البلاد المسيحية. حين زار لورانس العرب آثار القلعة وهو شابء وصف البناء بأنه 'حمق' قائلا إنه 'أقرب إلى السجن من كونه ملجأ للمدافعين عنه.' لكن هذا يمكن أن يقال عن أى حصن؛ وما دامت سفن فرسان الهيكل فى إمكانها الإبحار بحريًا على طول ساحل الأراضى المقدسة, فإن قلعة الحاج - التى هى حصن وميناء فى نفس الوقت - كانت أقل الأماكن سجناء ريما باستثناء طرطوس. ذلك أنهم كانوا يمتلكون جزيرة محصنة هناك منذ عام 1١١75, لكنها مثلها مثل قلعة الصاج كانت موقعا استراتجيا منذ وقت طويل: ذلك أن البقايا الفينيقية كانت هى الحجارة للمشروع الجديد. إذ إن قنطرة تغطى القلعة فكل بوصة من بوصاتها كانت تربط بين الشاطئ والجزيرة؛ وعلى الجزيرة» هناك أوجه شبه مع القلعة فى عتليت. لم تكن أوجه الشيه تلك هى المذاجم أو الحقول, لأن هذا تحصين, لا أكثر ولا أقل؛ هناك يرجان مريعان يسيطران عليها. مع حصن 230

ذى شكل غير منتظم: أصغفر جدار به يبلغ طوله مائة وعشرة من الأقدام.
وتحت هذا الجزء: توجد هرات كبيرة مُجِدية:.ويواية فير جدا خلفية تتصل بالبمر - سدخل للمؤن والتعزيزات: وفى حالة الطوارئ المطلقة. تعد مخرجا للإخوان. لا يمكن للمرء أن ينسى أن هذا كان دارا للمحاربين المقدسين: والكنيسة الخاصة تضاء عن طريق نوافذ صغيرة:. وكأنما هذه أيضًا كانت موضع قوة ودفاع, وفى القاعة الكبيرة ذات الأعمدة, لاتوحة هن ولتائل الزئنة شرع العلب وعمل الوزت: وإذاأما سافرت يرا مق طرطوس: سو تبه عدن لفرسان المركل: وهما مق سجنان بقدر كونهما ملجأين وتعرفان بالقلعة البيضاء والقلعة الحمراء. والقلمة البيضاءء التى بنيت على جبلء مبهرة بشكل مسرحى: بها سوران دائريان الداخلى فوق الخارجي؛ بحيث يكون على المهاجمين أن يخترقوا كليهماء ويتقدموا فى خطر على منحدراتهاء وحتى حيتئذ لن يبلقوا قلب أو مركز البناء. فهذا يرج يبرز قى عظمة وحيدا من الجدار الداخلى: وهو عبارة عن بناء من ثلاثة طوابق» تشكل آخر ملجأ للإخوان. الطابق الأول منه عبارة عن كنيسة خاصة؛ غرفة تثير الدهشة طولها مائة وحمتشوة قرنا. وارفاعها حسئة وختسو قدما والقوء المحيه الذى سظادياتن من النوافذ الصغيرة المرتقعة عن الأرض؛ إنه مكان كئيبء غير أنه يوحى بإحساس من الأمن. وإن لم يكن آمنا بالقدر الكافى؛ يمكن الفرسان والحرس أن يتسحبوا أبعد من ذلك؛ فى أعلى سلم مبنى داخل الجدار. ويبرز أى يصعد فى جدارهم الكبيرء وهو الطابق الثاني؛ وإذا لم يتمكنوا من ذلك, فهناك الطابق الثالث: أى الطابق العلوى, المفتوح على السماء. ومن هناكء يمكنهم من هذا الارتفاع الشاهق الذى يثير الدوار, صب الحمام والتيران فوق جماعات المسلمين؛ ويمكنهم مراقبة أية حركة من على بعد كاف؛ وبالدخان واللهيب يمكنهم إرسال إشارة تحذير أو استغفاثة إلى إخوانهم فى القلعة الحمراء. والقلمة الحمراء مثلها مثل شقيقتها القلعة البيضاء بها سوران دائريان؛ وهى مثل طرطوس وعتليت: مكان محصن مرة ثم مرة عبر العصور. وحين وصل فرسان الهيكل إلى هناك. تمكنوا من استخدامها تقريبا على الفور, لأن أحدث 231

تحصينء وهو بناء بيزنطى كان لا يزال فى حالة جيدة. كان الجدار الداخلى
فقط فى حاجة إلى بعض الإصلاح, وكان المكان مهيأ القتال. مرة أخرى. وطالما بقيت
مثل هذه التحصينات فى أيادى هؤلاء الرهبان السيحيين المحاريين» كان هناك الأمل
أيضاء أمل حقيقى بأن تسترد القدس. لقد كان فريدريك المتمتع بحماية أنوسينت قد
توج إميراطورا على المانياء وكان يتم الدفع به فى حرب صليبية؛ وكانت هناك سفن
مشحونة بالمتطوعين من قبرص., والمجرء وإيطالياء وفرنسا وإنجلترا وهولاندا
والنمسا فى طريقهم إلى بلاد ما وراء البحر. هناك بعض الاضطراب عن أى من الحملات
يمكن أن تسمى بالحرب الصليبية الخامسة. أهى حملة فريدريك أم القوة متعددة
الجنسيات. فحين تم تنظيم الأولى أى حملة فريدريك أخيرا؛ كانت جيدة التخطيط
وناجحة» فى حين كانت الثانية واضحة يما بها من تنظيم سيئ مهترئ وفشلها فى
النهاية. غير أن الحرب الصليبية الفاشلة متعددة الجنسيات كانت مشروعة؛ أما حملة
فريدريك فلم تكن كذلك. ريما كان أبسط عنوان للاثنين هو “حرب فريدريك الصليبية"
و "حرب دمياط الصليبية" لأن الملشروع المغامرة متعددة الجنسيات هزمت أخيرا فى
أهوار دمياط. من حيث الترتيب الزمنى كانت الحرب الصليبية على دمياط هى الأوتي
بزمن طويل. ذلك أن مجموعات مختلفة غادرت أوطاتها فى وقت مبكر يرجع إلى ربيع
. وكان النمساويون أول من يصمل إلى الأراضى المقدسة» فى سبتمبر من عام 117"
وتبعهم مباشرة بعض المجريينء والقيارصة. وبقيادة ملوكهم الثلاثة غير الحكماء - هيو
ملك قبرصء وأندرو ملك المجر» وجون ملك فلسطين - ومع الجماعتين العسكريتين,
بقيادة معلميهماء لم يخقق هذا الجيش الخليط أى شىء على الإطلاق» باستثناء
الاستيلاء على رأس يقال إنها رأس القديس ستيفينء وأبريق يقال إنه استخدم فى
مأدبة الزواج فى قانة. وارتحل المجريون مكتفون بذلك, ومات هيو ملك قبرص.
وحينما وصلت المجموعة التالية, فى ربيع عام 2١4‎1, كان تشييد قلعة الحاج جاريا.
ويعد العرض الأحمق الذى أداه الفرنجة فى العام السابق, لم يقلق المسلمون 232

كثيرا من استعداداتهم من أجل الحرب؛ لكن القادمين الجدد كانوا من الهوانديين ولديهم أسطول كبير تحت تصرفهم. ففتح هذا إمكانية جديدة تماماء وفى 74 مايو أبحرت القوة البحرية المشتركة من الهولنديين والنمساويين والفلسطيين من عكا. وجهتهم: دمياط: والنيل والقاهرة. وتوقفوا فى عتليت, وأخذوا معهم الجيوش المتجمعة من فرسان الهيكل والصليبيين مع مون إضافية من القلعة الجديدة. وفى 1" مايق رست السفن فى دلتا التيل» على بعد ميلين أسفل مجرى النيل من دمياط. وفى 59 وصل الأسطول الرئيسيء يحمل الملك جون ملك القدس, وفرسان الهيكل ووبليام دى شارتر. وكانوا يعلمون أن مصر لا يمكن فتحها؛ ولكن إذا أمكن احتلال وادى النيل, وتم تنصيب نظام صديق فى القاهرة» عندئذ يمكن استخدام الحبوب المصرية والرجال المصريين فى فلسطين الإفرنجية. وقد كانوا بالقعل على بعد مائة ميل من القاهرة وعلى مسافة قصيرة: كان مجرى النهر الملتوى يغفطى حوالى ضعفى هذه المسافة, وكان مصيه يحرسه أحد الأبراج؛ به جسر من القوارب» وسلسلة حديدية هائلة» عبر القناة الوحيدة القابلة للملاحة. فعطلت هذه الأشياء الصليبيين لأسابيع؛ ولم يشقوا طريقهم حتى 0 أغسطس. ثم بعد أن أنزلوا مراسيهم أمام أسوار دمياطء كان عليهم الانتظار. هذا التأخير هو ما أفسد وأفشل الحرب الصليبية. إذ كان من الممكن أن تسقط دمياط فورًا بهجوم مباشرء وكان من الممكن لاتدفاعة أعلى النهر عبر الريف أن تنجح. غير أن التعزيزات كانت منتظرة فى أى لحظة من إيطاليا. ويدا أن الانتظار لبضعة أيام لا ضرر منه؛ لكن الإيطاليين لم يصلوا حتى منتصف سبتمير» في ذلك الوقت كانت المبادرة قد ضاعت. بالنسبة لقائد الإيطاليين لم يبد ذلك أمرا مهما جدًا. لقد كان إسباتيًا يدعى بيلاجيوس: وكان رجلا غير مؤهل نقريبا للقيادة. كان إداريا نشطا يتمتع بخبرة جيدة: لكنه كان يقتقد اللياقة بشكل فاضحء وكان لديه إحساس دقيق بالوضع الاجتماعى. فكان يعتبر وضعه. ككردينال ومندوب للباباء أمرا يضعه فى مكانة سبامية بين الصليبيينء وكان يبنى مهالجته للحملة على تفسير البابا أنوسينت لسفر الرؤية. لقد

كان أتوسينت قد مات فى عام 515/1 لكنه كان قد وضع الحرب الصليبية على الطريق. واستمر فيها خلفه أونوريوس الثالث بحماس. وكان البابا والمعلم قد تراسلا مرارا بشأن هذا الأمر وغيره من الأمور؛ وربما تذكر دى ششسارتر أو يذكره أحد بمراسلات سلفيهما . ذلك أن أنوسينت الثالث كان قد كتب فى إحدى المرات لجيلبيرت إيريل يقول: "فى الوقت الحاضر فتر حماس الناسء إذ سمعوا أنك تعقد هدنات مع المسلمين. أما عناء فلا يجب أن نفتر على الإطلاقء بل نتمسك يهدفنا .... ذلك أنك إذا ما أردت من الغرب أن يساعدك. يجب أن تستانف الحرب المقدسة مرة أخرى , لقد بثت مدة دى شارتر كمعلم النشاط والقوة فى الإخوان بشكل يبعث على الدهشة. وحررتهم استعادة بغراس فى 1751 من هم شغلهم لمدة طويلة؛ وأنعشهم بناء قلعة الحاج بعد ذلك بعامين ويث الشجاعة فى نفوسهم. وها هم مرة أخرى أصبحوا مستعدين للخروج عن واجباتهم المملة المتعلقة بالدورية والحماية؛ وكان أونوريوس راغيا فى مساعدتهم. فأنشا ضريبة واحد على عشرين على بضائع الكنيسة لدفع نقفات من أجل الحرب الصليبية» وعين أحد فرسان الهيكلء هى الأخ إيمارء أمانة الخزانة فى باريسء لتلقى المال. حتى الآن كل شىء على ما يرام؛ لكن الرجل يمكن أن يكون معلما فى الحرب الروحية؛ ومع ذلك لا يفقه شيئًا ذا قيمة عسكرية عادية. فلو أنهم تركوا إدارة حرب دمياط الصليبية لقادة مثل شارتر: يفهم الحرب من نظرية الاستراتيجية. والتكتيك إلى الأمور اللوجيستية (المؤن والإمداد)» نزولا إلى قطع الرءوس وأنت تركب حصانا؛ لاختاف الأمر؛ ولكن أنوسينت وأونوريوس وبلاجيوس عملوا جميعا من مقدمة منطقية هى أن النبى محمد لا بد أنه هو الوحش الذى ذكر فى سفر الرؤية: وأن رقم الوحش 517 - هى عدد السنوات المخصصة قبل القضاء على الإسلام. ويما أن محمد ولد فى عام 1/٠ مء ويدأ تعاليمه عام 5٠١ وتوفى ؟85, من الصعب فهم السبب الذى جعلهم يمسون بهذ! الأمل؛ على ذلك الأساسء يكون أقرب تاريخ للحرب الصليبية التى تنهى جميع الحروب الصليبية يجب أن يكون عام 234

على الرغم من جميع منجزاته الأخرى, فإن أنوسينت الثالث لم يكن ,
رياضيًا جيدا. ولم تكبح أية اعتبارات الكردينال يلاجيوس مطلقا. وكذلك الأعاصيرء,
والفيضانات والمجاعات والأويئة التى حدثت عام !١5١4 كذلك لم تفعل المتاوشات
الدائمة والمعارك البرية والبحرية. وفى إحدى هذه المعارك تم إغراق سفينة لفرسان
الهيكل. وهى محملة بفرسان هيكل ومسلمين يقاتلون بعضهم بعضما قتالا يدا بيد؛
وغرق الجميع. ولقد ترك أحد المعاصرين وصفا بسيطا لكنه مؤلم لهذه المعركة. "أخذوا
الشراع وأنزلوا المجداف. وهم فى خضم الماء. وصعد المسلمون, إلى أن أصبح هناك
ألفا رجل. وكان فرسان الهيكل أسفل سطح السفينة, فلما رأوا أنه لم يكن هناك مفره
قرروا القضاء على أعدائهم وأن يموتوا فداء لسيدنا. لذا رفعوا الفئوس الصغيرة وأخذوا
يشقون جسم السفينة. فغاصت فى الأعصاق؛ فغرق مائة وأريعون من المسيحيين:
وأكثر من ألق وربع المائة من المسلمين". ريما يكون هذا معدلا جيداء غير أن هذا النوع
من الانتصار الانتحارى يفتقر إلى الأسلوب الحقيقى لفرسان الهيكلء وأخذ صبر
الفرسان ينفد. وفى يتاير ١715 ارتحل أمين خزانة الهيكلء الأخ مارتين» والمرشالء
الأخ جون عبر المانيا يجمعون المال كى يرسلوا به إلى زملائهم قى دمياط - ما يكفى
ققط للعمل المستقل. غير أن أونوريوس الذى يشك فى أفضل النواياء رفض ذلك
بحسم, وقال إن امال يجب أن ينفق "على الفلايينء وغير ذلك من المعدات, أو الأجهزة
- طبقا للرؤية المسبقة للمندوب بيلاجيوس وهذا معناه أنه يقول إنه يجب ألا ينفق فى
أى غرض بناء على الإطلاق. , ومع مقدم صيف عام ١71١4 لم يكن الصليبيون قد
تقدموا أية خطوة. ودمياط: التى كانت سهلة منذ عام, لم يتم الاستيلاء عليها بعد.
وقضى المرض على الكثير من المسيحيين فى المعسكر وعلى السفن المزدحمة القذرة
المحشورة. وعلى الشاطئ» أخذت مجموعات المسلمين المغيرة تضايق الجيش وتزعجه
بلا انقطاع؛ وكان ويليام دى شارتر أحد ضحاياهم. ذلك أنه حين كان يصد هجوما فى
5١ يولية أصيب بجرح بليغ 235

حتى أنه اضطر إلى الاستسلام بدلا من إعاقة إخوانه. ومات بعد ذلك بوقت قصيرء بعد أن أصيب بمرض مرعب - قد يكون الإسقربوط الذى ألان لثته وعظام ساقيه. إذ كان سببا شائعا للوفاة هذاك. وفى حرارة شمال مصر ال مويوّة فى أغسطسء تم انتخاب معلم جديد على عجل: هو بدرو دى مونتيجيوء من مواطنى أرجون. وكان سابقا معلم الهيكل فى بروقانس وإسبانيا؛ وعلى الرغم من أنه كان مسيحيا تقيا مثل مواطنه بيلاجيوسء فإنه كان محاريا محنكا حتي أنه لم يكن ليتوقع تحقق نبوءة ضعيفة التفسير. ومع ذلك. وفجآة, بدا أن النبوءة سوف تتحقق بالفعل. إذ تلقى الفرنجة زائرا غير متوقع: إنه فرئسيس من أسيسى. ذلك أن القديس الرقيق قام بزيارة لسلطان القاهرة, الذى أحسن استقباله؛ ويعد ذلك بوقت قصير سلمت رسالة مدهشة للمسيحيين. لو أنهم تركوا بلاده. حسب قول السلطان» سيعيد لهم الصليب الحقيقي, والجليل: ونصف فلسطين بالكامل. والقدس أيضا. وسوف يحتفظ بقلاع الكرك ومونتريال فى أولترجوردينء - وقلعة رينولد دى شاتيون كموطئ قدم - لكنه سوف يدقع إتاوة لهم: لقد كان رد فقرسان الهيكل وغيرهم من المسيحيين أكثر إثارة للدهشة من عرض السلطان. إن قدمت لهم المدينة المقدسة؛ والصليبء والناصرة. وبيت لحم وكل ما بينها من أراض لهم على طبق؛ وما عليهم إلا القبولى. ودون المزيد من الصراع سوف يكونون مرة أخرى سادة على كل ما فقدوه تقريبًا. ولكنهم رفضوا العرض. رفضه بلاجيوس لأنه اعتبر أنه يجب على كل مسيحى ألا يتعامل مع كافر. ومونتيجيو وثميره من القادة العسكريين الذين اعتادوا أن يفعلوا ذلك حين كان ضروريًا رفضوا هم أيضاء ولكن لأسباب أكثر عملية. إذ تم تفكيك تحصينات القدس, والمدينة مفتوحة. وحتى لو لم تكن كذلك. فإن القيمة الاستراتيجية للكرك ومونتريال جعلت العرض تقريبًا عديم القيمة. فجيوش المسلمين يمكنها أن تدخل فى أى وقت

وتقوم بالهجوم؛ وفى واقع الأمر كان هذا ما السلطان ينتويه بالفعل. وحين خمن فرسان الهيكل تخمينا سليما مرة أخرىء قرروا أنه بما أن مثل هذا العرض قدم فى الوقت الذى كان فيه تقدمهم صغفيرا جداء فمن الممكن أن تكون مصر أكثر ضعفا مما بدا. وبدا أن هذا الإدراك قد بث فيهم طاقة جديدة» وفى هجوم مباغت تم الفوز بدمياط أخيرا. كان ذلك فى ه نوفمبر 9١١؟ استفرقت هذه المدينة الصفيرة الوحيدة اثتين وسنين يوما للاستيلاء عليها. داكل الأنتوان وهدوا لمكان يعتلئ بالجثد. إذ إن الطاعون كانت ضريته أقسى من ضربتهم. . وكان مشهدا يثير التقزز: 'وجدنا جكثا فى البيوت. فى غرف النوم وعلى القراش؛ الابن يجاني الأب والجارية بجانب السيدة؛ لقد قتل الموتى الأحياء". ووجدوا ذهيا وفضة, وحريرًا وكل صنفء آخرء - وجدوا كنوزا أوحت بالطمع» حتى أنهم هم الذين أفسدوا جهدهم . واستمرت الحرب الصليبية لعامين خرن واكتد رف عل 13 لوعت ا يبا فى دمياط. ولم يتقدم الفرنجة أكثر من عشرين ميلا فى النيل. وأبقتهم هناك مجرد إشاعات صغيرة: كل منها كانت أكثر ميلا للخيال من سابقتها. إذ قيل إن فريدريك الثاني فى طريقه لمساعدتهمء. ووصلت بالفعل قوة ألمانية كبيرة لكن فريدريك لم يصل. ولم يكن بيلاجيوس راغبا فى التحرك دوته. وكان قرسان الهيكل مقيدين بقسمهم للباباء وأصغوا فى صمت حين أبلغهم بيلاجيوس عن نبوءة عن وفاة السلطان, من الواضح أنها أحدثت فرحاء وعن بريستر جون جديدء: يفترض أنه يقاتل الكفار بعيدا فى الشرقء مع أنه لا بد أن يكون قد بلغ مائة سنة إذا كانت الأخبار الأصلية عنه صحيحة. وبذل الأخ إيمار فى باريس أقصى حجهده. وحصل على تعليمات من أونوريوس بإرسال ٠٠٠١ماركء من أموال الكنيسة. أو أكثر من ذلك إن كان هذا ضروريا‎ء إلى إخوانه الغاضبين المحبطينء. فأرسل ١7٠٠٠١ مارك ولم يتلق سوى الشكر على جهده. وتمكن بيلاجيوس من تبديد المال؛ فأبحر ملك القدس إلى الأراضى المقدسة وهى يشعر بالاشمئزانء بدرو دى مونتاجيى بعد وقت قصيرء إذ كانت قلعة 237

الحاج تحت الحصان. وفى تقارير دى مونتاجيو يمكن للمرء أن يستشعر ما
أحس به من راحة لهذا! العمل. ولكن حين عاد إلى دمياط فى توقمبرء صمد الحصار
بتجاح:؛ ثم صد العدو ووجد بيلاجيوس والآخرين حيث تركهم بالضبط. ولم يجد
مونتاجيو فى شخص بيلاجيو أيا من التبصر الذى اثنى عليه أونوريوس. ولم يجد
سوى الحمق. وكان الصيف فى مصر فى ذلك العام حار وجافًا بشكل استثنائى وجلب
الجفاف الموت للمصريين أكثر مما فعل الصليبيون. وكانت هذه آخر فرصة للقيام
بهجوم منسق على القاهرة. غير أن مماطلة بيلاجيوس جعلت الصليبيين المحبطين
ينحدرون إلى الشجار والقتال مع أنفسهم. ولاحت من السلطان مفاتحات جديدة من
أجل السلام, وكانت هذه المرة أكثر كرما؛ بالإضضافة إلى جميع الاقتراحات السابقة, تم
عرض تعويض نقدى مقابل إعادة تحصين القدسء مع هدنة مدتها ثلاثون سنة. وينفس
السرعة السابقة "مندوب سيد معين” (كما أسماه دى مونتيجيو بسخرية ذابلة) رفض.
وأخيرا قرر القيام بعمل ماء لأن التعزيزات الألمانية كانت قد وصلتء وكان لا بد من
القيام بعمل لإعادة الهدف للجيش. ولكن لم يكن ثمة ما هو أسوأ من هذا التوقيت كان
الوقت منتصف الصيفء وكان فيضان النيل متوقها فى أى يوم. فى 11 يولية .151١
بدأ بيلاجيوس الزحف, وأخذ يقود رجاله باستخقاف إلى حتفهم. لقد أبحرت ستمائة
وثلاثون سفينة ببطء فى النيل. وعلى الشاطي؛ ركب خمسة آلاف من الفرسان مع أربعة
آلاف من الرماة وخلفهم أريعون ألفًا من المشاة. وتقدموا لمدة اثنى عشر يوما فى
الضفة الشرقية للنيل. متجاهلين التجمع الإسلامي الذى كان يحيط بهم على الضفة
الغربية ثم بد يجرهم. وفى يوم السبت 54 يوليه وصل المسيجيون إلى البحر الصغيرء
أحد روافد النيل. وعلى الجانب المقابل تم جمع جيش من المسلمين؛ وحين قام
المسيحيون بتقييم الموقف. أدركوا برعب بطيء رهيب أنهم مطوقون, وأنهم أقل عددا.
ولما لم يتوفر لديهم بديل آخرء حاولوا التقهقر؛ وعلى الفور تم فتح البوايات الصناعية
على الضفة الشرقية فتدفق الفيضان. فمات الصليبيون فزعا وهم يغوصون 236

فى الوحل والماء. يلاحقهم المشاة من النوبيين والفرسان من الأتراك» فى حين كان فرسان الهيكل يقاتلون في معركة لحماية المؤخرة. وكتب دى مونتيجيو بعد ذلك لإخوانه فى إنجلترا: 'فقدت مؤننا» واكتسح مجرى الماء الكثيرين من رجالناء ولم نتمكن من إحراز أى تقدم. واستمر الماء فى الارتفاع, ففقدنا جيادنا وأسرجتنا وأمتعتنا وكل ما كان لدينا. ولم ندر إلى أين نفرء ولما كنا كالسمك فى المصيدة, لم يسعنا سوى المناداة بالسلام." كان بيلاجيوس قد هرب. والآن كان عليه قبول السلام مع الكفار - سلام غير مشرف. ومع ذلك كانت شروط السلطان نتسم بالرحمة: سيتم تيادل جميع السجناء. وسيتسلم الفرنجة الصليب الحقيقى. وما عليهم سوى ترك مصر وقبول هدنة مدتها ثمانى سنوات. وإلى أن يتم بدء الصليبيين في الرحيلء سلم بيلاجيوس ودى مونتيجيو مع اثنين وعشرين من القادة الروحيين والعسكريين كرهائن؛ وقى 4 سبتمير أبحروا هم وغيرهم من الناجين بعيدا عن دمياط, مع دخول السلطان إليها مظفرا. لقد أسهم الإيمان الدينى الساذجء والتصلب الذى يخلى من اللياقة. والقيادة غير الكفأة كلها فى حدوث هذه النهاية البشعة المثيرة للشفقة. ومع هبوط الجثث المسيحية كالدوامات فى النيل؛ عرف بيلاجيوس أنه لا يملك ما ييرر بذل كل هذه الجهود - حتى الصليب الحقيقى لم يكن معه. ذلك أن السلطان. فى نهاية الأمر لم يكن قادرا على العثور عليه. بعد حكاية حزينة كثيبة مثل هذه. قد يكون من المريح أن نلتفت إلى حرب فريدريك الصليبية. وقد لا تكون الفكاهة من بين صفات فريدريك الشخصية. غير أن ظروف وأحداث رحلته إلى القدسء وعلاقاته بفرسان الهيكل مليئة بالسخرية؛ حتى إننا حين نراها بمعايير اليوم؛ نجد أنها تقترب من المهزلة. ذلك أن فريدريك نفسه كان من أغرب الناس فى ذلك الزمانء - يل ريما كان أغرب الرجال الذين التقى بهم فرسان الهيكل. إلى حد ماء (ريما أى بسبب) كونه كان تحت وصاية أحد البابوات وتلميذًا لبابا آخر, نشأ ولديه تقريبا عدم اعتبار تام للكتيسة الكاثوليكية الرومانية. وكان بالمولد تصف

ألمانى ونصف نورماندى؛ لأكنه, إذ ربي فى صقلية مملكة أمه بما بها من ثقافة نصسف إغريقية ونصف عربيبة» وورث إمبراطورية أبيه فى ألمانياء فقد جمع عناصر من الإسلام والمسيحية. وتخطاها جميما. وكان يتكلم ست ثئفات» بطلاقة, ليس فقط الألمانية والفرنسية والإيطالية» وإنما أيضا كان يتكلم اللاتينية واليونانية والعربية. وكان فيلسوفا بجانب كونه مفكراء يفكر ينفس الطلاقة التى كان يتكلم ويكتب بها. وكان يحيا حياة متحررة طليقة؛ كما كان ذواقة للطعام والشرابء ولما كان يعيش فى زمن يمكن للعقل القوى فيه أن يحيط بجميع المعارف السائدة, فكان يفهم العلوم الطبيعية, والرياضسيات. والفزياء, والهندسة: والفلك والطب. وكان اسم شهرته يعبر عن ذلك: أعفوية الدها: غير أن اسسم الشهرة هذا يعبر عن محدودية أى قصور أوريا. إذ إن فريدريك كان يمكن أن يكون غير عادى فى مصر أو بيزنطة: لكنه لن يعد خارقا للعادة. فى أوربا كان تقريبا غير مفهومء لذا كان يقير الخوف وإم يكن جديرا بالثقة. إذ كان يفتقر إلى الفضائل البسيطة: فلم تكن صداقته ثابتة, ولا يرجع عن عداواته؛ فكان قاسيا ماكراء - ولا غرو فى أنه كان أنانيا. ويااعتباره إمبرطور! رومانيا مقدساء فلم يكن من يفضله؛ حتى البابا نفسهء قبما أن الرب يباركه؛ فلم يكن يقبل أية عقيدة دينية جامدة ما لم تتلاعم مع خطته السياسية. وكان ينتقد المسيحية بحرية وصراحة. ويستخدمها متى شاء كأداة للتوسع ولا شىء عدا ذلك. وحين توج ملكا عام 1716: أعلن مباشرة عن رغبته فى القيام بحرب صليبية فى أقرب وقت ممكن؛ غير أن تبنى الصليب لم يكن سوى طريقة للفوز بحماية البابا وهى يجكم قبضته على أجزاء من إيطاليا. وفى عام :59 فوح إسبْرَاطورا زوفاتيا متقضناء ويشكل أق أعر شكق فرتريك القنسز الطموح من البدء الفعلى فى حرب صليبية لمدة اثنى عشر عاما. ذلك أن البابأ أونوردوس الذى علم فريدريك حين كان طفلاء كان رجلا بسيطا ساذجا يقبل كل عذر على علاته؛ لكن أونوريوس مات عام 17717: وكان خليفته جريجورى التاسع الذى كان بالمناسبة ابن عم أنوسينت الثالث, أقل صبرا. وكان يراقب من على الهامشء وبسئُم من 240

إضاعة الوقت الذى كان يمارسه فريدريك. وحين صار جريجورى باباء لم يضع وقتاء وحرم الإمبراطور من الكنيسة. فلما شعر فريدريك بالإهانة العميقة بدأ فى حرب صليبية دون إبطاء. وبدأت المهزلة الكبرى؛ ذلك لأن الكنيسة لم تكن تسمح لشخص محروم من الكنيسة بالاشتراك فى حرب صليبية ناهيك عن قيادتها. وقوق ذلك, فإن أى شخص يساعد شخصًا محروما من الكنيسة أ أية بلدة تأويه, تقع تلقائيا تحت الحظر أيضا؛ وكان فقرسان الهيكل يراقبون النذر مع اقتراب فريدريك. فهم أقسموا على أن يكونوا خدما للبابا ويلزمهم القسم على كل حاج وكل محارب صليبى - كما كانوا ملزمين بتجنب أى اتصال بالمحرومين من الكنيسة. وهذه المحنة تيدى كوميدية» فى هذه الحالة» ومع ذلك, فإن حلها بالنسبة لفرسان الهيكل كان يعنى أكثر من الموت والحياة, لأن القرار الخاطئ يعنى اللعنة الأبدية. لقد وصلت حرب فريدريك الصليبية إلى عكا فى أوائل سبتمبر عام 558 ١ء وكان أول ما علمه فريدريك تقريبا أنه محروم من الكنيسة بشكل مضاعف - الحكم الثانى لأنه دخل فى حرب صليبية بشكل غير شرعى. لا بد أنه شعر بما يشعر به من حكم عليه بالإعدام مرتين: فالحكم الثانى لن يحدث فرقا كبيرا. غير أنه اكتشف أيضا شيئًا آخرء اكتشف شيئئا يمكن أن يحدث فرقا: ذلك أنه غير مرحب به فى الأراضى المقدسة:, وغير مرغوب فيه وبلا دعم تقريبا. ولم يكن حرمانه مرتين من الكنيسة سوى جزء من السيب فى ذلك؛ فعلى نفس الدرجة من الأهمية حقيقة أن بلاد ما وراء البحر قد صارت أكثر قليلا من مجرد مجموعة من المدن والقرى والقلاع يعتمد استمرارها على السلام مع المسلمين. وكان هذا السلام فى ميزان حساسء يتوقف بدوره على الانقسامات المستمرة بين الدول الإسلامية. بل أن فرسسان الهيكل والإسبتاليين كانوا أقل ميلا للحرب مع المسلمينء وكانوا لعدة سنوات ينفسون عن عدوانهم ضد بعضهم بعضا؛ غير أنهم نسوا خلافاتهم مؤقتا على الأقل حين اتضح أن فريدريك سبوف يثابر فى حربه الصليبية» مهما يكن. ذلك أن معارضتهم اللفظية لم تجعله يتراجع؛ وحين بدأ هو وجيشه الصغير يتجهون جنوياء كان لا بد من اتخاذ قرار: هل يقاتلون معه أم لا؟

وكان الحل مبتكرا وسخيفا. فمع تقدم القوات الإمبراطورية. سار فرسان الهيكل فى موازاتهم؛ مدعين أنهم ليست لديهم علاقة بفريدريك أو رجاله؛ وتصادف فقط أنهم يسيرون فى نفس الطريق. غير أن هذا الحل لم ينجح لوقت طويل. ذلك أن القوات المنفصلة جعلت نفسها عرضة أكثر للمغيرين المسلمين بدلا من أن تقلل منهم. لذا تم تبنى حل ثان: إذ ركب فرسان الهيكل مع الإمبراطور وأطاعوا أوامره - بشرط أن يصدر الأوامر باسم الرب والمسيحية, وليس باسمه المحروم من الكتيسة. تقد كان فرسان الهيكل مخضرمين فى المفالطة والسفسطة. ذلك أنهم, منذ قرن» حين كان ميثاقهم يدون» كان هناك حظر على السير فى أماكن معينة تبعته المادة التى تقول: 'وحيث لا يسير أحد الإخوان» لا يمكنه أن يوجه حصانه أيضا". لكن الجهود التى بذلوها مع فريدريك كانت أكثر من سبل للى الميثاق؛ ذلك أنه قد بدا أن فريدريك. أقل الصليبيين احتمالا؛ قد يستعيد الأراضى المقدسة بالفعلء - ولم يكن قرسان الهيكل يرغبون فى أن يتركوا خارج الموضوع. وكان فريدريك يستخدم الدبلوماسية دون وجود تعصب بيلاجيوس الذى كان من الممكن أن يعيقه. لقد كانت القدس تتبع الكامل. سلطان القاهرة, الذى أوضح مرتين أنه مستعد لتسليم المدينة. إذا أمكن لهذه الحركة أن تساعد على تحقيق يق هدفه فى حكم جميع باد المسلمين. وكان هدف فريدريك هو أن يحكم جميع بلاد المسيحيين؛ ويريد القدس لنفسه. وليس "لجمهورية البابا المسيحية". من الواضح., إذنء أنه يمكنه اللتعامل مع السلطان. وفى بضعة أشهر تم كل شىء. ذلك أن فريدريك وافق نيابة عن الفرنجة الفلسطينيين (وأن يكن دون مواققتهم). على دعم الكامل. والسلطان بدوره. أعاد للفرنجة الناصرة والجليل الفربي؛ والأراضي الإسلامية حول صيدة؛ وبيت لحم والقدسء وممر برى من هناك إلى الساحل. وتم التوقيع على المعاهدة فى ١6 فبراير عام ,١714 - إنه نصر غير دموى حقق بقلم محروم من الكنيسة:؛ أكثر مما فعلته أريعون عاما من الحرب الصليبية المشروعة. 242

دخل فريدريك الأراضى المقدسة يوم السبت ١٧ مارس. وفى يوم الأحد بحضور أبناء وطنه فقطء توج نفسه ملكا على القدس؛ ويوم الإثتين» وصل رئيس أساقفة فيسارية وهى يلهث غضباء لتنفيذ المنطق الصارم العقيدة الكثوليكية فى ما يمكن أن يكون الحركة العبسية الأخيرة فى الحرب الصليبية المتناقضة. وتم حرمان القدس أيضا من الكنيسة وهى يؤرة المسيحية, وذلك لوجود الإمبرطور المحكوم عليه بها. حقيقة الأمرء هى أن أحدا لم يرد انتصارا من هذا النوع. كان نصرا غير سليم أي مناسب استراتيجياء لن يمكن الدفاع عن القدس دون إحكام القبضة على الأراضى المحيطة يها؛ ولا فائدة ترجى من ممر ضيق بائس إلى الساحل. وروحياء لم يكن مما يطاق أن يدخل رجل ممنوع من الذهاب إلى هناك رغم المنع؛ وأخلاقياء لقد أساعت هذه المعاهدة إلى جميع ما تم من تدريب عسكرى أن يتم الفوز بالمعركة بالكلمات. ذلك أن فرسان الهيكل؛ على وجه الخصوص, كانوا يغلون غضبا لأنه حسب المعاهدة بقيت منطقة الهيكل بأكملها مع المسلمين. لفترة ماء تجاهل فريدريك جميع الانتقادات: وتفقد القدس. وعنف المؤذن المحلى على تقصيره فى رفع الأذان المعتاد. احتراما لحاكم المدينة الجديد. وقال: "إن هدفى الرئيسى من قضضاء الليلة فى القدس هو سماع الأذان» وصيحات حمد الله فى أثناء الآيل.وذان قبة الصهرة: وأظهر معرفته باللغة الفزيية يتوزية فشيئة: اذاكاتت هقاك شباك عند أبواب هذا المكان المقدسء قيل له إن الهدف منها صد العصافير. والكلمة باللغة العربية هى عصافيرء وهناك كلمة ختازير. فقال فريدريك باللفة العربية: "أرسل الله الخنازير بدلا من ذلك!" لكن اتجاهه المعالاى للمسيحية علنا لم يجعله محببا لدى المسلمين. بسبب مظهره: إذ علق كاتب مسلم: 'لديه جلد أحمرء وهى أصلع وقصير النظر. لو أنه عبد لن يساوى مائتى درهم. ومن الواضح مما قاله أنه مادى وأن مسيحيته كانت ببساطة لعبة بالنسبة له". وعلى الرغم من ذكاء فريدريك الساخرء لكنه لم يفهم أن الدين, بالنسبة لمعظم الناسء فى غاية الخطورة. فجعلته الأحداث بعد أنقلابه فى القدس يعى ذلك بشكل حاد. وشن البابا حريا صليبية ضد فريدريك نفسه. 223

بالقتال على أرض المانية فى إيطاليا؛ وحاول فرسسان الهيكل فى الأراضى
المقدسة إغراء السلطان الكامل بقئله. وحين كان فريدريك عائدا من القدس بسرعة.
وضع سياجا من الجنود حول دار فرسان الهيكل في عكاء مهددا باختطاف المعلم»
بدروى دى مونتيجيو ويهدم قلعة الحاج. غير أن القلعة كانت بها حامية شديدة لا تقدر
على هزيمتها مثل هذه الأعمال النزقة» وكان دى مونتيجيو محاطا بحرس شخصى
طوال فترة بقاء فريدريك فى الأراضى المقدسة. لم يستطع الإمبراطور البقاء؛ إذ إن
الأحداث فى إيطاليا كانت آخذة فى الخطورة. وعند فجر واحد مايى عام ,1774١ أخذ
السفينة من عكاء وأمطره المواطنون بالقاذورات والسباخ. وغادر الأراضى المقدسة
أنجح الصليبيين جميعاء تغطيه القاثورات وتصحبه اللعنات. وفى وقت متأخر. من عام
174٠ وصل خطاب من فلسطين إلى الهيكل فى لندن. "أرمان دى بيجوراسء برحمة
الرب المعلم المتواضع للفرسان الفقراء فى الهيكل إلى أخينا العزيز فى المسيح روبيرت
دى سانفوردء. مدرس هؤلاء الفرسانء فى إنجلتراء محييا ياسم الرب!؟" لقد كان عقد
الثلاثينيات قاسيا بالنسبة لفرسان الهيكل فى الشرق. ذلك أن يدرو دى مونتيجيو مات
عام ؟5□1١؛ وفى عام /17717, قتل أكثر من مائة من الإخوان فى معركة واحدة؛
ومات الكامل, السلطان المصرى المسالم فى 48□□١؛ وفى عام 1759١ ضاعت القدس
مرة أخرى. لكن عقد الأزيعينيات يدأ يداية جيدة, ويدا أنه مبشر؛ وقد شرحت الرسالة
القادمة من بيراجورس سيب ذلك. أنرغب فى أن تعلم جماعتكم أنه ... ليس خوفا من
الشعب المسيحىء وإنما من خلال فعل معجز من الرب» أعاد سلطان دمشق إلى
السيطرة المسيحية جميع الأراضى حتى نهر الأردن دون أن تمس... فليبارك الجميع الله
الذى فعل هذا كله". 204

أقد كان ضياع القدسش أمرا نصف متوقع؛ ذلك أنه حسب شروط معاهدة فريدريكء لا يملك سوى إعادة تحصينها و - لعلمه أن أول المستفيدين سيكون فرسان الهيكل - كان يرفض باستمرار إعطاء الإذن. وما إن انتهى مفهول المعاهدة فى عام هاجم المدينة التى ليس لها دفاع أصير الكرك المسلم. واستولى عليها دون صعوية كبيرة - تماما كما توقع فرسان الهيكل. ولكن هم أيضا استطاعوا أن يلعبوا كدبلوماسيين. كما بينوا ذلك كثيرا؛ وكان فصل الدمشقيين لغرب الجليل مدينا لدبلوماسية فرسسان الهيكل أكثر من التدخل الإلهى. ذلك أنهم كانوا انتهازيين كالعهد بهمء فاقتريوا من سلطان دمشق مقترحين تحالفا ضد الخليقة الكامل فى القاهرة؛ ومكافأة على دورهم فى المفاوضات أعطوا قلعة صفد القوية. وصفد الواقعة على بعد خمسة وسبعين ميلا شمال غرب قلعة الحاج» وما يقرب من خمسة عشر ميلا عن بحر الجليل, كانت مهدمة جزئيا: واكن فرسان الهيكل عمروها بسرعة ووسعوفا. واليوم, على الرغم من أنها صارت حطاما مرة أخرى, ما زالت تسود المنظر الطبيعى هناك؛ وحين كان فرسان الهيكل سادة صفدء وعتليت, كانوا يتحكمون فى جميع مرتفعات الجليل. ولقد كانت الحامية فى صفد تقريبا تصف حامية عتليت, إذ كانت أقل قليلا من ألفى رجل؛ ولكن بالمقاييس فى البناء والسكان, كانت كل قلعة مدينة فى حد ذاتها. مع ذلك. فإن صفدء على الرغم من موقعها الاستراتيجى المهم, ريما لم تكن ليعاد تحصينها مرة أخرى مطلقا ولا تشجيع رجل واحدء هو بينديديكت أسقف مارسيليا. ففى وقت الهدنة بين فرسان الهيكل والدمئشقيين: كان فى الأراضي المقدسة في رحلة حج بالصدفة. وابتهاجا منه بهذه الفرصة: قام بزيارة أماكن دمشق المقدسة؛ وكان منبهرا بخوف المسلمين الواضح من صفد كما كان منيهرا بدمشق نفسها. ولكن عند العودة إلى الساحل عن طريق القلعة» وجد أنها مهجورة؛ إذ لم يكن يعسكر هناك سوى قليل من فرسان الهيكل. وفى عكا اكتشف سبب هذا النقص فى النشاط؛ كان دى بيرجورس مريضًا وملازما للفراش, يشعر بالاكتئاب والإحباط. وحوارهما مسجل. 245

قال دى بيرجورس: 'سيدى الأسقفء ليس من السهل بناء صفد.. إن ملك نافار» ودوق بيرجاندىء وكونتات وبارونات الشرقء وعدوا جميعها بالحضور إلى صفد. حتي نعمل بسرعة وبشكل أكثر أمنا؛ وقالوا إنهم سوف يبقون لمدة شهرينء وسوف يقدمون ٧٠٠٠ مارك لنفقاتنا. لكنهم رحلوا جميها؛ وأنت تقول لنا الآن أن نعيد بناء القلعة دون أية مساعدة. لكن بينيديكت اعتنق الفكرة. ولم يكن هناك ما يثنيه. فأصر وأخيرا - رغبة من دى بيرجورس لتهدئته - وافق على مناقشة الأمر مع إخوته. وأشار مرة أخرى إلى نفقات المشروع» فوعد بينيديكت؛ الذى كان دعمه تفرسان الهيكل فى ذلك الوقت استثناء بين رجال الدين» بأن يصلى ويعظ نيابة عن الإخوان. ونجح المشروع: "كان الفرح عظيما فى دار الهيكل وأهل عكاء وكل أتحاء الأراضى المقدسة. ودون إبطاء اختار فرسان الهيكل لجنة من الفرسان والمراسء ورماة السهام»؛ وغير ذلك من المسلحين؛ وجمعوا مجموعة من الدواب» وفتحوا أجرانهم, والقياء والخزن وكل ما لديهم لدقع التفقات هم أنفسهم؛ وأرسلوا مقدما فرقًا من بناة الحجارة ولغوا دين" وبارك بينيديكت العمل» بوضع كأس من الذهب والفضة به نقود على حجر الأساس بوصفه قربانًا. ويعد ذلك يوقت قصير عرف عجوز مسلم الإخوان مكان بثر ماء عذب ثمنا لرداء؛ وحين عاد بينيديكت بعد ذلك بأربعة أعوام, وجد القلعة أوسع مما كانت» ويها سبعة أبراج واستحكامات للمجانيق لحمايتها. لقد كان العثور على البئر هى أرخص جزء فى العملية بأكملها؛ ذلك أن الأرقام المقتبسة لبناء وصيانة صفد تدير الرء وس. التشييد: ٠٠٠ بيزنتة. استكمال فى زمن السلم: ألف وسبهمائة رجل. زمن الحرب: ألفان ومائتا رجل. مون سنوية: اثنا عشر حمل بغفل من القمح والشعير, بالإضافة إلى جميع الأصناف الأخرى من الفاكهة, والخضروات واللحوم. العجز السنوى فى مقابل دخل المقاطعات: 2 ميؤتحة: وَجِدِن يَفكن المره فى آن ذاك كان واحدا من ثلاثة عشر فى الأراضى المقدسة: وأيست أكبرهاء يتبدى جشع فرسان 246

الهيكل الأسطورى. ويصبح عدم استعداد بيرجورس لتحمل المشروع الهائل شيئًا مفهومًا. ذلك أنه وضع هو وإخوانه فى دائرة مفرغة فظيعة: إن أصبح المسيحيون فى كل مكان يعتبرون حماية فرسان الهيكل للأراضى المقدسة أمرا مسلما به. ودون حض من واعظ ملهم مثل الأسقف بينيديكت صاروا غير راغبين فى الإسهام فى تكلفة الحماية - كانت ميزانية الدفاع خارج جيوبهم. ولكن حين جمع فرسان الهيكل النقود عن طريق التجارة والتمويل، وكان المسيحيون الطيبون مغلولى اليد هم أنقسهم أول من اشتكى واستنكر. ومما زاد من العوائق أمام فرسان الهيكل - مع أن المرء يمكن أن يخمن أنهم لم يفعلوا الكثير للإقلال منها - أن فرسان الإسبتاليين كانوا يراقبون ما يحققون من تقدم بعين الحسد والغيرة. فمنذ عام 1771 كان هناك تحالف غير مريح بين قرسان الهيكل والإسيتاليين، قائم على عدم ثقتهم المشتركة بالإمبراطور فريدريك الذى كان لا يزال يتدخل فى حكم بلاد ما وراء البحر. غير أن الفوز بصفد كان أمرا من الجسامة بحيث لا يمكن أن يتحمله الإسبتاليون. وفجأة انفجرت المتاقسة التقليدية بين الجماعتين إلى حرب مكشوفة. إذ عقد الإسبتاليون معاهدة مع سلطان القاهرة فى تعارض مباشر مع فرسنان الهيكل، ووقفوا إلى جانب فريدريك فى معارك الحكم. ولمدة ثلاث سنوات، قاتلت الجماعتان كل منهما الأخرى بنفس الضراوة التى كانوأ يقاتلون بها المسلمين فى الأوقات العادية إلى أن تمت تسوية هذه المعارك: كان القتال بينهما يجرى فى شوارع المدن, وفى الريفء. وحول قلاع كل منهما - فى أى مكان؛ وفى إحدى المرات، فرض فرسان الهيكل المصار على دار الإسبحاليين فى عكاء مع جميع أنواع الحظر المعهودة: إذ لم يسمح بدخول الطعام إلى المبنى، بل ولم يسمح للمحاصرين بأن يخرجوا ليدفنوا موتاهم. وتصرف الجانبان بالضبط كجمهوريتين مستقلتين داخل المملكة؛ ولم يعد السلام بين الجماعتين إلا فى عام 1747 حين حسمت أخيرا الوصاية على العرش. وتم إلغاء تتويج فريدريك لنفسه؛ وتم الإعلان عن ابنه كونراد ملكا شرعيا على القدس؛ لكن كونراد, الذى كان يعيش فى إيطالياء ثم يرد أن يذهب إلى الشرق، 247

لذا انتقلت الوصاية على العرش إلى الوريث التالى عمة أبيه. ملكة قبرص
الأرملة. وقد تم التوصل إلى هذا القرار غير المحتمل عن طريق الالتزام الحرفى
بالقانون الفلسطينى وعلى الرغم من أن فرسان الهيكل كانوا يعتيرون أنفسهم فوق
القانون, فإن هذا هو القرار الذى داقعوا عنه. ذلك أنه من الناحية السياسية كان يعنى
أن سياستهم الخارجية هى التى فازت وليست سياسة الإسبتاليين: أى أن الحليف هو
دمشق وليس مصر. ومما يشير السخرية» أن ضياع القدس تم التعويض عنه قبل ذلك
بعامين, عن طريق معاهدة الإسبتاليين مع المصريين. وهكذاء بدمج الاتفاقيتين»
تضخمت فجأة مملكة القدس لتشمل جميع أراضيها القديمة تقريبا؛ وبقليل من المناورة
الدبلوماسية استعاد فرسان الهيكل مقرهم القديم - هيكل سليمان. وكتب أرمان دى
بيرجورس بانتشاء إلى زملائه فى إنجلترا: "... وفوق ذلك من أجل تحصين أراضينا
والدفاع عنها نقترح بناء قلعة شديدة القوة بالقرب من القدسء نأمل يواسطتها أن
نحتفظ بسهولة بكل الأراضى وندافع عنها إلى الأبد ضد الأعداء". وأضاف: 'لكننا لفن
نتمكن أبدا من الاحتفاظ بأراضينا والدفاع عنها إلى الأبد ضد السلطان (سلطان
القاهرة), فهو رجل قوى حاذقء دون الحماية القوية الممتازة من المسيح والمؤمنين'.
لقد كان هذا التحذير ببساطة عسكريًا وسياسيًاء لكنه الآن يبدى وكأنه نبوءة. ذلك أن
الشائعات كانت لا زالت رائجة عن ذلك الحاكم القوى المسيحى الغامض بريبستر جون؛
وكان لتلك الإشاعات فى الواقع أساس واه فى الحقيقة. ففى أقصى الشرق» فى
منفولياء كان هناك رجل يدعى تغرلء رئيس عشيرة كيرات الماغولية. وقبل ذلك بمائة
سنة, كانت عشيرة الكيرات قد اعتنقت المسيحية النسطورية. وكان تغرل مسيحيا من
الناحية الاسمية, فتغير لقبه أونجخان عن طريق المبشرين المسيحيين إلى صيغة أكثر
قابلية للفهم: وترجمت خان (خطأ) إلى كاهن - بيتر (أب) بريسترء - وأونج أصبح
الاسم القرنسى جان. وكانت أنباء غامضة عن أفعال المغول تتفلقل إلى أورياء
والأراضى المقدسة, ومع أنها لم تكن مبالغًا فيهاء فإن تلك الأنياء كانت تعقم بشكل ها
عند روايتها. فأصبحت أعمال الذيح المتعطش للدماء هناك فى الأراضى الجافة المعشبة

البعيدة انتصارات تحققت باسم المسيح؛ وحين قتل تغرل فى عام ١٠١7
بواسطة الخان الأكبر - جنكيز - انتقلت إلى جنكيز الفضائل المسيحية المفترضة إليه من أونجخان أو جون بريستر. وكان الناس في أوربا ويلاد ما وراء البحر يؤمنون إيمانا صادقا بأن المساعدة للأراضى المقدسة لن تأتى فقط من القرب: وإنما من الشرق, من جنكيزء وعائلته مؤسسى الجماعة الذهبية؛ وفى عام 44١ ظهر فى فلسطين رجال من الشرق. وكتب أحد المعاصرين من الغرب: "رجال! إنهم وحوش وليسوا بشراء يفضل أن يسموا مردة وليسوا بشرا. أنهم يتعطشون لشرب الدماءء لذا يجزرون أحجساد الكلاب, والبشر ويأكلونها. ويضعون قرون الثيران» ويتسلحون بالحديد؛ إنهم قصار القامة سمان الأجساد ولا يهزمون فى الحروبء ويعد الدم بالنسبة لهم مشرويا لذيذا". لم يكونوا مسيحيى بريستر جونء ولا هم مغول جنكيز خان, بل هم رجال الأتراك الخوارزميين: وهم قبيلة نزحت نتيجة فتوحات المغول. وهم الآن محاربون جائلون يبحثون عن وطن؛ مستعدون لبيع قوتهم لمن يشترى؛ فاشتراهم سلطان القاهرة. فى ؟ يولية 175114؛ بعد أقل من سنة من تحذير دى بيرجورس التنبؤى: - اقتحم الخوارزميون القدس. ولم يتمكن من الهرب سوى ثلاثمائة من البشر. وفى أثناء فرارهم على الطريق إلى يافاء احترقت خلفهم المدينة المقدسة وكتيسة الضريح المقدس,» وتناثرت عظام ملوك القدس من قبورها. ولن تحتوى القدس أبدا بعد ذلك على جيش من فرسان الهيكل. لكن الفرسان أعادوا التجمع فى عكاء كان هناك ما يزيد على ثلاث مائة, ومعهم ثلاثمائة من الإسبتاليين» وستمائة من الفرسان من غير الدينيين» وأعداد متناسبة من المشاة - وجيش من المسلمين أيضًاء استجلب من دمشق. ولم يكن الخوارزميون يعرفون إلهًا مسيحيا أو إسلاميًا. إذ لم يكن لديهم دين على الإطلاق» وأخيرا فى هذه المرة كان للمسلمين والمسيحيين عدو مشترك. 249

بدأ الحلفاء يزحفون جنوبا فى ؛ أكتوير. والخوارزميونء تركوا القدس
تحترق» اكتسحوا البلاد كي يكونوا فى موعدهم مع مستخدمهم؛ سلطان القاهرة؛
وانتظرت الجيوش المتحدة عند غزة. وفى ١7 أكتوبر التقت القوتان - الفرنجة ومسلمو
الشمال, والخورزميون ومسلمو الجنوب» عند سهل لا فوربي؛ على بعد بضعة أميال
شمال شرق غزة. وانتهى كل شىء فى بضع ساعات. إذ تحطم حلفاء الشمال. وسقط
خمسة آلاف من الفرنجة والمسلمين موتى جنبا إلى جنب. وسلب ثمانمائة منهم كعبيد
فى مصر. ومن بين الثلاث مائة من فرسان الهيكل لم يفر سوى ثلاث وثلاثين كى
يشقوا طريقهم عائدين إلى قلعة الحاج. ورقد معلمهم, أرمان دى بيرجورس فاقد البصر
فى رمال غزة. لقد كانت المملكة فيما وراء البحر تموت موتا يطيئا مؤما. غير أن
فرسان الهيكلء فى قلاعهم ودورهم وحقولهم ومزارعهم فى صفد وعتليت وكل أنحاء
أورياء كانوا عازمين على أن تبقى جماعتهم على الأقل.

انسحقت الأرض انسحاقاء تشققت الأرض تشققاء تزعزعت الأرض تزعزعا أشعياء, الإصحاح الرابع والعشرون . الآية ؟ تقوم مدينة إيج - مورت بارزة من منظن طبيعى مسطح يلا ملامح. وعلى يقد بضعة أميال إلى الشرق يوجد سهل كإماراج الشهير؛ حيث الخيول البرية لا زالت تجرى بحرية فى الأهوار المالحة. أما شمالا وغربا فإن الأرض خصبة؛ وقى الشتاء تكون خضراء بالكروم. وإذا ما نظرت جنويا من جدران المدينة» يبدى وكأن البحر يبدأ قورا: ذلك أنه لا يؤجد الككيز هما مرى سوى ميل يعد ميل من اللياء اللتلالئة. وما هذة الفكرة إلا وهم: فعند أقرب نقطة منهاء يكون البحر المتوسط على بعد أريعة أميال. ومع ذلك قإن البحيرات الممتدة جهة الجنوب بحيرات مالحة. ولأن عمقها لا يزيد على قدم, فهى تقتل التربة, وتعطئ المدينة اسصها البروفنسى أو البروفنسائى. ففى لغة أوك, إيج مورت تعنى "مياه ميتة". إنه مكان متكبرء وحزين؛ فى آن» جميل ومهجور ومنعزل فى أن. حتي عام لم يكن هناك شىء هنا سوى قرية صيد؛ ولكن فى عام 44□1: ومرة أخرى فى عام 1017□1, مست هذه البقعة المنعزئة أحلام البطولة المقدسة. فى المدينة القديمة 251

التى لم تتغير منذ زمن الرجل الذى أعطى هذه المدينة اسمها القخمء يقف تمثال للويس كابى: أو من يعرف بالقديس لويسء أو لويس التاسع؛ ملك فرنسا. من هذه المياه الميتة, قاد لويس, الملك القديس أساطيل فرنسا مرتين فى آخر الحروب الصليبية الكبرى. ولويس الذى ولد عام ,١714 كان طفلا جادا منطويا على نقسه. أما لويس الرجلء فكان طويلا وممتلئًا قليلاًء أشقر البشرة. أشقر الشعرء جميل الوجه؛ شديد التمسك بالأخلاق: إن لم نقل إنه كان مستقيما على الدوام. ويحتفظ بشبه فى العديد من اللوحات والتماثيل التى تبين وجها وسيما عادة غير ملتح؛ دائم الهدوء والصراحة. وتظل شخصيته وأقعاله فى العديد من السير المعاصرة:؛ التى إن لم تتفق مع أقوال أخرى توافقا جيدا؛ لشك المرء فى أنها محرد مدائح؛ لأن لويس بلغ بممارسة الفضائل المسيحية إلى سمت غير مسبوق تقريبا. إذ كان رجلا دائم الوعى: وكل ما كان يقوله أى يفعله كان تحت يصر الله» ومن أجل مجد الله؛ وكل ما كان يمر به يتلقاه بوصفه ويا من عند الله. ويقدر ما يكون ذلك ممكنا. فقد كان المسيحى المثالىء وفى ذلك. كان يقارن بصلاح الدين, المسلم المثالى. وكان بشكل ماء خارج زمنه. فمثل هذا الرجل كان لا بد أن يفهم الحرب الصليبية بمعناها النقى. يفهمها على أنها واجب نحو ريه؛ وكان لا بد لمثل هذا الرجل أن يشن ويقود الحروب الصليبية. ذلك أنه منذ مائة وخمسين سنة: لم يكن ليوجد من هو أنسب لذلك الزمان؛ ولكن فى منتصف القرن الثالث عشرء كان المزاج الشعبى فى أوريا منحازا ضد الحروب الصليبية. إذ لم تنجح واحدة منها نجاح الحرب الأولى ومنذ ذلك الوقت؛ أزهقت الكثير من الأرواح وضاع الكثير من الأرأضى المقدسة؛ ومع شن حروب صليبية ضد بيزنطة والإلبيجينزيين» وفريدريك؛ فإن الدعوة البابوية للقتال من أجل الصليب فقدت الكثير من صدقيتها. ومع ذلك تحمل لويس الصليب فى عام ,١546 بعد أن شفي من مرض كاد يودى بحياته؛ وتمكن فى خلال بضعة سذوات من إحياء ما يكفى من روح الحرب الصليبية القديمة فى رعيته كى يجعل من القيام بحملة صليبية جديدة أمرا قابلا للتنفيذ. ففى بداية القرن الثالث عشرء لم

يكن ملوك فرنسا يملكون أية أراض خاصة بهم على ساحل فرنسا الجنوبي؛
لكن لويس كان قد تلقى إيج - مورت كهبة من دير الترانيم» على مسافة قليلة من القرية. فقرر بسرعة أن يحول هذا الخراب الالح إلى ميناء. وتم بناء برج للدفاع عن المدينة الجديدة؛ وتم توسيع مجرى مائى كى يكون قناة صالحة للملاحة؛ وشيدت أرصفة بحرية على طول حافة الماء. جميع تلك الأشياء ما زالت موجودة؛ وعدا ذلك؛ لم يتبق صدى لكل ذلك الضجيج والمجيج الذى حدث حين كانت السفن الجينوية المستأجرة الثمان والثلاثون تحمل الأسلحة والطعام والخيول والرجال. لقد استؤجرت السفنء التى تسع كل منها سبعمائة رجلء أو مائة جوادء عن طريق رينو دى فيشيىء رائد الهيكل فى فرنسا؛ وحين أبحر الأسطول فى 0؟ أغسطس عام 144□1: كان فيشيى ضيف شرف على الملك. وسرعان ما انضم أسطول ثان إلى الأسطول الملكى من مارسيليا. وكان هناك مسافر بارز فى هذه التجريدة هو جان دى جوانفيل الذى كتب بعد ذلك إحدى أهم السير المعاصرة للقديس لويس. ذلك أنه كان هو والملك صديقينء غير أن دى جوانفيل لم يكن راغيا فى الاشتراك فى مشروع الملك. وكثيرا ما كاد الذعر يخرجه عن صوابه من الناس والأحداث التى صادفها على مدى المشروع. ولم يكن فى ذلك ما يختلف كثيرا عن غالبية الصليبيين فى الفترات الأخيرة؛ من حيث تعاسته بسبب مغادرة وطنه, وغرابته فى الميناء واقتناعه, بمجرد وجوده فى البحرء بأنه جن جنونا تاما بأن يكون هناك. وهذا يصدق عليه كما يصدق على معظم الناس الآن كما يصدق على معظم الناس حينذاك. لقند كي "قن البنوم الذى شادوك فيه ستيه ملت فى ظلها وكيس كير شيميونء الذى أعطانى عصاة حجيء والتصريح الخاص بى. وغادرت جوانقيل مباشرة بعد ذلك - على آلا أدخل قلعتى مرة أخرى حتى عودتي من الخارج - سائرا على قدميء العاريتين وأرتدى قميصي. وذهبت وأنا هكذاء إلى بليكور وسان-أوربان» وير ذلك من أماكن بها آثار مقدسة. وفى الطريق إلى بليكور ووبسان-أوربان» لم أدع 253

ناظرى قط يلتفتا إلى الوراء نحى جوانفيل خوفا من أن يرق قلبى من
الحنين بالتفكير فى قلعتى الجميلة والطفلين اللذين خلفتهما ورائ . المؤدية إلى
الرحيل من قلبه المخزون. "فى اليوم الذى بدأنا فيه الرحيل, فتح باب دخول السفينة
وتم شحن جميع الجياد التى كانت لدينا كى نتأخذها إلى الخارج. ثم أغلق الباب
وسحب إلى أسفل؛ بنقس الطريقة التى تفلق بها دورقًاء ذلك لأنه حين تكون السفينة
فى البحرء يكون الباب باكمله تحت الماء. كانوا فى مقدمة السفينة, "هل كل شىء
ثابت" فأجابوا "أجل يا سيدئى' 'يمكن للكتبة والقساوسة أن يصعدوا". وما إن فعلوا
ذلك. صاح قائلا: "باسم الرب؛ انشدوا أغنية:* ففنوا جميعا معا فيا يا روح الرب؛؛ فقال
رئيس السفينة للبحارة "باسم الرب أبحروا!" وهكذا أطلقوا الأشرعة". : لقد كان ذلك
هو نقطة الودا ع لجوانفيل أكثر من تركه لقلعته. 'وسرعان ما ملأت الرياح الأشرعة ولم
نعد نرى الأرضء بل لم ثر شيئًا سوى السيماء, والماء؛ وفى كل يوم كانت السقن تأخذنا
بعيدا عن الأوطان التى ولدنا فيها. إذن ما أحمق الرجل الذى يخوض مثل هذه
المخاطرة! - لأنك حين تنام فى الليل لا تدرى ما إذا كنت ستجد نفسك فى الصباح فى
أعماق البح" . لكنهم وصلوا إلى قبرص دونما مزيد من المنفصات سوى دوار اليحر»
ويعد أن قضوا الشتاء هناك فى راحة, انطلقو! مبتهجين فى أواخر مايو من عام
149‌1: بأسطول أكبر كثيرا. كان منظرا جميلا؛ فعلى مدى الرؤية» بدا البصر كله
مغطى يمناشف؟ يبسسيب أشرعة السفنء التى كان عددها كبر أم صغرء ألفًا وثمانمائة
سفينة. 2534

ذلك أن الجيش كبر يشكل متناسب؛ إذ يوجد الآن ألفان وثمانمائة من الفرسان, ومشاة لا حصر لهم؛ وكذلك رماة. وكان الطريق الذى اختاروه هو الطريق نفسه الذى اختاره آباؤهم فى عام :1214١ دمياط, القاهرة, ثم الأراضى المقدسة. فى هزه المرة كان هناك سيب إضاقى لهذا الاختيار؛ عسقلان كانت قد سقطت فى عام 11817/ وبعد فتح القاهرة. سيكون استردادها هو هدفهم الأول. لكن بين قبرص ودمياط كانت كارثتهم الأولى - إذ هبت عاصفة ويعثرت الأسطول الكبيرء حتي أن بعض السفن أزيحت إلى مسافة بلغت عكا. ولم يتزل مع الملك دمياط سوى سبعمائة من الفرسان فقط و ... هناك وجدنا جميع قوات السلطان على شاطئ البحر: يعجيك منظرهم, لآن جميع أسلحة السلطان من ذهب, والشمس أشرقت على الدروع الذهبية. والضوضاء التى أحدثوها ينوافيرهم ونواقير المسلمين تبث الرعب فى القلوب. وبعد أن قفن لويس فى الماء بدرعه ورمحه. أخذ يشق طريقه إلى الشاطئ: واضطروا إلى منعه بالقوة من مهاجمة الجيش المصرى بمفرده. كان فى الوطن حاكما قديرا حكيما؛ أما فى الحرب؛ فهو يعد, قديس بريء. ومع ذلك؛ نال الصليبيون ضربة حظ: ذلك أن النزعة الحربية للجيش البراق» على الشاطئ: لم تكن سوى مجرد استعراض. ذلك أن السلطان كان فى القاهرة يعانى من مرض خطير. وحين اعتقد أهل دمياط أنه مات؛ أخلوا مدينتهم على عجلء ودخل الجيش المسيحى ببساطة سيراء واستولوا على المدينة. تكاعت يوانة ميقيزة: ولكن بدا أن دمياط تبعث على الكسل والخمول فى أوصال كل أوربى دخلها. إذ كان النيل فى موسم الفيضان'؛ وأجزاء الأسطول المتناثرة لم تكن قد انضمت إلى الملك بعد؛ وأصر لويس على البقاء فى المدينة التى تم الاستيلاء عليها . وكان ذلك هى الشىء الوحيد الذى يمكن عمله, إذا كانت القاهرة هى الهدف. لقد كانت هناك إمكانيات أخرىء من بينها الإسكندرية» التى أوصى بها بقوة بارونات فلسطين وفرسان الهيكل تحت قيادة معلمهم الجديد ويليام دى سوناك. لكن لويس شعر بصدمة عميقة حين اكتشف أن دى سوناك قد تفاوض على معاهدة سرية مع سلطان القاهرة. ذلك أن 255

الملك الذى يحمل منادئ سامية أن يسمح بالتنازل بحيث يتعامل مع الكفار؛
وعنف دى سوتاك علنا. وتبنى بدلا من ذلك نصيحة أخيه المفضلء كونت روبير دى
ارتوا المصب للحرب ذلك الشخص الآرعن. وكانت القاهرة هى الاختيار. ويعد أشهر
طويلة من الانتظار فى حر الصيف اللافح بدأ الملك والجيش يزحفون ببطء على ضقة
النيل الشرقية. وأنهك التقدم السلحفائى - ثلاثة أميال فقط يوميا - فرسان الهيكل
بشكل لا يحتمل. وكان المغيرون المسلمون يضايقونهم دائماء لكن لويس منعهم من أى
انتقام؛ ثم أسقط أحد فرسان الهيكل من على صهوة جواده. فى إحدى المناوشات.
فصاح دى سوناك على النقيض من أوامر لويس: 'هلمواء باسم ألربء إنى لا أستطيع
تحمل هذا الوضع أكشر من ذلك.” فهجم فرسان الهيكل وقاتلوا بشراسة. وقتل ستمائة
من المسلمين أو غرقواء وتشجع الجيش بهذا النجاح غير المتوقع وتقدم على نحو أكثر
سرعة. وفى "١ ديسمير كانوا على ضفاف البحر الصغير. وعلى الجاني الآخر من القناة
الواسعة استطاعوا أن يروا المنصورة. واسمها من معناها؛ إذ إن المدينة بنيت على
هزيمة الفرنجة قبل ذلك بجيل. من الناحية النفسية, لا شك فى أن هذه كانت أهم
نقطة فى الحرب الصليبية: لكلا الجانبين. ذلك أن المرور بالموقع الذى مات فيه جيل
آبائهم منح الفرنجة الشجاعة التى كانوا فى حاجة إليهاء مما هزم روح المصريين أكثر
من أى شىء آخر. لقد كان فى مواجهة الفرنسيين, على رأس جيش المسلمين, اثنان من
أعظم قادة المسلمين في ذلك الزمان: فخر الدين» وهو صديق شخصى لفريدريك
الثاني منذ المفاوضات التى جرت بينهما منذ عشرين سنة مضت والمملوك التركىء
بيبرسء الذى قام جيشه المشترك من المصريين والخوارزميين يذبح فرسان الهيكل
ومعلمهم فى ذلك الوقت أرمان دى بيراجورس عند غزة. ألقد احتجز المسيحيون لمدة
ستة أسابيع عند الخليج. لكنهم وضعوا معبرا عند القناة وعند الفجر فى 8 فبراير
»156١. ويتعليمات مشددة بأن ينتظروا لويس على الجانب الآخرء قاد ويليام دى
سوناك وروبير دى أرتوا الطليعة المسيحية. وربير الذى

كان نافد الصبرء ويخشى من ضياع ميزة المفاجأة, تجاهل أوامر أخيه
وحث رجاله على مواصلة التقدم. وجادله دى سوناك لفترة وجيزة ثم استسلم أمام
توبيخ روبير له بأنه جبان. واندقع الفرسان والقرنسيون مها إلى ممسكر المسلمين الذى
كان قد استيقظ تواء وفيما تلا ذلك من دمار سريعء وجد فرسان الهيكل فخر الدين,
وقتلوه وهى يقفز عاريا من حمامه. وحث الصليبيون خيولهم على مواصلة المسير,
نحو المنصورة. فلو تم التغلب على هذا العائق, لن يوجد ما يمنعهم من دخول القاهرة.
ولكن مع أن فخر الدين مات فإن بيبرس ما زال حيا. وأخفى جنوده فى المدينة. وترك
بواباتها مفتوحة. فدخلها فرسان الهيكل والفرسان الفرنسيون كالرعد. وساروا مباشرة
فى وسط المدينة» حتى وصلوا إلى أسوار القلعة ذاتها؛ ثم لم يجدوا مكانا كى
يستديروا خارجين من الشوارع الضيقة. فوجدوا أنفسهم محصورين, تحيط بهم قوات
المسلمين من كل جانب. ودارت المعركة فى المدينة حيث كان القناصة يمطرونهم من
النوافذ والأسطح, فرجعت الخيول من الفزعء ملقية بيراكبيها ودهستهم فى وسط
القوضى والاضطراب. وهرب أحد الفرسان الجرحى كى يحذر لويس؛ وقفز قليل منهم
فوق التحصينات, فكان مصيرهم الفرق فى التيل؛ ومن بين قوة فرسان الهيكل - مائة
وتسعون فارسا - لم ينج سوى خمسة. وكان دى سوناك المعلم أحد هؤلاء الخمسة: غير
أن سهما أصاب إحدى عينيه, فصار الآن نصف أعمى. كان الأمر كله عبارة عن مقامرة,
إنها مقامرة لم تكن جائزتها مجرد مدينة» بل كانت ذلك الشه غير الملموسء ألا وهو
الروح المعذوية. لقد قامر الجانبان» فخسر الفرنجة. وسحب لويس رجاله خارج أسوار
المنصورة. وصد ساسلة من الهجمات المضادة. وفى إحداها فقد دى سوناك عينه
الأخرى؛ وفى هذه المرة. مات متائرا بجروحه. وصمد الصليبيون فى مكانهم شهرين.
وكان الأمل الأخير أن تنشب ثورة فى القاهرة لأن السلطان توفى أخيرا بسبب مرض؛
غير أن ابنه استولى على السلطة دون 257 8

معارضة ونظم أسطولا لمنع سفن المؤن الصليبية من دمياط. وفى أثناء
الأسابيع الثمانية التى ظل فيها لويس خارج المنصورة. تم الاستيلاء أى إغراق مَائة
واثنتى عشرة من سقنه. وبدأت المجاعة فى الجيشء ووقع ضحية الدوزنتاريا
والتيفود. وأصيب لويس بالاثنين معاء لكنه أبى أن يترك رجاله. وأخيرا حاول التفاوض
- تنازل عن المبادئ ولم يكن ليقبل ذلك فى أية ظروف أخرى. ورفضت المفاتحة رفضا
قاطعا, وفى تكرار كثيب لما.حدث عام ١15., بدأ الانسحاب المسيحي. ونقل المرضى
في سقن صغيرة فى النيل؛ وسار أو ركب كل من كان قادرا على قعل ذلك. لكن الوضع
كان ميئوسهًا منه بالكامل. ذلك أنه قبل دمياط بوقت طويل كان كل رجل فى الجيش
المسيحى إها ميدًا أى أسيراء ورقد لويس الملك القديس مقيدا بالأغلال فى أحد
سجون المسلمين. بشكل هاء دبت الحياة في روحه فى هذه الظروف. ذلك أن آسريه
طلبو) منه تسليم ملكية قلاع الفرنجة فى الأراضى المقدسة. فرفض قائلا إنها ليست
ملكه حتى يتخلى عنها؛ وهدده المسلمون بوضعه فى المقشرة. وقال دى جوانفيل: "إن
المقشرة هى أقسى طرق التعذيب التى يمكن أن يعانى منها إنسان. وهى تتركب من
قطعتين من الخشب الطيهتين بطولين مختلفين مسلحتين عند الطرف بأسنان. تضبطا
معا ثم تربطان من الطرف بشرائط قوية من جلد العجول, حين يريدون وضع الناس
فيهاء يضعون الضحايا على جنوبهم ويحشرون الساقين بين الأسنان. ثم يجعلون رجلا
يجلس على لوحى الخشب. وتكون النتيجة عدم وجود ولو قطعة عظام واحدة طولها
ست بوصات غير مكسورة. ولزيادة التعذيب إلى أقصى حد ممكن, فى نهاية ثلائة أيام.
حين نتورم الساقان: يضهونها فى المقشرة مرة أخرى, ويكسرونهما من جديد' . مجرد
الفكرة من شأنه أن يجعل معظم الناس يستسلمون؛ لكن لويس لم يكن عاديا. 'أجاب
الملك على هذه التهديدات بأنه سجين لديهم, وأنهم يستطيعون أن يفعلوا به ما
يشاون". حين شعر المسلمون بالدهفشة والإعجاب وريما الحيرة» قرروا إطلاق صراح
لويس وجيشه - عند دفع فدية قدرها ٠٠٠٠ بيؤنتة ذهبية: وهى ما يعادل أنذاك 258

٠ جنيه فرنسى. فوافق لويس؛ وحين استغرق السلطان الشاب فى التفكير0
لأن لويس لم يساوم خفض خمس المبلغ. ومع ذلك؛ كان مبلغًا كبيرًاء وحين جمع كل ما
لدى الفرنجة من نقود, كان المبلغ أقل من المطلوب ب ١٠٠٠١ جنيه. "ثم قلت (جوانفيل)
للملك إنه يحسن صنعا بأن يرسل إلى قائد ومرشالى الهيكل, بما أن المعلم قد ماتء
ويطلب منهما إقراضه ميلم ١٠٠٠١ جنيه". من الصعب للغاية إعطاء معادل حديث لمثل
هذا المبلغ. ذلك أن الاقتصادات الوطنية كما نعرفها لم تكن موجودة, لكن نلك الأيام
كانت منكوية كأيامنا يتذبذيات معدلات التبادل والتضخم وتغيرات أسعار السوق. ولكن
كمرشد تقريبى جداء كان الجنيه القرنسى يعادل ثلث الجنيه الإنجليزى تقريبا؛ ومن
المحتمل أن الجنيه الإنجليزى يمكنه شراء ثلاث بقرات وجدى. وكان لدى فرسان الهيكل
أكثر من الكفاية فى سفينتهم غير أن القائد رفض تقديم القرض - على أساس أن
الأموال المودعة لدى الجماعة لا يمكن أن ترد إلا إلى المودع. ومن حسن الطالع أن
مرشال الهيكل كان رجلا يتمتع بقوة الخيال. كان هذا الرجل هو رينو دى فيشيىء الذى
كان قد استاجر الأسطول الجنوى من أجل لويس, وقد رقاه إخوانه حديثا من منصب
رائد أو مشرف على دار للهيكل فى فرنسسا. فقال لجوانفيل: "يا سيدىء فلنكف عن
هذا النزاع... كما يقول قائدنا لا يمكننا تسليم أية أموال دون أن نحنث بقسمنا. ولكن,
إذا كنا لا نريد إعطاعكم النقودء يجب أن تأخذوها ببساطة. وليس فى هذا شىء غير
معتاد؛ وإذا أخذتم أيا من تقودنا فلدينا ما يكفى من نقودكم فى عكا, يمكن بها رد
المال". وكان هذا بالضيط ما فعله دى جوانفيل. إذ حمل بقارب إلى سفينة الجماعة,
وحين صعد على ظهرها التقط فأسًا صغيرا وقال إنه سوف يستخدم هذا كمفتاح من
أجل الملك: وعتدئذ قدم له دى فيشيى مفاتيح الخزانة الوحيدة: وهذه وحدها تحتوى
حرفيا على ما يكقى من المال لافتداء ملك؛ ودفع المال للمسلمين فى موعده. هذه

الحادثة العجيبة توضح عدة جوانب تعبر تعبيرا صادقا عن الجماعة, أولها وأوضحها ثراؤهم الفاحش. كما تبين التزامهم المطلق المستمر بحرفية ميثاقهم, واستعدادهم لإيجاد ثقرات فى الميثاق حين تسظطزم ذلك السياسة البرجماتية. لكن ربما كان أهم ما تبسينه هو مدى سهولة اتهامهم بالتكبر. ذلك أنه لا يوجد أى صودع من الممكن أن يعترض, حتى إذا ما فقدت نقوده فى إنقاذ لويس؛ وإذا رجعنا بالأمر إلى ما حدث من هزيمة في المنصورة؛ فإن أسر الملك جزئيا مسئولية فرسان الهيكل. لحسن الحظء لم يكن لويس رجلا يحمل ضفائن لأحد سواء كان مسلما أو مسيحيا. وشكّل هو الهزيمة التامة لحربه الصليبية: وذبح المسامين القاسى للمرضى الذين تركهم خلفه فى دمياطء. كدرس إلهى وإفراط فى التقوى. شكر الله على ذلك . سرعان ما حان الوقت كى ينقل هذا الملك شديد التواضع عيرته إلى فرسان الهيكل المتكبرين. حين وصل لويس إلى عكا فى ؟١ مايو عام 16١, أقام فى الأراضى المقدسة لأربع سنوات. فكانت المكانة التى يكنها لفرسان الهيكل واضحة: فقد أقام فى قلعتهم المنيعة قلعة الحاج؛ وحين حملت مليكته طفلهما السابع هناك عام ١ _,. دعا رينو دى فيشيى كى يكون الأب العوحي. ويكل أسف رفض دي شيفيى هذا الشرف إطاعة للميثاق؛ لكنه نال شرفا مرة أخرى من إخرانه: لأنه أصبح الآن المعلم التاسع عشر للهيكل. إذ من الواضح أن الفرسان وافقوا على الحل الوسط الذى قدمه فى مسألة الفدية. وكان على لويس أن يتنازل هو أيضما . وكان يعلم أن إرادة الله على الأرض يجب مساعدتها من آن لآخرء وفى عام ؟50١١ بدأ التفاوض كى يتحالف مع أعدائه القدامى فى القاهرة. وكان التنافس القديم بين القاهرة ودمشق ما زال مشتعلاء وكل من الجانبين تقارب مع الفرنجة طلبًا للمساعدة ضد الجانب الآخر. وفضل لويس القاهرة: متذكرا الصليبيين الموجودين فى السجن هناك؛ أما فرسان الهيكل, ففضلوا حليقهم. التقليدى: دمشق, ومرة أخرى تفاوضوا على عقد معاهدة سرية. وحين قدم دى فيشيى 200

جميمع إخوانه لجلسة استساع عام وأن يحضروا السقفير الدمشقى مغعهم.
فتجممع الفرسان حفقاة الأقدام وحجلسوا أمام الملك. وكان دى جواتفيل شاهد عيان على الإهانة الصريحة, "قال الملك» بصوت مرتفعء للمعلم: "أيها المعلم؛ إنك سوف تقول للسفير إنك منزعج لأنك عقدت معاهدة معه دون أن تتحدث معى؛ ولأنك لم تتحدث مميء فإنك تعفيه من وقعل دى فيشيى ذلك؛ ثمء يأوامر من لويسء ركع هو وجميع الفرسان أمام الملك, ورجوا منه الصفح. فعفا لويس عنهم جميعا فيما عدا الأخ الذى قام فعلا بكتابة المعاهدة, الذى كان من المقرر أن ينفى من الأراضى المقدسة. وتم تنقيذ الحكم؛ ومع ذلك. فإن مصير دى فيشيى بعد هذا العار الذي عرض الجماعة له مصير غامض قليلاً . لقد عاش حتى عام 67□١؛ غير أن السجلات التى تتحدث عن السنوات الاخيرة من حياته متناقضة. البعض يشير إلى أنه ظل معلما حتى نهاية حياته؛ والبعض الآخر يوحى بأنه استقال» أو عزل من منصبه؛ مباشرة بعد اللقاء الذى جرى مع الملك لويس. ويعد الرأى الأخير ممكنًا تمامًا؛ ولكن جماعة الهيكل ما تزال تحتفظ بسريتها. ومع ذلك. فإن أغرب ما فى الأمر كله هو الحقيقة البسيطة فى خضوع دى فيشيى للملك؛ ومسالة السبب الذى جعله يسمح للويس بأن يملى على الجماعة, وفى جماعة تعرف باتجاهها بعدم المبالاة بالملوك. وهناك سببان يطرحان نفسيهما؛ ومرة أخرى يعكسان طابع الجماعة: الروحى والعسكرى. لقد كانٌ لويس أعظم مثال حى على القيم المسيحية؛ وبينما كان فى الأراضى المقدسةء كانت جميع الفصائل الإفرتجية تقبل شارته: وا حكرايا لفك المدقات: اتهتئ فرسسان الوك أمامه: غادر لويس عكا فى ابريل :1704 وكان المسلمون فى دمياطء ذات مرة: قد قالوا له إنه لى قبل عقيدتهم فقط. سوف يجعلونه سلطانهم القادم. وهى رفض بالطيع؟ لكذهم 261

كانوا يمزحون تقريبا. ذلك أن السلطان الشاب الذى جوع أسطوله (صليببى لويس), قد مات, اغتاله بيريس. وكان آخر أسرة صلاح الدين الحاكمة. والآن حكم المماليك الأتراك فى مصرء وهم رجال أقوياء يتمتعون بالطاقة ارتقوا من العبودية كى يصلوا إلى العظمة ويمتلكوا مقاليد الأمور. وكتب عنهم أحد مسلمى ذلك الزمان "إنهم فرسان الهيكل المسلمون' وكان ذلك أسمى ثناء يمكنه قوله؛ وقيل أن يمر وقت طويل أظهر المماليك نوع المعارضة الذى يقدرون عليه. لقد كان المغول يتحركون. وكان أحفاد جنكيز خان غير راأضين عن ميراثهم. ويبفون المزيد. والرجال الأربعة - إريكبوغاء ومونجكاء وهولاكو, وكويلأى - جميعا حكموا بالفعل كل الأراضى من فارس حتى كورياء ومن سيبيريا حتى المحيط الهندى. والآن» فى حين بقى إريقبوعًا وموتجكاء فى منغوليا» يسيطران على المركزء تحرك تواب الملك وأبناء العم نحى الشمال والجنوب؛ فتحرك كويلاى شرقا إلى الصين؛ وتحرك هولاكو غربا. وكاتت نية الإخوة المعلنة هى فتح العالم؛ ولولا المماليك لكان من الممكن أن يفعلوا ذلك. إن مسيرة كويلأي فى الصين معروفة تمام المعرفة. أما هولاكو. ففى تحركه نحو الغرب» قام بتصفية الحشاشين فى فارس وسورياء وأحرق بغداد» واسصولي على حلب, ودمشق واحتل نبلس وغزة. ويتأثير من زوجته المسيحية النسطورية؛ ترك الفرنجة وشأنهم؛ غير أن سقوط الإسلام فى آسيا بدا وشيكا. ثم طلب هؤلاكو الاحترامات هن المماليك؛ فكان ردهفم هو ملاقاة جيشه في معركة حامية عند برك جالوت؛ (عين جالوت) على بعد عشرة أميال جنوب شرق الناصرة. لقد كانت هذه المعركة إحدى نقاط التحول فى تاريخ العالم بالنسبة للمغول. ذلك أن فاتحى العالم قد هزموا, وبيبرس الذى دخل المعركة كأحد القوادء عاد إلى مسبو تلان . وقد أعطت أحداث حرب المغول والمماليك فرسان الهدكل ملكية شيئين جديدين غير متوقعين هما مدينة صيدة وقلعة بوفورت التى توجد بها. وكانت هذه هى آخر 202

التفاتة رحمة يستمتعون بها فى بلاد ها وراء البحر. إذ إنه حين انتهت صلاحية هدنة لويس مع القاهرة. ضرب بيبرس ضريته؛ وكانت فى الصميم. ففى فبراير ومارس ١551ء تم الهجوم على قيسارية» وحيفاء وقلعة الحاج. وسقطت المدينتان؛ ونجت القلاع. وأخذت أرسوف واستعبد أهلها؛ وكتب شاعر من فرسان الهيكل يائساء أن ألم المسيحيين بدأ لذيذا لدى المسيح. ذلك أن هزيمة لويس كانت قد نزعت الصدقية عن فكرة الغضب الإلهى الذى يجعله يعذب الخطائين؛ الآن أصبح يكتب ويقال بصوت مرتفع, إن الرب تخلى عن أبنائه» وأن الحروب المقدسة أغضيته: وأن بلاد ما وراء البحر مقدر لها الفناء. لقد كتب فارس الهيكل المجهول: "يجسم الفضب والأسى في قلبى بثبات حتى إنى لا أكاد أعيش. ويبدى أن الرب يرغب أن يدعم الأتراك حتى يهزمونا.... استمع يا إلهى وسيدى؛ واحسرتاه ... لقد فقدت مملكة الشرق قدرًا كبيرا حتى أنها لن تستطيع النهوض مرة أخرى. وسوف يحيلون دير مريم المقدسة إلى مسجد., ويما أن السرقة تسر ابنهاء من يجب أن يبكى لذلك, فنحن مجبرون على الخضوع أيضا. ... مجنون كل من يرغب فى قتال الأتراك» لأن يسوع المسيح لم يعد يقاتلهم. إذ انتصرواء وسوف ينتصرون. إنهم يدحروننا فى كل يومء فهم يعلمون أن الرب الذى كان يقظاء ينام الآن. ومحمد يزداد قوة'. لقد كانت بالفعل آخر جولة فى الكفاح. ذلك أن بيبرس عاد فى يولية ١1١ وهاجم صفد ثلاث مرات. وحين انهارت الأسوار ودخلها المماتليك مندفمئينء قطعت رأس كل فرد من فرسان الهيكل. ووضعت حطقة من رء وس المسيحيين حول القلعة. ومع الاستيلاء على راية فرسان الهيكل؛ كان بوسينت (علم فرسان الهيكل) مقبوض عليه أمام جيشهء وتقدم بيبرس إلى أسوار عكا نفسها قبل أن يتم التعرف عليه. لقد عاشت المدينة بعد هذه المجزرة؛ أما الحقول حولها كانت تتنائر فيها أجساد الموتى من المسيحيين. وثمة خطاب فى عام /؟؟١ أرسل من الأراضى المقدسة إلى معلم الهيكل فى فرنساء وهذا الخطاب يكشف عن مقدار الحسرة واليأس الذى كان يشعر به 263

فرسان الهيكل فى الشرقء بالإضافة إلى رغبتهم التى تثير العجب فى مواصلة القتال. ولما كان الموت قد أنقص من صفوفهم.ء كان عليهم اجتذاب المزيد من المرتزقة؛ غير أن مواردهه المالية المحلية قد جفت. "لا بد أن يكون لدينا ها يكفى من المال قى عكاء كى تطعم رماة السهام؛ كما نحتاج إلى خمسين جنيهًا كى ندفع للفرسان الستين الذين جاءوا مع كونت نيفرز, وسيدى ارار دى فاليرى؛ وفرسان جيفرى دى سيرج يكلقوننا ١٠٠٠٠ جنيه سنويا؛ كما يجب أن ترسلوا لذا ١٨6٠٠ جنيه اقترضناها من التجار كي ندفع لخمسين فارسا فى عكا لخمسة أشهر؛ وحبا فى الله. اعقدوا سلاما بين أهل جينوا وأهل فينيسيا, وعجلوا برحيل حرب صليبية جديدة". وبين مارس ومايو من عام ١7778 أستولى السلطان المملوكى على يافاء وينياس وبوقورت: تلك الجائزة غير المتوقعة لفرسان الهيكل؛ وأخذ فرسان بوفورت عبيدا. ولم يبق جنوب عكا شىء من بلاد ما وراء البحر مطلقا عدا قلعة الحاج؛ وفى ١4 مايو, ويعد مائّة وواحد وسبعين سنة من امثلاك المسيحيين غير المنقطع انهارت أنطاكيا. وإلى جنوب تلك المدينة. كانت هناك قلعة بغراس - التى حدث حولها قتال مرير فى السنوات الأولى فى القرن - أصيح من الصعب الاحتفاظ بها؛ فأجبر فرسان الهيكل على التخلى عنها. وكتب البابا كليمينت الرابع فى يأس "انهارت تقريبا كل تلك الفروسية الشهيرة عن فرسان الهيكل" ولم تساعدهم سوى فرنسا وإنجلترا. فى ذلك الوقت كان القديس لويس يبلغ من العمر أريعة وخمسين سبنة. وكان قد أنجب أحد عشر من الأبثاء؛ وولد حفيده الأول عام ١7١74, ولد اسمه فيليب» الذى سرعان ما لقب بالأشقرء إذ إنه قد ورث حسن منظر جده. - الأشقر الجميل. غير أن ضمير لويس لم يسفح بالبقاء أكثر من ذلك مع أسرته. ففى ١ يولية 2١77٠١ فى السادسة والخمسين من عمره, غادر الأرض الميتة إيج - مورت في حربه الصليبية الثانية وأبحر إلى تونس, الذى يفترض أن علاقة ودية تريط حاكمها بالمسيحيين. ووصل لويس إلى قرطاج فى ١7 يولية. وعلى 204

الفور تقريبا أصيب بالدوزنتاريا التى نقصت عليه حياته فى دمياط. ومما
زاد من خطورة المرض أنه أصيب بحمى» مصحوية بالتقلصات المعتادة؛ وفى يف
أغسطس مات لويس الملك القديسء وهو يهمس بأتفاسه الأخيرة 'القدس القدس' . +
سام ع جم وكان حصن الإسبتاليين الصغير المؤقت, كراك دي شيفاليى» وقلعة سافيتا
التى كان يملكها فرسان الهيكل قد سقطتا توا. وكانت إقامة لويس فى إقريقيا قد
حولت انتياه بيبرس مؤقتا عن الأراضى المقدسة؛ وكان وجود إدوارد فى فلسطين
كافيًا تحمل السلطان على أن يعرض هدنة مدتها عشر سنوات. وقبل العرض بامتنان -
ومع ذلك لم يستفد القرنجة تقريبا مطلقا بهذا الوقت. وتصفهم التقارير المعاصرة لهم
بأنهم جنس ما زال قويا من الناحية الجسدية ووووسيما؛ ولكن, شأنهم شأن الكثير من
القوى الإمبريالية» الاستعمارية؛ لم يعد لقوتهم الجسدية وجمال منظرهم ما يدعمها من
قوة أخلاقية. فانهمك الحكام المدنيون فى حروب أهلية حول ألقاب:فارغة لا معنى
لهاء وكانوا يسلون أنفسهم بحفلات كان يظهر فيها الفرسان والسيدات وهم يرتدون
ملايس بعضهم بعضا. ولم يحتفظ بإحساس الوحدة والانضباط سوى الجماعات
العسكرية؛ وحتى همء فى بعض الأحيان كانوا يشتركون فى المنازعات المدنية. ومع
ذلك وقفت الصدقة. ولى مرة فى جانب الفرنجة. ذلك أن بيبرس مات عام 2,١7 وشن
المفول عام 60١ هجوما جديدا ضد المماليك. ولما كان السلطان الجديد قلاوون يعرف
الإمكانية الخطرة التى يمكن أن تترتب على قيام حملة مشتركة من الفرنجة والمغول»
فقد وقع معاهدة أخرى مع الفرنجة حتى قبل أن ينتهى أجل المعاهدة الأولى. فتم
تمديد فترة التقاط الأنفاس؛ وصار من الممكن توقع استمرار السلام على حدود يلاد ما
وراء اليحر حتى عام .١791 لكن الحرب الأهلية استمرت داخل قوقعة المملكة,
وأشعلتها المشاجرات التجارية خطيوه وف غاع 3524 عاد فافزون: 265

ومما لا يصدقء أن عودته كانت بناء على دعوة. ففى استعراض محزن
لعدم قدرة الفرنجة على التعامل معاء طلبوا منه التدخل فى متاعبهم المدنية؛ ويتدخله
فقدوا طريلس. لم تكن هذه الخسارة حتمية» لا ولم تكن ضرورية. ذلك أن جاسوسا قد
حذر معلم الهيكل ويليام دى بوجىء, من نية قلاوون. وهى بدوره قام بتحذير سكان
طربلسء لكنهم لم يصصدقوه ثقة منهم فى الهدنة. ولم يتقبلوا الحقيقة إلا حين كان
جيش قلاوون أمام أسوارهم؛ وعندها كان الوقت قد تآخر. وقبل أن يمر وقت طويل
كان كل بناء فى المدينة قد سوى بالأرضء وسقط سكان طريلس يتعفتون على الأرض.
وقال قلاوون إن طربلس كانت استثناء. وإن المعاهدة ما زالت تحترم فى أى مكان
آخر. وهذا لا يكاد بصدقء لكن الفرنجة أخذوا بكلمته, آملين فى أنهم إن لم يسيئوا
إليه. قد يتركون وشأنهم. واستئنفت التجارة بين المسيحيين والمسلمين. وكان الناس
من العقيدتين يختلطونء. فى سوق عكا كى يبيعوا ويشتروا. وفى صيف عام 151١
اكتشف مسيحى أن زوجته على علاقة مع أحد المسلمين. فثار قتال فى السوق. وتطور
القتالل إلى شغب؛ وقتل العديد من المسلمين؛ فاستئنقت الحرب, مع بقاء عام على
انتهاء المعاهدة. وبدأت الأيام الأخيرة. وبينما كان الجيش المصرى يعباء قيل إن هدقه
مكان ما فى إفريقياء. ومرة أخرى. جاسوس فرسان الهيكل - أحد الأمراء في بلاط
قلاوون - أبلغ ويليام دى بوجى بوجهة الجيش الحقيقية» وهى عكا؛ ومرة أخرى لعب
دى بوجى دور كساندرا . واستقبات تحذيراته بالسخرية والاستهزاء. ويشكل خاصء
قام يترتيبات مع قلاوون بأن تترك المدينة على أن تدفع قطعة ذهبية عن كل فرد من
سكانها. وحين أعلن عن الاتفاقية, وصم خائنًاء وقال شاهد "إنه نجا بأعجوية من أيادى
الناس؛ وازداد اقتناع الناس يسلامتهم حين توفى قلاوون بعد أسابيع قليلة. أكن اينه
أقسم أن يفعل ما كان قلاوون سيفعل؛ وفى مارس عام 154١ يدأ زحف المسلمين. فى
'وصفه للأراضى المقدسة كتب أحد الحجاج المعاصرين يدعى بورشار من جبل
صهيون: 206

إن مدينة عكا محخصنة بحصون ومفاقل, وأبراج, وخنادق»: ومتاريس قوية, وشى السهل الذى يحيط بها. وهذا السهل يبلغ عرضه أكثر من قصبتين فى بعض الأجزاء؛ وهى شديدة الخصوية. سواء مروجها أو أرضها المحروثة: وبها كروم وحدائق» تنبت فيها مجموعة منوعة من الثمار. وبالمدينة الكثير من الأماكن القوية, والقلاع والحصون التى يملكها الفرسان الإسبتاليون, وفرسان الهيكل. ويها مرف جيد متسع على الجائب الجنوبى'. وكانت الدفاعات الرئيسية من الجانب المتجه إلى الأرض عبارة عن سورين ضخمينء. تفصلهما خمسون ياردة» وكل منهما يبلغ طوله مما يربى على الميل. وكانت هناك أبراج نسدد هذين السورين» وكانت المدينة من الداخل يقسمها سور ثالث به قلعة وأربعة أبراج أخرى. وكانت قلعة قرسان الهيكل تحتل أفضل المواقع: الجانب فجأة غطت الجياد والرجال ومعدات حصار جيش المسلمين السهل يأكمله خارج المدينة. وكان لا بد من وضع نهاية للعمى الإرادى لدى المواطنين. وحين نظروا من تحصيناتهم فى رعب» قدروا أن ستين ألفا من الخيالة ومائة وستين ألفا من المشاة يقفون أمامهم مسلحين ومتأهبين؛ فعرفوا أن مدينتهم قد لا تنجو. حين كانت ما تزال هناك بقية من وقت» تم إجلاء من لا يستطيعون القتالء من مرضى وكبار السن والعجزة والنساء والأطفال إلى قبرص. وكذلك رحل أهل جينوا؛ ذلك أنهم كانوا قد تفاوضوا على مغافدة خاصة بهم مع السلطان. أما أغل بيزا وفينيسياء فيقواء مع الملك والبطريارك» وجميع الرجال القادرين فى المدينة وفرسان الجماعتين العسكريتين؛ لكن عددهم الإجمالى جميعا ثم يكن كافيا لملاقاة المعركة القادمة. لا بد أنهم كانو! يدركون ذلك؛ لكنهم بقواء وأخيرا نسوا مشاجراتهم؛ وهم يقفون معا كى يواجهوا النهاية المحتومة. ولم يكن ممكنًا القضاء عليهم جوعاء لأن الممرات البحرية كانت ما تزال مفتوحة على قبرص؛ غير أن أحدا لم يتمكن من أن 207

يرسل لهم ما يكقى من السلاح والرجال. وكانوا يعلمون أنهم وحدهم,
وكانوا يعلمون أنه من المؤكد تقريبا أنهم سوف يموتون. تولى فرسان الهيكل القسم
الشمالى الأقصى من السور. وتم الالتحام على الفور, واسهن موق رقف لل كيارعة
أفتفل الوك سنك المحاقق الكبيزة لتر الغاضسبة الأبراج بلا توقف, وكانت القواذف التى
تسمى "العجول السوداء تلقى باللصخور والحديد على الأسوار وفوقها. وسقطت السهام
كالمطر المميت الذى لا ينقطع؛ وحافظت النوافير والطبول والأجراس وصيحات الحرب
على نشاز لا ينتهى؛ وفى أسغفلء وفى صمتء كان هناك ألف من المهندسين الذين لم
يرهم أحد يحفرون الحقر تحت كل برج. فى أثناء ليلة 14 إبريل» قامت مجموعة من
فرسان الهيكل باختراق مباغت فى سوه القمو قن :قب مفسكر المشلميق؛ ولكن فيما
يشية الاساة الملهاة البشفة 2 "بالنسبة لنا" عرقلتهم جميعا حبال الخيام. فسقطوا
وقتلوا حيث سقطوا. ويعد ذلك فى جنح الظلام حاول بضعة من الفرسان من
الإسبتائيين القيام بهجوم مشابه؛ وهزموا أيضاء لأن المسلمين أضاءوا المشاعل وأشعلوا
الثار إلى أن ضان معسكرهم ساطها كضوء النهار. فلم تحدث المزيد من الهجمات من
هذا النوع؛ إذ إن كلاً من المسيحيين كان ضائها وضعيفا فى حين بدأ المسلمون
كالأفعوان الخرافى ذى الرءوس التسعة قادرين على الاستعاضة عن كل رجل يقتل
برجلين. كان الوقت فى جانب المسلمين؛ وكانت المبادرة فى يدهم وحدهم؛ وزحف
اليأس إلى قلوب المسيحيين وهم يدركون يبطء أنهم لا يستطيعون حتى القيام
بالهجوم: وإنما يدافعون عن أنفسهم حتى الموت. وفى الأاسجوع القائى سن هايو
اكونارةاريعنة من الأتراج الشارجمة جره عن السو الخارجى. فتراجع الدفاع إلى الجدار
الداخلى: وفى ١٤ مايوء شن هجوم عام على طول الجدار بأكمله. فقاتل فرسان الهيكل
والإسبتاليون جنبا إلى جنب وانمحت فجأة منافسات قرنين من الزمان. وجرح معلم
الإسبتاليين وتم حمله إلى إحدى السفن؛ أما الملك الذى ليس من واجبه أن يموت وإنما
يعيش من أجل مملكته. فهرب هو أيضًا. 208

وحشر البطريارك المسن فى قارب: لكنه سمح للكثيرين بركويه معه حتى
أنهم أغرقوا القارب: وغرقوا جميعا. ومات الكثيرون فى ذلك الفرار المذعور؛ وأصيب
ويليام دى بوجى معلم الهيكل بسهم وهو يداقع عن شرخ فى الجدار. واتهم يالجين
حتى وهو يموت. حتى وهو يسقط على الأرض قال: "لم يمكنى فعل المزيد لأنى متء
- انظروا إلى الجروح"'. فارقده اثنان من إخوانه على أحد الدروع» وحملوه إلى قلعتهم؛
وفى انخارج. اندفع المسلمون إلى السور الداخلى وغزوا شوارع المدينة. وقتئوا كل من
وجدوه. وحين أرخي الليل سدوله كانت المدينة كلها فى أيادى المسلمين فى اليوم
الثامن عشر - فيما عدا قلعة فرسان الهيكل. واحتشد هناك المدنيون الذين تبقوا بما فى
ذلك النساء والأطفال مع جميع من بقى من فرسان الهيكل. وصمدوا لعدة أيام حيث لم
تكن القذارة والتعقن ومجرد الرعب مما يمكن أن يطاق. جاء الموعن الاى كان المقيع
تملوة :فيه ينا فى ذلك فرساق الميكل: مر أمن إلى قبرص لجميع من فى القلعة: ويما
لديهم من ممتلكات, إذا سلمت القلعة سليمة. فقبل الشروط مرشال الهيكلء بيتر دى
سيقرى. وسمح لمائة من جنود المماليك وأمير واحد بدخول الهيكل كى يكونوا
مشرفين على عملية الإجلاء. وتم رفع علم السلطان على المبني. غير أن المسلمين
الذين انتشوا إلى حد الجنون بالنصر بدءوا يسيئون معاملة النساءء والصبية. وحين رأى
فرسان الهيكل ذلك, قاموا بالهجومء فقتل كل مسلم محتجز بين السلالم الضيقة:
وممرات المبني وقاعاته. وأنزل العلم» ومرة أخرى رفرف الصليب الأسود. فى تلك
الليلة أمر دى سيفرى قائد الهيكل» تيبالد جودان, بأن يبحر شمالا إلى صيدة. فأخذ
جودان معه ما أمكن من غير المقاظين, وكذلك خزانة الهيكل. ولا يذكر أى من السهلات
بدقة ماذا كانت هذه الخزاتة؛ ولكن بسفيئة صغيرة ورحلة ليضعة ساعات, كان من
السهل حملهاء ومن المحتمل أنها كانت خفيقة الوزن. مما لا شك فيه أنه كانت هناك
صناديق من الذهبء والمجوهرات؛ مما تبقى من ثروة فرسان الهيكل فى 1 209

بلاد ما وراء البحر؛ وربما كان هناك أيضًا كنز واحد وحيد أكثر قيمة من المال والأرواح -- جائزة القسطنطينية الغامضة. أيا كانت طبيعة هذا الكنزء فعند الفجر. كان فى أمان فى البحر مع جودان وعدد قليل من المدنيين المحظوظين. وما إن أشرقت الشمس على عكا؛ حتى أرسل السلطان إلى سيفرى مجددا العرض الذى قدمه فى اليوم السابق. فأخذ دى سيفرى قليلا من إخوانه معه وذهب إلى معسكر المسلمين للتسليم. وفى اللحظة التى وقفوا فيها أمام خيمة السلطان؛ دوهمت المجموعة الصغيرة من فرسان الهيكلء وأحيط بهم وقطعت رءوسهمء أمام أعين إخوانهم. فأقفلت على الفور بوابات القلعة. واستمر الإخوان المتيقون فى القتال من التحضيتات وتحت الآرض أاخذ المشلمون يعفرون أكثر فككنء وفى العاشن هن عايؤ: بعد سقوط المدينة بعشرة أيام؛ بدأت جدران الهيكل الشرقية فى التشقق والتهاوى مع سقوط أسسها. وفجأة انهار إلى باطن الأرض قسم من الجدار. فدهم الحفرة ألفان من المماليك. ولم تتحمل الأخشاب التى كانت تسند الحفرة فانهار هيكل عكا بأكمله بزئير مرعب» وسقط على من بداخله. ودمر كل أثر من عكا التى كانت فى وقت من الأوقات عاصمة بلاد ما وراء البحر. وبعد عكا؛ كل ما تبقى من المملكة فيما وراء البحر خمسة حصون إمدن] صيدة, وبيروت» وحيفا؛ وطرطوس وقلعة الحاج. ذلك أن صور كانت قد استسلمت فى أثناء حصار عكا. وكانت كل من صيدة وطرطوس وقلعة الحاج جميعا معاقل لفرسان الهيكل. فقى صيدة تم انتخاب تيبالد جودان المعلم الثانى والعشرين للجماعة. وتراجع جزء من حاميته إلى صخرة محصنة على بعد مائة يردة قبالة الشاطئ؛ هى قلعة البحر؛ واستمر هو نفسه فى حراسة كنز الجماعة السرىء وهرب به ليلا مع فرسان صيدة الآخرين إلى قبرص. وسرعان ما احتل المماليك صيدة؛ وحين بدءوا فى بناء معبر إلى الجزيرة الصفيرة: الصخرية أخذ آخر أعضاء الحامية سفينة إلى طرطوس. وفى ١4 يولية تم محو جزيرة البحر. 20

أما حيفا وبيروت» آخر المواقع المدنية المتقدمة فاستسلمتا وتم أحتلالهما
فى يوم ثلاثين ويوم واحد وثلاثين كل على حدة. ولم تبق سوى طرطوس وقلعة
الحاج: ولم تتمكن أيهما من الصمود للحصار. وفى ” أغسطس تم إخلاء طرطوسء
وفى اليوم الرابع عشر أخليت قلعة الحاج آخر ممتلكات الفرنجة فى البر. وماتت بلاد
ما وراء البحر؛ غير أن فرسان الهيكل صمدوا حتى النهاية. واستمروا فى الصمود. فعلى
جزيرة رواد الخالية من الماء. على بعد ميلين من طرطوسء دافع آخر فرسان الهيكل
عن أنفسهم فى الأراضى المقدسة اثنتى عشرة سنة أخرى؛ وحين رحلوا أخيرًا؛ عام 17
لم يكن المسلمون هم من طردهم. بل رحلوا خوفًا من مسيحيى الفرب - ذلك أنه في
أوربا انهال الهجوم على جماعتهم بأسرها. 271

الجزء الرابع الهيكل فى أوربا ١١١7-1101

ضباط الإمدادات لجيش الحروب الصليبية فرنسا. إلجلترا. إسبانيا. 1١١847
."| وماذا إذنء أيها الإخوة رسائل إلى كورينثة» الإصحاح 1٤ الآية ١١ بالنسبة لمعظم
الناجين من الملكة المنتهية. أصبحت الحياة صورة ساخرة كئيبة بائسة للأيام الخوالي.
ذلك أن كثيرين ممن هريوا إلى قبرص فقدوا جميع ممتلكاتهم فى أثناء الفرار؛ وباع
البعض كل ما يملكون؛ بل أن البعض باعوا أنفسهم. فكانوا جميعا لاجئين ولم يكن أحد
يرغب في وجودهم فى أي مكان. ولكى يبقوا على قيد الحياة. أذل الكثيرون أنفسهم
وأهانوها؛ وأصبح من كانوا أغنياء فى وقت من الأوقات باعتبارهم مواطنين فى بلاد ما
وراء اليحر خدما ومحظيات. أما رجال الجماعتين العسكريتين فكانوا أسعد حظا. فكل
بلد فى أوريا كان به فرسان الهيكل الخاصون به. وحين يقسم أخ خديد القسم, يكون
بالفعل قد اتخذ جنسية جديدة؛ ويصبح عضوا فى دولة بلا حدود؛ ويذلك, حتى
الإخوان الذين ولدوا فى الأراضى المقدسة أمكنهم أن يجدوا مأوى وملجا فى مكان ما
فى الغربء وأينما أرسلوا' فسوف يرحب بهم فرسان هيكل آخرون. وسيجدون عادات
مالوفة؛ وملايس مألوفة؛ وسوف تكون لهم مكانة مألوفة وكريمة. 275

ولكن حتى بالنسبة لهمء لم تكن الحياة كما كانت من قبل. وكان عليهم أن
يتضموا إلى طريقة الحمياة التى يحياها فرسان الهيكل الغربيون - إنه عالم به
المحاربون أقلية» حيث لم تكن وظيفة الجماعة هى القتال؛ وإنما الزراعة وكسب المال.
ومع أن بلاد ما وراء البحر لم تكن لتعيش كل هذه المدة دون فرسان الهيكل, فإن
فرسان الهيكل فى الشرق لم يكن من الممكن أن يوجدوا بأى حال دون إخوانهم فى
الغرب. ف فإذا ا كان الإخوة فى الشرق هم رآس الغرية. فإن فرساق الهبكل ف الغزب
كانوا مقيض الحربة: يمدوتهم بالسلاح والدروع والرجال والمال. والجياد والطفام.
ومعظم مؤلاء الناس لم يفادروا قط مسقط رأسهم؛ لكن عملهم كان جوهريا فى نجاح
الحروب الصليبية. وبالنسبة لهم, فإن الشرقيينء المحاربين القدماء الذين لوحتهم
الشيس فى القطوط الأمامية: والذين قاطوا المسلمين يدا بيده والتين ألقوا الضحراء
أكثر من المروج - لا بد أنهم بدوا مثيرين للرهبة» وغير حقيقيين بشكل ما. ولا بد أن
الأمر كان غريبا أيضا بالنسبة للمحاربين العائدين؛ فعليهم أن يعتادوا السلام. بالنسبة
للمجموعتين كان الاندماج أكثر سهولة بوجود عناصر مشابهة في كل دار يملكه البيكل.
سواء كان فى أيرلاندا أى إسبانيا أى فلسطينء ولكن على الرغم من أن فرسان الهيكل
فى كل مكان كانوا يلتزمون بميثاق واحدء وصعلم واحد فى النهاية» ومع أنهم يرتدون
الملابس نفسها ويصلون الصلوات نفسها ومع أن حقوقهم وامتيازاتهم كانت نظريا
متطابقة, شرقا وغريا - مع ذلكء فإن الأفرع المختلفة للجماعة تطورت بطرق مختلقة,
فعلى سبيل المثال. فإن فارس الهيكل العائد إلى إسبانيا. عليه أن يتكيقف بشكل
مختلف عن الأخ الذى يتم إرساله إلى إنجلترا أو فرنسا أو أيرلندا أو ألمانيا أو المجر أ
إيطاليا. لقد كانت إنجلترا وفرنسا وإسبانيا أهم بلدان غربية للجماعة ككل؛ إذ إنها كانت
مخازن غلالهم ودروعهم. وفى كل منها كانت الجماعة مفضلة منذ أيامها الأولى إذ كانت
تكسب الأراضى والمبانى, والأعضاء. والمؤيدين؛ ولكن فى كل منهاء فى عام 1 كانت
للجماعة سمات مختلفة. ذلك أن المقاطعات الثلاث أدت وظائف مختلفة داخل الجماعة,
وأهم من ذلك كانت لها علاقات مختلفة مع ملوك الدول الأم.

كنا كد فى الشرئ فاق فرسان الفركل فى القرت كانت اه هلكات اسع ذلك
أن خريطة بأراضيهم فى إنجلترا تبدو وكأن حفنة من رمل نثرت فوقها؛ وكل حبة منها
تمثل على الأقل مزرعة: وكثيرا ما يكون هناك منزل كبير أو قلعة. وخير توضيح لنطاق
ملكهم فى فرنسا هو أن المرء بعد قرون من حل الهيكل يمكنه اليوم أن يزور ما يقرب
من مائة وخمسين من مواقع فرسان الهيكل؛ وفى إسبانيا فى كورونا أرجون وجدها -
هلال الأراضى المقابل جزر البلاريك - كان فرسان الهيكل يمتلكون ثماني وكلاكين
مقاطعة الوودات كاظة ومسم مقاطذابه خوشة نهدن القاطاعة الدزقة ينكن أن تضم
مائة وعشرين مدينة صغيرة. لكن الجماعة فى الغرب. على عكس الجماعة فى الشرقء
لم تكن جمعية فرويسية بشكل رئيسيء أو حتي فى المحل الأول. من المؤكد أن
الإخوان فى إسبانيا قد قاتلوا ضد المراكشيين فى إعادة فتح أرجون: واستمروا يفعلون
ذلك جنويا إلى أن تم حل الجماعة. وفوق ذلك» منحواء مكافأة على جهودهم ثلث
مملكة أرجون. أما في الشرق فإن مثل هذه الهبة كان من الممكن أن تقبل بكل سرور؛
ومع ذلك. فإن فرسان الهيكل الغربيين كانوا مزارعين ورجال أعمال وليسوا محاريين.
ولم يكونوا يريدون تحمل مسئولية الاحتفاظ بمثل هذه المساحة وحكمها؛ لكنهم كانوا
يعرفون كيف يساومون من أجل ما يريدون. وحين تخلوا عن حقهم في أن يحكمواء
تلقوا بدلا من ذلك ست قلاع, وألف شلن سنوياء وعشر جميع العائدات الملكية, وخمس
أى أرض يتم إعادة فتحهاء والإعفقاء من ضرائبٍ معينة. فوائد دون واجبات - إنه
تحرك بارعء يمثل فرسان الهيكل فى أوريا. 1 وكان وصف أحد الإخوة وهو أيضًا قادم
من إسبانياء لنفسه. معبرا عن نفس النموذج - كان “بسيطا وجاهلا وماش هو وزملاؤه
حياة "مكرسة للأرض وتربية الحيوانات:. كان فرسان الهيكل هؤلاء من الحدادين
والعاملين بدياغة الجلود والحاتكين وصناع الأحذية أو بستانيين» أى تجار خمورء أو
رعاة بقرء أى رعاة عجول أو رعاة أغنام - أو "رواد أى مدربى أغنام” كما أطلق اثنان
على نفسيهما. وكان معظمهم 277

أميين؛ بل أن بعض قساوستهم كانوا فى حاجة إلى ترجمة اللاتينية إلى لغاتهم المحلية. وكان الأخ الذى يستطيع الكتابة يعد حالة استثنائية حتى أنه يستحق التعليق؛ مثل جيمز من براجانز» الذى كان يستطيع أن يكتب "حروفًا ذات أشكال كتابة جيدة ويوضح بالذهب' أما بالنسبة للقراءة. فإن قيادة كولبينز - وهو مكان متوسط - كان بها مكتبة تحتوى على ستة عشر كتايا. ائنا عشر من هذه الكتب عن الخدمة المقدسة؛ واثنان منها عن حياة القديسين؛ واثنان عبارة عن مجلدات للمواعظ. فالرجال كانوا بوضوح وأمانة من الاتقياء؛ وكان نشاطهم اليومى كما هو المال فى دير ينقسم بين الممل والصلاة. وكان ما يمارسونه من تسلية بريئا بشكل مؤثر: إذ إن الشطرنج والورق» ممنوعان, أكنهم يستطيعون لعب ضغط الأيدى (الريست) أو الحجلة - طالما لا يكون ذلك برهان. وكائوا يعطون الصدقات يانتظام للققراء؛ ويبيعون خمورهم وكذلك, الصوف واللحوم؛ والحبوب؛ ويؤدون خدمات للمجتمع؛ مثل بناء الأفران العامة؛ أو يقدمون القروض للتجار على نطاق أكبر. والملوك والنبلاء. لم يكن ذلك لأن خدماتهم كانت مجانية - فمن المخبز كان فرسان الهيكل يتلقون رغيفا من كل عشرين رغيقا يتم خبزها؛ وكانت ترتيبات سداد القروض دائما لفائدتهم. ذلك أنهم قد يكونون بسطاء, لكنهم كانوا متصلبى الرأس ومفتوحى الأعين أيضاء وكانوا يعرفون واجيهم: المحافظة على تدفق المؤن إلى إخوانهم فيما وراء البحر. فى جميع هذه الأمور؛ كان فرسان الهيكل الإسبان يمثلون الجماعة فى أنهاء الغرب؛ غير أن تنظيمهم الإقليمى كان به جانبان فريدان - وهى جوانب تبدو ظاهريا غير مهمة؛ بل شاذة وحيوية فى نهاية الأمر. أولاء جميع الأعضاء فى إسبانيا هم إسبان بالمولد» ونادرا ما كانوا يرسلون إلى بلاد أخرى. ثانياء على الرغم من جميع الحريات المنصوص عليها فى الميثاق الأعلى فإن كل فرد من الإخوان الإسبان أقسم يمين الولاء لمليكه. وسبب هذا الجانب الأخير غير واضح؛ ريما كان شرطا للتأكيد الملكى على الهبات. أما الجانب الأول فكان نتيجة للوجود الإسلامى فى شبه الجزيرة: فبما أن فرسان الهيكل الإسبان لديهم عدو جاهز أمام أعتابهم كما يجب القول؛ فمن 2076

الاقتصاد والتعقل العسكرى بالنسبة لهم أن يساعدوا فى الدفاع عن عقيدتهم قى وطنهم؛ بدلا من أن يتم شحنهم إلى الخارج. فى إنجاترراء لم يقسم أحد فرسان الهيكل يمين الولاء تلملك. هناك جميع امتيازات الميثاق الأعلى» تحققت, بل أكثر من ذلكء كان كل ملك تلو الآخر يعطى فرسان الهيكل حقوقا خاصة. ولما لم يكن هناك مسلمون فى إنجلتراء فإن فرسان الهيكل الإنجليز يمكن أن يذهبوا تلقائيا إلى الخارج. وليس فى وسع أحد أن يحدد كم عدد الذين أرسلوا إلى الأراضي المقدسة (على الرغم من أن أحد معلمى الهيكلء توماس بيرار» المعلم من 5061١ حتى 15875 كان إنجليزيا). غير أن إنجلترا تمثل تمثيلا كاملاء الخاصية غير الفروسية للهيكل فى الغرب. وحين تم حل الجماعة - بتعبير آخر. حين أصبح عدد أكير من فرسان الهيكل فى بلادهم عن المعتاد - لم يكن هناك سوى مائة وخمسة وثلاثين من فرسان الهيكل فى إنجلترا بأسرها. ومن هؤلاء كان هناك إحدى عشر قسيساء وبستة فقط هم الذين كانوا فرسانا. كما تبين هذه الأرقام مدى عدم تناسب قوة الهيكل الكبيرة بالمقارنة بالإخوان يه. ذلك أن الفرسان الإنجليز المائة والخمسة والثلاثين نظموا فيما بينهم التحكم فى الممتلكات فى كل أنحاء البلاد. وما زال الكثير منها يتذكره الناس؛ وما زالت الأماكن والأسماء موجودة. فى أوكسفوردشير هناك هيكل كولىء الأكثر شهرة الآن بصناعة السيارات؛ وفي ورويكشيرء هناك هيكل يالسول» وهى قرية صغيرة وادعة ساحرة. ويجانب الكنيسة هناك ما زالت الدار قائمة ويها من يسكنون فيها؛ وقد غطيت الجدران الأصلية بالطوب ولكن المدخنة الكبيرة التى يدفئ السكان بها أنقسهم فى أمسية شتوية باردة ما زالت تشير بالراحة للعاير الذى يشعر بشدة البرد. وفى كينت هناك هيكل وولثام وهيكل أويل؛ وفى ويلتشير هيكل ركلى؛ وفى ليتكولنشيرء هيكل بروشر؛ - وأبسطها جميعا فى كورنوول» هيكل بى. لم تكن جميع مستوطنات الجماعة بها مقطع هيكل غير أن نظرة إلى خريطة حديثة ما زالت تكشف العشرات من هذه الأسماء التى يسهل التعرف 279

عليهاء فى حين تكشف التواريخ المحلية عن الوجود المستمر لمئات, بالمعنى الحرفى, لمواقع فرسان الهيكل الأكثر وضوحا. والسبب فى أن مثل هذه القلة من الناس تحكموا فى هذه القطع الهائلة من الأراضى يمكن قوله فى كلمة واحدة: المال. لقد كانت أكبر قيمة لإنجلترا لدى جماعة الهيكل هى أنها مصدر دخل. ذلك أن فرسان الهيكل الإنجليز ساهموا فى تطوير لندن كسوق نقدى دولى» وفى تطوير الاقتصاد الإنجليزى بصفة عامة. ولقد نما وتشعب نجاح الأولى فى البلاد حين جلس الملك ستيقن على العرش - وهذا بالطبع» لأن ستيقن هو ابن ال ملك ستيقن من بلواء ذلك المشارك المرغم في الحرب الصليبية الأولىء والملكة متيلدا ابنة جودفرى دى بويون» ملك القدس غير المتوج. ومما قوى اهتمام ستيفن ومتيلدا وجود صلة أخرى غير مباشرة: ذلك أن عائلة ستيفن كانت تتحكم فى المنطقة التى جاء منها هيو دى بيان: وكانت عائلة متيلدا تتحكم فى سينت أومرء فى فلاندرء حيث ولد جودفرى أحد المؤسسين. وفى أثناء الصراع الأهلى الذى عقب تولى ستيفن العمرش, استفاد فرسان الهيكل من الجانبين, على ما يبدو أنهم كانوا يتلاعبون بالطرفين بحيث يكونان ضد بعضهم بعضاء وفي عام ١١54 ثبتت أقدامهم في كل أنحاء اليلاد. ومع ذلك, كان من الممكن أن تكون فائدتهم من الأراضى أقل بكثير لو أنهم اضطروا إلى دقع جميع الضرائب المعتادة. فنظام الضرائب غير الكفء فى إنجلترا ليس ظاهرة حديثة؛ إذ إن الاقتصاد الإقطاعى كان أيضا خانقاء يفرض أموالأ» وعائداتء وغرامات على كل شىء يمكن إدراكه. وإليك القليل منها بشكل عشوائى أخذت من قائمة الضرائبء أراضى على أية أرض تدفع للملك» وضريبة على الأرض المحروثة. ضريبة دفاع, ضريبة جندية؛ ضريبة بيع» ضريبة مبان» ضريبة خدمة المستاجر, ضريبة حراسة: قد تكون هذه ألفاظ لطيفة الوقع على الإذن. لكتها كانت تمس كل جانب من جوانب الحياة اليومية. وكانت معظمها ضرائب على الأراضي, أى فى مقابل خدمات مختلفة؛ مثل حمل السلاح, أو تقديم الدواب. كانت هناك ضريبة على كل شىء يشتري أو يباع» يصدر أو يستورد. وفي حالة وجود أى شيء خارج 200

القائمة, فكانت هناك ضريبة تعسفية تفرض متي رأى الملك أن ذلك ضرورى.
ومع ذلك» كان فرسان الهيكل معفيين منها جميعا. كما كانوا معفيين من ضريبة تربية الحيوانات المنزلية كالأرانب» وضريبة النظافة - أى أنهم يستطيعون أن يحجزوا أرضًا يسوروها عليهم. ولديه حق تحويل الغابات إلى أراض زراعية» دون دفع أية ضرائب.
كما يمكتهم تجاهل المسئولية المتبادلة عن السلمء وحقوق محاكم المقاطعة. لم يكن فرسان الهيكل فى إنجلترا قضاة أنفسهم فحسب, وإنما كانوا يحكمون على أى شخص يعيش فى أراضيهم؛ ويمكنهم, إذا شاءوا أن يوقعوا أية عقوبة؛ ابتداء بالتقييد فى الخشب والفرامات إلى عقبوية الإعدام شنقًا أى غرقًا. لكن هذا الحق لم يكن غير عادى كما يبدو لأن القضاء الخاص كان ما يزال معتادا فى تلك الأيام؛ وكل لورد فى إمكانه تطبيق العدالة, بئى شكل يفهمه. على أتباعه ومستأجريه. ومع ذلك» فإن امتيازات فرسان الهيكل خطت خطة أبعد؛ ذلك أن عدم الالتزام يوامر محاكم المقاطعات كانت تهنى أنه لو كانت لأحد شكوى ضد الجماعة: لا يمكن أن تعرض إلا على كبير قضضاة المنطقة أو الملك نفسه. وكانت هناك شكاوى ضدهم., من التجار الذين يخفضون أسهعارهمء ومن رجال لدين الذين كانوا حانقين على امتيازاتهم الكنسية, ومن السلطات ال محلية التى فقدت أراضى تحلب الضرائبء والمستأجرين الذين يدفعون الضرائب فى مواجهة المنازل الريفية المتوسعة لفرسان الهيكل. ومع ذلك؛ لن يكون من الدقة النظر إلى هذه الانتقادات على أنها أدلة على العداء المنتشر للجماعة؛ ذلك أن نفس المشاجرات لنفس الأسباب كانت تحدث بين الجماعات المختلفة من اللوردات من غير رجال الدين مراراء واللوردات الكنسيين والسكان العاديين. ومن الوهم أيضا أن نعتقد أن فرسان الهيكل. بعد أن فازو! بحقوقهم أمسكوا بها بسهولة. لقد منح ريتشارد قلي الأسد الجماعة ميثاقاء شاملا من الإعفاءات والامتيازات عام 211٤6 وجدد هذا الميثاق الملك جون بعد ذلك يعشر سنواتء وجدده مرة أخرى هنرى الثالث عام ١١77 وعام ,17867 وإدوارد الأول عام ١٠578١ء وعلى الرغم من هذه الموافقة 287

الملكية. كثيرا ما كان الإخوان يضطرون إلى هناشدة الملك لدعم حقوقهم؛
ولم يكن دعمه رخيص الثمن. ذلك أن ملوك إنجلترا أدركوا بسرعة أن فرسان الهيكل
قليلى العدد» والأغنياء بالأراضى والممتلكات يمكن استغلالهم؛ ويجب شراء تأكيد
الامتيازات أى توهسيعهاء وتحت حكم الملك جون أصبح النظام "حماية نظامية".
فوجدت مبالغ ضخمة - .٠غ مارك فى إحدى السنين؛ و 5.٠.٠. مرة أخرىء وألف جنيه
فى مناسبة أخرى - كلها وجدت طريقها من خزانة الهيكل إلى وزير خزانة جون؛ فى
حين كانت أفضل خيول فرسان الهيكل تطلب من أجل الإسطيلات الملكية. وقام
الإخوان بالدفع؛ وكانوا قادرين على ذلك, وكان الأمر يسستحق ذلك. وتكشف أعمال
الجرد في دورهم عن بساطة الحياة التى كانوا يحيونها وتؤكد على حقيقة فقرهم
كأفراد. إذ لم يكن لديهم أية أشياء ذات قيمة على الإطلاق باس تثناء معداتهم الزراعية
- ريما مسوح أحد القساوسة بعشرة أى عشرين شلنًا. ولكن لا توجد أية بضائع تدل على
الرفاهية من أى نوع. وكان الأثاث الموجود لديهم لمجرد أداء الوظيفة وعادة ما يكون
من صنعهم. ولا يتميز بأية جودة؛ وكان طعامهم هو الأكل الأساسى فى المزرعة
المعاصرة - الضان المملح, ولحم الخنزير (مرتدلة) والسمك المملح أى المجففء
والجينء والقليل من لحم البقرء وعلى فترات متباعدة, قليل جدا من النبيذ. ولكن فى
إنجلترا القرن الثالث عشرء حين كان طعام الشخص يكلف يوميا بنسًا أى بنسين وكان
الجنيه يساوى 54١ بنساء كان دخل الجماعة السنوى هو ٠ نيه وكانت النقود تأتى من
الإجارات والتجارة والتعاملات البنكية. وكانت التجارة والبنوك هى المصادر الرئيسية؛
فبالإضافة إلى البيع والشراء المعتادين للمواد الفذائية والحيونات والطيور فى الأسواق.
المحلية والعامة, كان فرسان الهيكل لديهم أعمال مزدهرة فى تصدير الصوفء
والحبوب: والأسماكء ومنتجات الألبان. وكان الصوف مربحا بشكل خاص؛ لقد كان
أكبر تركيز لممتلكات فرسان الهيكل فى يوركشيرء ولينكولنشير, وذلك لأن المنطقتين
كانتا تنتجان صوفا عالى الجودة. وهنا كانت الفائدة

من الإعفاء من جمارك التصدير والقيود؛ ذلك أن الجمارك على جوال واحد
من الصوف يمكن أن يكون سبعة شلنات وستة بنسات, ولكن بالنسبة لقرسان الهيكل
كان الريح الإجمالى والربح الصافى متطابقين. وكانت يوركشير ولينكولتشير مها
تعطيان الإخوان نصف الدخل تقريباء ما يساوى تقريبا كل ما تقدمه المقاطعات
الإنجليزية والولزية التي كانوا يمتلكون أراضى فيها. ومع ذلك فى يوركشير كلها لا
يوجد سوى أثر واحد للجماعة - بضعة أحجار من قرية هيكل هيرست. هذه كل ما تبقى
من المقر هناك. وهى كان مكانًا شهيرا فى أيامه؛ تأسس عام 1107 وهو ثاني ممتلكات
الجماعة فى البلاد. وفى القرن التاسع عشر كانت ذكراه من القوة حتى أن سير وولتر
سكوت وصقه فى أحد أعماله - مع أن وصفه يجافى الحقيقة. أما اليوم, فإن الأثر
الإنجليزى الرئيسى للفرسان الفقراء يوجد فى لندن: ألا وهو كنيسة الهيكل. كاتت لندن
هى مركز العمليات. ولا يعرف تأسيس أول دار هناكء ولكن من المحتمل أن يكون هيو
دى بيان قد تلقاه فى أثناء رحلته الافنتاحية عام :11748 وكانت بالدار الأولى حديقة
ويستان» ومقبرة وكنيسة من الحجارة؛ وهبان خارجية يحميها خندق. كان بالقرب من
نهاية تشاتسرى لين الحالية؛ واكن سرعان ما أصبح صغيرا جدا؛ وقى عام ١١٦١ انتقل
فرسان الهيكل إلى موقع أكثر اتساعاء على ضفة التيمز الشمالية. وهناك بنوا كنيستهم,
وطويها هيراكليوس فى عام 1180 إنه بطريارك القدس المنحلء وكان ذلك فى أثناء
بعثته غير المجدية فى أوربا. من الناحية الفنية» فإن هيكل لندن لم يكن فى لندن وهو
ليس فى لندن بالقعل. ذلك أن حدود المدينة كانت تمتد من البرج فى الشرقء؛ إلى خط
يبعد عدة مشات من اليردات غرب كتدرائية القديس بول؛ لقد كانت مساحة المدينة
أكثر قليلا من تصف ميل مربع. وداخل تلك المساحة الصغيرء على جانبى شوارعها
الضيقة المتعرجة الموحلة تزاحمت مائة كنيسة. وكانت كنيسة الهيكل غرب حدود
المدينة, فهى بالفعل فى مدينة ويستمينيستر. وحين بنيت غطت على الشوارع
المحيطة؛؛ أما الآن فهى مختفية بين 2653

صروح نزلين, وتعد الكئيسة الخاصة بالمحامين. وفى حياة الكنيسة ما زالت
باقية اثنان من الامتيازات القديمة التى تم توارثها منذ أيام الجماعة القديمة: لا تدين
الكندسة بأى ولاء لأسقف لندن أكثر مما كانت تدين للباباء وحكمها مباشرة للملك؛
واللقب الرسمى لكاهتها هو معلم الهيكل. ويتكون المبنى كما كان يعرفه فرسان الهيكل
فى القرن الثالث عشر من مكان للمترنمين عرضه خمس وستون قدماء وطوله نحو
مائة قدم, مع وجود بناء مستدير مهيب فى اأطرف الفربى قطره خمس وى تزن قدما.
كان هذا البناء فى الواقع هو الكنيسة الأصلية فى القرن الثانى عشر؛ ويه تماثيل صغيرة
لفرسان لكنهم ليسوا من فرسان الهيكل. وكان من النادر وجود كنيسة مستديرة؛ إذ لا
يعرف سوى عشر منها بنيت فى انجلترا فى أثناء القرن الثانى عشرء نست منها كانن
لفرسان الهيكل. وكانت على غرار كئيسة الضريح المقدس فى دار فرسان الهيكل الأم
فى القدس. ومنذ حل الجماعة, كان هناك اعتقاد شائع لكنه زائف بأن جميع كنائس
فرسان الهيكل كانت مستديرة؛ وما هذا الاعتقاد سوى جزء من الأسطورة الشعبية
الشائعة التى لا أساس لها التى أوحت بها السرية التى أحاطت بها الجماعة.نفسها. لكن
أنشطة فرسان الهيكل البنكية كانت حقيقية, ولعبت دورا كبيرا فى وظيفة هيكل لندن.
ومن المبانى المحيطة بكنيستهم الدائرية» أداروا نظاما لتمويل والائتمان الدولى
والوطنى. وكان الملوك والتجار والنبلاء يودعون الذهب والقضة والحلى» لديهم من
أجل الحفظ الآمن» ويذهبون إليهم من أجل القروضء أو كى يدفعوا المال لأناس فى
الخارج. ولم يكن النقد السائل دائمنا هو وسيلة العمل؛ ذلك أن فرسان الهيكل
استخدمواء وربما اخترعوا شكلا بدائيا من الصكوك لتحولات الائتمان» على هيئة ورقة
يكتب عليها اسم مرسل الائتمان وعنوانه وتاريخ الإرسال. ووجهة الائتمان والمتلقى
المعين. وكان الهيكل يعمل بمعنيين, باعتباره الخزانة الملكية: أى أنه كان مخزن النقود
الملكية والأشياء الشمينة, والوكالة التى تجمع بها هذه النقود, وتراجع. وهكذا كان
فرسان الهيكل يجمعون من الآخرين الضرائب التى كانوا هم أنفسهم يعفون من 284

دفعهاء ويحفظوئها فى لندن نيابة عن الملك. وهذه يمكن أن تكون مبالغ
كبيرة حقا من المال - فى 1558 على سبيل المثال» بلغت ضريبة الثلاثين لنوتينجهام
وبريستول معا (واحد غلى ثلاثين من منقولات المواطنين) 4588 جنيها. وبالمثل»
فإن.فرسان الهيكل بما لديهم من قوافل جاهزة مسلحة فى النقل البرى والبحرى عادة
ما يمهد إلدٍ بالأموال الملكية التى ترسل إلى الخارج. ليست الأموال الملكية فحسب.
وإنما الرسائل الملكية أيضا؛ إذ تحدثث السجلات الإنجليزية مرارا عن فرسان هيكل
يقوم بدور المبعوثين أى سفراء الملك. كما كانوا سياسيين عاملين: إذ كان معلم الهيكل
فى إنجلترا بشترك فى البرلمان» ويعمل كمستشار للملك - وفى إحدى أشهر المناسبات
وأقلها نجاحاء حاول ريتشارد من هيستينز المعلم فى إنجلتراء فى)171(أن يعقد
صلحا نين هترى الثانى وذلك الاقف لكي الاظطواب وماس يكت :كاف لساك الدونات
بالفعل تنعقد فى الهيكل الجديد. كما كانت تسمى الكنيسة الدائرية ومبنييها الملحقين.
كما انعقدت هناك مجالس الكنيسة. بالإضافة إلى اجتماعات سياسية أقل رسمية؛ ففى
التقى هناك سيمون دى مرت وكبار باروتات المملك لمناقشة الإجراءات التى يجب
اتخاذها ضد سوء حكم هنرئ الثالث. وكما حدث فى أثناء حكم ستيفن, ساعد فرسان
الهيكل الإنجليز الجانيين, امتدت ممتلكات الجماعة فى أوريا من تيمبلينو, على
شواطئ لسان كينمار فى جنوب غرب أيرلاندا. إلى إقطاعية تسمى سينت مارتين فى
مكان ما أما فى كرواتيا أو سلوفينيا. وفى المجرء حين انبهر بيلا الثالث بأنشطة
فرسان الهيكل فى أثناء حجه إلى الأراضى المقدسة, وضع أساس فروعهم فى شرق
أوربا؛ وأعطى هو وبيلا الرابع التبرعات القياسية من الأراضى والمبانى فى جيجنا
ودوييتشا وباناب، باستثناء الأسماء لم يبق سوى القثيق من السجلات: وفى الولايات
التى تضم ألنيا الآن: من الطبيعى أن يكون الفرسان التيوتونيك (الجيرمانيون) وهى
جماعة عسكرية تأسست عام 4 محاكاة لفرسان الهيكلء أكثر شعبية؛ ومع ذلك كان
لفرسان الهيكل ممتلكات واسعة هناك أيضاء على الأخص فى مينز» وويرمنزء وترير»
وبرلين» حيث 25

كانت هناك كنيسة على موقعهم فى تيميلهوف حتى عام :1545 ويعض الممتلكات الألمانية تم اكتسايه قبل ذلك: مثل سويلينجبورجء: شرق هنوفر» فى .١١71 وميتز (التىء لم تكن حينئذ تايعة لقرنساء مع أنها تقع على بعد مائة وعشرين ميلاً شمال تروا) يقال إنه قد تم التبرع بها عام ؟١١؟ - قبل الاعتراف بالجماعة بخمس سنوات. وإذا ما انتقلنا جنوياء سوف ندهش حين نجد أن وجود فرسان الهيكل كان أكثر ضعفا من وجودهم فى إنجلترا البعيدة. من المؤكد أن روما كان بها إقطاعيات وكروم» وكذلك أنيا ونبولىء» ولتشاء وبينيفينتى. ويارى» وتارانتوء» وييترى» وبيروجياء وفيرونا وميلانوء ويولونيا؛ ولكن كان هناك أيضًا عدد كبير من الأساقفة المترددين في الإقلال من صلاحيتهمء فكانت سيطرة فرسان الهيكل النسبية فى شبه الجزيرة التى أسماها البابوات الوطن كانت أقل مما يمكن أن نتوقعه. يل أن دار فرسان الهيكل والحديقة فى أناجنى لم يتم التبرع بهما حتى ٠١ يولية عام ,15553 حين وهبهما البابا بونيفاس الثامن؛ وكان السبب الذى ذكره تبريرا لذلك هو أن الجماعة لم تكن لديها أراض فى الجزء المتجه إلى البحر فى كامبانيا على الإطلاق. وعلى بعد ما يقرب من أربعين ميلا شمال غرب روماء بالقرب من مدينة توسكانيا الصغيرة. توجد بقايا اثنين من المقار الصغيرة: سان سافينو؛ وكاستيلارالدو. وفى الحالتين لم يكن أى من المبنيين يزيد طوله على مائة قدم تقريبا - لا يكاد يكون شيئًا فى بلاد تعج بالسكان - وكان مستواهما طبق الأصل للكثير من قواعد فرسان الهيكل في إيطاليا. وترك لصقلية أمر تقديم التركز الحقيقى للممتلكات للجماعة فى هذا الجزء من العالم: فعلى الرغم من حجم الجزيرة الصفيرء امتلكوا أجزاء فى ميسينا وتراباني» وسيراكيوزء وبوتيرا» ولينتينى, وبليرمى, بالإضافة إلى مجمعات كبيرة من الإقطاعيات حول سفح أتنا. لقد كانت مكانة الجماعة الاقتصادية والقانونية مشابهة فى كل بلد؛ مع وجود ميثاق عام مشترك في كل مكان. ولم تسر الحياة على أسس أكثر تعقيدا وعالمية سوى في العواصم الكبرى, مثل لندن» وياريس» وروما؛ ففى هذه المدن كانت الأسبقية

لاتعاملات المالية. حيث كان الإخوان يقبلون الحسابات الجارية» وحسابات
الإيدا ع, وإيدا ع المجوهرات, والأشياء القيمة» ووثائق اللقب» وتقديم القروض,
والمقدمات, والعمل كوكلاء للنقل الآمن لهذه الأشياء. وقد اقترض البابا إلكسندر الثالثك
١٠١ جنيهًا من الجماعة, وطلب منه أن يرد 104؛ وحسب مصطلح فرسان الهيكل لا يعد
هذا الفرق فوائّد؛ ذلك أن تقاضى فوائد على قرض من شأنه أن يجعل منهم مذنبين
بارتكاب خطيئة الريا. ويدلا من ذلك مثل هذه المبالغ كانت تحسب كمصاريف للوقت.
والجهد والمخاطرة التى ينطوى عليها ذلك - وهى مفالطة مما يميزهم وهى شديدة
الدقة على فهم وتقبل معظم الناس, وهى التى أكسبت الجماعة الكثير من المال والكثير
من الأعداء. أما خارج العواصم: بما يتمتعون به من تعاملاتهم الحاذقة التاجحة المجربة
فى أسواق المال الناشئة, كان كل رائد أو قائد يستفل الأراضى المخصصة له بالطريقة
المناسبة, من فلاجة» وصلاة. وصنع الخمورء والخبزء والغزل, والحفظ فى الأوعية؛
فى الحياة فى المقار الريفية مشابهة فى كل مكان, فالمستأجر المعتدل كانت تحكمه
مقتضيات الموسم وتقويم الكنيسة, مع فروق جوهرية قليلة فى اسكتلندا وأيرلانداء
ودالماتياء أى إنجلترا الريفية. لكن اسكتلندا لها وضع محيرء مربك ذلك أنه فى الأيام
الرهيبة الأخيرة لم يتم القبض إلا على اثنين من فرسان الهيكل هناك كانت البلاد
تحتوى على قدر كبير من ممتلكات فرسان الهيكل. إذ إنه حول إبردين وحدهاء كان
صليبهم على دور وكنائس فى توريفء وتوليتش, وميريكوظر, وأبوين» وكينكوزى.
وفى إبردين نفسها كانت لهم كنيسة خاصة؛ سجلت عام 16401 على أفها "تقع بين
دانسينج ماستر بيكوك كلوز وجاردينرز لين ؛ وجنوب المدينة عند كتلر, كانت لهم
إقطاعية لا تقل عن ثمانية آلاف من الإيكرات. من الواضح أنه كان هناك أكثر من رجلين
لإدارة هذا كله؛ لكنّ أحدا لا يدرى ماذا جرى لهؤلاء الرجال. هناك أقوال عن فرسان
هيكل فارين ومقار سرية فى 257

الجزر الخارجية؛ غير أن هذه خيالات ولدت بعد قمع الجماعة يقرون؛ ولا توجد حقائق تقوم عليها . ْ وتاريخ فرسان الهيكل فى أيرلاندا مشابه؛ من حيث كونه مزيجًا مختلطًا من التراث فى الأقاويل نمت فيها أفعال وأماكن نسبت إلى الجماعة فى أثناء الحكي» مخلوطة بذكريات مضطرية للإسبتاليين: ومخلوطة بطائفة من الأساطير والحكايات الشعبية. إذ لا يبدو أن الجماعة كان لها أى وجود هناك حتى بعد أن فتح هنرى الثانى شرق أيرلندا وهو الذى منح الجماعة أراضى جرئيا للتعويض عن عدم ظهوره فى الأراضى المقدسة. وأعطاهم طواحين فى ويكسفورد, وبالقرب من ووترفورد» بالإضافة إلى كئيسة ومعشر قطع أراض محروثة عند كلونتارف؛ ومن هذه البدايات» توالت الهبات والمشتروات المعتادة, حتي أنه فى وقت القمع الذى حدث لهمء كانت الجماعة تمتلك أراضى فى مقاطعات كارلو, ودبلين: وكيلديرء وكيكينيء وليمريك؛ ولوث: وميث, وسليجوء وتيبارىء وويكلى أيضاء وكانت معظمها من الأراضى الزراعية الضعيفة التى توجد فى أنحاء بريطانيا. (الأرض ال محروثة عبارة عن أرض يمكن أن يحرثها محراث واحد وثمان من الثيران فى عامء أى القدر الكافى لإعاشة فلاح وزوجته وأسرته. من الواضح أن هذا يمكن أن يكون قدرًا متغيراً اعتمادا على جودة الأرض, والثيران: والحارث. لكنها يمكن أن تكون دائما قطعة كبيرة من الأرض). على الرغم من أن إخوان الهيكل فى أيرلندا جميعا أصلا من عائلات ساكسونية نورمندية» فإن الإخوان الرقباء كانوا من أصل أيرلاندى - أناس أمثال تاثوج أودفجير» وجيمز بانبيكر؛ وكينيدى أوكيناج. وويليام بوى أوموليران. هؤلاء الرجال جميما يظهرون فى قائمة الجمعية الأيرلندية» وأمثال هؤلاء الرجال من الممكن أنهم كانوا بين من ماتوا من أجل المسيح فى الأراضى المقدسة. وفى أيرلنداء أولئك الذين لم يكونوا أعضاء فى الجماعة كثيرا ما كانوا يفعلون ما يفعله نظراؤهم فى إنجلتراء ويضعون صليب فرسان الهيكل بشكل غير شرعى على بيوتهم كى يتهربوا من الضرائيب والجمارك. وقد بلغ انتشار هذه الطريقة على جانبى 258

البحر الأيرلندى حدا جعل هنرى الثالثك يضطر بالتحديد إلى منعها. ولكن ريما كان أكثر الأجزاء لفتا للانتباه فى العلاقة مع أيرلندا هى: التقود الأيرلندية التى ذهيت لبناء الهيكل الجديد فى لندنء والمعلم الأيرلندى الذى مات هناك. فى عام 1547: أمر هنرى الثالث وزير خزانته الأيرلندى أن يدفع 5.٠ مارك لروجر لى وأليسء معلم الهيكل فى إيرلاندا؛ للمساعدة فى تشييد الهيكل الجديد. وتم تسلم المال وتسليمه, وأقيم البناء. وإحدى الحمجرات هناك هى عيارة عن زنزانة صغيرة موحشة قدمان ونصف فى أربعة ونصف قدم - أصغفر من أن يرقد المرء فيها - وهى تطل على جسم الكنيسة. ويمكنك أن ترى من نوافذها الضيقة الضئيلة وتسمع جماعة المصلين - وهم, بالطبع؛ يمكنهم أن يسمعوك ويروك. - ولكن ما إن تحبس في تلك الحجرة, قلا مجال للخروج. لقد كانت زنزانة للندم. لعقاب الإخوان العصاة. ولا بد أنها كانت فريدة الأثرء لأن الأخ المدان كان يعزل, ولكن لا يبعدء عن مركز دينه أى المناولة التى حجب عنها تحدث بشكل مثير للرغبة لشدة قريها ويمكن للمتناولين المميزين أن يشعروا بما يعانى من عذاب. وفى هذه الزنزانة فى عام ١١٠١١ معلم أيرلندا آنذاك وولتر لى باتشلر. مات جوعاء وهى قادر حتى آخر لحظة أن يستمع إلى المزامير التى كان يترنم بها إخوانه فى أسفل. وكانت جريمته التى مات بسببها وهى محروم من الكنيسة هى نقل ملكية أرضء إذ لا أحد يمكنه انتهاك الميثاق ويتجو من العقاب للهيكل دون تصريح. وكانت دور الهيكل فى كل مكان يستخدمها المسافرون كنزل يجذبهم إليها ما تسم به من أمان لا مثيل له؛ فكان إخوان الهيكل الجديد في لندن مضيفين لعلية الناس. إذ كان يقيم هناك الملوك والأساقفة وممثلو اليابا والدبلوماسيون جميعا أحيانا لسنوات متصلة. ولكن على الرغم من مكانة فرسان الهيكل فى البلادء فإنهم كانوا ينظرون إلى إنجلترا على أتها مصنع كبيرء ومصدر وفير للريح؛ لكنه فى مكان غير ملائم مطلقا لتقود الجماعة فى الغرب. وكانوا يحتفظون بهذا الشرف لفرنسا. 269

وعلى الساحل الشرقى لفرنساء فى وسط خليج بيسكيء يقع ميناء لأروشيل القديم. وهناك طريقان للاقتراب من الميناء من البحر؛ الطريق الشمالىء من وإلى بريتاني: ويسمى مضيق بريتون. والطريق الجنوبى بين هيدر وليديرون؛ واسمه أقل وضوحا: هو مضيق أنطاكيا. ومله مثل إيج - مورت. (المياه الميتة) على الساحل الفرنسى فى البحر المتوسطء يعد مضيق أنطاكيا صدى لأفخر الأيام وأكثرها أملا فى الحروب الصليبية؛ ذلك أنه تحت قيادة فرسان الهيكل. أصبحت لأروشيل نقطة رئيسية للبدء فى الحروب الصليبية. واعتادت السفن الإنجليزية فى طريقها إلى الشرق: أن تحضر إلى هناك للتزود بالطعام والمياه العذبة؛ وتسافر السفن الفرنسية إلى البرتغال وإسبانيا وإفريقيا وقيرص وفلسطين. وكانت أولى ممتلكات فرسان الهيكل هناك دارا فى الميناء» وطاحونة خارجه. كل منهما تم الحصول عليه فى عام 1159 كهبة من لويس الشاب وزوجته أليانور. وفى خلال بضعة عقود استقرت الجماعة بقوة فى الإقليم, إذ كانت أراضيها تشكل هلالين مركزين على الميناء. الذى زاده نفوذا بدوره. ذلك أن قيادة لأروشيل سيطرت عليه بأكمله؛ أما اليوم, فياستثناء بضعة شوارع تحمل أسماء: لفرسان الهيكلء لا توجد سوى ثلاثة أشياء تبين أن فرسان الهيكل كانوا موجودين. فتحت الفندق الذى نشأ من حطام القيادة يقع قبو بسيط, حيث كان فرسان الهيكل يخزنون الحبوب, أو ربما الأسلحة. ولكى يدخل المرء الفندق» يمر بطريق مسقوف بانحناء؛ وتحت ذلك الانحناء نفسه, منذ سبعمائة أى ثمانمائة سنة, كان الفرسان الذين يرتدون العباءات البيضاء. والرقباء بأرديتهم البنية يدخلون فناءهم. وفى الفناء, فى أحد الأركان هناك درع منحوت فى الحجره إته درع به صليب به ثمان زوايا: إنه بوسينت: علم فرسان الهيكل. وهو شاهد قبر صغير حاد. فحتى فى باريسء حيث توجد الدار الرئيسية للجماعة فى أوربا وحيث يمكن للمرء أن يدرس اليوم مئات من الوثائق الأصلية المتعلقة بفرسان البيكل - حتى فى باريس, لا يكاد يعثر على أى أثر. ولكى يرى المرء الآثار الأكثر استدغاء الى الاماكن التى تستحشبر الحناة اليومية للاكوان فى أوريا؛ كأوضم ما يكون. عليه أن يفادر المراكز الرئيسية ويبحث فى أماكن أخرى. ومع ذلك حتى يفعل 220

ذلك» فهناك حاجة إلى بعض العناية. وتوجد فى جنوب فرنسا بعض أفضل
منازل فرسان الهيكل الريفية الكبرى التسهة ذائعة السيط. فحين يتجه المرء فى ذلك
الطريق من باريسء يمكن أن يمر بدول» وهناك يتعثر قى مطعم يبدو جدا أنه ينتمى
للعصور الوسطى يسمى باسم الجماعة. وهو بيقع فى قبو حجرى مثير للمهابة؛ بسقفه
المنحنى المدعم بأعمدة كبيرة. ويرجع تاريخه إلى فترة فرسان الهيكلء والطعام هناك
جيد؛ وللأسفء فإن الاسم زائف تماما. ومع ذلك؛ فإن المنطقة ذات مغزى فى تاريخ
البيكل: فعلى بعد بضعة كيلومترات حنوب شرق المدينة يوجد نجع تيمبلدبلفاننس,
حيث ما زالت توجد إحدى أقدم القيادات, وهى بها سكانء ويرجع تاريخها إلى 4 وفى
جنوب غرب المدينة. على ضفاف نهر دوبء يوجد نجع آخر صغير يسمى مولى.
وهناك. حوالى عام 44□1١؛ ولد صبى هو جاك دى مولى, الذى أصبح آخر معلمى
فرسان الهيكل. وقى أعماق الجنوب» يوجد كنز اليوم الخاص بقرسان الهيكل. فهناك
لابارجمون, على الطريق من أفينيون إلى إيكسء الذى كان ذات يوم قيادة كانت
وظيفتها زراعة العنب, والتى ما تزال تنتج نبيذا أحمر لذيذ الطعم, يتم تسويقه بحس
تجارى سليم غال؛ تمت علامة صليب فرسان الهيكل. وتوجد جرو وريشوقان؛ وسانت
أولاقىء ولا كوفرتقواراد؛ كل منها مختلف وكل منها يضيء جانبا مختلفا من حياة
فرسان الهيكل. وسانت أولالى وكورتفواراد شقيقتان» تم تأسيسهما فى ١١8١391١6١
كل على حدة. وتقعان فى قلب لانجدوكء إلى الشرق من مدينة روكفور الأكثر شهرة.
ولا يفصل الحصنان سوى عشرين كيلومترا, ولكن من الصعب أن يكون هناك أى
اختلاف آخر فى موقعيهما: تقع سانت أولالى فى أعماق واد طويل عريض خصيبء
فى حين تقوم كورتواراد فى صحراء من الصخور والعشب الصغير الجاف. الأؤلى
تحيط بها الحقول. وجدول ماء؛ والمروج الخضراء' أما الثانية فليس بها سسوى برك
من الندى. لكن فرسان الهيكل كانوا قادرين على استخدام المكانين أفضل استخدامء
ويزرعون الطعام للبشر والخيول حول سانت أولالى» ويربون الأغنام فى كورتواراد؛
وكلا المكانين 221

تمامًا كما كانا أيام فرسان الهيكل. وكورتواراد تعد بصفة خاصة جوهرة: إنها مدينة من مدن العصور الوسطى احتفظ بها تماما. وهفى عبارة عن خمسين أو ستين مثزلا متلاضقة معا مع سلاقم شارجية تؤدى إلى طلوايقها الغليا؛ وازّقة لا تصل إلى اتساع الشوارع؛ وسور به خمسة أبراج» تحيط بها وتحميها؛ ويالقرب منها؛ هناك الكنيسة والقلعة. بعد الدهشة الأولى التى تشعر بها عند وجود مكان قام كاملا من العصور الوسطىء فإن أول ما يصدمك فى لاكوفرتواراد هو مدى صغفر حجمها. فهى بالكاد تسمى قرية اليوم. وفى ذلك الحين, كانت مدينة. والقلعة - وهذه الكلمة تستحضر صورة بناء ضخم فخم؛ ولكن مع أن جدرانها سميكة بالتاكيد, فإن قلعة فرسان الهيكل فى كوفرتواراد ليست أكبر كثيرا من أى منزل حديث. إن العظمة, بالطبع. شىء نسبيئ: فاذ1 ها قورتت القلعة بالمساكن الصغيرة التى تكون اكدبتة المتغيرة: فهى تعد فخمة. غير أن المرء يفهم فجاة ويوضوح. كم هو عدد الأفكار الحديثة عن قوة العصور الوسطى فى حاجة إلى مراجعة نحو التواضع. ذلك أن كل ما كان مطلويا كى يغطى بضعة مئات من الرعاة هى بناء حجرى متوسط المجم؛ ولكن فى تلك الأيام: كان ذلك قوة. وسانت أولالي مشابهة: فهى عبارة عن مجموعة من المنازل الصغيرة داخل أريعة أسوار قوية. تحصنها الأبراج ومن خلفها كنيسة الهيكل والقيادة. وهى مرة أخرى تند ضورة مستوطتة مصغرة. ويصدق الشىء نفسه على ريشفاتش: التى تقع على بعد خمسة وستين كيلومترا من أفينيون؛ وإكن بينما توحى.لا كورفتواراد ولا سانت أولالى شعورا معينا بالخفة والرقة - أى جى رعوى على الرغم من التحصينات - فإن ريشيرانش قوية صلبة عبارة عن بناء مربع الشكل فى سهل كئيبء يتسم يالغبار والقذارة والفقر. ربما كان أغرب ما فى هذه الأماكن المحتفظ بها هو أن الاتطباع الذى تعطيه دقيق من الناحية التاريخية؛ كانت ريشيران أولى الثلاثة. تم اكتسابها وتحصينها عام 252

فشيدت بوصفها بيانًا عن النية المتعمدة, قصد منها التأثير بقوة فرسان الهيكل العسكرية فى السكان المحليين, فى حين تظل أساسًا بؤرة لمجتمع زراعى. أما لاسانت ولاكورتواراد التى جاءتا بعد ذلك بجيل وجيلين: للترويج للجماعة: فلم تكونا فى حاجة إلى تحصينات في البداية. إذ كانتا مراكز زراعة بالمعنى البسيط النقى» وبنيتا كما يمكن أن تبنى الأديرة» بكنيسة:؛ وقاعة طعام: وعنبر للنوم» وإسطبلات وما إلى ذلك. فكانتا مسالمتين: لا تهددان ولا تتعرضان للتهديد. والأسوار والأبراج حول المدينتين لم تكن موجودة قط أيام فرسان الهيكل؛ إذ لم تكن لهما ضرورة. ولكن بعد تدمير الجماعة؛ استولى الإسبتاليون على دورهاء وينوا الأسوار كما يشرح أهل لاسانت 'لكى يحموا أنفسهم من فرسان الهيكل . على النقيض من هذه القيادات» تقف قلعة حرو بذاتهاء من جميع النواحى. أما الثلاثة الأخريات؛ فكانت نواة إدارية محلية» مدن منخفضة مرتبطة ارتباطا حميما بحياة الشعب العادى. تقف على قمة جبل على بعد خمسين كيلومترا شمال شرق بروفانس. وهى أكبر قلاع فرسان الهيكل التى توجد فى أوريا. وهى تبين مباشرة دون موارية جوانب الجماعة الأكثر ندرة فى الغرب منها فى الشرق: القوة العمسكرية البحتة - والوحدة العميقة. ذلك أن الكثير من آلاف المنازل الأخرى الأقلء لا يديرها سوى الرقباء الذين يرتدون الملابس البنية. أما قلعة جروء تلك المتكبرة البعيدة القوية الممزولة. فهى المكان الذى يرى فيه دائما الفرسان بالعياءات البيضاءء ويقولون فى صلاتهم: "حتى نهاية حياتنا؛ وحتى نهاية جماعتناء ما شاء الله لها أن تكون".

الجرء الخامس مؤامرة واحتفال ؟١١١-/١١□١

فيليب الأشقر فرنسا وإسبانيا .1-11.# "ا د عنى »2 فأبيدهم . سفر
التسمية, الإصحاح التاسع الآية ١6 انتهى عصر الحروب الصليبية الكبرى. ولن يكون
هناك أبدًا "ممر عام' للأوربيين إلى الأراضي المقدسة؛ حيث يقاتلون من أجل المسيح.
ذلك أن هزائم المسيحيين فى عام ١791 كانت حاسمة - ليس فى حد ذاتها وإنما
بوصفها جزءًا من نمط التغيير. وكانت أوربا فى بداية القرن الرابع عشر شديدة
الاختلاف عن أوريا ابابا إيريان والقديس بيرنارء منذ مائتى عام. وكان الإقطاع يفسح
ببطء وعلى مضض الطريق للنزعة القومية؛ وكانت العصور الوسطى تفسح الطريق
للنزعة الإنسانية. وكانت الحروب الصليبية تناقشء لكنها لم تكن تتم؛ إذ كانت
المسيحية المتشددة ها زالت على شفاه الناس:؛ ولكن - مع بعض الاستثناءات المهمة -
لم تعد فى قلويهم. وفى هذا المالم المتفيرء كان وجود الجماعات العسكرية فى طريقه
إلى أن تكون شيئا شاذا. فيما أنها لم تعد تفى بوظيفتها الأولى. "الدفاع عن الأراضى
المقدسة" فقد بدا للكثيرين أن فرسان الهيكل لم يعودوا يمتلكون السبب أو الحق فى
الوجود. وكانت مملكة فرنسا فى مقدمة التفيرات, وكان على رأس المملكة رجل واحد
يمكن اعتباره شعار التفيير. ففي عام 21507 كان فيليب الرابع الملقب ب "الأشقر"
يبلغ 227

خمسا وثلاثين سنة - فهو ما يزال شاباء فى ذروة الحياة, لكنه مع ذلك قديم فى الملكء لأنه كان قد توج الملك الحادى عشر من أسرة كابيت الفرنسية وهو بعد فى السابعة عشرة. وفى عام *170, كان قد حكم بوصفه ملكًا لأكثر من نصف عمره؛ وأصبح ينظر إلى مملكته بنوع من الرضى الصارمء ذلك أنه. إن لم يكن محبوباء فقد كان مرهوب الجانبء - ليس فقط فى مملكته, وإنما فيما وراء حدودهاء فى جيين وفلاندر. وإنجلتراء وإسبانياء وإيطاليا. وكان بحكم مساحة أوسع وأكثر تجانسا من تلك التى حكمها أى من أجداده من أسرة كابيتء ذلك أنه بالنسبة لمعظمهم. كان الحكم المباشر قاصرا على جزء من فرنساء - باريس ومحيطها المباشر. وهذه لا تكاد تكون مملكة بأئى حال؛ ولكن بعد ثلاثة قرون وأكثر من حكم هذه الأسرة:, نمت المملكة كى تضم نورماندى؛ وأنجوء ومين, وتورين» وبرى» وبواتيى» وأوفيرنء وتولوزء وشامبانى, ونافار. وكان فيليب يعد نفسه مستحقا للوراثة: فقيض على الحكم بيد من حديد. وكان الملوك من أسرة كابيت على مدى ثلاثمائة سنة ينمون بعناية الاعتقاد بأن ملكهم يأمر إلهى. وكانت حقلات تتويجهم تتبع المراسم اتباعا دقيقاء أى أنها كانت مناسبات شبه دينية. تبارك فيها الكنيسة الحاكم الجديد ويدهن بالزيت المقدسء - وهى زيت تحكى الأساطير أنه جلب من السماء بواسطة حمامة: ولا يتقص أبدا. وحين يتوج الملك. يصبح نصف إله؛ أي كائن مسنثناء من الأخلاقيات العادية؛ ويشاع أن لمستة منه من شأنها علاج الأمراض. وكان لويس التاسع. قد ذهب بهذا الاعتقاد إلى أقصي حد: إذ جمع بين السلطة والتقوىء وبذلك وضع الأساس للحكم الدينى السياسيء فى أمة يسود فيها قانون الله. ولا يفسره وينقذه سوى الملك وحده. فكلمة الملك. هى أيضا كلمة الرب. وهى مطلقة من الناحية الروحية والدنيوية. وقبل فيليب دوره قبولا تامًا - سواء عن اعتقاد صادقء أو منفعة سياسية, أى كليهما معاء. من المستحيل القول بأنه يفترض أنه كان يعلم؛ لكن هذا الرجل كان أعظم لفز فى تاريخ فرسان الهيكل. إذ إنه لم يكشف قط عن أفكاره أو مشاعره أو 2068

دوافعه للعمل لأى مخلوق. ذلك أنه إذا قعل ذلك فسيكون هذا غير متسق.
سياسيًا وروحياء وفيليب كان متسقا بشكل قاس. فشيد حول نفسه دائرة من البرود والصمت, لم يتغلفل منها أى أحد ممن يعرفونه؛ وكتب عنه أحد معاصريه "هو ليس بإنسان ولا بحيوان؛ إنه تمثال". ويصعب تحسين هذا الوصف؛ حتى اليوم تظل شخصيته بعيدة, يصعب الوصول إليها. أفعاله فقط هى الشيء الواضح الذى لا لبس فيه. ومن هذه الأفعال. ومن القليل من التعليقات المعاصرة له والتى ليست بالمدائح ولا هى بالهجاء, يمكن للمرء تكوين صورة عن فيليب الإنسانء والتمثال الجميل. من المؤكد أنه كان جميلاء بل كان جماله استثنائيا؛ كان الجميع متفقين على ذلك. ومن الواضح أنه كان رجلاً ذكيا يتمتع بالعزيمة, ولا بد أنه كان مخلصا فى معتقداته, لأن أفعاله باعتباره نصف إله, وملكًا بالكامل» كان وراءها منطق رهيب. وكان يملك. فوق ذلك. فهما غريزيًا لعلم النفس, ومنذ بداية حكمه أحاط نفسه بمجموعة من أكثر الناس مكرا فى فرنسا. ومن خلال هؤلاء أى وزرائه» حكم مملكته كهعنكبوت فى لم يكن الحكم المطلق ممكنا بالنسبة له: ذلك أن الناس الهاديين والنبلاء والذين لم تكن لهم ألقاب؛ ما يزالون يفكرون بالمنطق الإقطاعى, ولم يكن جهاز الحكم المطلق قد أنشئ بعد؛؟ لكن فيليب كان ينشئه, وكان حاكمًا مطلقًا صرفا بقدر ما كان ذلك ممكناء يطور طريقة فى الحكم على النقيض من الاتفاق الإقطاعى. ذلك أن إخفاءه لذاته وافتقاره الظاهر للإنسانية؛ ربما كانت حيلة متعمدة. إذ إن فيليب كان يؤكد على الجانب الكهنوتي للملك» عن طريق عدم الكشف عن الرضا أو الحنق الشخصى. وكلما كان مظهره صلباء كلما سهل عليه خداع مناصريه وأعدائه على حد سواء. وكلما قل فهمهم لأفكاره, كلما زاد خوفهم؛ وكلما زاد خوفهم سهل حكمهم. . لكن'ميراث فيليب لم يكن فقط من صنع الحكم الدينى السياسي. فإذا كان الرب يحكم من خلال ملك فرنساء فذلك فى هذا العالم وليس فى العالم الآخر؛ وفى هذا العالم يجب دائما تذكر الثراء المادى غير النظيف. وكان ميراث فيليب الدنيوى 2059

يتالف من الحروب والديون - الحروب ضد إنجلترا فى البحر وفى جيين: التى كان الإنجليز يستحوزون عليهاء وضد فلاندر التى كان يشتهيها ملوك أسرة كابيت؛ والدين لكل من يقرض. وكان قرسان الهيكل فى مقدمة قائمة دائتى الملك, لكنهم لم يكونوا وحدهم؛ فاليهود واللمبارديون: والمهرة أيضا فى أمور المال: كانوا يضمنون فواتير الملك. وكاتت الحاجة إلى ا مال جزْءًا من الدافع للحرب. ذلك أن القروض؛ وهى عادة بفوائد بشكل أو آخرء كان لا بد من دفعها أحيانا؛ والنظام الإقطاعى الذى لا يوجد به مادة عن ضريبة الدخل والعائد الذى يمكن االتنبق به تنبؤًا تقريبياء كان يعتمد إلى حد كبير على الضرائب المتقطعة, لأغراض محددة:. كانت الحرب أوضحها وأيسرها على الفهم. لكن القتال كان يكلف دائما أكثر من المتوقع: ليس فالأموال فحسب وإنما فى الأرواح. فكانت الاستدانة تزداد بدلا من أن تنقصء بكل سهولة, حتى مع الحملة الناجحة. وكان من الفظاظة أن تضطر أن تقاتل الآخرين كى تسحب الأموال من شعبك؛ كما كان شيئًا غير مؤكد وغير كفء. وفيليب كان يكره انعدام الكفاءة. وكانت لدى فرنسا نقس أنواع الضرائب التى كانت موجودة فى إنجلترا فى ذلك الوقت. والتى كان معظم الناس يعتبرونها غير عادلة أو متكافئة أصلا. وفيليب الذى كان يتطلع حوله بحثًا عن المال. أحيى بعض الأفكار القديمة, وأدخل بعض الأفكار الجديدة: القروض الإجبارية؛ وبيع حقوق النبلاء. ورخص التصديرء وضرائب على الأعمال الخاصة, وضريبة مبيعات عامة على كل ما يباع أى يشترى. وهذه الضريبة الأخيرة كانت هى الأسوأ بالنسبة للناس العاديين لكونها غير مرتبطة بضريبة الدخل؛ ولكن لم تكن هى ولا غيرها من وسائل جمع المال الموجودة أصلا. أكثر من مجرد سد مؤقت للاحتياجات. وفى السنوات الأولى من حكمه, التسعينات من القرن الثالث عشرء وجد فيليب حلين جديدين حاسمين: تخفيض قيمة العملة, والضغط على المجسموعات الفنية غير القوية. فتم تخفيض قيمة عملة المملكة مرة تلو مرة. مما جعلها تفقد ثلث قيمتها فى عشر سنوات, وضربت ضرائب خاصة على اليهودء واللمبارديين 00ص

والكنيسة. وكان رجال الدين المعفون تقليديا من ضسريية الدنيويين أو
العلمانيين, يدفعون ضرائب البابوية للمساعدة فى دفع نققات الحروب الصليبية»
وكانت السلطات الدنيوية هى التى تجمعها. وما حدث ببساطة هو أن فيليب استمر فى
جمع هذه الضضرائبء ولكن دون إذن بابوى. وكانت أراضى الكنيسة تشكل نحو ثلث
المملكة. وكل عامين أو نحو ذلك, كان فيليب يحول عشر إيجارات رجال الدين»
ودخولهم إلى خزائنه. وكان يريد: مصدرا لعائد منتظم كبير بقدر معقول. ونجحت
خططه لفترة ماء وكان من الممكن أن تستمر فى التجاح. إذ لا أحد سوى الأشخاص
الذين يعنيهم الأمر يمكن أن يعترض على تجريد المرابين من ممتلكاتهم. غير أن تجريد
الكنيسة من ممتلكاتها أمر مختلف, لكن فيليب الذى كان يعتقد أنه ملك كاهن. ويطمع
في اليابوية كان له معارض لا يتزحزح: هو البابا بونيقاس الذى كانت إرادته صلبة مثل
إرادة فيليبء وكان حلمه مطابقًا لحلمه؛ وهى توحيد السلطة الروحية والزمنية في
شخص واحد. لم تكن أوربا لتتسع .أثل هذين الرجلين؛ فتحاريا لمدة تسع سنوات, "أكثر
الملوك مسيحية وكاهن المسيح. من الناحية الاسمية كان الصراع بينهما حول إساءة
ملكية دخل الكنيسة؛ أما من الناحية الفعلية فكانت حربا - حتى الموت إذا ما اقتضت
الحاجة من أجل السيادة فى أوربا. فى عام ١7 > 97 صدر مرسوم بابوى يحظر فرض
الضرائب على رجال الدين؛ فرد فيليب بفرض حظر على تصدير سبائك الذهب أو
الفضة من فرنسا, ومنع بذلك وصول الصدقات الفرنسية إلى روما. وفى عام ,١17٠١
عام اليوبيل البابوى» قام بونيفاس باستعراض فى روما كإمبراطور. وقد حمل سيفين
أمامه, يشيران إلى ادعائه بالسلطة على جميع الناس, الأجياء منهم والأموات. ولم يبد
فيليب أى رد فعلء بالنظر أو اللفظ؛ ولكن فى عام ١/١١ قبض رجاله على أسقف باميى»
المندوب البابوى فى قرنسا, واتهم بالخيانة, والابتدا ع وبيع المناصب الدينية؛ والسحر
وممارسة الجنس. وكانت جرائم الأسقف الحقيقية هى صداقته الشخصية لبونيقاس
وتشبيه فيليب بالبومة. إذ يتقل عنه قوله: "ملك فرنسا أكثر وسامة من أى إنسان:
5307

فى الدنياء ولا يعرف سوى الحملقة فى الرجال". وهذه ملحوظة غير
موفقة. لأن تلك النظرة المتحجرة تخفى عقلا لا يرحم. فثار بونيفاس بإصدر
مرسومينء أحدهما يستنكر عملية إلقاء القبضء والثانى يلغى جميع امتيازات وحقوق
فيليب فى السنوات الخمس السابقة. فكان تحرك فيليب التالى غير مسبوق: فى إبريل
عام ١٧١" دعا إلى اجتماع للطبقات الثلاثء النبلاء ورجال الدينء والعوام. ولم يكن
العوام يدعون أبدا للمشاركة؛ ولكن لم تكن أى من هذه الطبقات الثلاث موجودة لإبداء
النصيحة. لقد كان هدف فيليب هو أن يضمن أن فرنسا كلها تتحدث بصوت واحد - هو
صوته. ولم يكن أمام الاجتماع بديل حقيقى. وتم إحراق مرسوم الاستنكار علذًا.
ورفضت الأمة الفرنسية؛ كرجل واحد. جميع ادعاءات البابا - واعترضت على حق
بونيفاس فى أن يكون هو البابا. "مقدس واحد" أعلن بونيقاس - لم توجد ولا يمكن أن
توجد سوى كنيسة واحدة مقدسة لا يمكن انتهاكها. وللكنيسة رأس واحد؛ فهى ليست
وحشًا برأسين؛ رأسها هو المسيح؛ وحاكمها فو كاهنه, البابا؛ وجميع الملوك فى وضع
أدنى بالنسبة لأسقف روما. إنها كلمات, كلمات؛ فى إمكان فيليب الرد عليها بيسرء
ويهدوء وبرود وثقة فى. عقه الآلهى فى العرش: واستخدءت الطريقة الثى استخديمت
كلد أمتقق بامين مرة ألشرى: وفى مارس 178:7 وجهت طبقات فرنسا الثلاث تسعا
وعشرين أتهانا شند بونيقاس نتهمه. بين أشياء أخرىء باللواط: والسحر, والابتدا ع»
والمتاجرة فى المناصب الدينية والتجديف. ودون المزيد من الجلبة. استخدم بونيقاس
سلاحه الأخير؛ وحرم فيليب من الكتيسة - وهى حركة لا معنى لهاء إن يمكنه أن يثق
فى أن فيليب سوف يتجاهلهاء وعلى أى حالء فإن البابا كان قد أعلن فى إحدى
المرات أن الرجل الفرنسى ليست لديه روح. والفرنسيونء بالطبع» يرون غير ذلك:
وحين سمعوا فى صيف ١٣١٣ أن البابا يعد لحرمان الأمة الفرنسية برمتها من الكنيسة
بالإضافة إلى الملك» حدث فزع وحنق. 502

ا 5 التساقة مو مازسن الن :رونا هن عهن كناسانة من الأمدال وعل ينكد سكدة وثلاثين ميلاً جنوب شرق روما تقع مدينة إنيى. وفى بداية سبتمبر ١٣٠٣. كان البابا بونيقاس يقيم هناك؛ ومن هناك فى 4 سبتمبر كان يعتزم نشر مرسومه التاريخى ضد فرنسا. وحسب عادته, استيقظ مبكرا فى الصباح فى يوم سبعة وذهب كى يصلى فى كنيسته الخاصة قبل طلوع الفجر - وبينما كان يصلى داهمته قوة من الجنود الفرنسيينء وأسرته. لم يكن من المتصور أو المتخيل أو المعقول. اختطاف بابا وفوق ذلك؛ عمل هذا باسم الدفاع عن البابوية. لكن فيليب الذى كان يعتقد أن العرش الفرنسى أكثر قداسة من الكرسى البابوى أمكنه أن يفكر فى ذلك» ويضحه موضع التنفيذ. فلا البعد ولا القداسة أمكنهما حماية البابا بونيفاس؛ ويسبب إيمانه العميق بالسلطة البابوية ثم يعرف إلا بعد فوات الأوان القوة الكاملة لقناعة فيليب الشخصية. ففيليب الذى استثنى عن الناس العاديين» والذى يحكم برحمة الرب؛ باعتباره تجسيد القانون على الأرضء والمفسر الوحيد للقاتون السماوى, لم تكن به حاجة إلى مبادئ أو ضمير. وكانت نيته هى إحضار بوتيفاس إلى فرنسا بالقوة, ومحاكمته هناك على جرائمه. هذا الجزء من الخطة فشلء لأن أهل إنيى أتقذوا البابا؛ لكن السن كان إلى جانب فيليب بالإضافة إلى الخيال غير المقيد. ذلك أن بونيفاس كان يبلغ من العمر سنًا وكماتي سنة. لذا حافت صنيمة سبحته المثيرة أكبر مما حجي» قنات بعد ذلك ينين لد كانت هذه العملية نموذجًا لشخصية فيليب - كانت عملية سرية. وجسورة؛ وجيدة التخطيط, وتم تنفيذها . وكانت تتسم بالكفاءة, وغير متوقعة ومرعبة. مثل هذا الرجل يمكنه فقل أ كعد على هنا سسندوة ولكن سكن فدلين: تشف الاله:االلكن؟ لم يكن سطن اريفس كيت دونما دعم من رجال من طراز مشابه - رجال لا شك فى ولائهم ود يتمتعون بأقصى درجات الجسارة؛ رجال يتنفسون التآمرء والعنف المقتن, وتضخيم الذات. لقد كان هؤلاء هم وزراء المنك. ووكلاؤه وألفاؤه؛ وعلى رأسهم قائد الهجوم فى إنيى: وهو شرير لامع الذكاءء يدعى ويليام دى نوجاري. 3503

لقد شكل فيليب ودى نوجارى شراكة كاملة تقريبا من السلطة والتفكير.
وكان دى نوجارى يكبر الملك بسنوات قليلة» وقد عملا معا على مدى عشرين سنة؛ لكن لا يمكن أن يكون هناك اختلاف فى الأصول كما كان بينهما. فقد اتحدر دى نوجارى من أصول تنتمى للطبقة المتوسطة؛ إذ كانء والده تاجرا فى تولوز: وأخذت العائلة اسمها أو أعطته لقطعة أرض صغيرة كانوا يملكونها جنوب شرق المدينة. ومسا زالت قرية نوجارى موجودة مع أن العائلة فنيت فى نهاية القرن الرابع عشر. لقد كان صعود ويليام دى نوجارى للسلطة وسوء الصيت جزمًا آخر من التغيرات التى تكتّسح أوربا فى ذلك الوقت. إذ كان لا بد من تحويل التغيرات فى العادات القديمة إلى قانون؛ والمحامون باعتبارهم الوحيدين الذين يمكنهم أن يزعموا لأنهم يفهمون التطورات الجديدة المعقدة. صاروا طبقة قوية؛ وكان دى نوجارى محاميًا يتمتع بقدرات بارزة. وفى الثمانينيات من القرن الثالث عشر كان مستشار! قانوتيا للك مايوركاء وأستاذ! للقاتون فى جامعة مونيليى؛ وفى أوائل التسعينيات من القرن الثالث عشرء انضم إلى الخدمة القانونية لدى فيليب؛ وفى عام 1749١ صار من التبلاء. وفى عام ”١□١ نصب "محامى المملكة الأول". وهى الذى أصدر الاتهامات الأولى العانية ضد بونيفاس؛ وهو الذى قاد الحملة الوطنية لتلطيخ السمعة, وأشرف على الاختطاف. ذلك أنه لم يكن يساوم في الولاء أو الكراهية. ولاقى ولاؤه للملك خير الجزاء - ففى نهاية حياته, امتلك, ذلك الذى كان ابنا لتاجر بسيط؛ أربعمائة ميل مربع من فرنساء وكانت لديه السلطة المباشرة على حياة وموت ها يزيد على عشرة آلاف من الأشخاص؛ وكانت كراهيته للبابوية وكل مسا تمثله على أسس قوية, لأن والديه مثل معظم أهل تولوز من الكتاريين» وتم إحراقهم أحياء تحث إشراف فرسان الهيكل, باعتبارهم مبتدعين. هذا المصير البشع, الذى واجهه والدا نوجارى قد يكون ببساطة تعسمًا. وثمة كثير من الأدلة التى تبين أن فرسان الهيكل عملوا مع الدومينيكان: الذين كانوا مسئولين عن اجتثاث الابتداع. لذا لا بد أن فرسان الهيكل كانوا على ألقة بإدارة خشب شبح 304

الأجساد؛ وقطع أصابع الإبهام والدفن فى الحفر بالإضافة إلى التعليق والتقييد وربما مارسوها؛ وقد كاف الدومينيكان تعاونهم عن طريق تشجيع المسيحيين الطيبين على ترك الأموال والممتلكات للجماعة حين يكتبون وصياتهم. ولكن هناك أيضا أدلة ثابتة أيضًا توحى بأن فرسان الهيكل كانوا يتعاونون فقط حين يكون الثمن صحيحًاء لأنهم كثيرا ما كانوا يعيقون ويعرقلون محاكم تفتيش المبتدعين الذين يتصادف أنهم من مستاجريهم. (كانت هذه الإعاقة مصدرا كافيا للإزعاج من وجهة النظر الرسمية, بالنسبة لإيجاد جماعة جديدة تماما: هى فروسية عقيدة يسوع المسيح. كان هدفها الوحيد هى اجتثاث الابتدا ع - وهى نوع من شرطة الفكر الدينى - وتتعدى على حقوق فرسان الهيكل» وتضايق الآخرينء لذا كانت مجموعة موضع كراهية شديدة من الناس حتى أنها حلت بعد إنشائها بأقل من أربعين سنة). ولكن لا يوجد ما يشير إلى أن آل نوجارى كانوا مستأجرين لدى فرسان الهيكل. فلى أنهم كانوا كذلك. لحماهم الإخوان؛ حيتئذ كان من الممكن أن يتفير مصير الجماعة نفسها. فى تلك الأثناء لم تنته المؤامرة ضد البابوية بموت بونيقاس - بل ازدادتٍ قوة. ذلك أن البابا الجديد. البابا بينيديكت الحادى عشر الذى وضع فى نفس القالب الذى وضع فيه بونيفاسء رجل صارمء وعازم على الحفاظ على كرسيه البابوى. ومما زاد النار اشتعالا أن فيليب أمر بمحاكمة لبونيفاس بعد وفاته. لو أن مثل هذا الشىء قد حدث لتسبب فى سابقة مرعبة: وبيتيديكت, الذى أرغم على الدخول في محنة. حاول الوصول إلى حل وبسط عن طريق إلغاء حرمان فيليب من الكنيسة. فى أثناء ذلك أظهر دى نوجارى ولاءه للملك بطريقة ملفتة وذلك بأن قبل المسئوئية الكاملة عن الهجوم فى أنانيى. فانسحب انتباه بينيديكت عن الملك, وأصدر تنديدا شديدا بدى نوجارى وشركائه فى الجريمة. وتم حرمان دى نوجارى من الكنيسة؛ ودون تعقل أذاع بينيديكت أن ذى توجارى لن تكون لديه فرصة للاستئناف قبل الإعلان الرسمى بعد ذلك بيضعة .اوعس ع م 305

مصحويا بالام داخلية ممضة. فأصدر دى نوجارى نشرات دعائية تعبر عن
الفرحة للعدالة التى حكم بها الله أعلى الأحبار الخبثاء؛ ولم يتم إثبات الاشتباه فى
السم. لقد مات البابا بينيديكت فى " يولية 5 ١2,17 بالضبط بعد شهر من تنديده بدى
نوجارى. ولم تدم بابويته أكثر من ثمانية أشهر ونصف؛ ومر سنة عشر شهرا قبل
تنصيب بابا جديد. ولم يكن التأخير من صنع فيليبء لكنه لاءعمه خير ما تكون
الملاعمة: وفى النهاية لم يعمل إلا لصالحه؛ وفى تلك الأثناء كانت لديه أمور أخرى
ليفكر فيها. فزوجته البالغة من العمر إحدى وعشرين سنة. جان ملكة فرنسا ونافار
توفيت عام :١٠1 وكان فيليب آنذاك يبلغ السابعة والثلاثين وكان رد فعله لهذه الخسارة
هو رد الفعل نفسه الذى كان يصدر عن الكثير من الأرامل فى زمنته والقرن وثلاثة أرباع
القرن الماضى: إذ قدم طلبا لعضوية إخوان الهيكل. وليس هذا فحسب., ولكنه اقترح
التنازل عن العرش لصالح ابنه. كان من الممكن أن يبدو من الطبيعى أن يقيل فرسان
الهيكل مثل هذا الرجل القوى بين صفوفهم؛ لكنهم رفضوه. وكانت سرية الجماعة ما
تزال سائدة. فلم يعرف السبب أحد حتي فيليب نفسه. ريما رأى فرسان الهيكل طلبه
على أنه مجرد انحراف تلا وفاة زوجته؛ أو ريما أحسوا أن هذا الرجل القوى كان يريد
من خلالهم ليس التواضع وإنما قوة أكبر. ذلك أنه على الرغم من أن فيليب قد يكون
قد أحب جان حبا كبيرا فإنه ليس بالرجل الذى يتصرف طبقا لانفعاله؛ بل كان دائما
لديه سببء وكثيرا ما تكون لديه عدة أسباب لكل فعل؛ ويما أنه كان يتخطى مجرد
المعارك المحلية والدخول فى خصومات مع البابوات فلا بد أن لديه خطة يعد تعاون
فرسان الهيكل فيها جوهريا. فقبل ذلك بثمانية عشر عاماء فى ,١781 جاء إسباني
اسمه رامون لول إلى باريس وأتيح له لقاء خاص بالملك الشاب. وكان لول فى منتصف
الخمسينيات من عمره. ويشتهر كصوفى فى بلدته مايوركاء وفى بر أرجون. وفى أوائل
حياته كان جندياء وأحد رجال البلاط وشاعرًا وموسيقيًا - رجلاً دنيويا بمعنى الكلمة,
وهو شاعرى وعاطفي ومندقع؛ هو مستزوج. ولكن لا حصر لعشيقاته. وهو محبء
ويقبل على كل ما تهب الحياة له. لقد نشأ فى مايوركا - أكثر 306

الجزر المسيحية إسلامًا - فكان مسيحيا بالاسم حتى الثلاثين من عمره.
حين حولته تجربة دينية عميقة إلى أن صار أحد أنشط المسيصيين فى زمانه. ويعد
ذلك يبدو تصرفه غريبا على شخص متحول - إذ أنفق تسع سنوات فى تعلم اللغة
العربية. لكن ذلك كان من أجل هدف عظيم؛ ذلك أنه إذا ما قدر أن حدثت حرب صليبية
أخرى كان لول يعتقد أنها يجب أن تكون حربًا صليبيًا تبشيرية. لم تكن هذه فكرة
جديدة, لكنها لم تلق قط استقبالا متحمسا. وكان لول يأمل أنه فى باريس ومع فيليب
فى أن يجد الدعم الذى كان يريده. على الرغم من أن هذه الفترة؛ أى الانتقال من القرن
الثالث عشر إلى القرن الرابع عشر يمكن النظر إليها بوضوح الآن باعتبارها نهاية
الحروب الصليبية الكيرى لم يكن هذا واضما بالنسبة للناس الذين كانوا يعيشون فى
ذاك الزمان. إذ لم تتغير الاتجافات بين ليلة وضحاها؛ فبعد قرنين من الوجود الفربى
فى الأراضى المقدسة, كان مثل هذا الوجود يبدى سليما وطبيعيا. وكان من افتراضات
الحياة الأساسية أن الأراضى المقدسة سوف تسترد يوما ما؛ ولم يكن السؤال متى يتم
ذلك. وإنما كيف. وبما أن الطريقة العسكرية البحتة فشلتء بدا أنه من المحتمل أن
مبداً الحرب المقدسة كان خطأء ولم ينل سوى عدم رضى الرب؛ لذا يجب أن تكون
الحرب الصليبية النهائية إغراء للروح» حرب صليبية تبشيرية» وفى حالة عدم نجاح
التيشير يساندها فرسان الجماعتين العسكريتين. لكن التنافس بين فرسان الهيكل
والإسبتاليين كان فاضحاء وأوجه الشبه بين التنظيمين أوحت بأنه يمكن تحقيق
اقتصاد كبير فى الوقت والمال إذا ها توحدت الجماعتان. عند هذه النقطة بدا فيليب
يهتم اهتمامًا حقيقي. وليس هناك ما يدعو للشك في تقواه؛ فإقامة مملكة الله على
الأرض كاتت أمله الثابت الأكيد. وكان فهمه الكبفية التى يتحقق بهاءهذا هو سبب
معظم صراعاته - ذلك أن كل شىء فى وراثته وتربيته حمله على أن يعتقد أنه هو -
وهى وحده - يمكنه حكم "السماء على الأرض". وخطة لول 307

المطورة التى تشرت: عام ١١١٥ شرحت الإطار الذى يمكن تحقيق هذا من
خلاله. لقد كانت النقاط الأرئيسية التى جذبت فيليب هى: أولا. يجب أن تصبح
الجماعتان العسكريتان جماعة واحدة؛ ثانياء يجب أن يكون معلم الجماعة الجديدة
المشتركة ملكا أى ابن ملك؛ ثائثا. يجب أن يكون منصب المعلم وراثيا؛ رابعًاء يجب أن
يتخذ المعلم سكنا فى القدس في أسرع وقت ممكنء وأن يتوج ملكا على القدس.
وأخيراء - ثمة نقطة بسيطة: لكنها نقطة جاذبة ملمووسة - يجب أن يحمل الملك المعلم
لقب الملك المحارب. بدت الخطة مفصلة على مقاس فيليب» على الرغم من أن لول قد
يكون قد وضعها مع ملكه؛ ملك أرجون جيمز الثاني. وفى ذهنه. حرب صليبية إسبانية
بهدف أكثر تحديدا: عدن أن فنليب تون القكزة: واعتيرها فكرته قإذا تمحت سوف تفلن
كل تنا كان يريد - الوصول إلى مدد منتظم للمال منتظم غير مددود نسيبيا؛ والحكم
المباشر على أراض فى كل جزء من أجزاء أورباء وما وراءها؛ ومجد دائم لآل كابى,
والرعاية والراحة الروحية والزمنية لكل البلاد المسيحية. وأضاف فيليب إلى ذلك
اللمعان الأزافى الفخم, فى هذه الفكرة, نقطتين تضمنان تحكمه الشخصى التام: جميع
الدخول الكنسية يجب تثبيتها. وأى فائض يجب أن يذهب ومباششرة إلى "املك
المصارب'. للمساعدة فى إعادة غزو الأراضى المقدسة؛ وفى الانتخابات البابوية يجب
أن يكون للملك المحارب” أريعة أصوات. كانت الخطوة الأولى فى تحقيق هذا
التخطيط غير العادى هى توحيد الجماعتين. ولهذا حاول فيليب أن ينضم إلى فرسان
الهيكل: وكان ينوى أن يكون معلما بالطريق المعهود, ومن هذا الموقع يقوم بتنظيم
الاتحاد, وكل ما يلى ذلك. وربما اعتقد أن قبوله في الجماعة سيكون مسالة شكلية, ولا
بد أنه صدم وغضب لرفض الجماعة المقتصر لمفاتحته. ولم يبد ما يدل على ما أحس
بهء كالعهد يه. إذ كان هناك طريق آخر مفتوح أمامه - أنه طريق طويل معقد منحرفء
لكنه طريق لا يمكن أن يرفضه حتى فرسان الهيكل العنيدون المتصلبون. لقد كان
سيدهم الوحيد على الأرض هو البابا؛ فإذا

أمرهم بتغيير رأيهم» فسوف يضطرون إلى ذلك. ولكن حتى الآن, لم يكن هناك خليفة لبينيديكت. لذا أصبح فيليب فجأة مهتما بالصراعات الانتخابية في روها. كانت الكردينالية منقسمة إلى قسمينء جانب يؤيد ذكرى بونيفاسء والآخر المتأثر بالنقوذ الفرنسى - يستمر فى اقتراح مرشحين يحاكمون بونيفاس بعد الوقاة. ولم ينته هذا الطريق المسدود إلى أن قدم أنصار بونيفاس رئيس أساقفة بوردىء بيرتران دى جو. ولم يكن لينتخبء لولا دعم الكرادلة الذين تتحكم فيهم فرنساء ويدا اقتراح اسمه بلا جدوى. لأنه كان إلى جاتب بونيفاس قبل يوم الاختطاف. ولكن حين سأل الفصيل الفرنسي فيليب عن رأيه؛ أعلن تحبيذه له مما آثار دهشتهم. وأخذ الانتخاب مساره؛ وفى ١5 نوفمبر + ١716 فى ليون: أصبح بيرتران البابا كليمينت الخامس. لقد كان الملك فيليب يعرف بالضبط ما كان يفعل بتأييده لترشيح دى جو؛ ذلك أنه كان يعرف الرجل معرفة جيدة. فرئيس الأساقفة كان رجلا ضعيفا جشعًا: مفرما بالتشريف, ويكره تحمل المسئولية؛ وقد فاز برئاسة الأسقفية عن طريق نفوذ العائلة لأن عمه كان أسقفاء وأخوه رئيسا للأساقفة. قإذا ما سلمذا أنه كان مقبولا من جانب أنصار بونيقاس. فإن انتجابه كان بيد فيليب» وبعد أن تم ببعض السنوات, ظهرت حكاية عن وجود اتقاق سرى بين الملك ورئيس الأساقفة. كانت القصة:. أنه فى المكان السرى الملائم لما يمكن أن يقع» فى دير مهدم فى وسط إحدى الفاباتء التقى الملك مع كليمينت الخامس القادم وحدهم ذات ليلة مظلمة. ووعد الملك بان يجعل من دى جو بابا بناء على ستة شروط؛ ذكر له منها خمسسة آخذاك, مبقيا الشرط السادس حتى بعد الانتخاب. فإذاً قبل رئيس الأساقفة, عليه أن يقسم بالصدق على خبز التناول» وأن يقدم ثلاثة من أقاربه باعتبارهم رهائن. كانت الشروط الخمسة الأولى أن يتم التصالح بين التاج الفرنسى والبابوية؛ ويجب فك المختطفين فى أنانيى؛ ويجب السماح لفيئيب بفرض ضرائب على رجال الدين 09ج

الفرنسيين؛ ويجب عودة الكرادلة الذين عزلهم بونيفاس؛ ويجب محو مراسيم بونيفاس, ويجب التنديد به. وحسب القصة قبل دى حجى جميع الشروط الخمسة فى التو واللحظة. أما الشرط السادس الذى لم يعلمه إلا بعد حين؛ فهو وجوب حل جماعة الهيكل. مما يثير الحزن أن القصة ليست سوى قصة. ذلك أن فيليب وكليمينت لم يلتقيا قبل انتخاب البابا وأن بعض الشروط ومنها شرط المصالحة قد تمت بالفعل. ومع ذلك. من المحتمل أن يكون اتفاق من هذا النوع قد عقد, لكنه ليس بين الرجلين شخصيا ولكن من خلال قنواتهما الديلوماسية؛ وفى كل الحالات» فى إمكان فيليبٍ أن يثق مع رجل مثل بيرتران دي جى فى منصب الباباء من أن سلطة البابوية سوف نتناقص حتى تصير لا شىء. وبعد أن انتهى تتويج كليمينت بعد الظهيرة ١4 نوفمبر 2١7١0 ركب ابابا الجديد فى موكب فى شوارع ليونء يقود جواده الدوق جون من بريتانى» وأخو الملك. الأمير شارل من قالوا. وكان الملك فيليب يركب خلفه مياشرة» وفي اللحظة التى يلجم فيها جواده, رأى الجدران بجانبه تتشقق وتنهار. وتحت الحجارة المتساقطة جرح جون جرحا مميئًا؛ وأصيب الأمير شارل إصابة بليغة. وسقط كليمينت من فوق جواده. أها الملك فلم يصبه أذى؛ وكما فعل الكثيرون؛ قد يكون قد رذى الحادثة على أنها نذير شؤم بعهد البابا. وكانت تخطيطه الكبير يبدا بداية جيدة. فى أثناء ذلك, على أى حال اإستمرت مشكلة المال اليومية تنفص حياته. ذلك أن تكرار تخفيض قيمة العملة أفاد التاج كدائنء لكنه عمل ضد التاج كجامع للضرائب. وفى يونيه :17١1 أعلن فيليب ببرود أنه قرر الرجوع إلى القيمة الفعلية للعمئة وأن يسرى مفعول ذلك القرار من 4 سبتمير. بمعنى عملى: بالتسبة للناس العاديين. كان معنى هذا أن الأسعار سوف تصبح ثلاثة أضعاف بين ليلة وضحاها. أما بالنسبة لفيليب: فكان معنى هذا أن مفر فجأة فيليب إنقاذا لحياته من الدهماء الذين يقومون بأعمال الشغب فى كل أنحاء باريس؛ ولأول مرةء يخطئ فى حساب سلطة الكهنوت الملكى: ويدقع بالناس أكثر مما ينبغى وأسرع مما ينيفى. ولمدة ثلاثة أيام وبينما كان 3110

المواطنون يعدمون دون محاكمة: وأعمال الشغب يتم قمعها بالقوة, التجأ فيليب إلى هيكل باريس,؛ وهناك توفر لديه الوقت كى يدرس الرجال الذين رفضوا انضمامه إلى جماعتهم. كثيرا ما كان يقيم هناك هو ويلاطه من قبلء لكن هذا لم يحدث قط فى مثل هذه الظروف المذلة. كان المجمع يغطى خمسة عشر فدانا وكان محاطا بالكامل بسور يبلغ ارتفاعه ثمانى عشرة قدما؛ ولم يكن للسور سوى بوابة واحدة. كان يحميها جسر جرار فوق خندق دائرى جاف. وكان "البرج العظيم" الذى يبلغ ارتفاعه مائة وستين قدماء يلقى بظله على باريس؛ وكانت المبانى تكفى لإسكان ثلاثمائة من الفرسان مع خدمهم وجيادهم. وبينما كانت أعمال الشغب تشتعل فى الخارجء كانت الحياة فى داخل الجدران من الممكن أن تستمر نسبيا يلا إزعاج. وحين أعيد السلام أمكن لفيليب أن يعود من أمنه المستعارء ولا بد أنه فكر كثيرا فى هذه القلعة الحصن وجميع شقيقاتها الآتى تعد بالمثات فى أنحاء المملكة, التى لم يكن في وسع أحد أن يدخلهاء حتى دون إذن. تخفيض العملة» رفع قيمة العملة, قروض إجبارية» وفرض الضرائب - لا شىء من هذا بدا أنه ينجح لفترة طويلة. فكان من الضرورى القيام بإجراء جديد مؤقت. وفى ٢1 يونيه ٢١-7 أعطى الملك تفويضًا سريًا ملكيًا لمحاميه, ويليام دى نوجارى, المحارب القديم فى أنانيى. وتم إرسال نسخ من هذا الأمر إلى جميع الأساقفة. والبارونات, والمسئولين الملكيين فى المملكة, تناشدهم الطاعة المطلقة والصمت التام. وبعد ذلك بشهر تماماء وفى ١5 يولية؛ تم القبض على كل يهودى فى فرنساء وتمت مصادرت جميع أموالهم وبضائعهم من أجل التاج. لقد كانت هذه العملية سريعة وكفأة وغير متوقعة وناجعة بالكامل فى طول البلاد وعرضها - كان الملك والمحامى يصلان بطريقتهما إلى حد الكمال. تقريبا فى نقس الوقت الذى كان فيليب يعطى نوجارى تفويضه.؛ كتب البابا كليمينت رسالة إلى معلم الإسبتاليين وإلى جاك دى مولى, معلم الهيكل. ذلك أن الحبر متبلد الذهن كتب لهما باعتباره سيدهم الأعلى, يأمرهم بالحضور إلى أوريا لأننا "نرغب فى استشارتكما بخصوص

بالتعاون مع ملكى أرمينيا وقيرصء باعتباركما فى أفضل وضع يمكنكما من
أن تقدما لنا أفضل نصيحة فى هذا الموضوع, فأنتما أكثر من غيركماء بعد بلاط روماء
لا بد أنكما مهتمان بالمشروع . ويعد هذه الأحداث بوقت قصير, تم قبول اثنى عشر أخًا
جديدًا فى جماعة الهيكل: واحد فى كل مقرء من المقار الاثنى عشر المتناثرة عبر
فرنسا. كان كل منهم وكيلا تلملك فيليب. وفى الوقت المناسبء رد معلما الجماعتين
على سيدهما. البابا, فعين عق الإسبتاليين عن استقه لعدم قدرتة: طن إطاغة الأمر
بالحضور إلى أقويا" إذ إ فاته يصسدد الاتتفال إلن رودسن: وهو لا يمكته أن يبرح
مكاته: أما إجاك دى مولى؛ فلم يكن لديه ما يضغط عليه فيمنعه؛ واعتزم أن يصل فى
وقت مبكر فى العام الجديد. ويدأ كليمينت» وفيليب؛ ونوجارى استعداداتهم لاستقباله
- البابا الضعيف الفويل:والملك الذى الا يرهم والمضامن اذى لا "عرف الكبادية وبين
أكرياتة بخرائقّ المبتدعين, انتظر الثالوث غير المقدس ضيفهم. 312

الفصل الرابع عشير فرنسا ."ا أما أنتم فملفقو كذب سفر أيوب» الإصحاح
الثالث 'عشرء الآية 4 ولد جاك دى مولى. المعلم الثالث والعشرون والأخير لجماعة فرسان هيكل سليمان, قرابة عام 1744 فى فرانش - كونت, الجزء الشرقى من فرنسا. وقُيلٌ فى جماعة الهيكل عام 1570 ولما كان فارسا مدريياء فقد تم إرساله. بسرعة إلى الأراضى المقدسة. وما إن وصل إلى هناك. حتى وجد الكثير مما يستوجب انتقاده فى
الطريقة التى تدار بها الجماعة؛ ذلك أنه كان شابا مستقيما نشطاء وكان يقهم دور فرسان الهيكل على أبسط المستويات: كان يشعر أن مهمتهم هي مقاتلة المسلمين؛ ولم يكن ليقيل بأقل من ذلك. شأنه شأن الكثيرين من القادمين الجدد إلى الشرق. فبدا له المعلم فى ذلك الوقت, ويليام دى بوجى: بسياساته المسالمة, جبانا فى أفضل الحالات
ويدا له قى أسوأ الحالات خائنا لمبدأ الإخوان. ولا كان دى مولى متصلب العقيدة وعتناؤم الكنقصيرة, ققد عرز امو مغ ركيت يسدراسة وعرحة: وكزز وله اكخيرا ذلك أن سلبية دى بوجي أصابته يالاشمئزازء: وجعل الناس يعلمون أنه إذا كان فى وضع
يسمح له بذلك, - فسوف يصلح الجماعة؛ ولو من أجل سلامتها. ولقد قضى عشرين عاما فى يلاد ما وراء البحرء وهى العشرون سنة الأخيرة فى حياة المملكة. وفى عام

ه4» كان فى عكاء ومن المحتمل أن يكون قد شارك فى الدفاع الأخير غير المجدى وإن كان بطوليا عن المدينة عام 14١؛ وقد يكون من بين من اتهموا دى بوجى بالجين فى اللحظات الأخيرة من حياته؛ على الرغم من هزيمة المسيحيين. ولا بد أن تلك الفترة الأخيرة كانت شديدة الإرضاء بالنسبة لدى مولى؛ إذ كان بها عمل أكثر مما يكفي؛ وموت معلم كان يزدريه؛ وبذلك ذهيت عشرون سنة من الإحباط إلى غياهفب النسيان. ويرجع جزء من الإحباط إلى أنه. تحت قيادة دى بوجى: د :ال أي منصب قيادى فى الجماعة - ربما بسبب تعليقاته الصريحة. غير أنه كان لايه طموح كامن بين حديثه عن الإصلاح؛ وبعد وقت قصير من وفاة خليفة دى بوجي.ء تيبالد جودان. فى ١١ إبريل عام ,.1747١ انتصرت شخصيته القوية أخير]. فبعد عكاء جاء الترقى سريمًا إلى ذى الخبرة. فى ذلك الوقت» كان مولى قد قضصى ثمانى وعشرين سنة كأحد فرسان الهيكل؛ وكان يتكلم بقناعة وبإقناع للإخوان. فى ذلك العام اختاروه معلما لهم. وصار من الممكن أن تتهول الإصلاحات إلى واقع. وبعد أن تم انتخابه فى قبرص» بدأ عمله كمهام برحلة فور! إلى الغربء باحثًا من جديد عن دعم عملى من البابا. وملوك أوربا. فزار إسبانياء وفرنسا وإيطالياء وإنجلترا؛ واستغرقت رحلته ثلاث سنوات. فى أثناء ذلك الوقت دعى إلى ثلاثة اجتماعات عامة. - فى مونبليى فى خريف عام 1747. وفى باريس» فى شتاء 1748- يف؛ وفى أرييس» فى خريف 6 والتقى بجيمز الثالث؛ ملك أرجونء وشارل الثاني: ملك نابولي: وإدوارد الأول» ملك إنجلترا؛ وفى ديسمبر عام 1745 ساعد فى انتخاب يوتيقاس الثامن كبابا. لكن هذه الاتصالات والجهود لم تسفر عن شىء. إذ لم يكن جيمز مهتما إلا بحرب صليبية إسبانية؛ وكان شارل منكبا على فتح صقلية؛ وكان إدوارد فى حرب ضد فيليب :ملك فرنسا؛ أما بونيفاس, قبدلا من أن يقدم المال للجماعة: طلب إتاوة كى تساعده على مكائده فى إيطاليا. وحين عاد دى مولى إلى قبرص خائب الرجاء. وجد إخوانه يعانون المتاعب هناك؛ ذلك أن الأراضي التى كانوا يستولون عليها والتى امتلكوها فى وقت من الأوقات ملكية تامة: لم تعد تكفى احتياجاتهم - لكن الملك هنرى: وهو من نسل جى دى لوزينيان 314

منعهم من امتلاك المزيد. سواء على سبيل الهبة أو عن طريق الشراء.
فالجزيرة لا يمكنها أن تكون أبدا قاعدة كافية لجماعة عسكرية ولك جنبا إلى جنب.
ولقد أدرك ال هذه الحقيقة بسرعة. ويدءوا فى فتح رودس؛ لكن دى مولى كان ما يزال
يعتقد أن مستقبل جماعته يكمن فى الأراضى المقدسة. وقرر أن يبقى فرسان الهيكل
فى قبرص إلى أن يستعيدوا جِزْمًا ما من الأرض الأصلية. وتم وضع خطوط علاقة
عمل مع هنرىء واحتفل هو وفرسان الهيكل فى قيرص بعام ١٣٠١ بشن غارات على
الخطوط الساحلية السورية والمصرية. وحسب تقدير دى مولىء لم تكن هذه الفارات
أكثر من الواجب الذى يجب أن يقوم به فرسان الهيكل؛ غير أن الغارات كانت فاشلة
بشكل هزلى. ففرسان الهيكل ليسوا بشرا متفوقين على سائر البشر. ودون مساعدة من
القربء أصيح مذهب الحرب بلا هوادة مذهبا عبثيا؛ ومع ذلك استمر المعلم الجديد فى
سياسته العدواتية. لكنها كانت موجهة فقط ضد المسلمين فى الأراضى المقدسة. ذلك
أنه قى أواخر عام ؟١١١: قاتلت حامية رواد صغفيرة معركة بحرية ضد أسطول من
أساطيل المسلمين. وهزم فرسان الهيكل هزيمة ساحقة. ويعد ذلك فر الناجون بسرعة
إلى قبرص؛ وكانت هذه المعركة هى آخر عمل حربى يقوم به فرسمان الهيكل. فى أثناء
ذلك بحث فرسان الهيكل دون جدوى عن الإصلاحات التى توقعوها. أما الإسبتاليون»
الذين كانت منظمتهم صعبة الإدارة بسبب حجمها مثلهم مشل فرسان الهيكل. فقد
عرفوا الطريق إلى البقاء: كل ما كانوا يحتاجونه هو تغيير فى التركيب أو الهيكل»
مصحويا باستمرارية فى الوظيفة. ذلك أنه بعد ضياع الأراضى المقدسة, كان على
الجماعتين العسكريتين كى يدعوا الحق فى الوجودء أن يبرروا أطرهم الداخلية
المريكة, وأن يستمروا فى نفس الوقت فى القيام بدورهم التقليدى الذى أقسموا على
'القيام به وهو قتال الكفار. لم يكونوا ليفكروا فى الأمر بهذه الطريقة, غير أن
الإسبتاليين فهموا المسار الضرورى وعملوا بناء عليه؛ كانت جماعتهم منقسمة إلى ثلاث
أهم أو لغات» كل منها كانت لها مسئوليات محذن ش85 وبعد فتح رود س» جزيرتهم
1_5

الجديدة ومركزهمء أصبحوا نوعًا من الشرطة البحرية الجديدة, إذ إنهم
حافظوا على ممرات النهن التوييط التنطزنة تخالية عن الفراسكة السلمين:ومغلت
التتسيعات الهيكلية جماعتهم ككل أكثر مرونة, وأقل ثقلا؛ وكانت بؤرة العمل هشى
الاحتفاظ تالماشتى والحاشين: قصارى القول إن الإسبتاليين حدثوا جماعتهم؛ وتفيروا
كى يفوا باحتياجات عالم متغير. أما فرسان الهيكل فلم يفعلوا ذلك. وكانت
"الإصلاحات" الوحيدة التى أدخلها دى مولى هى أن يذكر إخوانه فى كل اجتماع عام
بما أقسموه من إيمان بالطاعة التامة له وأن يحضهم على الاقتصاد كلما كان ذلك ممكنا.
وتحت قيادته, اتيع فرسان البيكل طريقة مغايرة تماما لما اتبعه الإسبتاليون: وأصبح
تركيب أو بنية أكثر صرامة وأكشر ارتباكا من أى وقت مضىء ومع ازدهار عملياتهم
البنكية» بدا أنهم ينسون مهنتهم الأصلية. إن الفرق المثير بين كلمات دى مولى كفارس
عادي وأفعاله كمعلتم يرجع إلى سيب بسيط وإنساني: هو أنه لم يكن يتمتع بذكاء
خاص. وقد نبعت الانتقادات التى كان يوجهها فى شبابه وحين كان فى منتصف العمر
من الافتقار إلى الخيال» وضيق فى الشخصية منعه من تفهم المشكلات التى كان
يواجهها معلمه. وحين أصبح هو نفسه معلماء اكتشف بهد فوات الأوان كيف أنه من
الأسهل توجيه النقد عن التصرف بشكل بناء. والآن بدأ يقول علنا إن دى بوجى الذى
كان يمقت سلوكه؛ لم يكن في وسعه أن يقعل أفضل مما فهل فى ظل هذه الظروف.
لكن فهمه لخمس عششسرة أو عشرين أو ثلاثين سنة سبقت: لم يساعده على تناول
المشكلات الجدية تناولا فعالاء بل أنه فعل العكس. ذلك أن قدرته على التفهم التخيلى
تناقصت بدلا من أن تتزايدء لأنه تقدم فى السن, وتسامحه وأسلوبه المباشر كشاب قد
تصليا واستحالا إلى محافظة وتعمش. كان هذا إذن, هو الرجل الذى استدعاه البابا
كليمينت الخامس إلى أوريا عام :١٣١5 رجل مسن قديم الطراز» قضى كل حياته
كإنسان بالغ فى الخدمة 3216

العسكرية؛ رجل يملك أفكارا بسيطة. وضيق الأفقء يعجز تقريبا عن التفكير المعقد الراقى؛ رجل لم ير حاجة كبيرة إلى تفغيير التنظيم الذى يقوده؛ وإصلاحاته محدودة عند اقتصادات الطعامء والطلب الانضباطى للطاعة. وحين وصل جاك دى مولى إلى أوربا فى أواخر 1511 أ أوائل 711٠ لم يكن بالتاكيد يعتبر أن ثمة شيئًا ما خط فى الجماعة التى يتحكم فيها أو فى الطريقة التى يتحكم بها. وكان ذهنه منشغلا بالمشكلات التى كان إخوانه يواجهونها قى وسط وشرق البحر المتوسط - ووضعهم غير المرضى فى قبرصء والصعوبات التى يواجهونها مع القينيسيين والجنويين المحاربين» والاستحالة الظاهرة فى استعادة أى جزء من الأراضى المقدسة. ولم يستطع إيجاد أى طريقة للالتفاف على هذه المتاعب, ولكن كانت لديه عدة معتقدات ثابتة - وهي» أن أى شيء تفعله الجماعة ككل صحيح؛ وأنه, بشكل ماء إن عاجلا أو أجلاء سوف يعوبون إلى الأراضى المقدسة: وأنه حتى ذلك الحين يجب أن يستمروا كما هم. ولم يدر فى خلده أن من هم خارج الجماعة ريما يعتقدون أن فرسان الهيكل فقدوا الاتجاه. ومن الممكن أن يرفض بشدة أن جماعته قد نسيت فن الحرب, ولا تتكون إلا من ماليين طفيليين؛ وإذا ما ذكره أحد بموعظة المسيح على الجبل - لا تجعل لنفسك كنوزا على الأرض حيث يفسدها السوس والصداًء وحيث يسرقها اللصوص» لم يكن ليرى أى مغزى شخصيى فى النص على الإطلاق. كانت التعايضات ادي مولى فى أن يضر إلى اوريا تون إعلان ليخهبيت وبحاشية تتكون من أقل عدد ممكن. ولم يعط سببا لذلك؛ ريما اعتقد عتقد كليمينت أنه لو علم أحمد جيوش المسلمين أن معلم الهيكل غائب, عن قبرص قد يتجرق بالهجوم على الجزيرة. أما دى مولي فكان يفكر على نحو مقاير. لذا حين وصل إلى فرنسساء أحضر معه ستين فارسا وكمية هائلة من الذهب والحلى. فأصبع موكب المهاربين الملتحين. ودروعهم مغفطاة بالعباءة البيضاء والصليب الأحمر على القور معروفا للجميع؛ وبدا أن وضوحه كان مقصوداء وهى استعراض واع لقوة الجماعة المعروفة, وثرائهم المجهول. 317

لقد كان كليمينت فى بواتيى. ودى مولى الذى كان واثقا من أن يستقبله
البابا استقبالا جيدا. ذهب إلى باريس أولاء علما منه بأن دعم الملك سيكون جوهريا إذا
كان للحرب الصليبية المقترحة أن تحدث. وبعد أن أمن الفرسان والكنوز قى هيكل
باريس, تقدم نحو البلاط الملكى. ومن المحتمل أن تكون هذه هي أول مرة يلتقى فيها
المعلم والملك. ولكن كانت لدى كل من الرحلين فكرة واضحة عن الآخر. ذلك أنه منذ
سنوات, من المحتمل أن يكون دى مولى قد التقى بالقديس لويس جد الملك الذى لم
يعرفه فيليب نفسه. والآن فى ربيع ١٣٠٦ حين كان دى مولى يجلس أمام الملك
الشاب الوسيم, لا بد أنه ذفل من أوجه الشبه العائلية الظاهرة: من حيث جمال وورع
آل كابى من الملوك؛ وريما يكون قد غرق فى بعض الذكرياتء وهى يتحدث بمعرفة
وفيرة عن عصره ومكانته وخبرته عن الأيام الخوالى - ربما مع مقارنة غير حكيمة مع
الحاضر. وكان يعرف افتقار الملك المستمر للمال وعلى الرغم من ذلك: يحتفظ يهذا
الحجم من البلاط؛ لا بد أنه تذكر كيف أقام فيليب وحاشيته فى هيكل باريس منذ
خمس سنوات: واستهلكوا فى تسعة أيام ثمانمائة وستة أرطال من الخبز وألفين وسبع
وسبعين لترًا من النبيذ - بالنسبة للمعلم المقتر, مثل هذا الاستهلاك وحين لا يمكن ضبط
الدقاتر, يبدو شديد الإسراف. وكان من الممكن أيضًا أن يعرف مدى الكفاءة القاسية
التى يمكن أن يكون فيليب عليها - ذلك أن اليهود كانوا قد طردوا قبل ذلك ببضعة
أشهر - ولكن لا يبدو أن هذا الجانب الأساسى من شخصية فيليب كان يعنيه على
الإطلاق. وقد استقبل فيليب بدوره الفارس المسن بالتكريم اللائق بأمير ذى سيادة.
ذلك أنه يعلم أن دى مولى من حيث المولد ومن حيث عضويته للهيكلء ليس تابعا له.
كما كان يعلم أن دى مولى يقف فى طريق تنفيذ جميع خططه. ولا توجد طريقة
قانونية لكبح الرجل العجوز. كما كان على وعى بالدور الذى لعبه دى مولى فى اتتخاب
البابا بونيفاس الثامنء وأن أموال الهيكل ساعدت الإنجليز والفلمنكيين تماما كما
ساعدت القرنسيين. ولا بد أنه أدرك بسرعة أنه رجل شديد السذاجة على الرغم من سنه

وخبرته؛ يقبل كل شيء على ظاهره. وحين استفسر عن أحوال الجماعة فى الوقت الحاضرء سأل عما إذا كان كل شيء كما يجب أن يكون؛ وأقر دى مولى بهدوء أتها ليست كذلك. وقال فى اعترافه إن عدة إخوان كشفوا عن أخطاء في السلوك, وعن لحظات قصروا فيها فى اتباع الميثاق. ولم يكن هذا الاعتراف أكتثر من التعليق الأسيف لرجل منضبط قديم يتناول انضباط يقصر عن الكمال؛ غير أن فيليب وجد أن هذا الاعتراف له أهمية كبيرة. وكان لدي دى مولى وفيليب معرفة مشتركة تجلت في رامون لول؛ الصوفى الإسبانى. ذلك أنه كان قد زار قيرص عام »1٣٠١"” ومنذ ذلك الوقت نشر كتابه الذى تحدث فيه عن خطط لحرب صليبية للتبشير تحت قيادة 'الملك المحارب". ومن الممكن أنه فى هذا اللقاء الأول, أن يكون الملك والمعلم تحدثا عن هذه المقترحات؛ وريما عرض على دى مولي كتاب جديدء عنوانه 'بخصوص استرداد الأراضى المقدسة". كتبه بيير دى بوا؛ وهى عضو غير رسمي في فريق المحامين العاملين لدى فيليبء وزميل لويليام دى نوجارى. وقد اتخذ من اقتراح لول نقطة انطلاق» وتوسع في التفاصيلء؛ ويعضها واقعى والبعض الآخر طوبائى مثالى من أجل حرب صليبية. لكن القصد الحقيقي منه كان يكمن تحت هذا الغطاء. وهى ليس أقل من هيمنة لآل كبى على العالم. كان من الممكن أن يكون ذلك واضحا حتى لدى مولي؛ ومع ذلكء إذا رأى الكتاب فى ذلك الوقتء فلم يحمله على محمل الجد مطلقا. وانتهت المقابلة على نحو مرضي لكلا الرجلين. ذلك أن فيليب علم معظم ما كان يريد معرفته, وانتقل دى مولى جنويا إلى بواتيي وهى يعتقد أنه لا يوجد ما يعكر صفو العلاقة الطيبة بين الهيكل والملك. وأن هذه العلاقات كانت طيبة لأكثر من قرن - من ١١٤1 إلى 17953 - إذ إن الخزانة الممكية الفرتسية كانت تقبع فى هيكل باريس وحين نقل يليب خزانة الدولة إلى قصر اللوفر الخاص به ترك أموال بيته فى أيدى فرسان الهيكل. وتمتع الإخوان بالإعفاء تقريبا من كل قيد قانونى, وحتى عام 1٣٠14 كان فيليب قد ثبت جميع حقوقهم, وأضاف إلى هذا التثبيت الوعد بأن "القضاء الدنيوى العامانى لن يحتجن منقولات الجماعة ولن تبدد ممتلكاتهم غير المنقولة أو تدهر59 . "

وثمة رجل واحد له دور مركزى فى الحفاظ على هذه العلاقات الجيدة: هو الأخ هيو دى بيرو, الذى كان فى عام ١701 أمين خزانة الهيكلء والذى عينه فيليب متلقيًا ووصيًا على العوائد الملكية. ودى بيرى هذا الذى كان يتمتع بعلاقة حميمة مع البلاط الفرنسىء كان فى وقت من الأوقات يصبو إلى أن يكون معلما للهيكل. وحين تم تخطيه لصالح دى مولىء اعتقد أن دى مولى لم يفز بالانتخاب إلا عن طريق الدسائس. وكان الرجلان من نفس السن نقريباء وكانا متصلبين كل على طريقته. ومنذ خيبة الرجاء التى لحقت بيروء كان فى الظاهر يطيع دى مولى؛ لكنه سرا كان يمثل القانون بالنسبة له. وفى ٠١ أغسطس ١١١5 وقع على اتفاقية خاصة مع فيليبء اتفاقية تتعلق بالدفاع المقبادل والتاييد فى جميع الأوقات: على الأخص فى المعركة ضد اليايا بونيقاس الثامن - البابا الذى ساعد دى مولى على انتخابه, والذى كان فيليب يلاحقه حتى ما وراء القبر. ودون أن يعلم بذلك. وصل دى مولى إلى بواتيى فى نهاية مايى. وبدأ البابا الجديد خليفة غير ملهم وغير مرض بعد بونيفاس وييينيديكت اللذين كانا ينفثان التار. لقد تدرب كليمينت فى القانون الكنسى والقانون الرومانى وقبل انتخابه لتولى البابوية كان دبلوماسيا بابويا. ذلك أنه رجل اعتاد على الحلول الوسطء وهذا بالنسية لدى مولى يعد علامة على الضعفء والتذبذب؛ وحين التقى المعلم بسيده الجديد لأول مرة, كان كليمينت رجلا قلقا خائفا. فعلى مدى تسعة عشر شهرا من بابويته كان قد خضع مرة تلو مرة لضغوط فيليب. فلقد برأ الملك من خطيئة ابتزاز المال من الكنييسة؛ وأعاد الكرادلة الذين فصلهم بونيفاس؛ ونصب عشرة كرادلة جددء تسعة منهم فرنسيين؛ ومنع الفلمنكيين من التمرد ضد قيليب؛ وواقق على آلا يلزم فيليب أو أى من نسله بقسم لحرب صليبية إذا ما تطلبت سلامة المملكة ذلك. ولم يكن هناك سوى أمرين قاوم فيهما فيليب: تبرئة دى نوجارىء؛ ومحاكمة يونيفاس يعد وفاته. وإذا كان فيليب لم يصر على هاتين النقطتين» فما ذاك إلا لأنه كان يركز طاقاته

قبل ذلك ببضعة أسابيع حدث لقاء عاصف بين كليمينت وفيليبء أبلغ فيه
الملك البابا الذى عقدت الدهشة لسانه عن سلسلة طويلة من الاتهامات البشعة فى حق
جماعة الهيكل - وهى اتهامات زعم فيليب أنها مقدمة من شهود يعتمد عليهم. والتى»
إذا صحت, تكون تهديدا لأوربا كلهاء وتهديدا لوجود الكنيسة ذاته. وحتى إن لم تكن
هذا التحقيق لا يمكن أن يجرى إلا براعية بابوية» بما أن فرسان الهيكل مسئولون أمام
البابا فقط, وفيليب طلب أن يأذن كليمينت بتحقيق أو استقصاء كامل. أما كليمينت
فلم يكن راغبا فى أن يذعن» جزئيا لأنه لم يستطع أن يحمل نفسه على تصديق مزاعم
قيليب. ذلك أنها كانت شديدة الخيال حتى أنه لم يبد أمامه سوى تفسيرين ممكنين:
أها أن فرسان الهيكل كانوا جزءًا من الخيانة الكبرى للمسيح منذ قبلة يهوذاء أى أن
فيليب المهووس بعرشه "الذى متحه الرب” على وشك الجنون. وفى كلتا الحالتين؛ إذا
ما استسلم كليمينت للملك الظالم, ستكون العواقب مرعبة. وإذا ثبتت التهم. سوف
يوضع الخاتم على سلطة فيليب باعتباره "أكثر الملوك مسيحية" والمدافع عن الكنيسة.
ولكن إذا برئ الفرسان المقدسونء فماذا بعد؟ سيكون هذا الانتصار انتصارا! لهم وليس
الكنيسة؛ ويبجيوشهم المدربة ومعاقلهم الموجودة فى كل مكانء يمكنهم بسهولة شن
حرب انتقامية والسخرية من الملك الفرتسي: ويعلم كليمينت أن فيليب إذا ما وضع فى
الزاوية. يمكنه أن يقاتل بشراسة الفأر ومكر الثعلب. لم ير كليمينت سبيلا لتحاشى
وقوع الكارثة؛ وبالنسبة له شخصياء فإن المحنة أكثر شدة ويترا. فمهما بلغ من كراهيته
حاليا لفيليب؛ فهو مدين للملك بعرشه البابوى؛ وإذا ما خذل فيليب أو انهزمء وإذا ما
رفض كليمينت هذه المزاعم باعتبارها هراء, فيمكن إفراغ هذا المرش بنفس المهارة
التى تم ملؤه كها. الخطف, السم؛ كانت ذكريات سلفيه تسيطر على عقله. ورفض أن
يعطى الملك إجابة محددة على الفور, واحتاج ذلك منه قدرًا كبيرا من الشجاعة. وقرر
الانتظار إلى أن يتشاور مع معلم الهيكل بشكل شخصي. ومن الممكن 3527

أن فيليب لم يتوقع أكثر من ذلك فى هذه المرحلة؛ فهو يعرف حجم كليمينت. وكان لديه هق ومحاموة عمل يجب إتمامه. لذا عاد إلى باريس» واستقيل حاك دى مولى بالفخامة والمراسم دون أية إيماءة تنم عن ألشك, حين رأى كليمينت دى مولى فى بواتيى, لا بد أنه كان مهتزا أكثر من ذى قبل, لأن المعلم بدا راضيا وسعيدا بوجوده فى فرنساء على عكس تذمره المعتاد. فقد جاء مستعدا بأجوبة عن الأسئلة المتعلقة بتوحيد الجماعتين, وشن حرب صليبية ذات أهداف محدودة؛ غير أن كليمينت ثم يكن فى حالة مزاجية تسمح له بأن يستمع إليها قى ذلك الحين. وأخبر المعلم بكل ما حدث. فشعر دى مولى بالفضب والإهانة. حتى أقل الأشياء التى زعمها فيليب لم تكن حقيقية, وهى أن نقل الكنز من قبرص يشير إلى أن الجماعة على وشك التخلى عن الشرق كلية والعمل فى أوربا فقط. ومع ذلك, فإن حنق دى مولى لم تكن له فائدة للبابا مع أنه أمر يلقى الترحيب. وما لم يسحب فيليب ادعاءاته, سيكون لا بد من فهل شىء ما؛ أذا عزم كليمينت على الانتظار مرة أخرى, وهو لديه أمل واهن فى أن التأخير ودعمه الصريح للجماعة قد يقنعا فيليب بتغيير رأيه. وعاد دى مولى إلى بأريس دون أن يقدم أجوبته وهو يشهر بالميرة أكثر من شعوره بالقوف, وهناك عقد اجتماعا عامًا. عقد هذا الاجتماع فى ؟؟ يولية؛ وكان سرياء كالمعتاد, ولا يوجد تقرير عما قيل أثناءه. ولكن بعد ذلك بوقت قصيرء تم إرسال منشور إلى جميع المقار فى فرنساء تتكرر فيه القطعة الموجودة فى ميثاق فرسان الهيكل التى تمنع أى أخ من التحدث عن طقوس وممارسات الجماعة مع أى شخص خارجها؛ وفى قرابة نفس التوقيت, سمع الأخ هيو دى بيرىء ذلك الشخص الزميل للبلاط الملكى يقول إن أى قارس من فرسان الهيكل لديه سيب يدقعه إلى ترك الجماعة. عليه أن يفعل ذلك بسرعة؛ لأن مصيبة مخيفة على وشك الوقوع. عاد دى مولى من باريس إلى بواتيى مرة أخرىء وبدا عليه أنه متاكد من أن إنكاره غير الحاذق المباشر كان كافيا لتبديد أية شكوك. وفى هذه المرة قدم للبايا مذكرتين. كانت الأولى رفضًا مقتضيًا لفكرة دخول حرب صليبية مع القبارصة 322

والأرمن - إذ ليس فى وسع القبارصة سوى تقديم جيش صغيرء والأرمن لا يعول عليهم. وفوق ذلك. فبعد محاولاته الشخصية فى الحروب المحلية: يرى أن الحرب الصليبية المحدودة لن تكون لها فرصة فى النجاح الدائم؛ وأن الاندفاعة الكبيرة هى الطريقة الوحيدة لاسترداد الأراضى المقدسة:؛ وقفى المناخ الحاضر للسياسة فى الرأى الأوربى» من غير المحتمل أن يتحقق ذلك فى المستقبل القريب. أما المذكرة الثانية, فقد تناولت مسالة توحيد الجماعتين. وكان يشعر بأن هذا غير مرغوب فيه تماما مثل القيام بهجوم محدود, واستفاض فى شرح أسبابه. وتذكر أول مرة قدم فيها هذا الاقتراح, فى عام 541ا١ء وذكر كيف أن رفضه كان حينئذ يرجع إلى معارضة ملك إسبانيا. وقال إنه. الآن: لا يرى سوى نقطتين فى صالحه: من المؤكد أنه يمكن تفعيل الاقتصادات ذات الوزن: وأن الجماعة المندمجة يمكن أن تكون قوية جدا حتى أنها تستطيع مقاومة أى تدخل علمانى أيا كان. ومع ذلك فإن النقاط التى لا تحبذ الاتحاد عديدة جدا. كان هناك جانب روحى؛ إذ لا يكون من الصواب إجبار رجل اختار طريقة معينة فى الحياة أن يتخلى عنها من أجل طريقة أخرى. وهناك الجانب الإنسانى؛ وقال من المعروف أن فرسان الهيكل أكثر شجاعة. من الإسبتاليين» وإذا أجبرت الجماعتان على الاتحاد, من السهل أن يبدأ فى قتال بعضهما بعضاء غيرة منهما على سمعتهما. وهناك الجانب الادارى؛ لآن الاتحاد سوف يعنى ملء المناصب الرسمية مرتين» وسال كيف يقرر أى الرجلين سوف يبقى» وأيهما تخفض درجته؟ وكان مضمون ما يقوله أنه. شخصيًاء من المؤكد أنه لن يتخلى عن منصبه عن طيب خاطر. ثم هناك مشكلة ازدواج الملكية؛ لأنه إذا كانت تلجماعتين دور فى مدينة واحندة» سيكون على شخص ما أن يقرر إن كان أحد الدور أو دار آخر سوف يتم إغلاقه, أى إذا كان سيتم الاحتفاظ بالاثنين. لقدُ كانت مثل هذه التغييرات البالغة القوةٍ يعيدة عن فهم الرجل العجوز. ومن الواضح والطبيهى أنه كان ضدها منذ البداية. ولا يبدى أنه فكر مليا فى صياغة مذكرته؛ ذلك إننا إذا سلمنا بأن جميع تعليقاته كانت دقيقة فى حدودهاء فليس من الحكمة الإقرار بأن جند المسيح 303

يمكن أن يكونوا من التفاهة بحيث يقتل بعضهم بعضا غيرة منهم على
إمارات الشرف الدنيوى, أو أنه هو نفسه متكبر للفاية حتى أنه لا يقبل التخلى عن
مكانته لشخص آخر. لكن الجواب قد أعطىء وقبله كليمينت؛ ويعد ذلك بقليل. تم
إرسال نسخ من المذكرة إلى الملك فيليب. كان كل شىء هادئًا لبضعة أسابيع. وكان
كليمينت يصد مطالبات فيليب المستمرة من أجل إجراء تحقيق؛ وفى ؟ أغسطس.ء
وردا على طلب هن فرسان الهيكل الإنجليز, أرسل مرسوما بابويا إلى إدوارد الأول»
يعفيهم فيه من عشور فرضها الملك الإنجليزى. وليس هذا فحسبء بل أن كليمينت
أشار إلى فرسان الهيكل بإنهم "أبناؤه الأعز" ووصفهم بأتهم فرسان المسيح الشجعان,
إنهم رجال اعتادوا على تحمل كل خطر دفاعًا عن الأماكن المقدسة فى البلاد
المسيحية. كان رأيه واضحاء وكان يمكنه الاستمرار فى استراتيجية المقاومة السلبية»
إلى أن يجير فيليب على التغير يطريقة أو أخرى - وكان ذلك ممكنذا لولا أن دى مولى
قام بالتحرك التالى. إن إحساس الشخص بأنه يقع تحت شك خفىء فى حين لم يقل أو
يفعل أى شيء صريح, كان أكثر من تجمل المعلم. فقام بزيارة أخرى للباباء وفى 4"
أغسطس كتب كليمينت رسالة تعسة إلى الملك فيليب. إذ إن جاك دى مولى قد نال ما
يكفيه من الأكاذيب المهموسة والافتراءات؛ وإذا كانت هناك اتهامات ضضد جماعته,
فيجب أن تقال فى العلن. وهذا السلوك السرى الخفى لا يطاق. ذلك أن دى مولى كان
على ثقة من أن أية اتهامات لا أساس لهاء ويمكن إثبات خطئهاء وتتم تبرئة الجماعة؛
فطلب تحقيقا رسميا. إذ قال كليمينت للملك "هناك الكثير مما يبدو مستحيلاء حتى إننا
لا نصدقه". لكنه وعد فى البدء بإجراء تحقيق. ويعد ذلك بثلاثة أسابيع بالضبط: فى 12
سبتمبرء كان فيليب فى دير مويويسوين بالقرب من بونتواز. على بعد بضعة
كيلومترات شمال باريس. ومن هناك أصدر 104

فتحه حتى ليلة ؟١ أكتوير. وفى 7" سبتميرء بعد صدور التفويض بتسعة أيام؛ أعطى كابي الرق أكوعارع منصنيا تحدنن) كان ما زؤا لصحام المملكه الأول الكدة عاونا إنه شخص مبهد عن الكنيسة يحتل أعلى منصب فى المملكة, يلى الملك من حيث النقطة. وف آوائل اكتكويو: فيك زئفة اح اللك قيليب: ككرين د فالها :رتفت جنازتها: وهى متاسبة تخهن النولة: :فى 19 أكتوير: متم مفاع'البيكل الشرق الرمزى بأن يكون أحد حاملى كفتها؛ وعند الفجر فى اليوم التالى - الجمعة ١١ أكتوير - قام رجال الملك بالقبض عليه وجميع فرسان الهيكل الآخرين [الخمسة آلاف] فى طول فرنسا وعرضها. 325

The text on this page is estimated to be only 43.75% accurate

الجرء السادس المحاكماتث 1115-1111

الفصل الخنامس عشير ابتداع البراءة فرنسا. ١4 أكتوبر ١ 1. ا أبريل ١٠١
لسانك يخترع المفاسد؛ كموسى مسنئونة يعمل بالغش. مزمور 5.57١ فى بداية القرن الرابع عشر كانت جامعة باريس شهيرة فى أنحاء أوريا بوصقها مركزًا للعلم والجدال العميقء وكانت مكانا يتم فيه تحليل مسائل اللاهوت والسياسة والقانون والإجابة عنها - ولم يكن ذلك بطريقة نظرية, وإنما بتطبيقات عملية فى حياة الناس اليومية. وكان الملوك ورجال الدولة والكنيسة يذهبون إلى هناك لطلب المشورة فى أمور بالغة الأهمية. وكان الأكاديميون يعطون تفسيراتهم لكلمات الكتاب المقدسء وآراعهم فى مشكلات الدولة أو الدبلوماسية, ودعمهم للقوانين الجديدة إذا رأوا أنها صحيحة. ودون هذا الدعم لم تكن لتشريعات الدولة أى الكنيسة أى فرصة فى القبول أو البقاء. ولهذا السبب, ففى يوم السبت ١4 أكتوير 177, استدعى ويليام دى نوجارى كبار أعضاء الجامعة إلى اجتماع فى حجرة الاجتماعات في كتدرائية نوتر دام. تم اختيار الموقع اختيارا جيداء بحيث يعطى تأكيدا على الطبيعة المقدسة للحديث الذى أعده؛ لآن غرض دى نوجارى أمام هؤلاء العلماء والمختصين فى الشئون الدينية والدنيوية. فو
19ص

الإعلان عن أن جماعة فرسان الهيكل جميعا من المبتدعين, والفاسدين. ذلك أن القبض على فرسان الهيكل فى الليلة السابقة أحدث صدمة ودهشة لدى الجميع فى فرنسا. وصارت العملية كلها تقريبًا دون خدش؛ ومن بين خمسة آلاف من فرسان الهيكل, لم يتمكن سوى عشرين تقريبا من تجنب الاعتقال. ووضع كل من ألقى القبض عليه فى حجز انفرادى؛ ولم يكونوا قادرين على الاتصال بإخوانهم أو أصدقائهم أى أقاريهم أو أى شخص من ذلك العالم الذى انتشلوا منه. إذ إن السرية كانت تامة؛ وجرى العمل فى نفس الوقت فى أنحاء المملكة. ولا بد أن دى نوجارى كان يشعر بالاعتزان والرضا عن كفاءة قدرته التتنظيمية. أما بالنسبة لغيره فقد كانت هبهرة على نحو يثير الرعب. إذ يصعب تحدى مثل هذا العمل الكبير الرهيب من حيث مهارته. خاصة كحقيقة مؤكدة؛ ولكن ما لم يتم فعل شىء آخرء فإن دى نوجارى والملك فيليب كانا يعلمان أن الانتقاد سرعان ما يحدث حين يذوى أثر الصدمة. سيما وأن فرسان الهيكل من رجال الكنيسة. والاعتقال بهذه الطريقة يعد تناقضا مباشرة لكل حق من حقوق الحصانة الكنسية؛ فكانت مهمة دى نوجارى هى إثبات أنهم لا يستحقون هذا الحق أى أى حق غيره. جين كان يقف أمام تجمع الأكاديميين, لم تكن لديه أية توجسات؛ فبعد أن أثار الفزع فى قلوبهم, كان على ثقة من أنه سوف يستطيع التغرير بعقولهم, لأنه كان بارعا فى استخدام اللفة. وهى الذى كتب تفويض موبويسونء مع أن فيليب هو من وقعه؛ وكل كلمة فى هذا التفويض قصد منها وضع فرسان الهيكل فى وضع لا يستحقون معه أى تعاطف إنسانى من الناحية الروحية أو الأخلاقية. كانت بداية التفويض تقول: 'بفضل تقارير عدة أشخاص جديرين بالثقة وصل إلى أسماعناء شىء بشعء شيء يثير الأسي. شىء يثير الرعب عذد التفكير فيه., والرهبة عند سماعه إنها جريمة مقيتة. وشر شنيع» وعمل بشعء وعار يثير الاشمئزازء شىء لا يكاد أن يكون إنسانيًاء بل هو غريب عن البشرية جميعاء دهمنا بعنف, وجعلنا نرتعد رعيا330 ."

بالنسبة للبسطاءء؛ من أمثال حكام الأقاليم: ونظار الزراعة: فى المملكة,
وهم يقرعون مثل هذا النص فى الساعات المظلمة من صباح اليوم الثالك عشر لا بد أن
ذلك بدا نذيرا بقضاء إلهى. وكشف رهيب لخطايا خفية. ولم يتناول الأمر أشباحا أى
عفاريت؛ أو كوابيس تخيف الأطفال, بل تناول أناسا يعرفونهمء أناسا فى قريتهم أو
مدينتهم؛ لذا حين شجعهم ضوء النهارء انطلقوا فى الفجر بشجاعة وإحساس بالحق
كي يلقوا القبض على جيرانهم؛ فرسان وخدم الهيكل: وهم مسلحون بعلمهم بن هؤلاء
الرجال قد اقترفوا أبشع الأعمال التى يمكن تخيلها فى حق المسيح:.والرب. ولدى
دخولهم الهيكل. كان كل فرد فى الإخوان قد أنكر المسيح وبصق على صورته. وأخذوا
يقبل بعضهم بعضاء فى القم؛ والسرة والأستء واتخرطوا بعد ذلك فى مجون من
الجنسية المثلية؛ وأخيرا انحنوا جميعا أمام صنم معبود على هيئة رأس إنسان؛ وعبدوه
كما يفيد الإله. لم تقع أية مقاومة حين تم القبض على فرسان الهيكل؛ كما لم تكن هناك
أية مقاومة فى كتدرائية نوتر دام حين كرر دى نوجارى فحوى التفويض على سامعيه
من العلماء. إذ لم يكن قي وسع رجال الجامعة سوى الإذعان وقبول النبأ فى صمت
حين أذهلتهم بشاعة الاتهامات؛ وقد أعلن دى نوجارى أن كل شىء سوف يدعم حالا
بالاعترافات الصريحة والتلقائية التى يتلقاها رجاله فى هذه اللحظة من أكبر المسئولين
فى الهيكل. ومر أحد عشر يوما. وفى 0" أكتوير اجتمع الأكاديميون مرة أخرى: هذه
المرة فى القاعة الكيرى فى هيكل باريس. وتم إحضار خمسة رجال من السجون في
أسفل أربعة من فرسان الهيكلء والمعلم جاك دى مولى. وتكلم دى مولى باسم الربء
نيابة عن جميع إخوانه. مستخدما اللفة الأم (يقصد الفرنسية وليس اللاتينية: المترجم)
حتى يفهم الجميع بوضوح ما يقوله, معترفا بأن جماعته. على الرغم من أنها كانت فى
وقت من الأوقات نبيلة ومقدسة .... إلا أن دهاء عدى البشرء الذى يبحث دائما عن ما
يستطيع أن يلتهمه: أدت به إلى أن يسقط فى الضياع, حتى أنه منذ وقت طويل أنكر

من استقبلوا فى الجماعة سيدنا يسوع المسيح, فأديناء لدى استقبالهم» دون أن يجزنوا على فقد نفوسهم وبصقوا على الصليب مع تمثال صغير ليسوع المسيح ... أزدراء له. وارتكبو! فى الاستقبال السابق ذكره فظائع أخرى بنفس الطريقة". وأضاف 'برحمة الله قد ظهرت هذه الأشياء فى العلن» عن طريق أكثر الملوك مسيحية الملك فيليب, وكيل الذور؛ الذى لا يخفى عليه شىء . ورجا سامعيه بأن يتوسطوا لدى الملك والبابا كى يتم العفو عنه هى ورجاله الأشرار النادمونء من خطاياهم ويتحملوا عدالة الكنيسة. وأحس العلماء الموجودون فى الهيكلء ثم بعد ذلك جميع الناس فى أنحاء فرنسا بالاشمئزاز والخوف, والاختناق النفسى بمجرد التفكير فى التحول الذى يجرى حولهم حين استمعوا للاعترافات وهم فى حالة من الدهشة. وكتب دى مولى خطابا مفتوحا إلى إخوانه. وأصدر إليهم التعليمات بأن يعترقوا بجميع ممارساتهم الشريرة كما فعل هى؛ وتدفقت الاعترافات. وفى خلال أيام قليلة تم الإدلاء بثمان وثلاثين اعترافًا فى باريس وحدهاء وما يربو على المآة فى الأسابيع القليلة التالية. وتكرر هذا النمط في كل مكان» مع إقرار الفرسانء والرقباء والإخوة الخدم والكهنة بالفساد والذنب. وقام هيو دى بيرو؛ أمين خزانة الهيكل بالإدلاء بأكثر الاعترافات جميدًا شمولاء لأنه لم يمر فقط بالاستقيال الدنس. ولكنه هو نفسه استقبل الكثرين فى الجماعة بالطريقة نفسها؛ وأنه 'رأى وأمسك وعبد وثنا' على هيئة رأس, إنه وثن جلب على فرسان الهيكل كل ما تمتعوا به من قوة دنيوية» وثراء مما جعل الأشجار تزهر وأن تكون الأرض خصبة» وتجلب الموت لأعدائهم. فكتب الملك فيليب سلسلة من الرسائل إلى ملوك البلدان المجاورة "كي يستيقظوا من أجل العقيدة" وأخطرهم بسبر الأحداث. أن كل ما قيل عن فرسان الهيكل حقيقي؛ ولا بد أن يكون كذلك. لأن الناس لن يعترفوا بأشياء لم يفعلوها. ولا شك فى أنه فى نحو الشهر التالى سيتم إكمال العملية غير المستساغة وإن كانت ضرورية» ويتم التنديد بالجماعة وحلهاء مما يريج جميع الأطراف المعنية - بما في ذلك فرسان الهيكل أنفسبهم. لأنهم لعنوا 332

أنفسهم؛ وهم الآن بكل تواضع يسعون إلى الندم؛ والعفو والصلح مع الكنيسة. ومن سوء طالع قيليب أن جيرانه من الملوك لم يصدقوا أنه يقول الحقيقة. إذ إنه قد يكون حفيد أحد القديسين, ولكن الجميع كانوا يعلمون الطريقة التى حكم بها حتى الآن فقد حكم عن طريق الحربء والضرائب الخشنة. وكثرة تخفيض قيمة العملة؛ وكان الاختطاف الذى وقع فى أنانيى معروفا للجميع وكذلك نقوذ فيليب فى انتخابي البابا كليمينت. باستثناء تلك العوامل, كان سيب اعتراف فرسان الهيكل المذهل واضحا؛ ذلك أن كل شخص فى البلاد المسيحية كان يعرف محاكم التفتيش, وتصادف أن كاهن الاعتراف لدى فيليب قاضى التفتيش العام فى فرنسا. ومحاكم التفتيش - أو لنذكر اسمها ولقبها الأكثر رسمية وتشخيصا . المكتب المقدس - كانت محكمة فى الكنيسة الرومانية الكاثوليكية من أجل الكشف عن الابتداع وقمعه وعقابه. وعدم الإيمان وغير ذلك من المخالفات التى ترنكب فى حق الدين. وتم إنشاؤها كمحكمة دائمة عام 5448١ بواسطة البابا أنوسينت الرابع» وكان الدومينيكان يقومون دائما بإدارتها. وسرعان ما أعطاهم تطبيقهم القاسى لطرقها المقررة رسميا اسم جديدًا يفعب على اسمهم القديم؛ فأصبحوا يسمون "كلاب الرب' (بالترجمة اللاتنية للاسم الذى به التورية: المترجم). لا يوجد الكثير من الابتكارات البشرية مما ينافس المأزق المزدوج التى ابتكرتها مجاكم التقتيش. ذلك أن مقدمتها الأساسية هى لم يتهم أحد قط يلا ايتدا ع دون سيب وجيه. وكل شخص يمكنه أن يتهم كل شخص آخر بالابتدا ع ما عدا المبتدع المتهم, الذى لا يمكن الثقة به. سواء ثبت ابتداعه أم لم يثبت. فالمتهم مذنب حتى تثبت براءته بدلا من أن يكون برينا حتى تثبت إدانته؛ لذا كان من النادر جدا أن تثبت براءة شخص يتهم بالابتدا ع. وأفضل ما يمكن أن يأمل فيه المقهم هو أن يمر يعملية الاعتراف والندم - حتى لو لم يكن لديه ما يعترف به - ويأمل فى التصالح تحث تأثير التدم. وقد يكون الندم مجرد دفع غرامة. وقد يذهب إلى حد السجن مع الالتزام بنظام غذائى عبارة عن الماء والخبن. أما المتهمون الذين يرفضون الاعتراف أو يعترفون ثم 1033

يتراجعون فى اعترافهم, فإن الكنيسة تحرمهمء ويقدمون للسلطة الدنيوية من أجل توقيع العقاب الزمنى الدنيوى. وهذا معناه أن تصادر الدولة ممتلكاتهم؛ ويتم منع ورثتهم لجيلين من تولى المناصب العامة؛ أما هم أنفسهم فيتم إحراقهم. وإذا وأتاهم الحظء قيتم خنقهم على العمود الخشبى؛ أو يحرقون وهم أحياء. ومن المستحيل على أى شخص يتهم بالابتدا ع أن يدافع عن نفسه دفاعا قانونيًا؛ بسيب افتراض ارتكاب الذنب؛ ذلك أن أى شخص يرتبط به أو بها يصبح تلقائيا محل شك هو أيضمًا. ويكاد الدفاع الوحيد المتاح أمام المتهم هى أن يقدم قائمة بنسماء أعدائه المعروفين, أملا فى أن يتقق أحد الأسماء فى هذه القائمة مع اسم متهمه. وحتي إذا حدث ذلك؛ عليه مع ذلك أن يثبت براءه - أى عليه أن يعترف ويتم التصالح؛ وإن لم يعترف لأى سببء فإن المكتب المقدس يملك السلطة فى استخدام طرق عدة لإقناعه بخطئه الذى قد لا يكون له وجود. والطرق الآكثر فظاظة كانت مختلفة. ذلك أن المتهم قد يقيد ببساطة, وتحشر قطعة من القماش فى فمه. ثم يصب الماء أما فى قطعة القماش, مما يجعلها تنتفخ, أو تصب فى فتحات أنفه. قليلا قليلاء وسوف يفرق على أرض جافة. أى يوضع فى حفرة لا تتسع إلا له بالعرضء ويترك ليجوع حتى يفهم ويقر بما ارتكب من ابتداع. وثمة طريقة أكثر تكلفة» وهى أن يوضع فى خشية الشبح ويتم شده وشبحه إلى أن يخرج فخذاه وكتفاه من أماكنها. وقد يوضع ببساطة فى حديد. وحول رسفيه وكاحليه ورقبته القيود؛ وقد تلطخ قدماه بالدهن وتعرض لنار متوهجة؛ أوه إذا كان يتسم بالعناد. يتم وضعه فى آلة الإسقاط. كان هذا الاختراع القبيح ببساطة عبارة عن حيل ويكرة سير. وكان ذراعا الضحية توضع خلف ظهره ويقيد معصماه مها. وقى هذا الوضع, يتم رفعه إلى أعلى ارتفاع ممكن فى الهواء. ثم يتم إرخاء الحبل بحيث يسقط مندفعا نحو الأرض؛ لكن يتم إيقاق السقوط قبل أن يضرب الأرضء بحيث يقع أكبر قدر من الضغط على كتفيه وذراعيه. ويوجد تعديل اختيارى على هذا بتعليق أثقال من كاحلى المبتدع المفترض أو سرته, أى من أعضائه التناسلية إذا كان رجلا. 334

كانت جميع هذه الطرق وغيرها تستخدم لانتزا ع اعترافات من فرسان الهيكل المسجونين فى فرنسما. ولكن لم تكن جميع أنواع التعذيب بمثل هذه الفظاظة؛ ذلك أن دى نوجارى ومعاونيه طوروا المزيد من الطرق الأكثر تعقيدا. أقرب إلى طرق التمقيق 'الحديث.” إذ يتعرض الضحية إلى أسئلة لا تتوقف عن طريق تتابع من الرجال المدريين على القيام بأداء هذا الفن! ويتم تشوبه الأجوية, ويمنع الضحية من النوم, أو التبول أى إفراغ أمعائه؛ ويتم احتجازه انفراديا ويبلّ بأن أى أصدقاء له تم اعتقالهم بنفس الاتهامات قد اعترفوا؛ وحين يبدى علامات على الانهيار يدخل محقق جديد. يأسلوب متعاطف ودى» ويغرى السجين بالاعتراف لمصلحته. وعن طريق التطبيق الحكيم لهذه الطرق الفنية. يمكن جعل أى شخص تقريبا يعترف بأى شيء؛ أما من يتحمل هذه الصنوف من التعذيب حتى الموت, الذى سيكون خرجه الوحيد, فقهذا يندر وجوده حقا. وكانت الاعخرافات يتم الحصول عليها عن طريق الإرهاب فحسبء وذلك يتم عن طريق عرض آلات التعذيب على المتهم. وقد يجبر على مشاهدة تعهذيب متهم آخر؛ وإذا لم يكن ذلك كافياء يمكن تحقيق النتيجة المرغوية عن طريق تعذيبه تعذيبا مؤما. وفى بعض الحالات. يعتقد أنه من غير الملائم سياسيًا أن تظهر على المسجونين جروح بادية للعيان؛ عندئذ, يتم استخدام الطرق الأكثر دهاء. فيقر الضحية؛ بسيب ما يتعرض إليه من ألم ويحرم من احتياجاته كمخلوق» بأى ذنب ينسب إليه. - ويصدق أنه مذنب. إن كلمة غسيل المخ تعد من ألفاظ عصرنا؛ غير أن طرقها الفنية. والظاهرة فى حد ذاتها قديمة, وهى ابن السفاح الذى أنجبه المكتب المقدس. وهنا يكمن الفزع الأعمق من محاكم التفتيش؛ لأن من أمروا بعمل هذه الأشياء. إن لم نقل من نفذوها» قد أمروا بها باسم المسيح؛ وحبا فى الله. وإيمانا منهم بكل إخلاص أنهم؛ وجدهم» على صواب وأن أقعالهم مسيحية؛ وكانت من أجل صالح نفوس ضحاياهم. لقد أعلن أحد فقرسان الهيكل بعد أن اعترف أن من عذيوه كانوا فى حالة من السكر التام؛ وربما يكون قى حالة جيدة: إذا كان لديهم بالإضافة إلى اعتقادهم الدينى» أية مشاعر 2335

إنسانية على الإطلاق. كما تعد كلمات أخ آخرء فى قرابة الخمسين من
عمره: مثالا على الهزيمة الروحية التامة؛ والذل الذى تسببه هذه التجارب فى أى
ه, إن الأخطاء التى نسيت للجماعة حقيقية: وأنه (يمكن1" :شخص عادى؛ ذلك أنه قال
أى شيىء - فقط توقفواء ودعونى ."أن يعترف بذلك). قتل الرب, إذا طلب منه ذلك
أعيش. من الجائز أن تكون الطرق التى استخدمت مع دى مولى لإقناعه بأن يدلى
ياعترافه الأولى من النوع الأكثر دهاء وعمقًاء لكن اعترافه لم يكن ناقصا يثى حال؛
وعلى ما يبدو ليس أقل إخلاصاء بسبب هذه الطريقة. غير أن الدعم والتقبل السهل
الذى توقعه فيليب من الملوك الآخرين لم يظهر. ذلك أن إجابات جيمز ملك أرجونء
وإدوارد ملك إنجلترا على الرسائل التى بعث بها فيليب محفوظة؛ وكلا الملكين - وعلى
الأخص جيمزء الذى تمت فى بلاده أعمال إحراق الناس وهم أحياء أو قانون العقيدة,
وهى أبلغ مظهر لقسوة محاكم التفتيش - هذا الملك كان يعرف المكتب المقدس معرفة
جيدة ولم يكن أى متهما يميل إلى تصديق الافتراءات التى قيلت عن فرسان الهيكل:
حتى حين دعمت ظاهريا بلا اعترافات. إذ كتب إدوارد ببساطة أنه يجد أن هذه
الاتهامات "أكثر مما يمكنه تصديقه أما جيمز فبعد أن عبر عن "ليس فقط الدهشة
والقلق' أضاف "أن هؤلاء الرشبان كثيرا ما قدموا خدمات عظيمة ومطلوية لأجدادنا فى
رفعة العقيدة وقمع أعداء الصليبء ولم يخشوا نزيف الدماء أى الموت» ومات منهم
كثيرون ... ولأن الكنيسة لم تطلب منا ذلك ولم نلاحظ أشياء أخرى فى هذا الشأن, فلم
ولن نستطيع التحرك ضدهم". ومع ذلك/ كان فيليب لديه أمل فى خريف عام ١١7 فى
إنهاء الاضطراب الذى أطلقه من عقاله. ذلك أن وزن اعترافات فرربسان الهيكل أيا كانت
الطريقة التى تم الحصول بها عليها؛ وسيل الدعاية المتدفق من قلم دى نوجارى
الفصيحء كان أكبر من أن يسمح بعدم التصديق, على الأقل بالنسبة لفالبية الفرنسيين.
وكل ما كان مطلويا هو موافقة البابا وحل الجماعة رسميا. وكان من الممكن الوصول
إلى نوع ما من الحل غير القائم على المبادئ لهذا الموضوع الآثم كله؛ ولكن على غير
توقع مطلقا - ويكل 356

شجاعة - أكد فجأة البابا كليمينت على حقوقه, في هذا الشأن. وكان رد
فعله المسسجل الأول هو كتابة رسالة, بتاريخ /؟ أكتويرء موجهة إلى فيليب, كانت
تمتلئ حنقا وتتسم بالصواب حتى أن فيليب نفسهء اضطر إلى أن يأخذها على محمل
الجد. وقد بدأها كليمينت بالتأكيد على حق البابوية الأصيل فى قيادة الكنيسة والحكم
عليهاء وندد بتحدى فيليب المجترئ فى القبض على فرسان الهيكل. وقال. 'إن هذه
الأعمال مثار دهشة وألم وحزن لناء لأنكم دائما ما وجدتم فينا إحسانًا وصلاحًا إذا ما
قورنا بغيرنا من الأحبار الرومان الذين رأسوا الكنيسة الرومانية فى زمانكم". حتى
فيليب نفسه اضطر إلى الاعتراف يما في هذه الملحوظة من عدالة» ومع ذلك, "ارتكبت
هذه الأفعال فى حق أشخاص وممتلكات أناس يخضعون مباشرة لكنيسة روما" وأسوأ
ما فى فضح عدم قانونية عملية الاعتقال. وبين أنه لم ير فى تصرف فيليب هجوما
على فرسان الهيكل فقط وإنما هو أيضًا على الكرسى المقدس. واتبع رسالته بمرسوم
بابوى فى 5١ نوفمبر أمر فيه جميع ملوك البلاد المسيجية بأن يحذوا حذو فيليب
ويلقوا القبض على فرسان الهيكل فى بلادهم؛ لكن هذا يتم باسم البابوية. غير أن هذا
لا يعنى أن كليمينت مستمد لقبول ذنب فرسان الهيكل على أنه نتيجة مفروغ منها؛ لأنه
إذا ما اتضح أن المقدمات ليست حقيقية, ونم اكتشاف ذلك. سيعم القرح؛ ولهذا السبب
نقترح التحقيق فى الأمر دون إبطاء'. لقد شكل هذا التدخل تحولا تامًا فى إجراءات
المحاكمات. ذلك أن كليمينت وضع نفسه فى وسط القضية؛ وأى شىء يقع بعد ذلك لا
بد أن يتم بالرجوع إليه. وعن طريق جوهرية - أى أدلة تقوم على مقابلات تخلو من
التعذيب. * وقى ديسمبر عام ١7-1 أرسل كليمينت اثتين من الكرادلة إلى باريس كى
يبدا التحقيق - وكانت بداية غير موفقة إلى حد ماء لأن الرجلين سألا قضاة التفتيش

ومستشارى الملك عن الحقيقة كما رأوها. فكانت الإجابة التى عادا بها إلى
كليمينت هى أن جميع الاعترافات مقبولة وصحيحة. وعلى الفور أرسل كليميتت
الكردينالين مرة أخرى إلى باريس بتعليمات محددة وهي مقابلة فرسان الهيكل أنفسهم.
وفعلوا ذلك؛ ولا يمكن لتقريرهم الجديد أن يكون أكثر إثارة. ذلك أن جاك دى مولى
وهيو دى بى» رو وستين فارسا غيرهم سحبوا ما أدلوا به من اعترافات. فاحتدمت
المعركة بين البابا والملك. وكان فيليب قد قطع شوطا بعيدا لا يسمح له بالانسحاب.
ولم يكن ليقبل سوى النصر التام: وهى أن يعلن أن الجماعة مذنبة؛ وأن يتم حلها؛ وأن
تأول إليه أراضيها وأموالها. وأى شىء أقل من ذلك لن يكون كافيا. ذلك أنه إذا ما ثبتت
براءة فرسان الهيكل» سوف يسهل عليهم الانتقام. بل حتى إذا ثبت أن فرسان بعينهم
مذنبون: ولكن الجماعة ككل لا غبار عليهاء فهذا لن يكون كافيا؛ إن أنه لى نجا أى فرع؛
عندئذ. سيكون فيليب عرضة للخطرء دائما وأينما حل. عموماء كانت هذه هى الطريقة
التى رأى بها الأمر؛ وفى هذه المرحلة, لم تكن النقود» والأراضى والحياة عرضة للخطر
- بل كانت هناك المكانة أيضًا. فالكشف عن ابتداع دولى واجتثاثه سوف يضع فيليب
على رأس البلدان المسيحية؛ وأى شيء آخر سوف يظهره على أنه قاطع طرق متصعب
مجنون بالعظمة. عند هذه النقطة يدخل زاحفا أحد أغرب جوانب المحاكمة. فقدرة
الإنسان على خداع النفس هائلة؛ بل ريما تكون بلا حدود. ومن الممكن أن يكون فيليب
حين أحس بأن الاقتناع الشخصى التام قد يكون الطريقة الوحيدة للتغلب على تحدى
كليمينت» بدأ يقتنع بالفعل بأن فرسان الهيكل مذنبون. لقد قال إنهم مبتدعونء إذن
فهم مبتدعون. إن مثل هذه الحركات البهلوانية العقلية ليست إلا شيئًا عاديا حين يتسم
بها أحد قضاة محاكم التفتيش, لكنها حين تظهر بسلطة شبه دكتاتورية واعتقاد
بالألوهية الشخصية فإن مزيجًا متفجرا قاتلاً مميتا يتشكل. ومن الصعوبة بمكان تنقية
عقل فيليب؛ ومع ذلك: فإن أفعاله, بعد أن تراجع دى مولى عن أاعترافاته. يها اتساق لا
ينبع سوى عن ضمير هادئ واقتنا ع عاطفى قوى بأن جميع البشر كاذبون وخبساء.
3,6

فى فبراير من عام ١١١4 أوقف كليمينت أعمال محاكم التفتيش فى فرنساء مصمما على أن يتم جمع كل الأدلة. وأن تقدم وتقيم بأمانة وأنصاف. فبدأ قيليب بمساعدة عبقرية من دى موجارى مباشرة فى شن حملة دعائية ضد البابا. وفى الشهر نفسه. هرب أحد فرسان الهيكل القليلين الذين كانوا فى عهدة كليمينت من الدار التى كان محتجزا بهاء معطيا عن غير قصد لرجال الدعاية فرصة مثالية. ويدأت توزع منشورات سوقية اللغة والمضمون مجهولة الأصل فى أنحاء فرنسا وتشير إلى الهرب باعتباره إقرارًا إضافيًا بالذنب, معلقة بأنه. إذا كان كليميتت لم يتمكن من الاحتفاظ بواحد من فرسان الهيكل أسيراء فلا يجب أن يطلب التحفظ على آلاف آخرين (كما فعل). وأخذت المنشورات توحيى بأن البابا الذى يقف إلى جانب المبتدعين المعترفين ليس هو نفسه أفضل من المبتدعين. واختلط الانتقاد اللاذع لمصسوبية كليمينت المعروفة بتلميحات بأنه كان قد تلقى الرشى من فرسان الهيكل؛ وقد أعطت تعليقات حقيقية حادة قشرة من الصدق للأقوال الخيالية» وكانت كل هذه الأمور توضح بأمظة من اقتباسات مختارة بعناية من الكتاب المقدس تؤكد على صلاح فيليب وانحطاط كليمينت. لقد كان كليمينت عديم الحيلة فى مواجهة هذه الهجمات الخفية؛ إذ إنه كان مدربا على أن يكون محامياء وليس كاذبا - وفى الدبلوماسية وليس فى الازدواجية. ومع ذلك فقد ثابرء مقرا عقيدته الدنيوية فى الشرعية وإيمانه الروحى بالسلطة. فواجه فيليب ذلك عن طريق تقديم سلسلة من سبفة أسئلة إلى محامى ورجال اللافوت بجامعة باريس الذين كانوا يقعون تحت ضغط شديدء وهى أسئلة مصممة لتضخيم صحة أفعاله فى المجالين. واستغرق الأكاديميون شهرا كى يعدوا ويصيغوا ردهم؛ وحين جاء الرد لا بد أنه كان مصدر راحة فاترة لفيليب» ذلك أنهء على الرغم مما اتسم به من نبرة خانعة فإن "وكلاء الملك غير المهمين” كما أسموا أنفسهم, أخبره بكل تواضع ولياقة (وربما خوفا على أرواحهم) بأنه لا يملك أساسًا قانونيًا أو دينيًا يستند إليه مطلقا. بل ها هى أكثر سوءًا من ذلك. أنهم أحسوا بأنه إذا ما تم حل الجماعة فلا توجد طريقة مشروعة أمام فيليب حتي يطالب بممتلكات الجماعة من سلع ومال وأراض. 339

لم يكن ثمة شيء يجعل فيليب يلين» فاستدعى جمعية من كبار رجال الإقطاعيات. وكدأيه, لم يكن هذا هو البرلمان الديمقراطى كما يوحى اسمه. وإذما هو تنفيذ آخر للحكم الفردى المطلق. ففى أوائل مايئ 8- ١: تجمع نحو من ألقفي ممثل عن النبلاء ورجال الدين والناس العاديين فى تور» كى يصفوا على مدى أسبوع أو أكثرء إلى الخطب الحاذقة الرنانة التى كان يلقيها دى نوجارى ورهطه؛ وفى نهاية المحنة سجل الممثلون بكل آيات الطاعة موافقتهم القلبية ودعمهم لرأى فيليب بأن يموت فرسان الهيكل عقابا لهم على خطاياهم. وحين أصبح فيليب واثقا من دعم رعاياه وهو يعلم أن كليمينت عمليًا سجين فى فرنسا شأنه شأن فرسان الهيكل. كما يعلم أن المشاعر نحو كليمينت عدائية, فقد سافر إلى بواتيى فى نهاية مايى كى يلتقى بالبابا وجها لوجه. ولم يساقر وحده؛ بل صحبه أخوه. وأبناؤه وعدة بارونات وأساقفة وأناس عاديين بالإضافة إلى جيش صغير من الجنود؛ والرماة - وهذا استعراض للقوة على النقيض الواضح لعجز كليمينت أمام السلطة الزمنية. والتقى الماهل والحبر فى عرض أجوف جلى الوضوح من التقذدر المتيادل: وفى .نوم 6؟ علسا مغا فى مولس كتسى عام كان هذا سَيلننا من الكرادلة اجتمعوا معا للتداول فى شئون الكنيسة؛ وعلى الرغم من أن كليمينت كان رئيس هذا المجلسء فإن هذا الاجتماع بالتحديد أصبح مجرد وسيلة يتم من خلالها الهجوم عليه صراحة من جانب الملك. وكان المتحدث الرئيسى هو ويليام دى بليزان, وهو محام آخر من أتباع الملك. وسبقت حديثه صيحة المسيح يغزوء المسيح يسودء المسيح يحكم! وكانت هذه أعلى درجات استعراض القوة الإقناعية للغة الانفعالية, بادئا من أساس حقيقى غير محكم, ثم تقدم إلى وصف للانزعاج الذى أحس به الملك مما انكشف له من غمدرء وتحليل للعمل الذى أجبر على القيام به على الرغم منه. ثم انتهى فى خطابه إلى تهديد مباشر للبابا. لا يمكن لكاثوليكى صادق أن يأمل فى أن يحبذ الابتدا ع عن طريق الشك فى كلمة الملك؛ ولهذاء يا أبانا المقدس» حين يطلب ملك هذه المملكة» وكبار رجال الدين بها 2500

وياروناتها وجميع سكانها الانتهاء سريها من هذا الموضوع, سنوف يسرك القيام بذلك على وجه السرعة! وإلا سوف نضطر إلى التحدث بلفة أخرى إليك". مما يثير العجبء أن كليمينت أصقى دون أى تأثر. لقد وجد هذا الرجل الخانع ناكا ف مكان ها تبعا مهنا بق الكتفاعة فكاق المزء الر كس مر وده فى أنه صرت يتخذ إجراءات ضد فرسان الهيكل ولكن بأمانة ونضج.ء وليس باندفا ع." فرفم دى بليزان النبابيت مرة أخرىء, مشيرا إلى كليمينت على أنه متعاطف مع الهيكلء قائلا إن إبطاءه يلقى بظلال الشك على استنقامة فيليب» ومرة أخرى مستعينا بأمثلة من الكتاب المقدس بين أن الملك يستطيع أن يتصرف ياسمه إذا دعت الحاجة. بل أنه المح إلى إمكان خلم كليمينت إذا استمر فى عرقلة العدالة؛ غير أن كليمينت الذى حوله غضبه من اجتراء فيليب إلى رجل جديد, هز كتفيه بفتور وكرر قوله بأن القانون سوف يأخذ مجراه. وفيليب الملك. نصف الإله. كان يخشي القانون. وكان دائمًا يسعى حثيثا إلى إيجاد أساس قانونى نظرى يبرر به أقعاله. وعرف الآن أنه لا يملك هذا الأساس. ولم يكن هناك أى تأثير للترهيب؛ لذا حاول التوفيق. ويعد أن تنازل مسلما فبأن الإخوان يجب أن يكونوا تحت إشراف البابا, أشار إلى أن كليمينت ليست لديه الوسائل كى يحرسهم بشكل أمنء وافق على أن يتيح لممثلى البابا سهولة الوصول إلى فرسان الهيكل. فى حين يحتفظ هى بهم فى السجن. وهذا يعنى من الناحية العملية أن سيطرته عليهم لن تكون أقل إحكاما مما كانت حين ألقى القبض عليهم؛ لكن كليمينت قبل هذا الحل التوفيقي. وفى الوقت نفسه أرسل فيليب اثنين وسبعين من الإخوان إلى بواتيي - جميعهم من الرجال المنتقين بعناية ويمكن الاعتماد عليهم فى أن يكرروا ما فى جرائمهم من جسامة بالكامل أمام البابا نفسه. وحين سمع كليمينت الاعترافات, بدا أنه يصدقها . ريما يكون فيليب قد قكر أن كل شىء على ما يرام حتى الآن؛ ذلك أنه وفر للبابا وسيلة لحفظ ماء الوجه: وللتصرف دون أن يبدو واقعا تحت أى ضغط. لكن استجابة البابا لم تكن بأى حال استجابة رجل مقتنع ومعاد للابتدا ع: فبالإضافة إلى

تقصياته الأسقفية ضد فرسان الهيكل كأقراد. شكل لجنة من ثمانية للبحث
فى قضية الجماعة ككل وأعلن أن قرارا سوف يصدر فى مجلس عام فى فيين فى ١
أكتوير أى بعد عامين. فى أثناء ذلك كانت وتيرة المحاكمات بطيّئة فى إنجلترا
وأرجون. ويعد عدم تصديق جيمز المبدئي» قام باحتياط آخر. ل أن أى شىء سوف
يحدث للجماعة: فقد صمم على عدم تسليم ممتلكاتهم» وفى ديسمبر ١١١1 أرسل
بجيش كى يحتل قلعة فرسان الهيكل فى بينيسكولا. وتم الاستيلاء على المبنى دون
مقاومة» ولكن حينئذ كان الإخوان فى الأماكن الأخرى على أهبة الاستعداد. فقد أمرهم
المفتش العام التابع لأرجون يأن يظهروا كى يجيبوا عن الاتهامات الموجهة ضدهم.
ومن الطبيعى أنهم لم يظهروا؛ ويبدلا من ذلك أغلقوا على أنفسهم الحصون وأعلنوا أنهم
مستعدون للدفا ع عن شرفهم وسمعتهم بالقوة. فتمت محاصرة الحصون واحدا واحدا
وسقطت واحد واحدء عن طريق الجوع؛ أو فى إحدى المناسبات» عن طريق الخيانة؛
لكن أقلها صمد لمدة ثمانية أشهرء وأقواها صمد لمدة سبعة عشر شهراء ولم يستسلم إلا
فى مايو عام ,١١١5 حتى ذلك الوقت لم يكن تحقيق البابا قد بدأ حتى يناير ١7١١ ذلك
أن الأسقف المسئول كان فى إنجلترا فلم يتم عمل شىء حتى ديسمبر 17-17: حين
وصل المرسوم البابيوىء أونويات رعوية, والذى أمر فيه إدوارد بأن يتصرف فورا. فرد
إدوارد على مضض يأنه سوف يفعل ذلك. 'بأسرع وأفضل طريقة"؛ لكنه أخذ ما يكفيه
من وقت, ولم يبد أنه يميل إلى التعامل مع المشكلة بجدية. وتم القبض على فرسان
الهيكل الإنجليز فى يناير :77١4 بعد شهر كامل تقريبا من وصول مرسوم البابا؛
والسلطات الإنجليزية» التى كان الشك ما زال يساورهاء كما أنها متكاسلة وغير راغبة
فى أن تقبل الأوامر من الأجانب فهمت كلمة "قبض" بطريقة متباطئة متساهلة. إذ كان
من الممكن ترتيب اعتقال فرسان الهيكل بكفاءة تشبه تلك التى تعامل بها فيليب؛ لكن
ما حدث أنه تم يتسامح وإلى حد ما بشكل اعتذارى. فلم يتم الاستيلاء على ممتلكات
الهيكل. وسمح لمعظم الإخوان بأن يبقوا فى مقارهم. أما إذا كانوا بالفعل فى السجن,
كما كان معلم الهيكل. فقد سمح لهم بالاحتفاظ بملابسهم المعتادة وأوأنيهم - وحتى
أسلحتهم؛ وإن يصحبهم أخين أو ثلاثة وأن يتلقوا الأموال من أراضى الهيكل الأخرى

لتساعدهم. وفى ١7 سبتمبر وصل إلى لندن اثنان من قضاة التفتيش
الفرنسيين, وكانا على استعداد لتولي الإجراءات. ولسوء طالعهم: فإن القانون الإنجليزى
يختلف عن القانون الفرنسىء الذى أصبحت فيه محاكم التفتيش مجرد ذراع للحكومة.
أما فى إنجلترا فكانت محاكم التفتيش تعد تدخلا غير مرحب به وغير مصرح بهء
والقانون العام ينص على أن الفكرة لا يصدقها سوى محاكم التفتيش؛ - وأن المتهم
يجب أن يحاكمه محلفون يتكونون من رجال أحرار. فكان هذان الاثنان هما أول وآخر
قضاة تفتيش في إنجلتراء وذهبا فى حالة من الإحباط وخيبة الرجاء. وخلال أسبوعين
فى أكتوير ونوفمبر ١١١5 قام بالتحقيق مع 25 من فرسان الهيكل فى لندن مستخدمين
طرق القاتون العام: فلم يعترف أى من المتهمين بأى ذنب من أى نوع. وكان قصارى ما
فهلوه كى يساعدوا الفرنسيين هو الموافقة على أن قليلاً من الإخوان الأكثر بساطة
كانوا يعتقدون أن المعلم من صلاحياته التظيص من الخطاياء ولم يكن الحال كذلك.
بالمقارنة بالأجوية التى أعطيت فى المحاكم الفرنسية؛ يعد مثل هذا الاعتراف شيمًا
تافها؛ وحين تلقف المقتشان مسالة الاجتماعات السرية, مجادلين بأن أى شىء سرى لا
بد أن يكون شرا قال أحد الإخوان بازدراء إن السرية نتجت عن الحماقة فقطء وإن لا
شىء حدث فى الاجتماعات أو حفلات الاستقبال لا بليق بأن يراه أى شخص: وأن أية
اعترافات قيلت فى أى مكان آخر ما هى إلا أكاذيب. ولم تفد كثيرا تلك الشهادات التى
طلبت من شهود من الخارج من مائة وخمسين شخصًا فى أنحاء الجزر البريطانية؛ ذلك
أن أدلتهم كانت إما محض خيال أى تشير إلى أحداث مفترضة وقعت قبل عقود» أو
إشاعة منقولة حتى الشخص الثالث أو الرابع. وفى منتصف صيف ,.١175١١ لم يكن
هناك أى تقدم على الإطلاق من وجهة نظر المفتشين. إذ إنهم قالوا فى رسالة تعبر عن
الشكوى إلى كبير أساقفة كنتيربرى إنهم غير قادرين على القيام بالعمل بأسلويهم
المعهود. لقد بذلوا أقصى ما فى وسعهم, لكنهم حتى لم يجدوا واحدا يمكنه إدارة
عملية التعذيب؛ أذا سوف يعودون إلى بلادهم. وكان الاقتراح الوحيد الذى استطاعوا
تقديمه هو أن 13013

يتم شحن جميع فرسان الهيكل فى إنجلترا عبر القنال إلى بونتيى, التى
كانت أرضًا إنجليزية لكنها خاضعة للقانون القرنسى. إذ من المؤكد أن الحقيقة سوف
تخرج هناك لأنه يمكن العثور على خبير فى التعذيب دون صعوبة. إذا ما أخذت هذه
الفكرة حسب ميزاتهاء فهى فكرة منطقية, ولكن لم يتم متابعتها. أما فى فرنسا فكان
كليمينت يتزايد شعوره بالبلبلة. وفى منتصف أغسطس عام ١718 تمكن من أن يخلص
نفسه من بواتيى» وأعلن أنه سوف ينشئ محكمة بابوية جديدة دائمة فى أفيون» حتى
تسوى قضية فرسان الهيكل. كما احتفظ بحق الحكم على زعماء الجماعة بنفسه
ولتحقيق هذا اليدف أرسل ثلاثة من الكرادلة إلى شينون؛ حيث يحتجز كبار المسئولين.
وفى ما بين ١ وى 5١ أغسطس التقى الكرادلة بمدير مقر قبرص؛ ومدير مقر نورماندى»
ومدير مقر بواتيى واكيتان؛ وهيو دى بيرو؛ أمين خزنة الجماعة وزائرها؛ وجاك دى
مولى. وقبل ذلك بتسعة أشهرء ويعد تدخل كليمينت الأول» كان جميع هؤلاء الرجال
قد سحبوا اعترافاتهم السابقة. وقد لعب هذا التراجم دورا كبيرا فى قرار كليمينت
متابعة هذه المحاكمات من خلال القنوات القانونية السليمة؛ لكن الإخوان عن طريق
سحب اعترافاتهم قد وضعوا أنفسهم فى وضع غير مريح هو وضمع المبتدعين
المرتدين. فإذا ثبتت إدانتهم, من المؤكد أنهم سوف يحرقون أحياء؛ لذا فصين التقى
الكرادلة:. بالمسئولين الخمسة, عادوا جميعًا إلى اعترافاتهم الأصلية. على أحد
المستويات: كان هذا موضع ترحيب: إذ إن معناه أن يتم مصالحتهم مم الكنيسة. وعلى
مستوى آخر هذا أقلق كليمينت؛ إذ تم استباق شعوره الصى بالقانون» ويكون تناول
فيئيب الطائش للأمر بحرية قد انتصر. وعلى مستوى ثالث أصاب هذا كليمينت
بالحيرة؛ بكل بساطة. ربما كانت الاعترافات صحيحة؛ فى نهاية الأمر؛ وربما كان
الرجوع عن الاعترافات مجرد توجيه إهانات شريرة للملك الفرنسى. كان من الممكن أن
تقل درجة ما أحس به من بلبلة لو أنه عرف أن اثنين من الكرادلة كانا متعاطفين مم
فيليب وأن ثلاثة أشخاص آخرين كانوا حاضرين فى أثناء المقابلات: هم سجان فرسان
الهيكل, والمحاميان, دى نوجارىء ودى بليزيان. ذلك أن الثلاثة معا تمكنوا من تحريك
ولى فرسان الهيكل كما شاءواء بمجرد وجودهم, لأن كل منهم لعب دورا مميزا فى
عملية 204

التعذيب الجسدى والعقلى المنهك البطىء. ذلك أن السجان كان هو من
يحقق معهم يومياء ويجوعهم ويسىء معاملتهم كلما أمكن ذلك؛ وكانوا يعلمون أن دى
نوجارى هو المسئول عن تلطيخ سمعتهم بانتظام؛ ودى بليزيان؛ ريما أكثرهم شرا يبدو
أنه كان محامي الشيطان: إذ يعلن صداقته لهم ويتوسل إليهم بأن يعترفوا من أجل
خاطر الراحة الأبدية لنفوبسهم. على الرغم مما أحس به كليمينت من ارتباك فإنه كان
قد حدد طريقه وسوف يلتزم به. ذلك أنه اكتشف أن تفويضه البيرقراطى جعله يتمكن
من الاستمرار يلا نهاية فى التذبذب والمراونمة. فعن طريق الإمعان في عدم الكفاءة
تمكن بالفعل من أن يتحاشى القيام بأى شىء لمدة عام بعد تأكيد المسئولين على
اعترافاتهم. فلم تخرج رسائل بابوية حتى 4 أغسطس ١٣١١5 تستدعى جميع الشهود
للمثول أهام اللجنة؛ وان تفتتح اللجنة جلساتها حتى ؟١ نوفمبر. بل أكثر من ذلك, بدا
أنها ستكون مجرد تمشثيلية, إذ إنه من بين أعضائها الثمانية. كان هناك ستة تقريبا على
صلة مباشرة بفيليب. ومع ذلك فقد قبل كليمينت ذلك: والسبب قى هذا بسيط. ذلك أن
اهتمامه بالشرعية لم يكن قائما على رغبة فى تحقيق العدالة بقدر ما كان قائما على
الرغبة فِى حماية الحقوق البابوية من أن يتعدى عليها التاج الفرنسى: وهذا تمييز لم
يكن فرسان الهركل أنقسهم على وعى به» ومن الممكن أن يثبت أنه قاتل بالنسبة لهم
فى المنهاية. وحين افتتحت أعمال اللجنة فى ؟١١ نوفميرهء بدا أن التمثيلية الموعودة
على وشك التحقق. فعلى مدى الأيام الستة الأولى: لم يظهر شاهد واحد؛ سواء للادعاء
أو الدفاع. فاضطر أعضاء اللجنة إلى التأجيل؛ وحين اجتمعوا مرة أخرى فى الثانى
والعشرينء بدا أن أول شهود لفرسان الهيكل لم تكن لديهم أية فكرة عن سبب وجودهم
هناك. وحين أبلغوا بالسبب كان فى مقدورهم الدفاع عن الجماعة إذا شاعا ذلك ولكنهم
غمغمو! ببساطة بأتهم أناس بسطاء ولا يعرفون كيف يفعلون ذلك. واستمرت بقية
الجلسة الأولى بهذه الطريقة المؤسفة نفسها. لقد تم إحضار إجمالى ثمانية وعشرين
متهما. من بينهم هيو دى بيروء وجاك دى مولىء الذى ظهر مرتين. وقال قليل 05ذ21

يعرض القيام بذلك؛ وقال أحدهم إنه راض تمام الرضى عن الدفاع الذى
قدمه كليمينت وفيليب. أما الباقون فقد التمسوا العذر لأنفسهم على أساس أنهم "غير نبلاء ومغمورين" أو "فقراء وجهلة" ورفض كل من دى بيرو: ودى مولى قول أى شيء إلا فى حضور الياباء مع أن الآخرين كانوا يتوقعون منهم أن يقودوهم. إن بدا أن دى بيرو خائف ومضطرب. وكان 'شديد الدفشة" حين قرئت عليه اعترافاته السابقة. كان المقصود أن تكون الجلسات سرية» لكن بعض الناس أمكنهم الدخول فى أى مكان. فقد حضر المجيامى دى بليزيان ظهور دذى مولى الأول؛» وفى إحدى المراحل, طلب المعلم الاثنان فرسان" وحذره "ين يحترس فى حالة التعرض للوم أو أن يضيع نفسه دون سبب". وفى ظهوره الثانى أعلن دى مولى عن إيمانه "باله واحدء وعقيدة واحدة, وتعميد واحد» وكنيسة كثولكية واحمدة". ولكن فى هذه المرة كان معه دى نوجارى, الذى كان حضوره غير قانوني تماماء والذى زعم مع ذلك أن الجماعة عقدت معاهدات مع صلاح الدين وغيره من السلاطين وأن صلاح الدين أرجع هزيمتهم فى حطين إلى ميلهم إلى 'رذيلة اللواط» ولأنهم انتهكوا عقيدتهم وقانونهم"". لقد كانت هذه بداية سيئة للدفاع. لقد بدأت جلسة الاجنة الثانية فى ؟ فيراير من ,.١5١١ ومنذ البداية. بدت تكرارا للفشل الزريع الأول. ذلك أنه لمدة يومين لم يتم إحضار أى شهود؛ ثم مثل أمام الاجنة ستة عشر من فرسان الهيكل فى 0 فبراير» وعرض خمسة عشر مثهم القيام بالدقاع. وفى أثناء الاستراحة وحين فهم الإخوان أخيرا طبيعة الاجنة وجدوا بعضًا من روحهم القديمة. وفى نهاية مارس تطوع خمسمائة وسبع وتسعين للدفاع عن الجماعة. حدث للمرة الثانثة التحدث مع أى شخص عدا البابا. وعلى مدذدى الأسيوع التالى» ثم أختيار أربعة من الإخوان لتمثيل الجماعة. كان منهم اثنان, هما بيير دى بولونياء ورينو دى بروفان من الكهنة؛ أما الآخرانء ويليام دى شاصبونيء وبيرتراند أوند سارتيج» من
2346

الفرسان. وكانوا حميها أذكياء ومتعلمين؛ وقد يكون دى بولونيا قد تلقى بعض التدريب فى القانون فى جامعة بولونياء لأن أحاديثه أمام اللجنة كانت متأثرة بنفس أسلوب البلاغة الشديدة الذى يستخدمه دى نوجارى نفسه؛ وقد أبرز هو ودى برفانس قدرا كبيرا من المعرفة والألفة مع أحوال أى طرق الإجراءات القانونية. لقد كانت الفصاحة والتعليم هما الشيئان اللذان يخشاهما فيليب ودى نوجاريي. ذلك أن ستار الدخان الذى شكلاه من الكلام الرنان. والخدا ع, والتآمر والأعمال الخفية؛ ومخالفة القانون, لم تكن لتصمد أمام التفحص المدقق, ويمكن فضحها جميعا إذا ما هوجمت بصراحة وبشكل قانونى وصحيح. وهذا بالتحديد ما كان ينوى فعله الأربعة الذين يمثلون الجماعة؛ وفى يوم الثلاثاء / إبريل ١176١ بدء وا عملهم. 327

الفصل السادس عشر التضحية الجهنميهة فرنسا. # إبريل 14-١٨٠١ نوقمبر
١١١4 سأحكم عليك ... وأجعلك دم السخط والغيرة سفر حزقيال» الإصحاح ١١ آية /؟
لقد تليت الاتهامات بالتفصيلء وكانت الاتهامات الأصلية فى تفويض مويويسون هى أن فرسان الهيكل أنكروا المسيح ويصقوا على صورته. وأنهم كانوا يتبادلون القبلات المجافية للأدب وانهمكوا فى علاقات من الجنسية المثلية؛ وأنهم عبدوا صنما. حين وقف بيير دى بولونيا وإخوانه الثلاثة للدفاع عن أنفسهم وعن جماعتهم: لم يواجهوا ثلاث مجموعات من الاتهامات بل سبعًاء وضعت فى مائة وسبع وعشرين مادة. وكانت المجموعات السبع هى. أولاهم, والأكثر أهمية, هى إنكار المسيح. ذلك أن قارس الهيكل الجديد لدى استقباله يجبر على إنكار إيمانه بقدسية المسيح: وأن يقبل أن المسيح ليس هو المخلص, ولكنه نبى زائف صلب بسبب خطاياه. وكان على الأخ الجديد أن يدنس الصليبء إما بالبصق أو التبول عليه, أى دهسه بالقدم. وقد نبعت جميع الاتهامات الأخرى من هذا؛ وكانت المجموعة المثانية فى أن فرسان الهيكل وثنيون. وكان وثنهم عبارة عن قطة؛ أو رأس ذات قوى سمرية. ويمكن للرأس أن تجيب عن الأسئلة: وهى التى زودت فرسان الهيكل بالثروة ودمرت أعداءهم؛ وكان على كل أخ أن يرتدى حبلاً حول وسطه. قد وضع حول أو فى مواجهة هذا المعبود. وهكذا

يكون كل أخ مرتبطًا سحريا بالصنم يشارك فى قوته ويخضع لها. وغطت المجموعة الثالثة من الاتهامات جوانب مختلفة من عدم إيمان فرسان الهيكل. فبما أن المسيح ليس هو المسيح المنتظرء فإن التناول فى الكنيسة لا يعنى شيئا لدى فرسان الهيكل» ولم يقدس كهنتهم خبز التناولء (القربان) عند إقامة القداس؛ ولم يكن قداس فرسان الهيكل سوى احتفال سخيف. وتناولت المجموعة الرابعة التخليص من الذنوب؛ كان المعلم وغيره من الزعماء يستمعون إلى الاعترافات من الإخوان ويحلونهم منها. حتى دون التأهيل الكهنوتى كى يفعلوا ذلك. ثم تأتى أعمال الفسق داخل الجماعة. مثل القبلات على الأفواد. والسرة, والمعدة, والاست: والأرداف. والجنسية المثلية التى أمر الإخوة بقبولها. وسادسًا كانت مجموعة الاتهامات المتعلقة بالجشم؛ إذ كان هم الإخوان الأول فى جميع الأوقات: هو الإثراء المادى للجماعة؛ بالطرق القانونية وغير القانونية. أما المجموعة السابعة والأخيرة, فهى أن سرية الجماعة اعتيرت إجرامية ذلك أنه ليس فقط الاستقبالات والاجتماعات هى التى كانت تعقد فى حجرات محصنة, مع إغلاق وتغطية جميع الأبواب والنوافذ, ولكن أى أخ يكشف عن أسرار الهيكل كان يسجن أو يقتل. وحين تليت هذه الاتهامات؛ مفصلة فى مائة وثمان وعشرين مادة, على بيير دى بولونيا كان قد قضى فى السجن سنتين ونصف. وهو يعذب ويستجوب ويجبر على الاعتراف بكل شىء. لكنه أمام أعضاء اللجنة اليابوية, تكلم بتحد وعنف نيابة عن نفسه وعن جميع آلاف الإخوان من جماعته. وقال: "كل واحد مناء يعلن أن جمنيع هذه الاتهامات دون أى أساس. ومن غير المعقول أن يحمل أى أحد هذه الاتهامات الفاضحة على محمل الجد. صحيح أن بعض فرسان الهيكل أقروا بهاء لكن ذلك كان فقط تحت التعذيب والمعاناة... وليس هما يثير العجب أن هناك من كذيواء بل أن الأكثر إثارة للعجب هو أن من التزموا بالصصدق, كانوا يعلمون ما يعانيه من يقولون الصدق من عند وأخطار وتهديدات يوميا وياستمران . 2350

لقد كانت بداية قوية؛ واستمر بولونيا بنفس القوة, مازجًا البلاغة والدقة القانونية المباشرة فى مزيج واضح قدير وناجح. وأشار إلى أن كل ما يسمى اعترافقات قد انتزعت بالتعذيب؛ وأضاف بشكل لاذع بأنه "خارج مملكة فرنسا. لن يوجد أحد فرسان الهيكل فى أنحاء العالم يقول أو ينطق بهذه الأكاذيب» ومن هنا يتضح لمن قيلت فى فرتسا: إن من تكلموا قد شهدوا حين أفسدهم الخوفء أى الصلوات. أو المال." لذا لا يجب قبول هذه الاعترافات كادلة؛ 'وحين يتم التحقيق مع أى إخوة, لا يجب أن يحضر ويسمعهم أى أحد من غير رجال الدين؛ أو أى شخص تكون استقامته موضع شك" يمفئى أنه لا يجب السماح للسجان ومشاميى اللك يحنصور اللجتة: يما أن مجرد حضورهم يرهب الإخوان. ثم رد على التار بالثار حين هاجم من اتهموا الهيكل قائلا إنهم 'مسيحيون زائفون وهم جميعا مبتدعون ومتراجعونء: ومقسدون للكنيسة المقدسة والعقيدة المسيحية بأسرها". هؤلاء الناس كان دافعهم الطمع "وهم أشد ناشرى الفضائح من حيث عدم التقوى' وقد عثروا على فرسان هيكل مرتدين كفار, ودبروا وأعدوا معهم مجموعة من الأكاذيب خدعت حتى أكثر الملوك مسيحية: الملك فيليب. إذ لم يكن الأخ الجديد يقسم إلا أربمة أيمان كما قال دى بولونياء أيمان, بالطاعة: والعفة والفقرء والدعم المستمر للأراضى المقدسة؛ والقبلة الوحيدة التى كان يتم تبادلها "هى قبلة السلام الصادقة" - وليس أكثر من القبلة المعتادة التى يتم تيادلها بين أى سيد وتابعه. ويجب أن تحاكم اللجنة أيضًا من اتهموا الجماعة بالانحرافات الروحية والأخلاقية؛ ويطلب منهم تحديد أسس إتهاماتهم؛ وأثناء ذلك» يجب إعطاء ضمانات لجميع الإخوان الذين يرغبون فى الدفاع عن الجماعة بالأمان: لأنه حتى الآن فإن رجال الملك يهددونهم بالتعذيب والموت إذا ما جرءوا على إنكار ذنبهم. يبدو أن أعضاء اللجنة قد تأثروا بما يتمتع به بيان دى بولونيا من قوة ووضوح: لكنهم كانوا مصرين على سماع جميع جوانب القضية قبل أن يصلوا إلى قرار. بتاء على ذلك فإن الشهود الأوائل الذين سمح لهم بالمثول أمامهم كانوا شهود الادعاء: وكانوا أريعة وعشرين رجلاًء أريعة منهم ليسوا من فرسان الهيكل. ولم يطلق على أحد 351

من هؤلاء الأربعة ؤعشرين شاهدا أنه من شهود الادعاء. لكن خمسة عشر
من القرسان العشرين كانوا من بين مجموعة الاثنين وسبعين الذين اعترفوا أمام
كليمينت؛ أما الخمسة الآخرون فلم يعبروا عن أى رغبة فى الدفاع عن الجماعة؛ وكان
الأربعة من غير فرسان الهيكل مرتبطين بالملك. وكان أولهم وأبرزهم بالفعل أحد
محاميى الملك, وهو رجل يسمي رؤول دى بريسل؛ وهى فوق كل شيىء كان يتوقع
منه أن يرز تنجحا دامقة عد بُفْرَسَان الهيكل: ولكن على الرغم من أنه القن خطابا
طويلة يقصد منه إقتاع اللجنة بذنب الجصاعة, فإنه لم يشتمل على أية أدلة ملموسة
على الاطلاق. إذ لم يكن هناك سوى الإشاعة والتقولات؛ واعترف بأنه قبل الاعتقال لم
يكن قد سمع أى شيء يسىء بوضوح إلى سمعة الجماعة. والشاهد التالى الذى دققت
النجنة فى التحفيق منعه: لم يقل فى تينابة الا إلا آنه كان يشنك فى أن الجتماعة لم
تكن جيدة؛ واكتفى شهود فرسان الهيكل بمجرد تكرار الاعترافات التى أدلوا بها
لكليمينت. والتى رفضت اللجنة قبولها كادلة. بدت الأمور سيئة بالتسنية للادعاء الملكن.
إن قم يتمكن مهام وأحد من مهاميى الملك من إظهار دليل واحد حقيقي؛ ببساطة لم
يكن هناك دليل يمكن إظهاره. وأصبح من الواضح أكثر فاكثر أن قضية الملك قائمة
على الرعب والبلبلة وقد استمر فضح ببير دى بولونيا لهذا الحال يشكل مخيف لا
هوادة فيه. ذلك أنه قال فى رده على شهود الادعاء. إن الاعتقالات والمحاكمة حتى
الآنء كانت "متعجلة وعنيقة بلا تفحص, وعدائية: وغير عادلة. وغير قانونية بالكامل»
وشديدة الإيذاء, ومليئة بالخطأ الذى لا يطاق وأقصى درجات الخبس". وحين تعمق
فى وصف طرق غسيل المخ قال؛ إن صنوف التعذيب لي مورست على فرسان الهيكل
حرمتهم من 'حرية التفكير أو الرأى التى يجب أن د يتمتع بها كل إنسان طيب". إذ
دوثها يفقد الشخص كل 'معرفة وذاكرة وفهم”". وأراد 7 يعرف كيف يمكن لأى أخ أن
يرغب فى الانضمام فى الجماعة ويبقى فيها إذا كار عرض لت ار 11 وطلب نسخا
مكتوية يجميع المواد المتعلقة بالقضية؛ بالإضافة إلى وعد بأن جميع الاتهامات سوف
تكون سرية» وأن يتم عزل الشهود الذين تكلموا عمن سوف يأتون. 352

وبينما كان دى بواونيا وإخوته ينسقون الدفاع, أعلن أعضاء اللجنة أنهم
على استعداد للاستماع لكل من لديه شيء مقيد يود قوله. سواء لصالح الجماعة أى
ضدها. فقال ما يقرب من ستمائة من فرسان الهيكل إنهم يرغبون في التحدث, وما
أزدادت ثقتهم اتباعا تلمثال الذى ضربه دى بولونياء فقد اتضح أن جلسات الاستماع
سوف تستمر لوقت طويل. لقد كان كليمينت قد حدد موعد مجلس فيينء الذى
سيصدر فيه حكمه؛, فى أكتوير؛ والآن قد حل إبريل: لذا اضطر إلى تأجيل المجلس إلى
عام آخر: وهكذاء ففى نهاية إيريل عام :١٣٠6١ كان وضع قرسان الهيكل أفضل مما كان
فى أى وقت منذ أن بدأت الاعتقالات عام 1701: فأبلغ دى بولونيا إخوانه المسجونين
أن إطلاق صراحهم وتبرئتهم التامة يمكن أن تكون مسالة وقت. هذا ما كان يجب أن
يكون. غير أن المدافعين عن الهيكل فى غمرة تفاؤلهم المفاجئ» بدأو! يقللون من شأن
الملك فيليب. فبينما واصلت اللجنة البابوية تحقيقاتها فى الجماعة ككلء استمرت لجان
أسقفية فى التحقيق فى الاتهامات الموجهة ضد كل فرد من فرسان الهيكل على حدة.
من المفهوم ضسمنذا أن اللجنة البابوية أعلى من اللجان الأسقفية لكن هذا لم يذكر
بوضوح؛ وما إن تعرف محامى فيليب على هذه الثفرة من الناحية القأنونية, حتى
تققوها . وعلى بعد خمسين ميلاً جنوب شرق باريس كانت تقع بلدة أرودوسيز سسان.
وكانت لبعض الوقت دون رئيس للأساققة, وكان الملك فيليب قد تمكن من أن ينتزع
من كليمينت الحق فى تسمية رئيس أساقفة جديد. وقد أخذ وقتًا طويلاً فى تعيين
رئيس أساقفة جديد وثبت بالنسبة له أن الانتظار كان مفيدا . وفى إبريل ١٣٠١ تم
تنصيب شاب فى الثانية والعشرين من عمره رئيسًا لأساقفة سان؛ وهى رجل يدعى
فيئيب دئ مارينيىء الذى كان أخوه وزير مالية الملك. وكانت لرئاسة أسعقفية سان
سلطة على أسققية باريسء, حيث كانت تحتجز متهمى الهيكل؛ وكان رئيس الأساقفة
الجديد من رجال الملك على طول الخط. لذا ففى خلال شهر من تعيينه؛ قام فيليب
دى مارينيي بتنفيذ تعليمات الملك. ليستغل حقه القانونى فى الحكم على أفراد فرسان
الهيكل» وعقد 1353

مجلس إقليمى فى باريس بتاريخ الاثنين ١ مايى. وبشكل ماء فى آخر
لحظة؛ سمع بهذا ببير دى بولونيا. وفى يوم الأحد ٠١ مايو؛ وعلى الرغم من أن اللجنة
اليابوية لم تكن منمقدة:, بعث برجاء يائس لأعضاء اللجنة: وتوسل إليهم أن يمنعوا ال
مجلس الإقليمي. إذ كان يخشى من صدور أسوأ حكم ممكن: فإذا ما حدث هذاء
"فسوقف يكون ضضد الله واتعدالة وسوق يقلب التحقيق بالكامل؛ إذ إنه سوف يجعل
اللجنة ونشاط أعضاء اللجنة أحمق بلا معنى. لقد فهم أعضاء اللجنة ذلك لكن لم يكن
ثمة ما يمكن أن يفعلوه؛ فقالوا لدى بولونيا "نحن نحس بحزن عميق من أجلك. لكن بما
أن البابا كان قد وافق على الإجراءات أمام المجالس الإقليمية. فنحن عاجزون عن
التدخل بأية طريقة . وفى صباح الاثنين, استأئفت اللجنة جلسات الاستماع التى
تعقدها. وفى الوقت نفسه. وعلى بعد أميال قليلة» افتتح رئيس الأساقفة فيليب
مجلسه. وفى وقت مبكر من اليوم التالى. قوطهت اللجنة فجأة وهى نتباطأً فى
طريقها المتعقل: لقد أصدر رئيس الأساقفة حكمه؛ وتقرر إحراق أربعة وخمسين من
متهمى فرسان الهيكل وهم أحياء بعد ظهيرة ذلك اليوم. وبذل أعضاء اللجنة أقصى ما
يستطيعون من جهد, ولكن دون سلطة قانونية لم يكن فى مقدورهم سوى أن يطلبوا
من رئيس الأساقفة الشاب بأن يستبق حقه ويأخر القيام بأى فعل. وتم تجاهل الطلب.
ويعد ظهيرة يوم الثلاثاء شق باريس موكب من عربات تقل المحكوم عليهم بالإعدام
حاملا الأربعة وخمسين من فرسان الهيكل - من فرسانء وكهنة. ورقباء» وإخوة من
الخدم, جميعهم يرتدون الزى المميز لهم - ونقلوا إلى أحد الحقول خارج المدينة. وكان
فى انتظارهم آلات إحراق مكدسة بالقش وأوراق الشجر والخشب. وتجمع عدد كبير من
الناس للفرجة؛ إذ كانت أية عملية إعدام تشكل تسلية جيدة. وكان الجميع يعلمون أن
هذا القتل الجماعى له أهمية خاصة. وحين انتهى كل شىء؛ كتب أحد المتجمهرين»
"أتهم جميعا دون استثناء. رفضوا الاعتراف بأى من جرائمهم المزعومة, وأصروا على
القول إنهم يموتون ظلماء ... مما تسبب فى إعجاب كبير واندهاش عظيم”" وعلق
متفرج 2534

آخر باقتضاب قائلا إن مثل هذا الإصرار القاطع من شأنه أن يجعل الناس يعتقدون أن فرسان الهيكل يقولون الحق. عمومًا؛ بالنسبة للمتبقين من فرسان الهيكل كان أثر الإعدام فوريًا وحاسما. ذلك أن أملهم انهار ومعه دقاعهم. ولا يمكن إنقاذ أرواحهم إلا على حساب شرفهم؛ ولا يمكن إنقاذ شرفهم إلا على حساب أرواحهم. إذ لم يعد القانون يوفر الأمان. لذا ففى يوم عمليات الإحراق, رفض ثمان وثلاثون من الإخوان الاستمرار فى الدفاع عن الجماعة: قائلين إنهم يفضلون الاعتراف بأى ابتداع ويعيشون عيشة منحطة على أن يموتوا فى اللهب. وفى باريس تواصلت عمليات الإحراق؛ وقبل أن يمر وقت طويل ما يقرب من مائة وعشرين من فرسان الهيكل كانوا وقودا للنار. وحتى الموتى لم يكونوا فى مأمن - إذ استخرجت عظام الموتى من فرسان الهيكل وأحرقت علنا مع الإخوان الأحياء. ومحاكاة لرئيس الأساقفة فيليب» عقد رؤساء أساقفة ريم وروان مجالس إقليمية وأرسلوا أعدادا غير معروقة من الإخوان إلى حتفهم. ذلك أن رئيس أساقفة روان كان شابًا آخر - إذ لم يزد عمره عن الرابعة والعشرينء وكان عمه هو البابا كليميتت. بعد تنقيذ عمليات الإعدام الأولى بستة أيام. استبق رئيس الأساقفة فيليب اللجنة البابوية مرة أخرى. ذلك أن رينو دى بروفان, القس الثانى من ممثلى الدفاع» جاء من سانء مقر رئيس الأساقفة؛ وحسب الحق المتاح لفيليب؛ فقد دعا دى برفان كى يحقق معه المجلس الإقليمى. وحين أصبح حتى رجال الإدارة المعينون غير آمنين أصبحت اللجنة هزلية تماما. إذ أرسل أعضاء اللجنة برسالة لبقة لفيليب. مشيرين إلى هذا الوضع. فتجالها كما فعل من قبل. وتم تكرار الرسالة. بشكل أكثر قوة» فتمت استعادة دى بروفان؛ ولكن فى نفس الوقت, اختفت آثار بيير دى بولونيا. فطلب أعضاء اللجنة أن يسمح له هو أيضًا بمعاودة الظهور؛ ولكن بدلا من ذلك, تم إرسال مجموعة من أربعة وأرعين من الإخوان إليهم: وقالوا جميعا إنهم لم يعودوا يرغبون فى الدفاع عن أنفسهم أو عن الجماعة. وفقد أعضاء اللجنة أى سيطرة على الإجراءات. فاستسلموا. وفى يوم السبت ١؟ مايو, أجلوا أعمالهم لمدة خمسة أشهر. 53535

فماذا حدث لفرسان الهيكل فى السجونء أو غرف التعذيب» قى باريسء
فى أثناء الأشهر الخمسة تلك؛ هذا ما لا يعرفه أحد؛ ولكن فى يوم الثلاثاء "٠ نوفمبرء
حين اجتمع أعضاء اللجنة مرة أخرى, اكتشقوا انقلابا دراميًا شبه كامل لجميع تجاريهم
السابقة. إذ لم يكن موجودا سوى اثتين من ممى الجماعة الأربعة - هما الفارسان, ذلك
أن كلا الكافنين دى بولونياء ا قد اعترفوا بذنبهم فى أثناء الصيف, وحكم عليهم
بالسجن الدائم. لقد سجن دي بروفان حقا فى مكان ما فى باريسء أما دى بولونيا
فيقال إنه هرب. والمرء يأمل فى أن يكون ذلك صحيحاء وأن أشجع المدافعين عن
فقرسان الهيكل نال حريته أخيرا؛ ولكن هناك شك فى أن سجانيه قتلوه. ودون أخويهما
المتعلمين. فقد الفارسان المدافعان الثقة وطلبا الإعفاء من مسئوليتهما التى يتقتر
التعاملمعها فلم يدى اجد لتقل الجاع وإم يستت |عقد + الاجنة البابوية إلى أى شيء
تقريبا قى انعقاد جلستهم الشتوية ٢1-١١71 سوى صرخات مؤلة تشير الشفقة تدلي
بالاعتراقات»: من أناس أذلهم الإرهاب وشدة الألم فحولهم إلى مخلوقات غير قادرة
على مقاومة أو فهم الوحشية البشعة التى مارسها القائمون على الإساءة لسمعتهم
ومعذبيهم. ولم يقر واحد منهم بأى اتهام؛ وحاول الكثيرون نقل اللوم على زعماء
الجماعة؛ ولكن فيما بينهم اعترفوا بكل شىء: إنكار المسيح - نعمء لقد أعلثوا أن أمه
لم تكن عذراء. وأنه نبى زائفء وليس ابن الله؛ أما تدنيس الصليب - أجلء كان عليهم
أن يبصقوا عليه, ويتبولوا عليه» ويدوسوه تحت أقدامهم؛ أما عن اللواط؛ فذلك كان
شائمًا فى الجماعة, خاصة فى الأماكن التى لا توجد بها نساء؛ والوثنية أمر مؤكد. لقد
كانت الاعترافات متسقة فقط بأكثر الأشكال عمومية, وكانوا يتباينون فى التفاصيل
بقدر ما كانوا يتباينون فى الأعذار؛ لكن هذه الاعترافات حين كانت تأتي مرة تلو أخرى
من أناس يركهون وهم يبكون ويرتعدون, كى يقسموا بكل ما هو مقدس أن كلماتهم
صادقة: لم يكن فى وسع أعضاء اللجنة سوى تصديقهم. وفى 77 مايى 17١١ تم
الاستماع لآخر الشهود: فى ذلك الوقت: كان مائتان وواحد وثلاثون رجلا قد قدموا
أداتهم, من فرسان الهيكل وغير فرسان الهيكل, 356

وندد الجميع بالجماعة سوى القليلين منهم؛ على نحو لا رجعة فيه. ومع ذلك. فقى ه يونية» أعطى أعضاء اللجنة حكمهم الرسمى للملك فيليب بأنه لم يتم إثبات القضية ضد فرسان الهيكل. لكنهم يعتقدون بالفعل بأن الجماعة كانت تضم بعض الممارسات غير المحافظة, التى يجب معاقبتها؛ وكان هذا يكفى تماما بالنسبة لفيليب. ومع ذلك فإن هذه الموافقة مع التحفظ كانت غائبة فى البلدان الأخرى. ففى البرتغال ومايوركا وارجون أعلتت يراءة فرسان الهيكل؛ وحين أبلغ أحد فرسان الهيكل من مايوركا أن دى مولى قدم اعتراقا كاملا قال: إن المعلم "كذب ملء حلقه". على النقيض من ذلكء زعم أحد القساوسة من فرسان الهيكل الإنجليز أن دى مولى أجبره على إنكار المسيح عند استقباله؛ ولكن عدا هذاء واثنان أو ثلاثة اعترافات منددة أخرى» لم يظهر أى شىء آخر أكثر قوة ضد الجماعة فى إنجلترا من اكتشاف أن بعض فرسان الهيكل الأكثر بساطة خلطوا بين العفو عن خروقات الانضباط والعقو عن الخطيئة. والشىء نفسه يصدق على اسكتلاندا وأيرلندا. وكان الرأى السائد فى الجزر البريطانية هو أن فرسان الهيكل أيرياء؛ ولكن من أجل جعل البابا سعيدًا, تم التوصل إلى حل وسط. إذ أعلن فرسان الهيكل "أن سمعة الهيكل أسيئ إليها فى مواد المرسوم البابوى حتى أنهم لم يتمكنوا من تطهير أنفسهم". ويناء على ذلك؛ عقا عنهم كبار رجال الدين فى إنجلترا وتمت مصالحتهم مع الكنيسة. أما فى ألمانيا وقبرصء حيث كان يوجد المقر الرئيسى للجماعة؛ كانت السلطات أقل ديلوماسية ويرأت الإخوان بالكامل على الفور. وقد جاءعت التبرئة الألمانية يعد حادثتين مشيرتين: ففى مايى ١٣٠١ شقت مجموعة من واحد وعشرين من فرسان الهيكل طريقها إلى غرف مجلس رئيس أساقفة مينزء وكانوا مسلحين بالدروع الكاملة, ومسلحين يمعلومات بأن براءة الجماعة قد ظهرت بمعجزة'فى باريس. إذ قيل إن ملابس الإخوة الذين أحرقوا هناك والصليان الحمر لم تمسها الذار المضطرمة, وشوهدت وهى تلمع وسط اثلهب بضياء خارق للطبيعة. فبلغ التأثر برئيس الأساقفة حدًا جعله يؤجل عقد مجلسه؛ وحين أعيد افتتاحه بعد ذلك بشهرينء دافع تسع 357

وأربعون شاهدا (بينهم اثنا عشر ليسوا من فرسان الهيكل) عن الجماعة بصفة عامة وعن دى مولى بصفة خاصة:, قائلين إنه "كان مسيحيًا طيبا كما يمكن أن يكون أى مسيحي"'. غير أن التبرئة التى تلت ذلك ضايقت البابا كليمينت. ذلك أن موضوع المحاكمات كله كان قد يدأ يزحف حتى على روحه المتذبذبة. ويد يتمنى لو ينتهى هذا الأمر كلية» وكان يريد لهذه النهاية أن تعير عن أكبر قدر ممكن من الاحترام أسلطته. بناء على ذلك. ألفي الحكم الألمانى مدعيا أن القرار من حقه هو وحده؛ وفى قبرص, وجد حاكم الجزيرة» الذى كان ودودا مع الجماعة ورأى أنها بريئة» قد طعن حتى الموت ذات صباح - كانت جريمة مناسبة؛ لأن كليمينت تمكن من إعداد إعادة للمحاكمة تفير فيها الحكم الأصلى. لم يثبت الاتهام على الجماعة بشكل فورى إلا في نافار» ونابولى» اللشين يحكمهما تابعون يدوران فى فلك فيليب, وفى ولايات إيطاليا البابوية؛ ولم يستخدم التعذيب منذ البداية إلا فى هذه اليلدان. حتى فى أغسطس ١١١7: حيث لم يتبق على مجلس فيين سوى شهرين» كان البابا كليمينت ما زال يبعث بالأوامر إلى الأماكن التى برئ فيها فرسان الهيكل تبرئة لا جدال فيهاء وكان يقول فى هذه الأوامر إن هذه التبرئة قد لا تكون صحيحة: ويجب استخدام التعذيب في كل مكان لمعرفة الحقيقة. لقد افتتح المجلس المسكونى فى فيين يوم السبت ١١ أكتوير. وكان يقصد منه تمثيل جميع البلاد المسيحية الغربية؛ وتمت دعوة أكثر من اثنى عشر ملكا وعدة مئات من كيار رجال الكنيسة, من مناطق بعيدة تضم أيرلنداء وقبيرص, والمجرء والبرتغال وروسيا؛ والسويد. غير أنه لم يكن يتمقع بالشعبية منذ البداية؛ لأن الموضوعات الثلاثة التى كانت على جدول أعماله كانت مناقشة تقديم المساعدة للأراضى المقدسة. وإصلاح الكنيسة, ومحاكمات فرسان الهيكل. وكانت جميع هذه الموضوعات الثلاثة غير مستساغة وغير جذاية بالنسبة لمعظم من قدمت لهم الدعوة. لذا فى ١١ أكتوبر لم يحضر أى ملوكء مطلقا فى فيين. وحضر أقل من ثلثى رجال الكنيسة الذين كان ينتظر حضورهم. ووجد من حضروا أن فيين مدينة صغيرة قذرة» وياردة ومزدحمة, 336

وفاحشة الغلاء. كما وجدوا أن كليمينت أكثر اهتماما بكثير بالتخلص من
فرسان الهيكل من اهتمامه بإصلاح الكنيسة أو شن حرب صليبية. ذلك أن الموضوعين
الأخيرين تم تناولهما على عجل؛ ولكن حين وصلوا إلى مشكلة فرسان الهيكل؛ توقف
سير الجلسات تقريبا. إذ إن كليمينت كان قد استعار فكرة من الملك فيليب ملك فرنسا:
بنفس الطريقة التى كانت بها الطبقات العامة أو قادتها مجرد وسيلة للحكم المطلق
وليس للديمقراطية؛ كذلك لم يدع مجلس فيين لتقديم النصح لكليمينت بخصوص
فرسان الهيكلء وإنما لقبول القرارات التى توصل إليها والموافقة عليها. لو كان كليمينت
يتمتع بما تمتع به دى نوجارى من قدرة بلاغية وما تمتع به فيليب من قوة عسكرية,
من المحتمل أنهم كانوا سوف يمنحونه هذا القبول وهذه الموافقة غير أن كليمينت
كانت لديه خبرة فى أن يجبره غيره وليس فى أن يجبر هو أحدا ولم يكن شخصية
رهيبة بالنسبة لغالبية المجلس:ء بل إنه هو نفسه كان قد قرر فى ذلك الوقت» أن يتم
حل الجماعة, وأن تحتجز ممتلكاتها للكرسى المقدس والإخوة يها أمأ تتم مصالحتهم
كمبتدعين نادمين ويرسلون إلى الأديرة أو يسلموا للسلطات العلمانية الدنيوية
كنشخاص غير نادمين» فيسجنون أو يقتلون. إذ إن أمنيته الوحيدة القاهرة عبر
السنوات الأربع السابقة كانت هى الحفاظ على السلطة البابوية» وحين جاء عام ١ كان
قد تعدى مسالة الاهتمام بالتفاصيل الفنية المتعلقة بالعدالة والقانون. وكان قد جمع
كميات غزيرة من 'الأدلة' ضد الجماعةء وكان إلى جانبه فى المجلس عدة متحدثين
أقوياء, لكن الأدلة كانت مضحكة ومنحازة؛ ولا تشتمل إلا على الإشاعات والثرثرة
والنميمسة؛ مع أن مؤيديه انتقدوا أى ذكر للقيام بمناقشة سليمة باعتبارها "تافهة
وتصيب المرء يالفيظ' . فإن غالبية أعضاء المجلس لم تكن مستعدة لابتلاع مسالة حل
الجماعة بالوداعة التى كان /لبابا كليمينت يأمل فيها خاصة وأنها قد جاءت من بلدان
كان فرسان الهيكل قد يرئوا فيهاء كما هو الحال فى الكثير من الأمثلة. 359

بما أن المجلس يتعلق بهم بشكل مباشرء فقد دعى الإخوان للحضور. ولم يكن من المتوقع أن يفعل أحد منهم ذلك؛ ولم تكن الدعوة سوى إجراء لاستيفاء الشكل. ومع ذلك. فإن المقاومة داخل المجلس قويت فجأة بشكل غير متوقع فى أواخر أكتوبر - لآن مجموعة من سبعة من فرسان الهيكل ظهرت, كى تلحق بها مجموعتان فور . وقدم التسعة أنفسهم كمتهمين. وقالوا إن ما يقرب من ألفين من الإخوة الآخرين مطلقو الصراح:ء وهم على وشك الوصول. فى الواقع لا يمكن أن يكون ذلك حقيقيا؛ غير أن مجرد ظهور هؤلاء التسعة, كأشباح من الأيام الخوالى: كان شوكة فى ضمير المجلس, يذكر أعضاء المجلس بأن أى حكم يتم التوصل إليه سيؤثر فى أناس حقيقيين. لقد كانت خطايا فرسان الهيكل أكثر قليلا من مجرد أقاويل؛ وموت فرسان الهيكل. فى السجونء أو حرقا فى باريسء وغيرها كان حقيقة مؤكدة. لقد كان رد فعل كليمينت لدى المشهد المثير المتمثل فى رؤية تسعة من فرسان الهيكل أحياء طلقاء. هو حشرهم جميعا فى السجن. ثم قام بعملية تقسيم كى يسهل التحكمء وأمر أعضاء المجلس بأن يختاروا لجنة منهم إذ إن عددهم أكبر من أن يسهل التعامل معه واجتمعت اللجنة والبابا معا, للاستماع إلى تفريغ مكتوب للمحاكمات؛ ثم تم اختيار مجموعة أصغر من بين أعضا ء اللجنة كى تقوم يتقييم ها استمعوا إليه. وعلى الرغم من هذا التصغير المطرد, كان كليمينت غير قادر بعد على كسب رجال الكنيسة إلى جانيه؛ إن لم يوافق سوى أربعة على وجوب حل الجماعة دون مزيد من الإبطاءء. من هؤلاء الأريعة. كان هناك واحد إيطالىء وثلاثة فرنسيون. وحل عيد الميلاد لعام ١١□١: وولىء وجاء العام الجديد دون التوصل لأى حسم للموقف. وكتب رجل إنجليزى ملحق بديوان البابا إلى أسقف تورويتش» قائلا إن "الجزء الأكبر من رجال الدين, بل جميعهم, ما عدا خمسة أو ستة من مجلس ملك فرنساء يققون (نيابة عن فرسان الهيكل) ... وملك فرنسا قادم فى حالة من الغضب مع الكثير من الأتباع. ونحن خائفون من هذاء و... يؤمل أن ينقل البابا نفسه إلى مكان آخر. وكل 3060

كان فيليب قد حزم أمره بأن القليل من الإقناع من السلطة الزمنية ضرورى,
وكان يتقدم بجيش نحو فيين. وخابت الآمال فى أن ينقل البابا المجلس إلى موقع خارج مجال أو نطاق النفوذ الفرنسي, وفى ١٧ فبراير ١٣١٢ وصلت سفارة ملكية إلى فيين - سقارة تضم المحاميين» دى نوجارى ودى بليزيان» ورئيس موظفى القصر الملكى انجيران دى مارينيى: أخو رئيس أساقفة سان العنيف المقاتل. واجتمع السفراء والبابا مسرا لعدة أيام. وكان يحضر المجلس عدة ممثلين علمانيين من بلدان مختلفة؛ وكان الأرجونيون على وجه الخصوص متشككين بشدة فى هذه الاجتماعات السرية. وخمنوا أن السفراء الفرنسيين يجبرون كليمينت على أن يواقق على أن يتسلم الملك فيليب ممنلكات فرسان الهيكل لذاء فبعد أن غادر السفراء. بدءوا هم بدورهم الضغط من أجل مطالبات املك جيمز. لقد استطاع كليميتت أن يضع نفسه وسط مثلث غير مريح على الإطلاق - فيليب» وجيمزء والمجلس غير المتعاون - وفى صباح ٠١ مارسء قال إنه ما يزال غير قادر على تحديد ما إذا كانت الجماعة تبقى أو تحل. ولكن فى هذا اليوم نفسه.؛ فى بارقة من الفهم. استضاء طريقه؛ لأن فيليب "جلاب النور" دخل فيين بجيشه. ويعد ذلك بيومين عقد البابا اجتماعا خاصًا مع أعضاء لجنة مستشاريه؛ وفى ؟ إبريل اجتمع المجلس المسكونى بالكامل قى حالة من التجهم والصرامة. وكانت ثلاثة عروش موجودة أمام أعضاء المجلس. على العرش الموجود فى الوسط جلس البابا، وعلى جانبيه؛ وفى مستوى منخفض قليلاء جلس فيليب ملك فرنسا؛ ولويس ملك ناقارء ابن فيليب الأكبر. وكانت موعظة كليمينت جاهزة؛ ولكن قبل أن يبدأء وقف أحد القساوسة وحذر المستمعين من رجال الكنيسة من أن أية مقاطعة سوف تعاقب بحرمان أعظم من الكنيسة, لو لم يسمح بها البابا أى يطلبها. ثم تكلم كليمينت» واستمع أعضاء المجلس المكممون إلى صوت فى الأعالى» وهم مهددون من البابا وحضور الملكين. ويد كليمينت كلامه؛ "بالنظر إلى الشك وسوء السمعة, والتلميحات العالية وغير ذلك من أشياء. نسبت للجماعة: وكذلك الاستقبال السرى والخفى للاخوة فى هذه الجماعة؛ بل قوق ذلك بالنظر إلى الفضيحة الخطيرة التى 536

نتجت عن هذه الأشياء. والتى لم يبد من الممكن إيقافها ما بقيت الجماعة. والخطر الذى تتعرض له العقيدة والنفوسء والأشياء البشعة الكثيرة التى فعلها كثيرون جدا من الإخوة فى هذه الجماعة الذين انحدروا إلى خطيئة الارتداد الشريرة: وجريمة الوثنية المقيتة, وشناعة اللوطيين» ... فنحن بكل المرارة والحسرة فى القلوب, تلغى جماعة الهيكل المذكورة؛ ودستورها وزيها واسمهاء بمرسوم دائمٌم الصلاحية لا رجعة فيه؛ ونخضعها للحظر الدائم بموافقة المجلس المقدسء ونحظر على أى شخص حظرا جازمًا أن يدخل الجماعة المذكورة فى المستقبل أو يتلقى أى يرتدى زيها أو يتصرف كواحد من فرسان الهيكل . تمث المهمة. واكتشف كليمينت أنها بسيطة؛ فى نهاية الأمر.
لقد نجح بالقليل من الجمل فى القليل من الدقائق حيث أخفقت جميع جيوش المسلمين. وانمحى بكلمة قرنان من الإيمان والمشاق والمعارك والشرق والغيرة والمنافسة والأمل والجهد والاعدقاد. فى صمت استمع أعضاء المجلسء: وفى صمت غادروا المكان» وكما علق أحد الإنجليزء 'لم يواققواء ولم يعترضوا بوضوح". ويعد ذلك بوقت قصيرء حكم كليمينت بشأن التخلص من ممتلكات فرسان الهيكل. وقرر إنه؛ فيما عدا الأراضى الواقعة فى شبه جزيرة سيبيرياء التى احتجزها لنفسه. كل شىء يول إلى الإسبتاليين. من دور وحيوانات وأسلحة. لكن هذا القرار على الرغم من أنه اتخذ بسهولة كما صدر مرسوم الحل غير أنه طبق بقدر أقل من السهولة. ذلك أن جيمز ملك أرجونء وفيليب ملك فرنسا.ء والمنحدرين عن فيليب. جميعا وضعوا أعينهم على الأراضى والأموال, ومرت سنوات قيل أن يتم التوزيع أخيرا. ويقيت مع ذلك مشكلة مصير فرسان الهيكل أنفسهم. ويما أنهم كانوا إلى حد كبير أقل قيمة بكثير من ممتلكاتهم بالنسبة للجميع عداهم, فلم تكن هذه مشكلة معقدة. إن إن كليمينت احتفظ لنقسه بحق الحكم على الزعماءء ولكن جميع الإخوان الآخرين سيتم الحكم عليهم فى مجالس أسقفية إقليمية. وسوف يتلقى من اعترفوا أو من ثبتت براءتهم معاشا من ممنلكات سابقة لفرسان الهيكلء وسوف يسمح لهم بالمعيشة فى أديرة أخرىء أى فى

دور كانت مملوكة للجماعة, ولكن بأعداد صغيرة فقط؛ أما من تراجعوا فى اعترافاتهم, أو رفضوا ا على الإطلاق. سوف يعلن عن أنهم مبتدعون, وسوف يلقون المعاملة التى يستحقونها. عند هذه النقطة؛ حين تكون الاختيارات واضحة لا لبس فيهاء فمن المثير للدهشة, أنه» فى حين اتخذ الكثيرون من فرسان الهيكل المخرج السهلء واختاروا الاعتراف, والمصالحة والمعاش المذل» فإن الكثيرين وجدوا روحهم مرة أخرىء وقبلوا الموت حرقا. وحسب ما تروى الحكايات: فقد أدى أحد هذه الإعدامات الرهيبة مباشرة إلى موت ذلك الممامى الشريرء العبقرى الخبيث, ويليام دى نوجارى إذ إنه مات فى منتصف إبريل عام ١٥١٦ وقيل إنه. قبل ذلك بثمانية أيام» التقى صدفة بمجموعة من فرسان الهيكل الذين كانوا فى طريقهم كى يحرقوا. وعتدما تعرفوا عليه. صاح أحدهم: "أيها الوزير الشرير, تدير آثار أكاذيبك وظلمك! لا يمكننا أن نشكوك إلى سيدك, لأنه مع البابا آلد أعدائنا؛ لكننا نطلب منك أن تظهر بعد ثمانية أيام من اليوم أمام محكمة قاضى الأحياء والأموات". وأضاف الرواة الذين حكوا هذه الحكاية» ربما كى يضيفوا إليها مصداقية؛ أن دى نوجارى مات دون أن يهاجمه أو يضربه أحد". ولكن سواء كانت هذه القصة صحيحة أم لم تكن كذلك. فهى تعكس نسبة لا يستهان بها من الرأى العام المعاصر. لقد شعر وولتر من هيميتبوروء الرجل الإنجليزى الذى وصف مراسم الحل» أن المجلس المسكونى “لم يكن يستحق أن يسمى مجلساء بما أن البابا فعل كل شىء بسلطته". وقد عبر أحد أساتذة اللاهوت بجامعة باريس عن رأيه بصراحة وعلنا هن شتوك فئ ذئب الجماعة؛ في حين أن لاهوتيا فرنسيا آخر - من جماعة الدومينيكان, التى لم تهتم أبدًا بفرسان الهيكل - علق بعد مشاهدة الكثير من محاكمات الأفراد, بأن "المزيد من الإيمان يجب أن يلحق من أنكروا عن أولتك الذين اعترفوا” وفى فلورنسا قال جيوفاني فيلانى مباشرة إن المأساة كلها نشأت عن جشع الملك فيليب. 363

من الواضح أن فيليب قد حقق نصرا من نوع ماء لكنه عاد عليه بالقليل من الفائدة. فتنفيصه المكشوف للبابا واستبداده المتعصب أساء إلى اسمه فى أنحاء أوربا؛ وأما عن حلمه فى حكم إمبراطورية مسيحية باعتباره "الملك المحارب” فإن قرار كليمينت بنقل ممتلكات فرسان الهيكل للإسبتاليين قد عرقل ذلك بشكل أكثر فاعلية مما كان من الممكن أن يفعله دى مولى. ولكن يمكن القول إن سنوات فيليب التى اتسمت بالطغيان والتعذيب أتت أكلها فى النهاية. فجاك دى مولى. المعلم نفسه. كان لا يزال على قيد الحياة فى أحد سجون باريس» فى انتظار حكم كليمينت. وكم من مرة أخر فيها البابا اتخاذ قرار. وحين كان يتصرف فى النهاية. كان يتحايل لتحاشى المسئولية الشخصية بإرسال لجنة من الكرادلة بدلا منه. وفى ١4 مسارس 4١5□١؛ استدعى الكرادلة دى مولى كى يمثل أمامهم, مع ثلاثة زعماء كبار آخرين رئيس مقر أكيتان. جيقرى دى جونفيل؛ ورئيس مقر نورماندى» جيقرى دى شارتني؛ وأمين خزانة وزراء الهيكل فى فرنساء هيو دى بيرو. وكاندى مولى يبلغ من العمر سبعين سنة؛ أو أكثر فى ذلك الوقت؛ وكان دى بيرو أكبر قليلا؛ وكان الرجال الأريعة جميعا قد قضوا فى السجن ست سنوات ونصف. وكان دى بيرى قد قال فى الوقت الذى تمت فيه الاعتقالات إنه على استعداد لأن يفعل أى شىء ينفد بجلده. والآن واتته الفرصة: فاغتنمها. إذ أكد على اعتراف بالذتب المطلقء وتمت مصالحته مع الكنيسة يوصفه ميتدعا نادماء وأخذ بعيدا لقضاء السجن الدائم. وحذا جيفرى دى جونفيل حذوه, وقاسمه مصيره؛ عندئذء فهم جاك دى مولى وجيفرى دى شارني أخيرا خيانة البابا الذى وثقا فيه فتراجعها عن اعترافاتهما وأكدا أخيرا على براءتهما إلى الأبد: وكذلك براءة الجماعة. فسحبوا فى الأصقاد كى يلقيا موتهما الأليم البطىء. وهكذا تم تدمير جماعة الهيكل التى ماتت كما ولدت وعاشت فى الدم والغضب والتقوى. ومع ذلك لم ينته الآمر تمامًا: ذلك أن جائزة قيليب كانت ما تزال فى الطريق. حين مات دى مولىء: كانت أسرة كابى قد حكمت فرنسا على مدي 2*1 ثلاثة قرون وربع. أما بعد وفاته؛ فلم تدم أكثر من أربع عشرة سنة, وأصبح فيليب 2364

الأشقر ونسله يعرفون بالملوك الملاعين . ويقال إن صوت دى مولى سمع من داخل اللهب الذى قتله, وهو يلعن البابا كليمينت والملك فيليب وعائلته, ويتوسل إلى المسيح نفسه أن يثبت براءة الجماعة. إذا كان فرسان الهيكل قد أدينوا ظلماء فإن كليمينت يستدعى فى خلال أربعين يوما؛ وفيليب خلال سنة, أمام قضاء الله. لقد مات كليمينت فى العشرين هن إبريل» بعد موت دى مولى بثلاثة وثلاثين يوها؛ وسواء قبلنا أ لم نقبل حكاية لعنة دى مولى» تبقى مسالة موتهما؛ وعلى مدى الأربعة عشر عاما التالية» مع ترنح أسرة كابى نحو نهايتها, أصبع كل من أبناء فيليب الثلاثة ملكا ومات. ثم قسمت فرنسا صراعات طاحنة؛ ويتسلسل واضح ومباشر وضوح تسلسل أسرة كابى» أدت التشنجات التى وقعت بالمملكة إلى حرب الأعوام المائة مع إنجلترا. ويمكن للمرء أن يستنتج من ذلك ما يشاء. ويجب على من يقبلون فكرة أن البازا كليمينت معصوم., أن يقبلوا أيضا أن فرسان الهيكل مبتدعونء وأتهم أدينوا عن حق؛ وأكن عندئذ يجب على المرء أن ينسى ظروف انتخاب كليمينت وشخصيته وتأثير فيليب عليه. وينظرة مشابهة منعكسة: يمكن للمرء أن ينظر إلى فيليب باعتباره مؤسس فرنسا 0 آلامه وشجع على تطبيق حكم القانون؛ ولكن لكى يقعل المرء ذلك عليه أن ينسى الطريقة التى فوى بها القاتون» وما اتسم به حكمه من همجية. 00 هاجمهم ملك جشع؛ وحبر ضعيف بشكل مقيت. وأن ينظر إلى موت فيليب وكليمينت على أنه قصاص إلهى على خطاياهم؛ ولكن من الواضح أن حقيقة القصاص لهم غير قابلة للإثبات» أما بالنسبة لمسالة براءة فرسان الهيكلء أو ذنبهم» قليس فى وسع المرء إلا أن يقول بأنه يجب التحفظ مع أى من الحكمين. ش وفى غياب الدليل قى هذا الاتجاه أو ذاك - وفى القرن الذى نعيش فيهء والذى شهد ستالين وهيترء لا يمكن أن تعد اعتراقفات فرسان الهيكل أدلة - فإن أى تقييم للاتهامات التى سيقت ضمد الجماعة يمكن أن تصبح مجرد قائمة من الأخور 365

الممكنة والمحتهلة. فإذا ما أخذناها تحت العناوين العريضة من جنسية مثلية وابتداع ووثنية. يمكن أن يقال إن الاتهام الأول من المحتمل جدا أن يكون حقيقيا. ففى مجتمع مغلق؛ كله من الذكور؛ من المحتم تقريبا أن تظهر الجنسية المثلية حتى إذا كانت لتظهر فى الظروف العادية. وسوف يكون من قبيل إقحام المصداقية أن نزعم, أنه فى فترة ما يقرب من قرنين وبين عشرات الآلاف من الرجال الذين أقسموا قسم فرسان الهيكلء لا يوجد من مارسو) الجنس معا. ومع ذلك وفى مواجهة هذاء من غير المعقول أيضا أن نزعم أن اللواط كان شائعا عاماء أى حتى واسع الانتشار» داخل الجماعة. ذلك أن مادة فى الميثاق حددت عقويته؛ ويما أن هذه المادة تعد إضافة حديثة, وليست جزمًا من الميثاق الاصلى: فإن هذا يوحى بأن اللواط قد ظهر وأن المعلم ومجاس الإخوة الاستشارى كان رد فعلهم قويا من حيث عدم الموافقة. ولم تنبع عدم الموافقة من كراهية الجنسية الغيرية للجنسية المثلية فحسب., وإنما من الفكر العام المعاصرء وعلى همدى الزمن الذى وجد فيه فرسان الهيكلء كان اللواط يرتبط فى الأذهان الأوربية بالابتداع. حتى أن البلقار (الذين جعلهم ارتباطهم بالكنيسة اليوناتية مبتدعين) وجدوا أن اسمهم تحول إلى لوطيين. (الكلمة باللقة الإنجليزية بها شبه فى النطق: المترجم) لقد حدث تداخل بين الابتداع والجنسية المثلية فى الاستقبال غير القانوني المزعوم للاخوة الجدد - من تبادل لقبلات بذيئة؛ وإنكار المسيح؛ وتدنيس الصليب. وهذا لا يمكن اعتباره محتضلاء ولكن ينبئ السماح بإمكان حدوثه. وحتى مع ذلك؛ لا يمكن تفمبيوة يشكل قالع فلن أنه تصترف مهاد للمسيحية. إذ إنه فى أى شيء يتعلق بفرسان الهيكل, فإن الطبيعة الفريبة لجماعتهم المكونة كلية من الذكور والنصف روحية والنصف عسكرية يجب أن نتذكرء وكما أوحى فى ذلك الوقتء أن القبلات (إن كانت قد حدثت) قد لا تزيد على مزحة خشنة؛ فى حين أن الإتكار والتدتيس (لو حدثا) قد يكونا اختبارا فظا للطاعة,. 306

وبعد الاحتمال والإمكانية يأتى الافتراض - رد يمكن العمل به على الاتهام بالوثنية. ذلك أن أكشر الجوانب إثارة فى اعترافاتهم بالوثنية هو ما أحسوا به من اضطراب تام. إذ لم يوافق واحد منهم بالتفصيل الدقيق؛ ولكن باستثناء واحد - هو اعتراف أخ إيطالى قال إنه يعتقد أن الجماعة في وقت من الأوقات كانت تعبد قطة غامضة - وهم يتفقون بصفة عامة على أن الوثن المفترض كان عبارة عن رأس. ولكن بعد ذلك. من الصعب العثور على أية وحدة. فالبعض قالوا إن الرأس كانت نحاسية اللون؛ وقال البعض إنها كانت عبارة عن رأس صغيرة من الذهب, شينا أشبه بامرأة. وقال آخرون إنها كانت ذات لحية؛ وقال آخرون إن لها وجهين؛ وآخرون قالوا إن لها قدمين: إما اثنتين, أو اثنتين أمام الاثنتين الخلفيتين. وقد أعطى أحد الفرسان وصفا دقيقا للجنة البابوية حتى أن أعضاء اللجنة أمروا بعمل بحث دقيق فى فيكل باريس. فلم يتم العثور سوى على وعاء فضى للآثار الدينية على شكل رأس امرأة. تختلف اختلافا تاما عن وصف الفارسء ومن نوع يمكن أن تمتلكه أية مجموعة دينية لا شك فى استقامتها. ولا يتضم الاضطراب قي الأوصاف فحسب؛ فالكثير من الإخوان الذين قالوا إنهم يعلمون عن عبادة رأسء أو أقروا بأنهم هم أتفسهم عبدوا رأسا. بدوا فى البداية غير واثقين من أن هذه العبادة كانت ابتداعا أو ليست كذلك. ومنذ ذلك الوقت. أعطيت لهذا السؤال إجابات لا حصر لها بدرجات متقاوتة نتسم بالرومنسية الزائفة. من بينها تلك الأفكار التى تقول بأن الرأس هى الرأس المحنطة لمؤسس الجماعة هيو دى بيان؛ أو أنها تمثيل للشيطان؛ أو رأس شيطان يدعى بافومي؛ أو رأس النبى محمد. وحتي دون هذا العبث الإضافى, فإن بافوميت هذا عبارة عن تشويه للفظ محمد, وهذا الاقتراض الأخير هو أضعف الافتراضات: بما أن تصوير النبى يعد غير مقدس بالنسبة لشخص مسلم كها بالنسبة لشخص مسيحى. وتجدر ملاحظة أن المصدر الأصلى للاتهامات القائلة بأن فرسان الهيكل أصبحوا أكثر إسلاما من كونهم مسيحيين هو فريدريك الثاني؛ ويصعب اعتباره مدافعا عن السيحية. 2307

لقد ظهر مع ذلك حديثًا. قول أكثر معقولية يتعلق 'بمعبود" فرسان الهيكل.
وهو مجرد افتراضء ولكن به ميزات تفتقر إليها جميع الافتراضات الأخرى - وهى أنه بسيط؛ ويأخذ فى الحسبان جميع الحقائق المعروفة فى هذا الأمر؛ ويفسر الاضطراب الموجود فى الأوصاف والاضطراب لدى فرسان الهيكل أنفسهم. لقد وضع هذه الفكرة باقتدار وبالتفصيل آيان ويلسون فى كتابه كفن أو غطاء تورينوء وهى باختصار: كان فرسان الهيكل يمتلكون صورة رأسء وكانوا يعتقدون أن لها قوة سحرية؛ فاحتفظوا بها بأقصى درجات السرية والأمن. وقد آلت إليهم الصورة بعد دمار القسطنطينية وقد عرضت للعامة قى فرنسا بعد حل الهيكل. ولم تكن هناك جاجة لإلصاق أدنى ظل من الابتدا ع بعبادة هذه الصورة - لأنها كانت تصور رأس المسيح. بهذه الطريقة يصبح اضطراب فرسان الهيكل مفهوما: فإذا كانوا يعبدون المسيحء فلا يمكن أن يكون ذلك ايتداعا. وكذلك يتم توضميح الاضطراب فى الرسف بيساطة. ذلك أن فرسان الهيكل حين امتلكوا مثل هذه الصورة:. لا شك فى أنهم صنعوا نسخا منها على القماش أو الخشبء ومن المؤكد أن هذه النسخ تفاوتت,. حسب ههارة الفنانين: والمواد المستخدمة. ومما يضيف وزنا لهذا الرأى كله أن صورة للمسيح تعرف 'بالماندليون" قد اختقت فى دمار القسطنطينية» ولم تر بعد ذلك؛ وأنه فى إنجلترا فى قرية تمبلكومب» فى دورسيت» تم العثور على صورة مرسومة لرأس المسيح: يرجع تاريخها إلى زمن فرسان الهيكل, عام ١5١١؛ والأهم من ذلك؛ أن القماش المعروف اليوم بغطاء تورينى ظهر فى فرنسا بعد حل الهيكل؛ فى عائلة جيفرى دى شارنىء رئيس مقر الهيكل فى نورماندى والذى مات حرقًا مع جاك دي هولى. هذا الافتراض يستحق التفحص الدقيق, لأنه يترجم جوانب معقولة من الاتهامات التى كانت حتى الآن يصعب شرحها أو حملها أصلا على محمل الجد..ومع ذلك: فإن مسالة المصداقية الجادة لا نطبق فقط على الاتهام بالوثنية, وإنما تنطبق على الاتهامات ككل. ذلك أن الملك فيليب الأشقر لم يكن له أن يحتجز خمسة آلاف رجل فى السجنء ومن المؤكد أنه لم يكن ليستطيع أن يحرق المئات منهم حتى الموت, لو لم تكن

غالبية رعاياه تصدق الحقيقة الأساسية للاتهامات, ولم توافق» على الأقل»
فى ذلك الوقت على ما تلا ذلك من إعدامات. لكى يحدث رد فعل كهذا اليوم, كان من
الواجب إعداد مجموعة مختلفة تماما من الاتهامات. وأكن حين كتب ويليام دى
نوجارى تفويض موبويسونء كدبه وهو يعلم تمام العلم النظرة المعاصرة للانقلاب»
وهي نظرة لا شك فى أنه يتفق معها. ففى بداية القرن الرابع عشرء لم يكن الانقلاب
السياسى هو أسوأ أنواع الانقلاب: وإنما الانقلاب الدينى. ذلك أن قبضة الكنيسة على
فكر الناس كانت قوية جداء أكن القوة العاطفية اللاشعورية للمسيحية كانت آخذة فى
الانزلاق منذ وقت طويل. ولهذا السبب نمت جماعة الهيكل بهذه السرعة: فهى كانت
مقبولة على المستويات الاجتماعية والروحية والعاطفية فى آن ووقت معا. ولهذا
السبب أمكن تدميرها بهذه القسوة؛ لأنه حين أُظْهرَ الفرسان المقدسون, بما لهم من قوة
وثراء وكبرياء. على أنهم جهاز منظم من المسيحيين المرتدين» تم الكشف عن شيئين:
تهديد لنسيج البنية الاجتماعية, وكبش فداء يمكن لتدميره أن يحسم الصراع بين
الإيمان الواعى والردة غير الواعية. وكان هناك سبب رئيسى إضافى على صدقية
الاتهامات فى ذلك الوقت, وهو ببساطة ما اتسم به فرسان الهيكل من سرية. ذلك أن
الشك والخوف هما وليدا الخيال والجهل؛ ومنذ البداية: أثارت نفس السرية - تلك التى
لا يمكن كشف سترها عشرات من الظنون الخيالية, والأساطيرء التى لا يمكن إثباتها أو
تكذيبها باعتبارها قائمة على أحداث مجهولة. وهكذاء فإن بعض الناس يحبون أن
يعتقدوا أن قريق فرسان الهيكل الأصلى بحثوا عن خزانة ألواح ميثاق العهد ووجودها؛
وأن كريستوفر كلومبوس كان من فرسمان التهيكلء لأن فرسان الهيكل البرتغاليين
المتبقين تم استيعابهم فى جماعة ملكية عسكرية جديدة؛ وأن المسيخ نفسه كان هو
المعلم الأول للجماعة؛ وأن الجماعة مستمرة سرا اليوم. وثمة معتقدان وهميان آخران:
هما أن فقرسان الهيكل قد أدخلوا الشطرنج والمعمار القوطى فى أوربا؛ غير أن هذين
الوهمين 609ص

يمكن إثبات خطئهما بيسرء لأن المعمار القوطى كان موجودا فى إيطاليا قبل تأسيس جماعة الهيكل, أما لعب الشطرنج فكان محظورا بحكم ميثاقهم. مما يثير الأسى أن هذه المجموعة من المخلصين الذين كافحوا كى يجمعوا بين فضيلتين متضادتين للراهب والمحاربء والذين منحوا أرواحهم عن طيب خاطر من أجل عقيدتهم» يتذكرهم الناس فى الأغلب الأعم بوصفهم مصدرا للخيال والأوهام وحكايات الجنيات. ومن الأفضل والأنسب تذكر الصورة الصادقة للفرسانء والرقباء. والإخوة الخدم المتواضعينء وهم يرتدون عباءاتهم البيضاء والبنية» وهم يحيون, ويزرعون ويتاجرون» ويقاتلون ويموتون وعلى صدورهم صليب الشهادة الأحمرء وعلى رءوسهم راية المعركة. فى أرجون, فى يناير ١١1714 كتب أحد فرسان الهيكل؛ وهو رئيس أحد المقار للملك جيمز وقالء "يعلم الرب أنى أشفق عليك. أنت وملك فرنساء وجميع الكاثوليك بسبب من الضرر الذى ينشأ عن هذا كله - أكثر من إشفاقى علينا حيث إن علينا تحمل الشر . لم يكن فرسان الهيكل ملائكة أى قديسين؛ لكنهم لم يكونوا أيضًا شياطين. 100

ملحق الصور

قرسا الميكل السيطرة عطت قلعة جيل مونتفورت: القابعة على- | ١ 0 ١
جرف فى منتصف ا على الجليل : صور ويحر

ه - العالم المصغر للجماعة: قلعة الحاج؛ على نتوء عتليت. على شبه
الجزيرة المحصن هذا؛ استطاع أربعة آلاف رجل أن يعيشوا فى أمان: وما زال الدفاع
اليزى الرئيسى - السور الشرقى دوحود!: ارتفاعة تسعون قذه) وسمكهاست عشرة قدها'
1 - الأسوار والخندق المنقب عنها والخاصة بقيسارية القديمة: وهى إحدى الوصلات
البحرية الرئيسية فى شرايين الحياة للأراضى المقدسة: إنها الآن ميتة وجافة وخالية.
0

أسوار عكا البحرية. بالقرب من هذا المكان. تحمل فرسان الهيكل هزيمتهم -
الأخيرة. على يد المسلمين. وهم يقاتلون حتى آخر رجل: 3أ8

إحراق آخر معلم للهيكل جاك.دى مولى: حيا مع أخيه فى الجماعة. جيفرى
دى شارنىء وفيما بعد كشفت عائلة دى شارنى عن القماشة التى تعرف بغطاء أو كفن
تورينو - وفى قطعة القماش التى قد تكون الكنن الحقيقى لفزسان الهيكل: ٠ - فى هذا
العام:جميع فرسان الهيكل سجنوا بأمر من ملك قزنسا .... فى 7 1١ تم إلقاء القبض
على خمسة آلاف من فرسان الهيكل فى ليلة واحدة. 350

١١ قلعة جروسء فى جنوبٍ شرق فرنسا : وهى أكبر قلعة لفرسان الهيكل-
موجودة فى أوربا. وقد؛ثمت أعمال تتقيتٍ فنا حديگًا بسين الاعتقاد بان كثر فرسان
الهيكل درقد حتفنا داخل المبتى: ولم يتم العثور على أى شىء. 361

لمر # ا د عي كر + 1 ا 4 م ١١ - قرية كورتواراد؛ التى لا يسهل الؤصول :
إليها حتى فى هذه الأيام: تقع فى الصحراء القاحلة, وفى تعد مثالا رائعًا على مدينة
من العصور الوسطى محفوظة بالكامل تقريبًا. والمبتى الكبير إلى اليمين هناك توجد
قلعة فرسان الهكيلء ويجانبها كنيستهم. حين حكموا المدينة, كانت مكانًا واعدا؛
وقذابتى التحصينات جميعًا الإسيتاليون. وركة جماعة الهيكل المتحلة. ٠١ - أسوار إيج
- مورت» غير المهادنة مثل مبدعهاء القديس لويسء تبرز من مياه أهوار كامارانج
المالحة: وإلى اليسار يوجد النهر الذئ أبحر منه الملك القديس مرتين من أجل الحروب
الصليبية. 5362

صورة رسمها متعاطف من القرن التاسع عشر لبابا من القرن الرابع عشر؛ - 4
ضعيف وفافك» إئةضائكن المقداسة.-كلرميدت الكاسن, الذى دشر جماعة الفيكل.

7- فيليب الأشقرء حقيد الملك القديس: يعتقد أنه قتل مع البابا الدمية التابع له. عن طريق لعنة آخر المعلمين. 3565

١07 الرأس المحفور فى الحجارة لأحد فرسان الهيكل فى جدران | 356

ثبت المراجع 0 دتسقودن؛ إعاوص 1 سل ععكى2)0 عل امؤةي واعاساعم)
'ل وتسوعهاط ,موطام 135و ,15 ة2] رمك عاطه أ ها أقماع نيدم معتوندعورةاؤومم)
#أسمنععهط “ل كابان:142 ممطام 122 ,كاعة”! .جياعلر] وعك وورولل] عمل
س«منزهةورندمعك !1 7 اء ووعك, عوك وموعيو بوريومري .اك مهه .1 .لصيس
عيلة لزه واعفموعطه) عمسعععوووهد] +15 صط] ,أكنمة|2 21-0 2 ,رصمهلممة
.ططزن .8 عم انز لصة كهاونه12 .0 ,علعواعءقط للا .«ل .له لمدوع'[' عاءاممعطه
معدو ى-ماووار 6 ,ههلمما .ععلاعن1 .5 978 بععلتعطاصهن) .عازج 1 ءا لإه أمزم 1
م1 .11 ,ععطعودظ رو ,كاءه”1 .#موبسودء : ووعذاةضزه_) عرو تمععك وءا عيومء
معووء*! ص[.3/1 رطاعن31] هلمم [.عع معيعت عط ره عل امطوومء ل هه وج
ومعوضك] .8 .5 .1 رعكوه8 191 ,مكلكهة .معممعطا مل عل أمازابه ٥ه
عبوواطمفوتط عواماء .34 . [,لعوككيوظا .“(0ة.) د ره اراوءطك م1 :2:6 1-مه4
وموممم ا .2) ,عذنع كا ممه ل .ل< .2) رععاهمع8 1975 ,رمه لمآ «فيداى 4ه همع[
عه «برءومه)» [#رعلاء كا م1 زه عوممومط 156 .1 .8 رممعطومنموع8 .1966
مك عمع و ءذا ها وممقاوتعه”]! ههه وعممروى3 ره6. "[ركاعة ”ا مصة عدعهآ1] غعط
لمة عاعنة اناما .ضوع ومماوعوسهه2] ار - عوفويست 156 .لذ .[.ععرةلمسحظ .2
1906 ,متأكمموعة] ألا يده انتوم جاوومعء 111 تأدرومء 1 عواءتائالة وبووره(!
عصمه؟. ..] .ك3 ,عاعنط 1 -عكا نظا روبع مود احروة 1 ععل وفواءطععون عمج معو
تسطعيروع مهنا -. أداوزوماق8 ٤1 ا رج لاق نا .و نز نو[1ه .26د رفسما جاأولا عط
زه ممتطصموع12 كت وماك عمدمكة أن لعمطعريط 1896 رمملصضم] ممع ع5 لخ ل
ركع ةلا ,عع لتعطمعهنا) .متعوعاع]1 زه ومووومفع! عءمعسسه 116 .1 .1 رفمعرنظ
نمه معنا عنمط1' -- عرواوعء 1 عاطونم ا 736 .م .0]"2100 لاأعلمهآ ,أاه
بااعطمصمة » 1237 واو ,كتهه”ا .وستصوعط مل ععمتازيمء1 عمل «تعاراعصة) زم
م«اميونط . 7 رععلوعفتف صورط 0 كزه ع1 #مه عزنا علا" : «سمدعخا فمععي ره
وص قل .2 .1 لعن1116» ١ نو ,وعردعتطة)» .ممع مودت 46 .وجو ,معامه. آ]
.وممووءد] عمسيرز ى 'مموصيط .للا ,مطام» و4 زو ركاعو© طتعل بط طعمعء"1
معمز .ع1" موتعدمء/1. .م ,ومع ممم 2 ,لعأنان. [.ععموك مانلا عط سا عقآ (.لء مد
١912 357 ,رمملامن ©. 2. (1'ع.

١ ,كاعد 2 عامج اول نون خا س] .1] .مضنت عل 888 د ركاعة2١)
انبعج][عل .قو اعملا علد اممعظق 2لا بممطعيظ .م ل طعمعء :1 وعمز .ع1 (ودود
كالة) .عدو عمط ال ,كلمو عل عهعتاموة .ومو دن وقد : مك موؤزك اهزه؟. عا اه أمظ
عل موزنافطء .ن) رلعوصتط مكمه .كلماههاآ .لا .© .قلخا عواءسو؟. موعمء [
عوملفمعءصيءعه م22 .2 ركتمطت

The text on this page is estimated to be only 29.61% accurate

رقلعهة ,لمدوعنآ ب5لعة8 .نعءتاصوع 1 ممه ومركم 7 عك 1975
«ءذيوه102آ م1 (.له لصة .1) .جه ,رلموءة مآ 1923 .تدوع عه 1 إن حول
ووزعورووععمط «و/أوبإووطلط-«وامجء 1 وسًا .م ا عقون 18 6 ركلعة8 عامععوعر
صقدره10 ما عه عتمعوفطل كم عسص 22 صة .2 .[,عادوقفوار ر(معيظ امعتعونعةاا
1م - مل مسر موتعمعوة6 4/1 + 11 كه اله 77 .8 .11 3967 رمه نهآ 1929:3
,عاعه لا .ء«نؤفعطفء6 7 مز عدواومء 1 156 .[.خا يمععمكة ١95 + ,كلعد17
.عدعناضمء 1- وعك ءننآا صة .لا ,عللتجاعية 95 ركاعةا1 .عب«مناصعم 1 دعم
عيزعمعظ .[,عءاعطعزاة ب#علعوقر 6 جهنل وطدظ مم زه وصمدد +1 + بععوء
12 مهن رزؤوعوعه8ا] .يج يمو اود كا ,ضهلصصي] .ه197 رقلعة1 معصحرعظ ؟ى .2
,عءنصطدءل210 . +187 رووملمصا .لعهدد] .8 .لل .0غ] .117 إمم مروزوابا
معتووعط» .لطا ,وتموط 6 بلودعنا 1" .لدواوسس[مز ب«عاس 1 ورطوت 1 156
:130 .1 عوعاعوط 2962 رضوعءءصاء 1 .ومواعؤزمه ادها عط ره دءرعساعطة
+183 .[.1 رعنوءعم .1وا ,موقصصا .عءاءآ موزونعظ عجن م2 ورعام مه 1
عنزونم 5 116 .ن) رعمتلئعم .1974 ركاعة< 1 عدونامسء 1 عمط .8 لمموععم رعو
اطع مقع «برج وراسمدلاء! ؟. + 1 «ا معدم عع افآ ووطءعتاعوومء 2ط .1ط سدم
وماك ووبدلعاء أسومصعا وعطعز/ ء رم وو عةسد قسيد معطء فا روط عطاعدعع
,دمطء عفنام .قموا ,متاععظ .ععغراها/ءة لقال .قنني: عع لتعطاصهت) .لمملومخ]
أوسوناماة جز بمعورمموا عزوة .8 .18 رطوبط ركنوة< 1 . «معامعسعمال مك «أاها
م«صسصجظ مة .[,لعمطعنك 017 ل نأف[آنا اكز أبة) ونمو رزاعودمءءذلط أموه كا
وادعوعظ (.لمط) .1 عطعتعطة 8 895 بعاأعنة طذممل وى -1 و19 بععلتعطصه)
.عوومعومت عط زه وممنءزا 4 .5 ,ممساء صن دمهدم] مد ره معمماءموع !
عسدأفوعقءتمأورك قر هده أمعصممةط +15 .ث ركلالمو5 ١ 1925 عععكعطاء
صداب1 .وجسدممت مع ء تعلط 1 مد م عازده 1 1 3859

The text on this page is estimated to be only 27.42% accurate

الاخدطءع عط هت .كع ممعييضت) ورم ره عاءومء4- .ل .ل رقع أع 062
رموقصمنا .مسطرين 5 "ععوم , موعطن 1 2" نلوك ها وك عيتعصوء ؟. ,طعئتصار
منوطة «رعمعياه] .ل) , موعطاسطموقصمنا .«موميببص) م16 1[,ععع:, 62. "1
71 خ4و ةذ بعاعه لا بجع11 .مماومخطا “إن جرمرومط كم .11 .ج) ,رسدورواع بع
كذ. 5. ('1'.) 156 3" »1 كعهده زوه نام جه تمعز وعل ودعي #وررمءء ى مده مع
رممئلء 1 مصوقمماَ .عاء لمعه عمسيزا. بمعلءعحاق .جوبلعطل1م موجه هده مذ
«ماهم 1 عاطونص !ا 1156 .ذ ,ععلاج/3ا .1887 معوروع]1 «دعو ريده كذ «ا
ج«والاوأيدوم] مه ووويصت» ,نروعءء ل .1 .نا ,قاعم عالويا .1974 يهضمحكتته. 1
,موع عسمورر 1935 ,عع وعطاعمها/! .عددو همان إن معمحريق على نا اه
روص1012 1978 ,حنكلصمماَ .سنعيد 1 ره فبدمعوزى 1856 .1 ,711500 .
+196065-7 ,رصضتاطاد دآ .ودماءءة هأ ععوازؤعمه ل + 1 .1] ,لمن 0 زواود |
عد ووعلدى اإمرع8 عوطظا ,جه م #زمهله؟. منصة 1 صطاذ 124 مطاز كداوتا
+897 ,ممفلمصماَ .مه 237:15 .37 .ل .ع1 .ل 2آ. ام وو فس جوء م) (ومنزك-
وخر .197 رقاعه

المؤلف فى سبطور: ستيفين هوارث هو مؤرخ محترفء ومؤلف لعدة كتب.
وهو يتحدر عن أسرة من المعلمين والكتاب. وقد كان كتابه الأول عن تاريخ ماسة كو
/ياك نور. وهى زميل فى الجمعية الملكية الجفرافية. 39

المترجم فى سطور : إيراهيم محمد إبراهيم - من مواليد أكتوير .1944 -
عمل أعين مكتبة فى دار الكتب القومية منذ .)1995-1510\1/-(- عمل مترجمًا فى
عديد من الهيئات المختلفة ودور النشر منذ (141/4 - وحتى الآن) . - عضو اتحاد
كتّابٍ مصر. - من ترجماته : © الصرخة الصامتة - دار الهلال (15964). © الجمعيات
السرية - دار الشروق (1999). © حين تبكي الأفيال - الهيئة المصرية العامة للكتاب -
١ ١(؟١). © المجتمع المصرى تحت الحكم العثمانى - الهيئة المصرية العامة للكتاب -
(001؟) . © تاريخ مصر القديمة - شركة نهضة مصر - .)5١٠٠(© تاريخ الإنكا القديمة
- شركة نهضة مصر - (5. كه 1 5923

الإشراف الفنى: حسن كامل

يقدم هذا الكتاب تسجيلا كاملا لأغرب ظواهر تاريخ العصور الوسطى؛
ظاهرة "جنود المسيح الفقراء". أو "فرسان هيكل سليمان": المعروفة باسم "فرسان
الهيكل" الذين أصبحوا كنيسة داخل الكنيسة, ودولة داخل الدولة, وكانوا رجال بنوك2
ونجارا ودبلوماسيين وجامعين للضرائب. وقادوا حروبا صليبية ضد الدول الإسلامية
في الشرق. لقد اتهم "فرسان الهيكل" بالابتداع؛ والخيانة, واللواط وعبادة الاوثان
والتجديف. يلتزم هذا الكتاب بالحقائق التاريخية عند صعود هذه الجماعة دون تحريف
أو انحياز. مع عرض للأساطير التي رويت عنهم. تصميم الغلاف: ريهام رضا